AMERICAN
UNIVERSITY OF
BEIRUT



محمد صالح الدقو
تلفون ٤٢٢٩٧٧

عصر سلاطين المماليك

ونتاجه العلمي والأدبي

892.709
S163aA
v.4
pt.1
c.1

تأليف الدكتور

محمود رزق سليم

المجلد السابع

وهو القسم الأول من الجزء الرابع

في أثر البيئة المصرية في الشعر

الطبعة الأولى

١٣٨٥ هـ — ١٩٦٥ م

مُلتزم الطبع والنشر

مكتبة الآداب ومطبعتها بالجماميز ٤٢٧٧٧

دار الحمامي للطباعة
شارع الجيش - ٢ كنيسة الأرمن

مقدمة

في

التعريف بمنهج البحث، ومعنى البيئة، وأبواب الكتاب وفصوله

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

- ١ -

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على سيدنا محمد خير الخلق أجمعين. وبعد. وهذا هو المجلد السابع من موسوعتى «عصر سلاطين المماليك ونتاجه العلمى والأدبى». ويتألف منه ومن المجلد الثامن التالى، الجزء الرابع من هذه الموسوعة، الذى به ينتهى بحثنا الشامل، فى العصر المذكور.

وموضوع الجزء الرابع، بمجلديه، هو «أثر البيئة المصرية فى الشعر فى عصر المماليك». حاولت فيه — بعد دراسة البيئة المصرية من أهم نواحيها — الربط بينها وبين النتاج الشعرى فيها، لإيضاح مدى تأثيرها فى شعرائها، ومبلغ استجابة هؤلاء الشعراء لوحيها.

وفى المجلدات السابقة طرقت بحوثا شتى وأبوابا متنوعة، كانت دراسات لهذه البيئة. وفى الجزء الرابع الذى أقدم الآن قسمه الأول إلى القراء — أعنى المجلد السابع — أزيد الأمر وضوحا بدراسات وجيزة لنواحى البيئة، ثم أبسط القول فى نتاجها الشعرى.

وقد يرى القارىء تغيرا فى منهج البحث فى هذا الجزء، يميزه عن الأجزاء السابقة، وفى الحق كان لكل جزء من الأجزاء الأربعة منهج، لعله يتفق مع طبيعة موضوعه، ويعين على حسن تناوله.

ومنهجى فى الجزء الرابع - وهو المنهج الذى أشرت إليه - وهو ربط البيئة بشعرها، أو ربط الشعر ببيئته، دفعنى إلى انتهاجه ما استبد بخاطرى من ضرورة

العمل لاستجلاء الشخصية المصرية أو بعض جوانبها ، وبخاصة فى عصر سلاطين المماليك . لمعرفة مدى يقظة الشعب فيه نفسياً وعقلياً .

وكانت منذ حين ، قد برزت « النظرية الإقليمية » ، وأثارت جدلا ومناقشة ، وتعصب لها بعض الرواد تعصباً كاملا ، ورأى ضرورة دراسة الأدب بعامة ، والأدب المصرى بخاصة ، على أساسها وحدها . وذلك لقدرتها على إبراز معالم الأدب وإيضاح خصائصه وربطه بأسبابه البيئية ، وكذلك لقدرتها على إبراز معالم الشخصية التى أنتجته ، إلى غير ذلك من الأسباب .

وتأثرت البحوث الأدبية — ولا ريب — بما أثير حول هذه النظرية . واتجه بعضها إلى دراسة الأدب على أساس ربطه بمسبباته البيئية .

وهذا البحث الذى أقدمه ، فى الجزء الرابع بمجلديه ، وإن كان دراسة تفصيلية لشعر مصر فى عصر المماليك . يقوم على أساس هذا الربط وحده . ولكن توسلا إلى هدف أسمى وأهم . وهو الوقوف على مدى يقظة شعب مصر فى العصر المذكور — كما أشرت .

وإذا كان اشتراك شعب من الشعوب . فى فتح أو غزو أو دفع عدو . أو كان اشتغاله أو صناعة أو تجارة . يدل فيما يدل عليه ، على مستوى الحياة التى يحياها ، وعلى نوعها ، وعلى مدى اليقظة الإنسانية التى يتمتع بها ، فإن نشاطه الأدبى ، وبخاصة فى ميدان الشعر . يدل على هذا المستوى وهذه اليقظة دلالة أوسع وأعمق وأصل . إذ أن الشعر رجع الحياة العاطفية الوجدانية — فى أغلب أمره . وهو أقوى اتصالا بأعمق المشاعر الإنسانية وأمتع الأحاسيس النفسية . والحياة العاطفية الوجدانية للإنسان هى الحياة الحقيقية التى يحياها . والشعراء ، فى جملتهم ، من الشعب وإلى الشعب . ومن ثم كان الشعر فى أكثر أمره ، من أصدق الأدلة على مدى اليقظة الحقيقية للشعب .

لهذا اتجهت إلى دراسة الشعر فى مصر ، فى عصر المماليك ، مع ربطه بأسبابه البيئية ، لأتبين مدى اتصاله بها ، ومدى استجابته لها وتعبيره عنها ، وتسجيله

لأحداثها المادية والمعنوية . ومن هنا أتبين مدى اليقظة الفكرية والعاطفية التى كان يحياها الشعب المصرى حينذاك . فأحكم له أو عليه .

ودراسة الشعر على أساس ربطه بأسبابه البيئية ، تعين على كشف تهمة التقليد والمحاكاة، ومعرفة مدى صدقها . إذ أنها تبرز بوضوح لا يعتريه غموض ، وبصدق لا يعتوره شك ، حالة الشعراء ، وهم يترجمون عن بيئتهم ، أكانوا صادقين فى شعورهم وخواطرهم نحوها ، متأثرين حقاً بأحداثها، أم كانوا يستعيرون تجارب الآخرين ، ويتقمصون عواطفهم .

وإذا اتجهنا فى هذا البحث نحو البيئة ، فدرسناها فى شىء من التفصيل ، وعقبنا على ذلك بعرض شعرها مع الربط والتعليل ، وظفرنا من وراء هذا المنهج بنتائج محمودة ، لا نقول إن الشعر والأدب ثمرة لعوامل البيئة وحدها ، فإن ثمة عوامل أخرى قد يكون لها أثر كبير فى توجيه الشعر والأدب ، والوصول بهما إلى مستواهما ، وذلك كالمواهب الفردية والدراسات الأجنبية غير الوافدة .

وعلى هذا نفترق عن نظرية « الإقليمية » بعض الافتراق . فإنها تقصر عوامل الأدب على العوامل المحلية دون سواها ، وترد إليها كل مظاهره ، وتتجاهل مواهب الفرد ، وتوسع فى مجال الموازنة ، مصرة على أن تميز محلة عن أخرى .

ونحن لا نتعصب لمنهج بعينه . ولكننا نشعر أن دراسة البيئة والكشف عن أحداثها وعواملها ومؤثراتها المختلفة ، والبحث عن مدى أثرها فى شعر شعرائها ، وعن مبلغ استجابة هـذا الشعر لوحيها ، توصلا إلى فهم شخصية الشعب وخصائصها ، فى إحدى حقبه ، وفهم مستواه من الحياة الصحيحة ، نشعر أن هذه الدراسة مجدية مثمرة . تؤدى إلى أفضل النتائج وأدقها وأصدقها .

وقد تنبه القدماء إلى أهمية البيئة ، باعتبارها المؤثر فى حياة الأدب . فابن سلام الجمحى ـ مثلا ـ فى طبقاته يقسم الشعراء ـ غالباً ـ بحسب الفوارق الإقليمية ،

فيجعل ـ مثلا ـ شعراء المدينة طبقة ، وشعراء مكة طبقة ، وشعراء الطائف طبقة وهكذا ـ والقاضى أبو الحسن الجرجانى فى وساطته يشير إلى أثر البيئة والموطن بجوار الطباع والخلق ، فى الشعر لفظا وأسلوبا ـ وابن رشيق فى عمدته ، يرى من حق أهل البادية أن يذكروا الرحيل والماء والجمل والصحراء . . الخ . ومن حق أهل الحاضرة أن يتحدثوا عن الصد والهجران والشراب والندمان والقصور الغناء .. الخ[1] .

وفى العصر الحديث دعا المرحوم الدكتور محمد حسين هيكل إلى ضرورة دراسة الأدب المصرى مستقلا عن غيره[2]. ولهج الدكتور طه حسين بضرورة دراسة البيئات المختلفة ، مستقلة كل بيئة عن الأخرى ، دون نظر إلى التبعية السياسية ، توصلا لفهم شخصياتها الأدبية ، ويرى أن الفرد من آثار أمته [3] . ـ وتتركز النظرية الإقليمية أخيراً لدى الأستاذ أمين الخولى ، ويتعصب لها ، ويرى وجوب اتباعها وحدها منهجاً فى الدراسات الأدبية ، إذا أردنا الكشف عن خصائص الأدب [4] .

وأعتقد أن الدعوة إلى دراسة الأدب ـ ومنه الشعر ـ على أساس الإقليمية أو البيئة ، والربط بينها ، وجدت استجابة كبيرة وقبولا حسنا لدى جمهور الباحثين المحدثين فقد اتسمت بحوث كثير منهم بالاتجاه إليها واصطناعها ، اصطناعا جزئيا أو كليا . وفى مدى ضيق أو متسع . بحسب مقتضيات ظروفهم . ومنهم من اتجه إلى دراسة الأدب المصرى ومنهم من اتجه إلى دراسة غيره .

---

(١) راجع كتاب « مناهج الدراسة الأدبية » للدكتور شكرى فيصل ص ١٠٦ وما بعدها ـ وطبقات ابن سلام مقدمة وص ١٩٥ ، ٢١٧ ، ٢٢٩ ، والوساطة للجرجانى ص ١٨ تحت عنوان « أثر التحضر فى الشعر » : ـ والعمدة لابن شيق ص ج ا تحت عنوان « باب المبدأ والخروج والنهاية » .

(٢) راجع كتابه « ثورة الأدب » .

(٣) راجع كتابه الأدب الجاهلى ومقدمته .

(٤) راجع كتابه وإلى الأدب المصرى .

ومن هؤلاء الأستاذ عمر الدسوقى فى كتابيه « الأدب الحديث » . و « النابغة الذبيانى والدكتور سيد نوفل فى كتابه « شعر الطبيعة فى الأدب العربى » . والمرحوم الدكتور محمد كامل حسين فى كتابيه « أدبنا العربى فى عصر الولاة » و « أدب مصر الفاطمية » . والدكتورة نعمات أحمد فؤادفى كتابها « النيل فى الأدب المصرى » . والدكتور زكى المحاسنى فى كتابه « شعر الحرب فى أدب العرب فى العصر الأموى والعباسى » . والدكتور أحمد الحوفى فى كتابيه « أغانى الطبيعة فى الشعر الجاهلى » و « الحياة العربية فى الشعر الجاهلى » . والدكتور محمد مصطفى هدارة فى كتابه « اتجاهات الشعر العربى فى القرن الثانى الهجرى » . والأستاذ الجليل أحمد الشايب فى كتابه « تاريخ الشعر السياسى إلى منتصف القرن الثانى » . والدكتور شوقى ضيف فى كتابه « الفن ومذاهبه فى الشعر العربى » . والمرحوم الأستاذ عباس العقاد فى كتابه « شعراء مصر وبيئاتهم فى الجيل الماضى » .

- ٢ -

البيئـــة :

ونعنى بالبيئة بعامة ، وطن المرء الذى يولد فيه ، وينتسب إليه ويدرج بين ربوعه ، ويعيش فى جوه وفوق أرضه وتحت سمائه وبين أهله . فتتفتح عينه على مرائيه ، ويتنبه خاطره على أحداثه . وينطلق لسانه فيتكلم بلغته . ويرى فى قومه عادات فيعتادها من صغره . وتقاليد فيتبعها منذ نعومة أظفاره ، وتعاليم فيسترشد بها ، ودينا فيعتنقه ، وقيما خلقية فيتمسك بها .

ويشب بين أفراد أسرته ، وبين بنى وطنه ، فتربطه بهم مشاعر كريمة ، تتأصل جذورها فى أعماق نفسه ، وتصله بهم صلات يكونها الإلف والمصلحة المشتركة ، والشعور بضرورة تبادل الحماية ، وبحتمية التعاون ، وبالتجانس النامى فى طيات نفسه ولفائف شعوره .

وهم لا ينفكون عنه ، وهو لا ينفك عنهم ، يجلس فى مجالسهم ، ويمشى فى أسواقهم ، ويطعم من طعامهم ، ويشرب من شرابهم ، ويتزيا بأزيائهم . ويتلهى

بملاهيهم . وينال قسطه من الرزق بين أيديهم . وحظه من الثقافة والتجربة فى معاهدهم ، بمقدار ما تتيحه له ظروفه وظروفهم ، وبمقدار ما يسنح لهم من الثقافة المحلية أو الوافدة .

وهكذا ينشأ المرء فى هذا الوطن ، الذى فيه ولد أو نما أو جرب ، وتعلم واختبر ، ولاحظ وأفاد ، ورزق وعمل ، وشارك ونافس ومعارفه الأولى منه ، ومشاعره الأصيلة عنه .

هذا الوطن أو المنشأ . هو الذى نعنيه بالبيئة الكبرى . وهو — كما ترى — مجتمع ألوان من الحياة ، ومشتبك أنواع من المقومات الإنسانية ، كبيرة العدد ، ذات أثر بالغ فى حياة المرء ونفسيته . وفى تفكيره وشخصيته ، وفى سلوكه ونتاجه .

ومن هنا تنشأ أهمية هذه البيئة بالنسبة للفرد فهى ذات أثر فعال فى تكوين خلقه وتوجيه أفعاله وإنشاء عادته ، ورسم طريق تفكيره . وهذه أمور تعيش وراء النتاج الأدبى الصحيح ، وهى دعائمه الأولى وحوافزه الكامنة .

ومن هنا أيضا تنشأ أهميتها بالنسبة لحياة الجماعة البشرية كلها ، التى تعيش مع هذا الفرد فى وطنه . فإن آثارها فيه وفيها ، آثار مشتركة غالبا . وتدل فى نتائجها — عادة — على روح هذه الجماعة دون غيرها ، وتتكلم عن إرادتها دون سواها .

ودراسة مجموع نتاج أفراد هذه الجماعة ، فى الأدب مثلا . تؤدى إلى فهم روحها وإرادتها ، ومن ثم إلى معرفة شخصيتها وإلى تقديرها . وهذه المعرفة من أهم أهداف البحوث الأدبية .

والفرد — إلا ما شذ — هو فى جملة سلوكه واحد من هذه الجماعة التى يعيش فيها ، وشريك لها — غالبا — فى أحاسيسها وفى عواطفها وتفكيرها وأهدافها . وبذلك فهو يدل بجملة سلوكه عليها ، ويشير بنتاجه إليها نتيجة للمشاركة الوجدانية

الضرورية ، التى تدفع إلى سرعة الاستجابة بحافز من المتابعة الغريزية ، ونتيجة أيضاً لشعور الفرد بأنه عضو فى هذه الجماعة التى ينتمى إليها(١) .

وتتشعب عوامل البيئة المؤثرة فى الإنسان - الشاعر مثلا - والموجهة له ، تشعباً كبيراً فمنها طبيعة بلاده ، وأحداث السياسة ووقائع التاريخ فيها ، والديانات المنتشرة بها ، وأحوالها الاقتصادية التى تتحكم فيها ، والألوان الثقافية التى تتلقاها ، والمستوى الحضارى الذى بلغته ، إلى غير ذلك .

ولما كان من العسير . الإلمام الشامل بجميع هذه العوامل والمؤثرات ، وبيان عملها وآثارها فى اتجاه الشعراء . وتفصيل النتاج الشعرى المستجيب لهذا الاتجاه ، قصرنا الدراسة على أربعة عوامل بيئية رئيسية ، نعتقد أنها جماع العوامل كلها . وهى العامل الطبيعى ، والسياسى ، والثقافى ، والإجتماعى ، وتوسعنا فى مفهوم « العامل » . واعتبرناه « بيئة » مستقلة . ولهذا تحدثنا عن البيئة الطبيعية فالسياسية فالثقافية فالاجتماعية .

والبيئة الطبيعية :

نعنى بها ما يتصل بموطن الشاعر من شكل أرضه ومناخه وموقعه . أرضه ومافيها من علو أو انخفاض وجبل وسهل وصحراء وماء ، وخصب وجدب ، وزرع وضرع . ومناخه وماله من تطرف أو اعتدال ، ورطوبة أو جفاف ، وريح ونسيم ، وما يعرض فيه من صفاء وعبوسة ، ومن رعد وبرق ، ومن سحاب ومطر . وموقعه ومدى صلته بمواقع غيره من الأوطان . وماله من أهميته فى التجارة أو الحرب مثلا ، ومايحف به من بحار أو بحيرات ، وما يحده من جبال أو أنهار أو صحراوات إلى غير ذلك .

---

(١) راجع كتاب « كيف يعمل العقل » لسرل برت تعريب الأستاذ محمد خلف الله ١٥٥ ، ١٥٧ ، ١٥٨ .

وهذه البيئة الطبيعية وما يتصل بها من الموقع الجغرافى ، كانت ، وما تزال ، صاحبة التكييف الأول المبكر لنفسية الأديب وطريقة تفكيره وتفسيره للحياة من حوله ، وحله لمعضلاتها ، لأن الأديب قصاراه — ولا سيما قبل أن يتعمق فى الثقافة — أن يعرف حقائق الكون من أجزاء بيئته التى يتنفس فيها ، ومن محتوياتها . وتتأثر نفسه بعواملها البارزة لحواسه . كما تتربى عاطفته وتثور ، وتتكون عاداته وأخلاقه ، لأول مرة ، فى أحضان هذه البيئة ، نتيجة لما تخلفه فيه مظاهرها ، وتبعثه فى أعماقه وباطنه . وهذه أهم دعائم أدبه وحوافزه . ومن هنا كان للبيئة الطبيعية آثار قوية مبكرة فى تكوين خصائص أدبه .

ومع اعترافنا بأن البيئة الطبيعية ليست وحدها صاحبة جميع الآثار المكونة لأمزجه شعوبها وطبائعهم ، نذكر على سبيل المثال ـ أن حياة الصحراء الشاسعة الواسعة . التى لاتحجب الأبصار فيها هضاب ولا مرتفعات . وتتراءى سماؤها صحوا صافية . تتألق نجومها وتتلألأ كواكبها . ويحابه فيها ساكنها وجه الطبيعة مكشوفا واضحاً فسيحاً . تبعث فكره حراً . وتنطق لسانه طلقا . وتعوده الشجاعة والصبر لما فيها من المشاق . وتحبب إليه الكرم لما يعتورها من الجدب .

والبيئة الزراعية الغنية بنباتها الزاهر وزرعها المثمر وشجرها الظليل . تدعو إلى القناعة والتسامح . وفيها تصفو النفوس وتتضح الضمائر . ويزيد الإيثار . وهى ترغب فى الإيواء والمعونة . وتعود الرضا والمواددة والاتكال . بل ربما أماتت فى بعض النفوس حوافز الكفاح[1] .

وحياة البلاد الجبلية التى تحدفيها الأبصار . وتحسر الأنظار . وتتعرج الممرات ، وتضيق الطرقات ، ويكثر الوعر . ويشق السير ، تدعو إلى اليقظة والحذر . وإلى

---

(١) راجع « النابغة الذبيانى » الدسوقى للأستاذ عمر ، مقال ٢ تحت عنوان « الصحراء » .

الحيلة والترقب . وتدفع إلى التوجس والالتواء والغموض ، وقلة الكلام وكثرة العمل .

وهكذا ترى أن البيئة الطبيعية ذات آثار هامة فى تكوين أمزجة الشعوب وطبائعها - وإن لم تكن وحدها - وبذلك يختلف شعب عن غيره ، ويفترق قوم عن قوم آخرين . وبذلك أيضا يختلف أدب عن أدب .

ويقول « سرل برت » ، بعد أن تحدث عن الفوارق بين الشعوب بسبب اختلاف الجنس :

« إذا أردنا فروقا بينة بين قوم وآخرين ، فلنبحث عنها فى الطبع والمزاج . وهنا لا نجد مقاييس عملية نستعين بها ولكننا نعتمد على الملاحظة وما تكونه من فكرة عامة . وهما دليلان غير مأمونين . وعلى هذا فلنرجع إلى ثلاثة الأجناس الأوربية العظيمة .

إن السائح الإنجليزى لتبدو له هذه الفروق المزاجية واضحة رائعة . فأولئك الأجناس الجنوبيون ذو الشعر الأسود ، قوم سريعو التأثر ، محبون للاجتماع كثير الكلام . قليلو التريث ، مندفعون ، يفيضون حركة وحسن بديهة . وهم — بدورهم — إذا وصلوا إلى انجلترا ، قالوا إنه يخيل إليهم أنهم أتوا إلى شعب من التماثيل الشمعية . فالشمالى ذو الشعر الأصهب يبدو لهم مخلوقا أبكم بلغمى المزاج مستقلا متحفظا . والمادح الراضى — بالطبع — يصفنا بأننا رجال عمل أقوياء صامتون إلى حد ما . فإذا ما استثيرت نفوسنا ، صدرت عنا أعمال قوية عظيمة .

وإذا عبرنا عن هذه التفرقة فى لغة علماء النفس الحديثين ، قلنا إن الجنوبى منبسط ، والشمال منطو أو منقبض . فالأول يظهر ما بباطنه ، ميالا للتفتح سريع الإجابة للعالم الخارجى . والثانى يكبت انفعالاته ويبدو مشغولا بنفسه ، مركزا تفكيره فيها »[1] .

---

(١) راجع كيف يعمل العقل « لسرل برت » تعريب الأستاذ محمد خلف الله ص ١٦٥ ، ١٦٦ .

ويوضح سرل برت حديثه أيضا ببيان صدى هذه الأمزجة أو الطبائع ، فى النتاج الفنى ، فيقول :

« وفنون الرسم والبناء والشعر والموسيقا ، تميل - فى كلتا وإيطاليا وفرنسا - نحو النوع الكلاسيكى . أما فى ألمانيا وانجلترا ، فتغلب على هذه الفنون الناحية الرومانسية . ففنون المجموعة الأولى شكلية عقلية ذات تقاليد ، تعبر عن نفسها فى وضوح واتزان وهدوء . أما الثانية فجامحة غير متزنة ، تقوم على التأمل الباطنى ، وتتدفق فى ثورة ومبالغة ، وفن الأولى فن عام . فن قوم يعبرون عن شعورهم لغيرهم فى طلاقة وصراحة . أما فن الثانية فخاص فروى متصوف متمرد — وأحيانا فى غير نظام — على القيود الاجتماعية وفن إيطاليا صاف مشمس كمناخها . ولكن فن الشمال مثل جو الشمال ، معتم متقلب . والواقع أن الكثيرين يعتقدون أن جو الممالك المختلفة ومناخها ، مسئول عن أمزجتها وطباعها »[١] .

ويذكر سرل برت . أن «بكل» فى كتابه « تاريخ الحضارة » أرجع الفروق بين الأجناس إلى البيئة الطبيعية . ويرى أن الأسكتلنديين أشداء نشيطون ، لأنهم يعيشون فى الجبال ، وأن الزنوج كسالى مبذرون ، لأنهم يسكنون المناطق الحارة الوفيرة الخيرات .[٢]

ولا نغلو إذا قلنا إن الأديب والشاعر . معجمه الأول بما فيه من مفردات وتراكيب ، وما يحمله من تصورات وأخيلة وتشبيهات . وما يدور حوله من موضوعات «منتزع من هذه البيئة ، وضرب من ضروب وحيها . وإن أدبه المبكر انعكاس لمفردات بيئته وأساليبها وموضوعاتها كما بدت فى مرآة نفسه . نعتقد أن هذه مسائل احتلت مكانها من البدهيات .

---

(١) المصدر السابق ص ١٦٦ ، ١٦٧ . (٢) المصدر السابق ص ١٧٠ .

وإنك لترى — مثلا — ساكن الصحراء يكثر فى حديثه — أو أدبه — من ذكر البيد والرمال والحرار والقفار والحصى والسماء والنجوم والأسود والذئاب والإبل والخيل والماشية ، والرحيل والخيام والأطناب ... إلى غير ذلك وتشغله موضوعاتها وينتزع ،تشبيهاته وأخيلته من صفاتها وحركاتها وأعمالها .

وعلى هـذا الغرار ، ترى ساكن الشواطىء يكثر من ذكر البحار والأمواج والاصطخاب والسفائن والأسماك والصيد والشباك وساكن الحقل تدور فى أحاديثه الساقية والناعورة ، ويجرى الماء والرى والنهر والجدول والغدير ، ويبدو النبت والشجر والورق والثمر . . . إلخ .

والبيئة السياسية :

هى ما يكتنف الوطن من عوامل السياسة الداخلية والخارجية ، وارتباطاته بغيره من الأوطان . وما يتصل بذلك كله من أحداث ووقائع وأخبار وصلات. ترمى كلها نحو تقرير أحوال الوطن فى حاضره وفى مستقبله ، وإلى تحقيق أهدافه فيها من ناحية حكمه وعلاقاته بغيره .

ولـكل وطن فى داخل أسواره نظم للحكم قائمة ، وأشكال وأوضاع رئيسية مقررة ، تتناول هيئة الحـكومة التى تشكل عليها وعلاقاتها بالشعب . سواء أكانت مكتوبة مسطورة ، أم جرى بها العرف و حفظتها التقاليد .

وهذه النظم والأوضاع ، هى مناط النظر السياسى فى داخل الوطن ، ومجال الرأى والتدبر بين أبنائه . وقد ينجم الخلاف ويشتد الجدل حول طوائف الشعب بعضها وبعض ، أو بينها وبين حكامها المتملـكين زمام الأمور فيها . وقد يفترقون فرقاً تتنافس ويناهض بعضها بعضاً . ويندفع كل منهم بحسب نيته وطويته ، ويسعى إلى هدفه ، سواء أكان هـذا الهدف هو وصوله إلى الحـكم والقبض على ناصية الأمور ، ليصرفها بحسب رأيه وهواه ، أم كان رغبة فى إقرار نظام معين.

وقد يصل الأمر بينهم إلى الكيد والائتمار ، وإلى بذل الحيلة وجمع الأتباع واصطناع الأنصار وإلى التأويل والافتراء . بل وإلى شن الحروب الأهلية .

وقد يسالم الشعب ويهادن حكامه . وقد يستسلم ويضعف ويكبت ويسكت . ويترك الأمور فى يد حاكم ظالم أو ملك مستبد . أو متغلب غشوم ، يستأثر دونه بالرأى والقوة والمال والجاه ، ويصطنع معه من مفاليك الأتباع من يسلطهم على الشعب بسياطه ، ولا تعنيه إقامة عدل ولا دفع مظلمة ، ولا بناء مرفق ، ولا سعى تقدم ولا نشر لرخاء ، ولا جمع لكلمة . ولا إحقاق لحق .

وقد لايسالم الشعب ولا يهادن بل يتكتل أمام الخطر الجاثم فى داخل الوطن ، والرابض فوق قلبه لايريم ، لايدعه يتنفس . فيتلاءم أبناؤه ، ويتعاون رجاله ، وتتآلف صفوفه ، ويقفز من بينهم من يرشحه القدر إلى مكان القيادة . فيجمع الكلمة ويوحد الصف ويقوى الجبهة . ويقود الكتيبة . ليصل إلى الهدف .

ولكل وطن أيضاً أهداف سياسية خارج حدوده . تتناول فيما تتناوله . صلة الوطن بغيره من الأوطان قريبها وبعيدها ولإقرار هذه الصلات . توفد الوفود ويرسل القصاد والسفراء . وتبعث الرسائل . وتهدى الهدايا . وتقدم المعونات . وتقام المؤتمرات . للوصول إلى الأهداف أيضاً .

وترتبط هذه الأهداف بمشيئة الشعب أو بمشيئة حكامه . وتحرك هى ، أو تحركها ، رغبة فى فتح وغزو ، أو رحلة إلى كشف وإصلاح ، أو سعى إلى تأديب وردع ، أو نهوض إلى دفع عدو ودرء خطر ، أو مكافحة لمستعمر وطامع ، أو استجابة لنداء صديق أو استغاثة حليف .

لذلك كله ، تدبر الأموال ، وتفرض الضرائب ، ويجمع السلاح ، وتخزن الذخيرة . ويعلم الجند . وتكتب الكتائب . وتجيش الجيوش . وتدبر الخطط . ويبذل الرأى . وتعمل الحيلة ، وتشن الحروب الخارجية .

وترتبط السياسة الخارجية للوطن ، بسياسته الداخلية ارتباطا وثيقاً . وكل منهما ذات أثر بعيد فى الأخرى .

فى هذا المدار وما يتصل به ، يعيش الشاعر ، فيتصل إحساسه بما يجرى فيه. وما هو إلا أحد أفراد مجتمعه ، وهو عضو من أعضائه ، يحيا معه وسط أحداثه السياسية ، ويصيبه منها عادة ما يصيب سواه . ولابد أن يكون لذلك صداه فى شعره . فيسجل أو يصف أو يحرض أو ينقم أو يثور أو نحو ذلك .

والبيئة الثقافية :

هى الوسط التعليمى ، والظروف التهذيبية التى نشأ فيها الأدباء ، وتأثروا بها، والنظم التى ساروا عليها وأخذوا بها فى دراساتهم ، ونوع الدروس التى تلقوها والتى ازدادوا بها علماً ، وازدادت عقولهم بها نمواً وتهذيباً . والأساتذة الذين تلقوا عنهم ، والعلوم التى برع فيها أو تخصص هؤلاء الأساتذة ، وما يتصل بذلك من دور كتب ، ووسائل تشجيع للعلماء والطلاب على السواء . هذا إلى ثقافة النظراء المعاصرين والأنداد المنافسين .

وهـــذه البيئة ذات أثر بالغ فى الأدباء كتاباً وشعراء . فإذا كانت البيئة الطبيعية أو الاجتماعية - مثلا - تزود الأديب بالغذاء الروحى والعاطفى ، فإن البيئة الثقافية تزيد عليهما مده بالغذاء الفكرى . وخيال الشاعر إنما يصرفه قائدان هما العاطفة والفكر .

وكلما كان كل منهما على مقدار واسع من القوة والدقة والعمق ، قيضا للخيال مسرحا فسيحاً يجول فى أرجائه ، فتطفر إلى صفحته صور يبتكر ويبدع فيها ، ما شاءت له قدرته وبراعته . ثم ينفثها على اللسان فيوحى بألوان من الحكمة وضروب من البيان ، جملا مطربة وصوراً معجبة .

ويقرر بعض المفكرين أن الناس جميعاً متساوون فى الذكاء ، وأن مواهبهم الكامنة لا تحتاج فى تنبيهها وإيقاظها إلا إلى شى من التربية[١] .

والتجارب المتكررة على الأفراد والشعوب ، تحقق صدق هذه النظرية إلى حد بعيد ، وتبرهن على أن عامل الثقافة قد يرجح عوامل البيئات الأخرى ، الجغرافية وغيرها ، فى تكوين النفسية والعقلية معا . ومن ثم فى تكوين النتاج الأدبى . فكثير من الأمم عاشت تحت خصائص الجنس وسلطان البيئة الطبيعية ، وما نشأ فى مجتمعنا من عادات وتقاليد ، انتقلت - أو تنتقل - إلى حالة جديدة من النفسية والعقلية ، بتأثير ماطرأ عليها أو نضج فيها من ألوان الثقافة ، وأنها بسببها تحولت - أو تتحول - شخصيتها إلى شخصية جديدة ، ذات دعائم ومقومات جديدة .

وكذلك نستطيع القول عن الفرد . فبعض زنوج إفريقية يعلمون فى بعض البلاد الأوروبية ، ويقيمون فى تلك البلاد ردحا طويلا ، ويثقفون بثقافها ويتعلمون علوم أهلها فغدا بعضهم وهو لا يفترق عن زميله الأوربى فى عقليته ، فضلا عن عادته وعاطفته[٢] .

ويشير الأستاذ العقاد - رحمه الله تعالى - إلى ضرورة دراسة بيئات الشعراء تيسيراً لنقدهم . ويشيد بأثر البيئة الثقافية . ويبدو أنه ينسب إليها أكثر عوامل الأدب والمؤثرات فيه . فيقول ، وهو يتحدث عن مصر الحديثة :

« ومعرفة البيئة ضرورية فى نقد كل شعر ، فى كل أمة ، فى كل جيل ، ولكنها ألزم فى مصر على التخصيص ، وألزم من ذلك فى جيلها الماضى على الأخص . لأن مصر قد اشتملت منذ بداية الجيل إلى نهايته على بيئات مختلفات ،

---

(١) كيف يعمل العقل ص ١٩٠

(٢) المصدر نفسه ص ١٩٠ وما بعدها .

لاتجمع بينها صلة من صلات الثقافة غير اللغة العربية ، التى كانت لغة الكاتبين والناظمين جميعاً . وهى حتى فى هذه الجامعة ، لم تكن على نسق واحد ، ولا على مرتبة واحدة ، لاختلاف درجة التعليم فى أنحائها وطوائفها . بل لاختلاف نوع التعليم بين من نشئوا على الدروس الدينية ، ومن نشئوا على الدروس العصرية ، واختلافه بين هؤلاء جميعاً ، وبين من أخذوا بنصيب من هذا وذاك (١) .

ويقول أستاذنا المرحوم محمد عبد المطلب ، عن صلة ثقافة الشاعر بثقافة معاصريه وارتباطها بها وأثرها فيها :

« درجة كل امرىء فى عقله تابعة لطبقته وأبناء عصره . فإن كانوا ذوى ألباب كان ذالب . وإن كانوا جهالا كان من الجهال . ثم هو فى تأثره بهم واستمداده ، إما أن يكون فى عامة حاله ، بحيث ترتفع تصوراته ومداركه ، فتراه واسع الفكر سامى الإدراك ، صادق النظر ، بعيداً عن سفساف الجهالة ، فى الكلام وغير الكلام . وربما اختط لنفسه طريقاً مستقلا به ، ومنزعا ينفرد فيه ، حتى إنه ليخيل إليك أنه أمة وحده ، لايستمد من أحد ، على حين أنهم ينبوع عقله ومدد بحره . وإما أن يستمد ممن حوله فى نحو خاص من أنحاء القول والعمل ، ثم يتفرغ له حتى يصير كأنه من عند نفسه لما تصرف فيه .

والشاعر فرد من هؤلاء الأفذاذ . فتأثره بغيره من أهل طبقته أو ممن قبلهم ، إما أن يكون فى تكوين ملكته وتربية عقله ، والنهوض من درك الجهالة إلى شرف العرفان . وقد لاترى فيه من الأثر أكثر من هذا .

وإما أن يكون فى نهج معين كأن يتبع شاعراً فى طريقته وينسج على منواله ، كما فعل ابن أبى ربيعة فى تقليده امرأ القيس . والغالب فى الشعراء أن يجمعوا بين الحالين » (٢) .

---

(١) شعراء مصر وبيئاتهم فى الجيل الماضى ص ٣ ، للمرحوم الأستاذ العقاد .

(٢) الأدب العربى وتاريخه الجاهلى لمحمد عبد المطلب ص ١٧٤ ، ١٧٥ .

هذا ، وسترى أن شعراء مصر الحديثة ، انقسموا أنواعاً ومدارس ، اختلفت اتجاهاتها . بسبب اختلافهم الثقافى . وسنشير إلى ذلك فى فصل « التمهيد » .

ومهما يكن من أمر ، فالثقافة لها خطر كبير فى تكوين الشاعر وتوجيهه ، ولا نقول إنها وحدها المنفردة بتوجيهه والتأثير فيه . ولاريب أن الثقافة الواسعة الأفق ، تنتج أدبا واسع المدى ، يبدو فيها العقل الحصيف والذوق اللطيف ، والنظر الثاقب والرأى الصائب ، والذهن المتفق المبتكر ، والتصور الدقيق .

إلا أن الثقافة العلمية . إذا أخذت بتلابيب الشاعر ، وتشبثت بفكره ، واستأثرت بعقله ، استغرقت حواسه واستهلكت الكثير من عاطفته وخياله . وأرسلته خلف الحقائق يتتبعها وحدها ، يجمعها ويحللها ، ويختبرها ويعللها . وبدا - لذلك - أدبه ذا قيمة خطيرة فى عالم الفكر ، ولكن تزايله السماحة والظرف ، والرقة واللطف ، وتغيض عنه البشاشة أو تكاد . ذلك لأنها قللت من عمل العقل الباطن الذى هو جماع وجداناته ومنبع فنه .

والبيئة الثقافية تزود اللسان باللغة وأدواتها ووسائلها الصحيحة ، فتكسب الشاعر مقدرة على التعبير بما تضعه أمام عينيه من نماذجها . وهى توضح له ماخفى عليه فيها من أسرار بيان لغته . وتضع بين يديه حقائق الكون وحوادث التاريخ ، فيجد فيها وفى غيرها ، مدداً لأدبه لاينضب .

ولذا كثيراً ما يدل الأدب ، لا بما فيه من أفكار وآراء فحسب ، بل بما فيه من معان جزئية وطرق تصوير ، على ما تعيه ذاكرة الأديب من الحقائق والمعارف .

والبيئة الاجتماعية :

قد تكون بعواملها الهامة المتعددة ، أقرب البيئات إلى نفس الشاعر . وقد تكون أوسعها أثراً فى توجيهه ونتاجه . كما أنها البيئة التى تنصهر فيها عوامل كثيرة

من عوامل البيئات الأخرى ، فتتصل بعواملها ، ويتكون من الجميع عوامل مشتركة أو موحدة ، يكون لها فى مجموعها ، أوضح الآثار .

وهى البيئة الشعبية الفسيحة التى تتجلى للشاعر فيها أحاسيس الشعب ومشاعر طبقاته . وتتكشف له فيها نفسيات الأفراد وتشابك وتهادف . وفى غمارها يستطيع الشاعر أن يتبطن الأمور ، ويتعمق المشاعر ، ويعلل التصرفات ويحلل الشخصيات .

وتتشعب مكونات هذه البيئة تشعبات لا حد لها . فهى تتناول النظم الإدارية المستقرة المطردة فى الدولة ودواوينها ، وتقاليدها المرعية فى مواكب الحكام وحفلاتهم واستقبالاتهم وزيارة أضيافهم . وتتصل بطبقات الشعب وطبيعة كل طبقة ، وصلة كل منها بالأخرى ، وبالروابط التى تربطها وبمدى التعاطف والمودة بينها ، وبسريان روح التعاون بين أفرادها ، وشعور كل منهم بواجبه نحو مجتمعه ، ونهوضه إلى أدائه .

وتتعلق بالناحية الاقتصادية ودخل الدولة ومرتزق الأفراد وصناعاتهم وتجاراتهم وحرفهم ووسائل تعايشهم ، وآلامهم وطريقتهم فى التنفيس عنها ، وآمالهم وحيلهم فى بلوغها ، وعلاقاتهم العامة وصلاتهم الخاصة ونظام أسرهم ، ومدى نظر الرجل إلى المرأة ، والمرأة إلى الرجل ، وهما عماد الأسرة .

وتتعلق أيضاً بنهوض الدولة والجماعات والأفراد ، أو تراخيهم فى إنشاء المرافق العامة من أبنية وعمائر وجداول ومصارف ومساجد ومنازه . . إلى غير ذلك .

وتتصل بالمستوى الثقافى والحضارى الذى بلغته الأمة ، وطريقتها وألوانها وأهدافها فى كل ماتتعاطاه من شعاراتها وملابسها ومطاعمها ومشاربها ، واتصالاتها وزياراتها وتعارفها ومودتها وتزاوجها وتناسلها وأفراحها ومآتمها . ومدى ما يشيع بينها من عادات وقيم خلقية وفضائل تتمسك بها ، أو مجونيات ومباذل ومفاسد تأنس لها وتستروح إلى تعاطيها .

هذا ، إلى ما يعترى هذه البيئة من حوادث ووقائع عامة ، تمس شغاف القلوب وتتصل بمواطن الإحساس عند كل فرد ، فضلا عند الأديب ، فيألم لنفسه ولقومه أو يفرح ويسر . وذلك كحوادث الجدب والقحط والغلاء النازل ، والوباء المتفشى ، والزلازل المدمرة ، والهزائم الفاجعة . وكنمو الثروة وزيادة الدخل وكثرة المحصول واطراد الرخاء ، والنصر والظفر بالعدو ، وسلامة الوطن ، إلى غير ذلك .

ويرجع بعض الباحثين الفروق بين الشعوب فى المزاج والطبائع ، وما يصدر عنهما إلى العادات والتقاليد .

ويقول سرل برت :

« إن العلة الأساسية فى الفروق بين الشعوب إنما هى العادات والتقاليد التى تتوارث من الماضى على مر العصور . فتشكل جيلا بعد جيل ، بوساطة المنزل والمدرسة والأدب القومى وكل العوامل الدقيقة فى الحياة اليومية (١) » .

ويقول :

« الآن أظن أن النقطة التى نستطيع التسليم بها هى أنه لا الجنس وحده ، ولا البيئة الجغرافية وحدها ، بمستطيعة تعليل التفاوت البين بين المدنيات المتعاقبة . فيكفى أن تتذكر كيف غلبت اللغة والعوائد الرومانية على نصف ممالك أوربا ، لترى كيف تنتشر خصائص الشعب الواحد ، وراء الجنس أو البقعة التى أنبتتها (٢) » .

ويقول أيضاً :

« وعلى هذا فالفروق الموجودة بين الممالك الآن تعتمد فى أساسها على هذه العناصر التى ترجع إلى التقاليد ، فإذا ما أخذ شعب ما ، مدنية جزء من أقاصى العالم ،

---

(١) كيف يعمل العقل ص ١٦٩ (٢) المصدر نفسه ص ١٧٠

كما أخذ اليابانيون مثلا ثقافة الغرب وأمريكا - استطاع ، ولو فى الظاهر ، أن يغير خصائصه تغييرا كلياً »[١] .

ويقول أيضاً :

« إن العرف والأنظمة والعادات التى يتخذها قوم ما — لأنها تنبعث من طبعهم الأساسى أو تلائمه - تأخذ هى بدورها فى التأثير على ذلك الطبع وتقويته ودعمه عن طريق التقاليد المتجمعة . وأخيراً عندما يشعر الشعب بوجوده يبدأ فى تحديد أغراضه الخاصة به والتحدث عنها . وبهذا المعنى يصبح العقل القومى واعياً وشاعرا بنفسه معا »[٢] .

ونقول إن تعبير الشعب عن طريق شعره « من أصدق الوسائل للدلالة عليه .

والخلاصة :

أننا — فى الحق — نرى أن لكل بيئة من ألوان البيئة الكبرى ، آثارا فى تكوين الشاعر وأخلاقه وعاداته ، ونفسيته وعقليته . بل وفى خياله وعقله الباطن . ولا نستطيع بطريقة حاسمة قاطعة أن نحدد أثر أى البيئات فى فكرة أو تجربة وجدانية ، أو عمل أدبى ، ولعل إحدى البيئات أشد أثراً وأوضح ، ولكنها ليست وحدها صاحبة الأثر كله .

وليس معنى ذلك أيضاً أن نتنكر لخصائص الفرد ومواهبه الفطرية ، واكتساباته من غير بيئته . بل نعترف بها وبآثارها وبتفاعلها مع آثار بيئته ، وإن لم يستعص علينا إرجاعها إليها » . فإن الفنان من حيث ذكاؤه العام ، ومن حيث موهبته الخاصة ، رجل مزود بهبات فطرية نادرة . غير أن الفرق فى الدرجة لا فى النوع . فالمقدرة على خلق العمل الفنى - كالمقدرة على تذوقه - لا تتوقف

(١و٢) كيف يعمل العقل ص ١٧٢ ، ١٧٣ ، على الترتيب .

على ملكة إضافية منعزلة عن مجرى حياتنا اليومية ، وهى فى درجاتها العليا ليست إلا إحدى ثمرات الحياة العقلية الطبيعية »[1] .

— ٣ —

وشعر مصر فى عصر سلاطين المماليك ـ وهو موضوع البحث ـ نعتقد أنه نتاج ضخم ، وآلاف مؤلفة من الأبيات والمقطوعات والقصائد القصيرة والطويلة ، طرق بها شعراؤها كل باب ، ونظموها فى شتى الفنون والأغراض ـ كما سترى ـ . ولبوابها كثيرا من نداءات البيئة .

ونعتقد أن الموجود منه بين أيدينا قليل من كثير ، وسهم من جعبة . وأن كثيراً منه عبثت به أيدى الضياع والنسيان . ومنه ما فقد ، ومنه ما حمل ونقل وسرق . وفى سير كثير من الشعراء ما ينبىء بأن لهم دواوين مليئة فياضة ، وأنها تتكون من كذا مجلدا . ولكننا لانجد لها أثراً . وذلك كالسراج الوراق وأبى الحسين الجزار .

والبقية الباقية من هذا الشعر ـ تتراءى فى بعض الدواوين المطبوعة كديوان ابن نباتة المصرى ، وصفى الدين الحلى ـ وإن لم يكن من صميم شعراء مصر ـ وتتراءى فى بعض الدواوين المخطوطة كديوان ابن حجر العسقلانى وبرهان الدين القيراطى وتقى الدين بن حجة الحموى ـ وتتراءى فى بعض المجاميع وكتب المختارات الشعرية كالتذكرة الصفدية وألحان السواجع ـ كلاهما لصلاح الدين الصفدى ، وكتأهيل الغريب لتقى الدين بن حجة الحموى . وهذه المجاميع لاتزال مخطوطة ـ وتتراءى فى خلال بعض كتب التاريخ والتقويم وموسوعاتهما كخطط المقريزى وسلوكه والنجوم الزاهرة لأبى المحاسن بن تغرى بردى ، ونهاية الأرب للنويرى ، وبدائع الزهور لابن إياس الحنفى . وأكثر هذه الموسوعات مطبوع ـ وتتراءى أيضاً بين

---

(١) كيف يعمل العقل ص ٢١٣ .

سطور بعض المؤلفات الأدبية أو العلمية الأخرى ، كحسن المحاضرة للجلال السيوطى وهو مطبوع ـ وكخزانة الأدب وثمرات الأوراق ، وكلاهما للتقى بن حجة وهما مطبوعان . ومثل كوكب الروضة للجلال السيوطى ، وهو مخطوط . إلى غير ذلك مما تراه فى مراجع البحث .

وهذه البقية هى التى اعتمدنا عليها فى بحثنا هذا ، واستمددنا منها النصوص . ونحن ، وإن وصلنا ، اعتمادا عليها إلى أحكام أدبية ، نعتقد أيضا أنه لو أعيدت الدواوين الشعرية المغتربة ، وعثر على المفقود من دواوين الشعراء ، وجمع شعر هذه الفترة جمعاً أدنى إلى الدقة والضبط والتحقيق والملاءمة ، لعاون ذلك كله على إعادة الدراسة من جديد للوصول إلى أحكام أكثر صوابا وأصح تعليلا ، وأقدر على إبراز معالم الشخصية الشاعرة ، ومن ثم خصائص الشخصية المصرية .

وكل هذه دراسات ضرورية جداً ، لسد الثغرات الواضحة فى تاريخ مصر وتاريخ عقلية شعبها ونفسيته وإبراز خصائصه المميزة له .

وعصر سلاطين المماليك فى مقدمة فترات التاريخ المصرى الطويل ، التى يرمى فيها شعب مصر بالجمود والخمول ، وبقناعته فى أدبه بالتقليد والمحاكاة والركون إلى الصناعة اللفظية . ولهذا هو فى حاجة قصوى إلى الدراسة وإلى معاودة الدراسة ، حتى نصل بالدليل القاطع الحاسم إلى الحكم له أو عليه .

من أجل ذلك رصدت هذه الموسوعة كلها ، لمحاولة إبراز معالم هذا العصر ، فى شتى نواحيه .

والجزء الرابع بمجلديه « السابع والثامن » خصص لدراسة شعره ، على أساس ربطه بالبيئة كما أشرت . وقد بذلت الجهد فى الاطلاع على نصوصه ، وجمع المتماثلات منها فى صعيد واحد ، ودراسة كل مجموعة ، والاستنباط منها ، وإيضاح ما فيها من فكرة أو عاطفة ، مع الوقوف عند بعض النصوص الهامة بالشرح

والتحليل والنقد الدقيق وبيان المحاسن أو المساوىء . وذلك بعد دراسة البيئة ، ومع ربطه بها .

وأعتقد أننى بما صنعت ، قد طفت فى نواحى العصر باحثا منقبا ، فجلوت غامضا ، وكشفت خبيئا ، وبدا لى شعراء العصر أبناء لمصر بررة ، وألسنة عنها ناطقة معبرة . وأنهم ، على الرغم مما حلق بهم من المثبطات والمعوقات التى من شأنها أن تقعد الهمة وتكبت الخاطرة وتعقل اللسان . انطلقوا فنطقوا ، وعبروا فصدقوا . وكانوا لمصر صوتا أكد حياتها ، وأبرز شعبها حيا يقظا ، عاش بأفكار وعاش بمشاعر . وأن الأحداث لم تمر به وهو عنها لاه ، وأن الأيام لم تلج بابه ، وهو عنها غافل ، على الرغم مما اصطلح عليه من الأرزاء ، وعاناه من الشقاء .

وبعد هذه المقدمة التى أوضحت فيها أساس منهج البحث وفصلت فيه القول عن البيئة ، وعرفت فيه بعض التعريف بشعر العصر ، عقدت « تمهيدا » للبحث ، فى فصل مستقل . جلت فيه جولة كبيرة فى أرجاء الأدب العربى ، فى بيئات شتى . ووقفت عند كل بيئة منها فى دراسة عاجلة موجزة ، أوضحت فيها عواملها وتجاوب الشعر معها . وذلك من باب التمثيل والتدليل على صواب المنهج . وأنه من المستطاع اصطناعه فى دراسات أدبية منتجة ، تتناول أية بيئة من بيئات الأدب العربى .

وتكون البحث بعد ذلك من بابين وخاتمة

والباب الأول : لدراسة البيئات المصرية . وقد أوجزت فيه القول إيجازا مناسبا ، اعتمادا على ماسبق تفصيله من موضوعات فى مجلدات هذه الموسوعة . وهو ذو أربعة فصول .

الفصل الأول : فى وصف البيئة الطبيعية . وقد عنيت فيه برسم صورة واضحة

تقريبية لطبيعة البلاد المصرية ، كما كانت تتراءى فى عصر المماليك وقد يبدو لأول وهلة أن طبيعة البلاد وأجزائها ومناظرها . لا يعتريها التغير على مدى الأعوام والأيام ، إلا بحدث طبيعى خارق ، يغير من وجه الأرض . وهذا حق غير أننا لحظنا أن ثمة أشياء فى هذه الطبيعة قد تتغير أشكالها ومرائيها على مدى العصور ، لأن يد الإنسان تتدخل فى تغييرها . لذلك نشعر أنه من الواجب فى مثل هذا البحث أن نصور طبيعة البلاد — بقدر المستطاع — كما كانت تتراءى للأنظار فى العصر الذى نصف بيئات شعره .

ولذا ، أشرت إلى موقع مصر على البحر المتوسط ، وهو البحر الرومى . وعلى البحر الأحمر ، وهو بحر القلزم . وأشرت إلى شواطئها ومناخها وتضاريسها وجبالها وبحيراتها وصحراواتها ومجرى النيل فيها ، وما يتصل به من منبع ومصب وفروع وجزر ، وأشرت كذلك إلى ما كان هنالك من حدائق وبساتين ومنازه وخلجان وقناطر وجسور . بل أشرت إلى المدن والجبال والأهرام وأبى الهول .

وهـــذه المنشآت والآثار ، من صنع العلم والحضارة ، ولكنها تثبت منذ إنشائها أمام العين ، فتراها ماثلة بإطراد ، خالدة مع الزمن ، حتى إنه ليستقر فى النفس أنها جزأ لا يتجزأ من طبيعة البلاد .

ولعل بعض ما ذكرت من أجزاء الطبيعة المصرية . لم يتناوله الشعر بالذكر ولا الوصف ، ولم يتجه إليه الشعراء بالحديث ولكننى اضطررت إلى تسجيله استكمالا لصورة طبيعة مصر ، من شتى زواياها ، ما استطعت وبالقدر المناسب .

وإلى جانب ذلك بينت أهمية الموقع فى الرحلة والتجارة والعلم والغزو وأشرت إلى ما خلفه هذا الموقع بذلك فى شعب مصر من عادات وتقاليد .

وتحدثت عن النيل وبينت أهميته بالنسبة لهذا الشعب ، ومبلغ تعلق الشعب به وتقديره له ، واهتمامه بأنبائه وأنباء فيضانه ومقياسه ووفائه ، وما أورثه ذلك كله من عادات وصفات .

الفصل الثانى : فى وصف البيئة السياسية والواقع أننا فصلنا الحديث عن هذه البيئة فى المجلد الأول من موسوعتنا هذه ، لذلك أوجزنا القول هنا ، وبيناطبيعة تكوين دولتى المماليك البحرية والجركسية وكيفية استيلائهم على الحكم فى مصر بعد الأيوبيين ، وكيف تتابع سلاطينهم على عرشها ، وكونوا جميعاً طبقة حاكمة مترفعة . وأختصوا أنفسهم بأسباب القوة والغلبة ، وكيف نهضوا بأعباء السياسة والحرب والدفاع عن البلاد ضد الطامعين . وأشرت إلى سياستهم الخارجية ومبلغ ملاءمتها مع رغبات الشعب وأهدافه ، وإلى حروبهم مع التتار والفرنجة الصليبيين ثم العثمانيين ، وإلى أنهم حافظوا على استقلال هذه الرقعة من الوطن العربى الكبير — مصر والشام وحلب والحجاز — وما كان يتبعها . وأشرت إلى موقف الشعب من هذه السياسة .

كذلك تحدثت عن سياستهم الداخلية وعن حرمانهم الشعب كثيراً من حقوقه ، وعن فرضهم الضرائب المرهقة وتوهت بموقف الشعب من ذلك ، وأشرت إلى الفتن الداخلية وثورات العربان التى تعتبر من أبرز المقومات الشعبية .

ونوهت بمواقف بعض رجال الدين إزاء ظلم الحاكمين ، وكان هؤلاء الرجال — إلى حد كبير — ألسنة الشعب وذادته ، إلى غير ذلك .

الفصل الثالث : فى وصف البيئة الثقافية ، وقد تحدثت فى المجلدين الثالث والرابع من هذه الموسوعة عن هذه البيئة فى كثير من التفصيل ، لذلك أوجزت هذا القول فيها مبرزا أهم نواحيها .

وقد أوضحت الأسباب التى أدت إلى قيام حركة إحياء علمية بمصر ، جعلتها دارة العلم والأدب بعد العراق ، ومقصدا لطلابهما من مشارق الأرض ومغاربها فى شتى بقاع العرب والمسلمين وتحدثت عن الحركة التعليمية ومراحلها ونوهت بالمدارس وأهميتها وألوان العلوم بها وأشرت إلى النتاج العلمى والأدبى .

الفصل الرابع : فى وصف البيئة الإجتماعية ، وقد تحدثت فيه عن طبقتى الأمة

وعن كثير من عاداتها وتقاليدها ورسمياتها وشعبياتها . وعن وظائف الدولة وأهمية الخـــلافة وألوان الوظائف . وأشرت إلى حسنات العصر ومساوئه . وأفصحت عن كثير من مظاهر الترف والبذخ ، وعن ألوان من ملاهى الشعب ومباذله وألعابه إلى غير ذلك .

والباب الثانى : فى بيان أثر هذه البيئات المختلفة فى الشعر ، ومعرفة مدى استجابته لمؤثراتها . وهو — فى الواقع — لباب هذا البحث جميعه وجوهره . وقد عقدت فيه كذلك أربعة فصول متتابعة بحسب تتابع فصول الباب الأول . ثم عقبت على هذه الفصول جميعها ، بفصل خامس لبيان أثر هذه البيئات فى النواحى الفنية للشعر ، فاستقام بذلك فى هذا الباب خمسة فصول .

الفصل الأول منها : فى بيان أثر البيئة الطبيعية المصرية فى الشعر ، وقد قدمته ببيان عن أثر هذه البيئة فى أخلاق المصريين وعاداتهم وتقاليدهم، وطرق تفكيرهم وتعبيرهم . وأشرت إلى محبة المصريين لبلادهم وتقديسهم لنهرها المبارك نهر النيل العظيم . وتلمست أثر هذه الطبيعة الجميلة الكريمة الحانية فى شعر مصر حينذاك ، فوجدت شعراءها قد تغنوا بها وترنموا بأياديها وأشادوا بفضلها ، لقد ارتبطت بها عواطفهم ، ولهجوا بحب مصر والنيل وتقديسهما ، وأفصحوا عن حبهما بل وعشقهما والوجد بهما والتشوق إليهما . وكما تأثرت حياتهم تأثراً بالغاً بنهر النيل وبفيضانه ونقصانه وطغيانه ، تأثر شعرهم وكان صدى صادقاً لأحوال النيل وفيضانه ووفائه ، ومظهراً لعواطفهم نحوه ولمشاعرهم إليه .

وفى هذا الفصل عرضت الكثير من مقطوعاتهم وقصائدهم فى الحديث عن مصر والتغنى بالنيل ، وفى وصف ربيعيات مصر ومنازهها ومشاهدها المختلفة ، وأشرت إلى ما قالوه فى مقياس النيل ووفائه وكسر سد خليجه ، وما وصفوا به جزيرة الروضة ، وخواطرهم عن الأهرام وأبى الهول .

واخترت فى ذلك كله ، جملة من أشعار جمال الدين بن نباتة ، والزين بن الوردى والصلاح الصفدى ، والشهاب بن فضل الله العمرى ، والعلاء الوداعى . والبرهان القيراطى ، والشهاب المنصورى وغيرهم من شعراء مصر . وقد عرضتها عرضاً مرتباً بحسب الموضوعات .

وقد وقفت عند بعض هذه النصوص وقفة أطول ، فيها مزيد من الدراسة والتحليل ، ومن الاستيحاء والتفصيل .

وقفت مثلا عند قصيدة رائية طريفة للشهاب بن حجر العسقلانى الذى ذهب إلى حج بيت الله الحرام ، فلاحقه وهو فى طريقه حب مصر واشتياقه إليها ، فأخذ يتغنى بها ويذكر معاهدها ويشيد بفضلها ويبثها أشواقه إليها .

ووقفت مثلا عند قصيدة فائية جيدة للأديب الشاعر شمس الدين النواجى نظمها عام ٨٥٥ هـ فى وفاء النيل وكان النيل قد شح فى عامه السابق ، فشرقت الأرض وانتشرت الجدب وعم الغلاء وقلق الناس فلما وفى النيل بعد ، تهللت النفوس وابتهجت القلوب واستبشر الناس وشكروا الله على آلائه . وانطلق النواجى يغرد بذلك تغريد الطير الفرح على فننه ، ويعبر عنه تعبير المبتهل العابد والمسبح الخاشع ، حتى بدت قصيدته الطويلة تسبيحة متبتل ، أو ترنيمة متهلل . وهى وحدها خير رد على من ينكر على شعراء مصر فى هـــذه الحقبة حبهم للنيل وتقديسهم له وتسجيلهم لفضله وشكرهم لأياديه ، وذلك لانصرافهم عنه إلى الصناعة اللفظية والحلية الأسلوبية .

ووقفت كذلك عند قصيدة « سرحة النيل » للشاعر المصرى اللبق فخر الدين ابن مكانس الذى أثار عشقه وهيامه إحدى سرحات النيل . فنظم فيها سرحيته العصماء التى تغنى فيها بجمالها ومحاسنها تغنى العاشق الوامق والمحب الواله . إلى غير ذلك .

والفصل الثانى : فى بيان أثر البيئة السياسية المصرية فى الشعر . وقد تحدثت

فيه عن مبلغ صلة الشعراء بهذه البيئة ، ومبلغ رعايتها لهم وأشرت إلى أنهم لم يجدوا منها التشجيع الكافى للنهوض بموحياتها ، ولم تعمل على تقريبهم تقريباً يدعوهم إلى الاستجابة لوحيها . وأنهم انقسموا أنواعا. فمنهم أرباب الوظائف فى ديوان الإنشاء كابن عبد الظاهر والتقى بن حجة ومنهم أرباب الوظائف فى القضاء والتدريس ونحوهما، كابن حجر العسقلانى والبهاء السبكى. ومنهم المحترفون حرفا دنيا كالجزارة والوراقة والحمامية كأبى الحسين الجزار والسراج الوراق ومنهم من استنام للشعر والتكسب به كالجمال بن نباتة . وبينت أن هذا التقسيم الذى أدت إليه صلات البيئة السياسية بالشعراء كان له كبير الأثر فى نتاجهم السياسى . وأبرزت من باب التمثيل والموازنة موقف كل من الشاعرين محيى الدين عبد الظاهر ، وجمال الدين بن نباتة . لقد كان الأول أحد رؤساء ديوان الإنشاء ، فاتصل بحكم وظيفته السياسية ورجالها وحوادثها فترجم عنها . وعاش الثانى محروما بعيداً عن مناصب الدولة ، فانصرف عن دنيا السياسة ولم يترجم عنها بشىء من شعره إلا لماما لا يناسب قدره ومنزلته فى الشعر. وأشرت إلى مخاوف الشعراء من بطش الحكام والرؤساء ، وأثر ذلك فى تلوين شعرهم وتوجيهه نحو وصف المعارك والحروب وأدوات القتال ، ممزوجا للسلاطين بالمدح والإطراء ، وللأعداء بالهجو والازدراء . وألمعت إلى اتضاح معالم السياسة العامة والنزعات الشعبية فى شعر الشعراء ، وأنها كانت تتجه نحو حماية الإسلام وبلاد العروبة والمحافظة عليها من أعدائها التتار والصليبيين وغيرهم .

وتتبعت فى إيجاز حوادث التاريخ المصرى من أول العصر إلى آخره تتبعا زمنيا مسلسلا رتيبا ، مشيرا إلى ما كان له منها أهمية وصدى فى الشعر . ووقفت بخاصة عند بعض المعارك الحاسمة وسجلت شيئاً مما قيل فيها من الشعر قصائد ومقطوعات، مع الدرس والتحليل المفصل ، والمطابقة بين أقوال الشعراء ووقائع السياسة والحرب ، والاتجاهات الشعبية . — ومن باب التمثيل وقفت عند غزو الملك الظاهر بيبرس لبلاد سيس — وهى أرمينية الصغرى أو قيليقية — وفتحها سنة

ستمائة وأربع وستين هجرية . وقد كان يحكمها أمراء الأرمن الذين طالما مالئوا التتار والصليبيين . وقد سجل هذا الفتح الشاعر محي الدين بن عبد الظاهر .

ووقفت أيضا عند غزو الملك الظاهر المذكور مدينة ألبيرة التى عبر من أجلها نهر الفرات بجنده فوق خيولهم ، فكان حدثا ساحرا رائعا ، وطلب بها التتار وتتبع فلولهم حتى أبادهم . فثارت حماسة الشعراء لهذا النصر المبين ، وتهللوا لهذه الشجاعة الخارقة ، وسجل الحادث منهم كثيرون كان من بينهم محي الدين بن عبد الظاهر ، وبدر الدين محمد بن يوسف المهمندار والشهاب محمـــود الحلبى وناصر الدين بن النقيب وموفق الدين الوزان . —

ووقفت أيضا عند غزو الملك المنصور قلاوون مدينة حمص واستيلائه عليها من التتار عام ٦٨٠ هـ . فحمد له هذا الظفر الشاعر محي الدين بن عبد الظاهر ، وابنه علاء الدين بن محي الدين بن عبد الظاهر ، وناصر الدين بن النقيب وغيرهم فخلدوه فى أشعارهم —

ووقفت أيضا عند ذلك الحدث التاريخى الرائع والمعركة الحاسمة فى تاريخ الاسلام والعروبة ، وأعنى بها فتح مدينة عكا واستردادها من يد الصليبيين على يد الملك الأشرف خليل بن قلاوون عام ٦٩٠ هـ ، فلم تقم لهم قائمة بعد ، حتى العصر الحديث . وقد سجلها أكثر من شاعر من بينهم ابن ضامن الضبع ، وشهاب الدين الحلبي وشمس الدين بن الصائغ ، وبدر الدين محمد المبنجى البزاز .

وفى عام ٧٠٢ هـ فى عهد الملك الناصر بن قلاوون وقعت بينه وبين التتار موقعة « مرج الصفر » المشهورة التى قضى فيها جيش مصر قضاء نهائيا على التتار ، ومن بعدها لم تقم لهم أيضا قائمة تذكر نحو مائة عام ، وأزال خطرهم نسبيا عن الوطن العربى . وقد تبـــارى الشعراء فى وصف المعركة وتسجيل وقائعها والإشادة بأبطالها ومنهم العلاء بن عبدالظاهر والبدر المنبجى . ونظم فيها الشاعر الأديب جمال الدين أبو بكر قاضى عجلون مطولة جيدة تقع فى نحو من مائة وخمسة عشر بيتا . وهكذا .

ولم أغفل على مدى العصر وحوادثه الدور الذى قام الزجل أو الشعر العامى، وقد كان له نشاط ملحوظ فى أبواب الشعر . وسد فراغا أحيانا لم يسده الشعر فى الميدان السياسى . — وكذلك لم أغفل أى لون شعرى آخر له متات بالبيئة السياسية ، ويترجم عن شىء يتصل بها ، ويكون رجعا لحدث من أحداثها وذلك كمراثى الملوك ومدائح الأمراء .

والفصل الثالث : فى بيان أثر البيئة الثقافية المصرية فى الشعر وقد ألمعت فيه إلى الشعراء العلمـــاء وما أفادوه من الثقافة وأثر ذلك فى شعرهم . وإلى الشعراء الأميين وموقفهم أمام ما فاتهم من الثقافة . ثم إلى الشعراء المثقفين وما كان لهم من فضل فى مجال العلم والأدب والشعر ، متحدثا عن أسباب نشاط الشعر بتأثير من الثقافة ، منوها بأن منها الرغبة فى إظهار العلم والولوع بالبديع وانتعاش النقد الأدبى انتعاشا نسبيا .

ثم أخـــذت فى إيضاح نتائج ذلك فى باب الشعر ، فتحدثت عن نظم العلوم ، وعن الأسئلة والأجوبة العلمية ، وعن الألغاز والأحاجى ، وابتداع البديعيات ، ونظم الحكمة والمثل والنصيحة ، وعن الشعر الفلسفى والمذهبى ، وعن الشعر القصصى والتمثيلى ، وعن الاستجازات والاجازات العلمية والأدبية . وفى كل لون من هذه الألوان ترى روح العصر ورجع البيئة وأثر الثقافة ، كما ترى فى أكثر هذه الألوان نتاجا شعريا واسع المدى غزيرا .

وقد وقفت عند بعض النصوص وقفة أطول وأوسع دراسة وتحليلا ، ومنها على سبيل المثال أرجوزة الشاعر فخر الدين بن مكانس المسماة «اللطائم والأشناف» فتحدثت عنها وعما تحتويه من القصص الحكيمة ومن الأمثال والحكم . ومنها مسرحيات الأديب شمس الدين بن دانيال المسماة « طيف الخيال » فتحدثت عن كل مسرحية منها حديثا مناسبا .

والفصل الرابع : فى بيان أثر البيئة الاجتماعية المصرية فى الشعر ، أشرت فيه

إلى تأثر الشعراء البالغ بالبيئة الاجتماعية وعواملها ، على الرغم من عدم تشجيعها لهم ، إذ كانت هناك عوامل اجتماعية أخرى هيئت لهم سبيل القول . وذلك كالعلاقات الشخصية والإيحاء الشخصى ، والرغبة فى النقد الاجتماعى وحب التسلية فى أوقات الفراغ . وأشرت إلى ما انبثق من ذلك كله من ألوان الشعر كالنقد الاجتماعى ، والشعر البديعى ، والإخوانيات وأشعار المجون والمباذل والخمريات والغزل ، وما إلى ذلك .

وتحدثت عن أغراض شعرية أخرى أبرزتها ظروف المجتمع ، كالمديح النبوى وشعر الزهد والتصوف والشكوى وتسجيل الحوادث العامة ووصف أدوات المجتمع .

وفى خلال هذا الحديث وقفت عند بعض النصوص فى كثير من التحليل المفصل المعلل . ومن ذلك قد قصيدتان لشرف الدين البوصيرى الأولى فى نقد مستخدمى دواوين الدولة وما تفشى بينهم من ألوان النزاع والفساد والادعاء والسرقة . والثانية فى نقد الأسرة المصرية وما ينشب بين أفرادها من الخلاف بسبب ما تشبثت به من التقاليد والعادات المرذولة . واستطردت إلى ذكر ما نقدوا به الأتراك والمماليك والسلاطين والطوائف الدينية ، وما نقدوا به التعليم والمعلمين ، والتصوف والمتصوفين والرؤساء والقضاة وحملاتهم على الظلم والاستبداد وتنديدهم باختصاص بعضهم بالرزق دون بعض ، وباستشراء الرشوة وخطوها .

وعند حديثى عن المديح النبوى وبيان الأسباب الاجتماعية التى أدت إلى ازدهاره فى هذا العصر ، أشرت إلى بردة البوصيرى التى كانت من بواكير هذا الفن فيه ، وكان لها أثر ضخم فى نشاط فن المديح النبوى وفى نظم البديعيات اللذين كثر فرسانهما . فمن رجال المديح النبوى : ابن نباتة والشاب الظريف وابن دقيق العيد وابن الوردى والشهاب الحلبى والفتح بن سيد الناس ومن رجال البديعيات : الصفى الحلى والعز الموصلى والتقى بن حجة ...

وبإزاء ما كان هناك من مديح نبوى ومن زهد وتصوف ، كان هناك المجون والخمريات والغزل ، ومن رجالها : ابن عبد الظاهر والفخر بن مكانس والشاب الظريف والبرهان القيراطى وابن دانيال الموصلى وصدر الدين بن الوكيل وغيرهم.

والفصل الخامس : فى بيان النواحى الفنية لهذا الشعر : وقد تحدثت فيه عن الصفات التى علب على الشعر اتسامه بها أو لمعت فيه لمعانا لافتا تحت تأثير عوامل البيئات المختلفة . ومن ذلك توخى السهولة والجنوح إلى الوضوح فى التعبير ، واصطناع البديع . مع بيان الأسباب الاجتماعية والثقافية ونحوها التى عاونت على توجيه الأساليب هذا الاتجاه . وأشرت فى دراسة وتفصيل وفى تدليل وتمثيل ، إلى اعتماد التعبير على الوصف والتصوير والتشخيص والقوالب البيانية . كما تحدثت عن الفكاهة والنكتة باعتبارهما من سمات الأساليب .

وكانت المعارضات والمناقضات والسرقات الشعرية ، اتجاهات واضحة فى أساليب الشعراء . فتحدثت عنها وعن دواعيها وأسبابها . كما تحدثت عن مطولاتهم ومقطوعاتهم . وعن الأوزان والقوافى ، وما اتصل بها من التواشيح والأزجال .

وكما أوضحت فى كثير من مراحل حديثى محاسن هذا الشعر . أوضحت هنا فى هذا الباب كثيراً من عيوبه وسيئاته كاللحن واستعمال الدخيل والخروج عن متن اللغة ، واصطناع العامى من الألفاظ والعبارات والأمثال . ولم أغفل ، وأنا أتحدث عن ذلك ، بيان الأسباب والعوامل التى كان لها دخل فيه . إلى غير ذلك .

بهذا كله يتم البحث وقد أجملت فى خاتمته ما انتهيت إليه من النتائج التى بدت بدوا بارزاً فى خلاله منذ أول سطوره إلى آخرها . وقد تبين أننى طفت فى نواحى العصر باحثاً منقبا فى أكثر زواياه ، فبينت معالمه وجلوت غوامضه ، وكشفت عن كثير مما تردد فيه من أفكار وخواطر ، وما جاش فيه من عواطف ومشاعر . إننى جلت جولة واسعة فى أرجاء شعره ، وما خلفه شعراؤه فى دواوينهم

وغير دواوينهم من قصائد ومقطوعات وأبيات ، فرايتهم أبناء مصر البررة ، وألسنتها الناطقة ، وتراجمتها المستجيبة المعبرة. وعلى الرغم مما حاق بهم من المثبطات والمعوقات التى من شأنها أن تقعد الهمة وتكبت الخاطرة وتعقل اللسان ، انطلقوا فنطقوا ، وعبروا فصدقوا . وكان لمصر صوتا أكد حياتها وأبرز شعبها حيا يقظا عاش بأفكار وعاش بمشاعر . وأن الأحداث لم تمر به وهو عنها لاه ، وأن الأيام لم تلج بابه وهو عنها غافل ، على الرغم مما اصطلح عليه من الأزراء ، وما عاناه من ألوان الشقاء .

يحدثنا بذلك هذا الشعر الذى قرأناه واستوحيناه ، مع العلم بأنه بقية مما تركوا ، وقبسات مما خلفوا . ولا أدرى ماذا يكون حكمنا على العصر وأدبه ، وعلى شعره وشعبه ، لو أظفرتنا الأقدار بما ضاع منه وما غاب مع الأحقاب .

وبهذا البحث درسنا مصر الشاعرة فى عصر المماليك دراسة مفصلة محللة معللة ، مبرزين عوامل بيئاتها المختلفة ، رابطين بين كل لون من الشعر وبين عوامله المؤثرة فيه ، بالقدر المستطاع مشيرين إلى مواطن القوة فى هذا الشعر ، وإلى مواطن الضعف ، معللين لهما معا .

وهذا البحث هو رسالتى فى الدكتوراه التى تفضل فأشرف عليها الأستاذ الكبير عمر الدسوقى فكان له فضل عظيم فى نجازها . وقد أجريت بها هنا من التغيير والحذف والإيجاز ما اقتضاه النشر .

وبعد ، فالحمد لله على ماوفقنى إليه من خدمة تاريخ بلادى مصر العزيزة ، وتجلية أحد عصورها الأدبية . ولن يكون بحثى هذا آخر بحث يتناول العصر المذكور فى موضوعه ، بل إننى به فتحت الباب على مصراعيه لبحوث أخرى أرجو أن تكون أكثر توفيقا . وحسبى أننى عبدت أمامها الطريق وأوضحت المعالم وحددت الأهداف . والله المعين والموفق .

صفر سنة ١٣٨٥ هـ — يونيو سنة ١٩٦٥ م المؤلف

تمهيد

فى

بيان أثر بيئات مختلفة فى نتاجها الشعرى

تمهيـــد

فى

بيان أثر بيئات مختلفة فى نتاجها الشعرى

أشرنا فيما سبق إلى ما نعنيه بالبيئة . ورأينا أن أدب المجتمع الواحد تؤثر فيه ألوان من البيئات المختلفة . وركزنا الحديث فى بيان معنى كل بيئة ـ البيئة الطبيعية ، والسياسية ، والثقافية ، والاجتماعية ـ إذ رأيناها ، فى الجملة ، جماع البيئات التى تؤثر فى أدب مجتمع من المجتمعات .

وأشرنا كذلك إلى تأثيرات إجمالية نظرية . لكل بيئة من البيئات الأربع .

وفى هذا الفصل نوضح ما أجملناه هناك نظريا ، بتطبيقات عملية من مواطن ومن عصور متعددة . وهى تطبيقات تعين على الربط والموازنة .

أولا : فى البيئة الطبيعية(١)

وما من موطن إلا وهو بيئة طبيعية لسكانه . له عليهم فضل الإيواء وتقديم الغذاء والماء وبالمقام والإلف وطيب الصلة ، تتم الروابط النفسية والعلاقات العاطفية بينهم وبينه . حتى تتراءى حسناته إليهم حسنا ، ونعمه عليهم جمالا وفضلا . فيعنى به شعراؤه ويشيدون ، ويترنمون بأدبه ويرددون ، ويفيضون فى الحديث عنه ، ويغرقون فى التعرف على أجرائه وأطرافه ، وينعتونها ويصفون أحوالها ويسجلون كل ما يتصل بها ، من شكل ولون وحركة وحسن . ويتخيلون عنها

(١) راجع نهاية الأرب ج ١١ ففيه كثير من أشعار العرب فى أوصاف الطبيعة ونباتها ،

ما شاءت لهم نفوسهم العاشقة لها الوالهة بها ويخلعون عليها من مشاعرهم مشاعر ، ومن أحاسيسهم أحاسيس وبذلك كله يخلدونها ويخلدون وطنهم ويخلدون أنفسهم.

وهذا قدر مشترك بين شعوب الأرض قديمها وحديثها . بعيدها وقريبها ، شرقيها وغربيها . مع تفاوت ، لابد منه ، فى المستوى والعمق والاتجاه .

ولعل عرب الجاهلية فى مقدمة أمم الأرض التى عشقت طبيعة بلادها ، وأثرت هذه الطبيعة فى حياتهم تأثيراً كبيراً . أثرت فى حياتهم الاجتماعية ، فطبعتهم على الحرية والاعتزاز بالنفس والاعتماد عليها ، إذ ينشأ الحدث مطالباً بالكد والعمل وبالكدح فى سبيل حياته والمحافظة عليها . ونشأتهم على سماحة الفكر ووضوح القول وصراحة الحديث ، لامتداد صحابها وتكشف معالمها .

وقد حصرت أكثرهم داخل جزيرتهم، قبائل مترحلة، تطوف أنحاءها وتجوب أرجاءها ، طلبا لمواطن العشب والكلأ . ومع القبيلة نساؤها وأطفالها وإبلها وشاؤها وكلابها . لشيوخها الرأى والنصيحة ولشبانها المرابطة والسلاح . وما هم إلا جند يتسمون بالشجاعة والفروسية ، ويتصفون بالمغامرة والفدائية .

وفى وسط هذه الصحراء الواسعة ، والبيداء الشاسعة ، قد تتعرض القبيلة لمعتد يعتدى عليها ، أو آثم يسىء إليها فيذود عنها رجالها ، ويدفعون كيد أعدائها، ويمكنون لها فى العزة والكرامة ، ويحرسون مجادتها، ويعلون ذكرها، ويحفظون أعراضها وأموالها .

هكذا عاش العربى فى بيدائه ، وهو ينتقل منها إليها ، ويلاقيها أنى سار ، لايستطيع اتقاء بردها إذا اشتد ، ولا هجيرها إذا اتقد . تجابهه ويجابهها دون حجاب . فأورثته ذكاء وبديهة ، ودفعته إلى العمل والسرعة فيه ، والوصول إلى هدفه ، ورققت إحساسه ، وأرهفت شعوره ، فعاش بعاطفة جياشة منفعلة ، له مثل عليا اقتضتها طبيعة البادية ، وواقع الحياة فيها . فتغنى بها وسعى حثيثاً إليها ، وذلك كالكرم والنجدة وإغاثة الملهوف والوفاء بالوعد والشجاعة والصبر

والذكر الحسن . وعودته الحرية والطلاقة ، فلم تعرقل تفكيره . ولم تعقل لسانه ولا تعبيره (١)

وهكذا ترى الطبيعة الصحراوية فرضت على العرب أخلاقا خاصة ، وألزمتهم بتقاليد لايستطيعون عنها حولا ، صارت لهم على مر السنين جبلة وطبيعة وفطرة . وقد انعكست هذه الطبيعة الخشنة على نفس العربى قوة وصرامة وجلدا .(٢)

وأما شعراء القبيلة ، فيتغنون بمجدها ، ويشيدون بكرمها ، ويسجلون حوادثها ومآثرها ، ويناخون بشعرهم عنها ، ويكيدون به لأعدائها .

وهم فى خلال أشعارهم هذه . يصفون ما يسيرون فيه من صحراء مضنية ، ورمال مشقية ، وما يطرقونه من وهادها ونجودها ، وما يصطلون به من وهج الهجير فيها ، أو مايستظلون به من سماء صافية ذات شمس ضاحيه ، أو قمر سافر ؛ أو سماء محجبة ذات سحب كهام ؛ أو ملبدة ذات عارض ممطر .

ويهتزون لرعدها الصاخب ، وبرقها المضىء ، وضبابها الضارب ، ومطرها النازل ، ونباتها المستجيب ، وطيرها الغرد .

ويصفون ما يصحبهم من الخيل والإبل وكلاب الحراسة والصيد ، ومايلاقونه من حمر أو ثيران وحشية ، أو ذئاب ضارية . إلى غير ذلك مما جعل شعرهم أصدق مرآة لبيئته ، يرى فيه الرائى ملامحها ومعالمها وصورها المختلفة .

ولم يكتف الشعراء بالوصف السافر والنعت المباشر ، بل أعملوا الخيال وسرحوه غير بعيد ، وغذوه بذاخر من مشاعرهم الكامنة ووجداناتهم المستسرة . وعقدوا التشبيه وانتزعوا المماثلة ، ولاءموا المشاركة .

ولقد كان للصحراء أثر قوى فى هذا الشعر ، فهى التى أوحت للشاعر بأسلوب

---

(١) راجع النابغة الذبيانى للأستاذ عمر الدسوقى ص ٤٥ وما بعدها .

(٢) راجع الفتوة عند العرب للأستاذ عمر الدسوقى ص ٢١ ـ طبع لجنة البيان العربى .

القصيدة وعناصرها ، وبما فيها من وحدة فكرية . فالشاعر الراحل إلى غرض من أغراضه ، أول مايهيج الشعر فى نفسه ، مروره على ديار أحبته ورؤية مالها من آثار ودمن ، فينطلق يخاطبها ويذكر بوقوفه عليها ذكرياته الماضية ، ثم يلتفت من حوله فيجد ناقته ـ مثلا ـ التى تصاحبه وتبلغه مقصده وتؤنسه فى رحيله ، فينطلق وكأنه يخاطبها ويناجيها . فيصفها وينعت محاسنها ويذكر عاداتها وأخلاقها ، ويشبهها بالثور الوحشى أو الحمار الوحشى أو الظبى الشارد . ويستطرد إلى وصف هذا الثور أوغيره ، ثم يعود ويستدير إلى ناقته بعد استطراده . فتكون قد أوصلته ناقته إلى مقصده ، فيذكر هذا المقصد ، قتالا أو مدحا أو اعتذارا أو نحو ذلك .

وإذا كانت القصيدة لاترتبط أجزاؤها ، ولا تتواصل معانيها الجزئية فى أبياتها المتتابعة ، فإن بينها هذه الوحدة الفكرية ، بل الشعورية التى تجعل منها كلا مترابطا فى نفس الشاعر ، كما أوحت به إليه بيئته[1] .

والشاعر بذلك كله يصف واقع حياته وواقع بيئته ومشاهدها . وهكذا ترى مبلغ مشاركة الطبيعة الصحراوية فى توجيه الشاعر فى فنه .

وقد وصف أوس بن حجر سحابا دانيا يلمع برقه ويهطل مطره فقال :

يامن لبرق أبيت الليل أرقبه ... فى عارض كبياض الصبح لماح
دان مسف فويق الأرض هيدبه ... يكاد يدفعه من قام بالرياح
فمن بنجوته كمن بمحفله ... والمستكن كمن يمشى بقرواح
كأن ريقه لما علا شطبا ... أقراب أبلق ينفى الخيل رماح
فالتج أعلاه ثم ارتج أسفله ... وضاق ذرعا بحمل الماء منصاح
كأنما بين أعلاه وأسفله ... ريط منشرة أو ضوء مصباح

---

(١) راجع النابغة الذبيانى للأستاذ عمر الدسوقى ص ١٥٢ فى سياق الفصل رقم ٢ عن الصحراء .

كأن فيه عشارا جلة شرفا شعثاً لهاميم قد همت بإرشاح
بحا حناجرها هدلا مشافرها تسيم أولادها فى قرقر ضاح
هبت جنوب بأولاه ومال به أعجاز مزن تسح الماء دلاح
فأصبح الروض والقيعان ممرعة مابين مرتثق منها ومنصاح(١)

بات الشاعر طول ليله يرقب هذا البرق ، وقد بدا من خلال سحاب أبيض كبياض الصبح يلمع وقد دنا ماتدلى منه ، حتى ملأ سطح الأرض ، وانتشر فى وهده ونجده ، وكاد يلمسه بكفه ويدفعه ويزيحه عنه ، كل من قام ، فاستوى فى ذلك من كان فى مرتفع من الأرض أو منخفض ومسيل منها . ومن كان مطمئنا فى كنه وبيته . ومن مشى فى أرض مستوية ظاهرة .

وقد بدت له أوائل هذا السحاب ، لما سمحت إلى جبل شطب ، كأنها خواصر فرس أبلق ، ارتفع بياض تحجيله إلى فخذيه . وهو يسير على عجل . رماحا يطرد الخيل ويسابقها وكأنما ربطت بين أعلاه وأسفله ملاءات منشورة . أو جمع بينهما

---

(١) العارض : السحاب المعترض فى الأفق ـ اللماح : ـ اللامع ـ المسف : الدانى القريب ـ الهيدب : ماتدلى من السحاب ـ النجوة : ما ارتفع من الأرض ـ المحفل : مجتمع الماء ـ القرواح : بكسر القاف ، البارز الذى لا يستره من السماء شىء ـ ريقه : بفتح فكسر وتشديد ، أوله ـ شطب : بفتح فكسر ، اسم جبل ـ الأقراب : الخواصر جمع قرب بضم أوله ـ الأبلق : الفرس المسود المبيض ، أو ما ارتفع تحجيله إلى الفخد ـ النج : اختلط صوته ـ المنصاح : بضم أوله ، الفائض الجارى على الأرض ـ الريط . جمع ريطة نوع من الملاءات ـ العشار : جمع عشراء وهى الناقة التى مضى على حملها عشرة شهور أو ثمانية ، أو هى كالنفساء من النساء ، والعشار أيضاً النوق تسمى به حتى ينتج بعضها ، والبعض ينتظر نتاجه ـ الجلة » المسنة ـ السرف : بضمتين جمع شارف ، وهو المسن الهرم من النوق ـ الشعث : المتفرقة أو الملبدة الشعر ـ اللهاميم : الغزيرة اللبن مفردها لهموم كعصفور ـ همت بارشاح ، كادت تعظم فصيلها ـ القرقر ـ بفتح القافين ، الأرض المطمئنة اللينة ـ المزن : جمع مزنة وهى السحابة الماطرة ـ الدلاح : الكثير الماء ـ المنصاح : بضم أوله المتشقق : وعكسه المرتثق .

راجع الأبيات فى شعراء النصرانية ص ٤٩٣ ـ ومختارات ابن الشجرى ج ٢ ص ٤٨ ـ وتنسب الأبيات أيضاً لعبيد بن الأبرص ـ راجع أغانى الطبيعة ص ٣٤ للدكتور أحمد الحوفى .

ضوء مصباح وذلك لاتصالهما أحـــدهما بالآخر ببياض من ضوء أو ضباب .

وقد اشتد بينه صوت الرعد قويا خشنا متواصلا . كأنه صوت نوق هرمة مليدة الشعر غزيرة اللبن ، كاد فصيلها ينفصل عنها . فهى إليه شديدة الحنين وعليه صارخة الحنان . فغلظ صوتها واسترخت مشافرها ، لأنها تتحسس أولادها الراعية فى أرض مستوية لينة فسيحة واضحة .. . الخ . .

والأبيات نموذج من الشعر الجاهلى الجيد ، فى سماح اللفظ وملاءمة الجرس وقرب الخيال وإن تخللته ألفاظ غريبة غرابة السحراء ، وصلدة صلادة صخرها ، كالقرواح والمنصاح واللهاميم والفرقر والدلاح . . إلخ . إلا أن ذلك لاتبدو صنعة فيه ولا تكلف ، أو فيه الصنعة الجارية مجرى الطبع .

وبين الأبيات وحده تشد بعضها إلى بعض . وهى وحدة المعنى ووصف هذا البرق والسحاب وصفاً منسقا مرتباً ، يرسم تطور صورته من لدن بدايته إلى نهايته ، ومن لدن أخذ الشاعر يرقبه بالليل حتى دنا منه وملأ بمياهه البقاع ، واتصل أعلاه بأسفله ، ورعد فية الرعد ، وسحت مياهه فأمرعت منها القيعان .

ولعل هذا النهج ـ وهو نهج أوس بن حجر ـ لم يكن نهجا مطرد الاتباع فى الجاهلية . إذ جرى أغلب شعرائها على وحدة البيت وعلى نمط مما أشرنا . أما أوس فقد كان معنيا بتهذيب شعره .

وترى تشبيهاته منتزعة من بيئته ، لقد استخدم أدواتها وأجزاءها فى إيضاح صوره وإبراز معانيه . فشبه ـ مثلا ـ ريق السحاب لما علا الجبل فكساه بياضا ، بأقراب جواد أبلق يطرد الخيل . وصور مايصل أعلاه بأسفله ، بالريط المنشرة ، أو بضوء المصباح . وما يدوى فيه من أصوات الرعد ، بأصوات النوق التى تسيم أولادها ، وتناديها وقد بحت حناجرها . . .

ووصف طرفة بن العبد ناقته فى معلقته المشهورة بنحو ثمانية وعشرين بيتا . كاد يستنفد فى الوصف جميع أجزائها وصفاتها . فقد وصف عظامها ووثاقة خلقها واكتناز لحمها وضخامة فخذيها . وفقارها المتداخلة وعلو جسمها وطول عنقها ، وصلابة جمجمتها . وتبسط خدها ، وضخامة مشفرها ، ولمعان عينيها ، وشدة عدوها ، إلى غير ذلك .

ونجتزىء فى هذا المقام منها بهذه الأبيات :

وإنى لأمضى الهم عند احتضاره بعوجاء مرقال تروح وتغتدى
أمون كألواح الإران نصأتها على لاحب كأنه ظهر برجد
جمالية وجناء تردى كأنها سفنجة تبرى لأزعر أربد
تبارى عتاقا ناجيات وأتبعت وظيفا وظيفا فوق مور معبد (١)

وهكذا ترى طرفة يستعين على إذهاب همه إذا اعتراه ، بناقته الضامرة السريعة المأمونة العثار الشبيهة فى تماسكها وصلابتها بألواح التابوت — تابوت السادة —

وهو يزجرها بمنسأته — عصاه — ليوجهها إلى طريق واسع واضح ، مخطط كظهر البرجد — الكساء —

وهى تبارى عتاق الإبل — أو الخيل النجيبة — متبعة ساقا بساق ، وهى تسير فوق طريق مذلل لكثرة وطئه . .

---

(١) راجع المعلقة ، وفيها الأبيات ، فى جمهرة أشعار العرب ص١٧٣ — واحتضار الهم : حضوره — والعوجاء : الناقة الضامر — والمرقال : المسرعة فى مسيرها — والأمون : الناقة المأمونة العثار — والإران : التابوت — واللاحب : الطريق — والبرجد : الكساء — والجمالية : الشبيهة فى قوتها بالجمل — والوجناء : العظيمة الوجنات لقوتها — وتردى : تسير بين عدو ومشى — والسفنجة : النعامة — وتبرى : تتعرض — والأزعر : الذى قل ريشه وتفرق : أو الذى لا شعر له — والعتاق : الخيل النجيبة — والناجية : الناقة السريعة — والوظيف : ما بين الرسغ والركبة — والمور المعبد : الطريق المزلل الموطوء والمستوى — ونصأتها : زجرتها .

ووصف امرؤ القيس فى معلقته ، الليل وطوله ، ورأى نجومه وكأنها ثابتة لا تتحرك ، فقال :

فيالك من ليل كأن نجومه بكل مغار الفتل شدت بيذبل
كأن الثريا علقت فى مصامها بأمراس كتان إلى صم جندل(١)

ووصف جواده الذى يصاحبه فى رحلات صيده ومغامراته ، ووصف ضخامته وسرعته وحركته فقال :

وقد أغتدى والطير فى وكناتها بمنجرد قيد الأوابد هيكل
مكر مفر مدبر معا كجلمود صخر حطه السيل من عل
كميت يزل اللبد عن حال متنه كما زلت الصفراء بالمتنزل(٢)

وذكر البرق الوامض الذى يضىء سناه :

أصاح ترى برقا أريك وميضه كلمح اليدين فى حبى مكلل
يضىء سناه أو مصابيح راهب أمال السليط بالذبال المفتل(٣)

وذكر مطره الذى اقتلع الدوح :

فأضحى يسح الماء حول كتيفة يكب على الأذقان دوح الكنهبل(٤)

وذكر الطيور الفرحة بالمطر . والسباع الغرقى فيه :

---

(١) المغار الفتل : المشدود الفتل ـ ويذبل : اسم جبل ـ والثريا : نجم ـ والمصام : الموضع والموقف ـ والأمراس : الحبال ، وهى جمع مرس بفتحتين ، والمرس جمع مرسة بثلاث فتحات وهى الحبل . وصم الجنادل : صلب الحجارة .

(٢) الوكنات : الأعشاش ـ والمنجرد : القصير الشعر ـ وقيد الأوابد : قيد الوحوش : يعنى فرسه لسرعته كأنه قيد لها فى طرادها ـ والهيكل : الضخم ـ والكميت : الأحمر المسود ـ واللبد : الصوف المتلبد ـ والصفواء : الحجر الصلد الضخم .

(٣) الحبى : السحاب يشرف من الأفق على الأرض ، أو هو الذى بعضه فوق بعض ـ والمكلل : السحاب كان عليه غشاء ـ والسليط : الزيت .

(٤) كتيفة : مكان ـ ودوح الكنهبل : شجر عظام ،

كأنى مكاكى الجواء غـــدية صبحن سلافا من رحيق مفلفل
كأن السباع فيه غرقى عشية بأرجائه القصوى أنابيش عنصل (١)

وعلى هـذا الغرار وصف شعراء الجاهلية أجزاء بيئتهم الطبيعية ومشاهدها المختلفة ، كما تراءت لعيونهم ، وكما أحبتها نفوسهم .

ومن ذلك وصف الحارث بن عباد للسحاب وريح الجنوب . ووصف خفاف ابن ندبة للبرق والسحاب والغيث والسيل ، ووصف عدى بن زيد العبادى للبرق ، ووصف النابغة الذبيانى للسحاب والمطر . ووصف أبى دؤاد وزهير وعبد بنى الحسحاس والأعشى وساعدة بن جؤية وتأبط شرا ، والمسيب بن علس وغيرهم . (٢)

وقد صور النابغة الذبيانى معركة بين الثور الوحشى وكلاب الصيد . تصويرا بديعا فى رائيته الممتعة « عوجوا فحيوا » .

ووصف الأعشى الروضة ، والصمة بن عبدالله . ربيع نجد وصيفها . وخفاف ابن ندبة الضباب والسيل ، وذكروا فى أشعارهم العرار والنخيل والشجر والكرم والحماط والزنبق والقرنفل والفلفل والحنظل ، إلى غير ذلك . (٣)

وقد اهتموا بوصف هذه الأشياء ، لما لها من صلة وثيقة بحياتهم ، وعلاقة متينة بمعيشتهم . لقد صارت جزءاً منهم ارتبطوا بها وارتبطت بهم . فمن حقها عليهم أن يذكروها ، بل أن يتغنوا بها ، بل أن يخلدوها . وقد فعلوا .

وهدأت جذوة شعر الطبيعة ، منذ جاء الإسلام . إذ شغل الشعراء بالدعوة

---

(١) المكاكى : جمع مكاء ضرب من الطير — والسلاف : الخمر — والأنابيش جمع أنبوش وهو أصل البقل أو الشجر المقتلع بأصله وعروقه — تراجع الأبيات فى جمهرة أشعار العرب ص ٨٧ ،

(٢) راجع أغانى الطبيعة للدكتور الحوفى ص ٣٢ ، ٣٤ ، ٣٧ ،

(٣) المصدر نفسه ص ٤٠ وما بعدها — راجع أيضاً نهاية الأدب ج ١١ ،

الدينية . ثم فتحت فى عهد عمر - رضى الله عنه - الأقطار المجاورة لجزيرة العرب : الشام ومصر والعراق وفارس . ونزحت جوالى العرب إلى هذه الأمصار الجديدة ، وأخذوا فى استيطانها . فرأوا فيها مشاهد جديدة لم يألفوها فى جزيرتهم ، وبيئات طبيعية فاتنة غنية . ملئت حسنا وجمالا ، بأنهارها الجارية ، ورياضها الضاحكة وثمارها المواتية ، بين جبال وسهول وشواطىء . فعاد العرب إلى تغنيهم بمفاتن الطبيعة ، ولكن على سنة القدماء ، من الوقوف بالأطلال ووصف الناقة ومشاق الرحيل ، ووصف الوحش الذى يصادفهم فى الطريق .

لقد أخذت هذه الظاهرة تعود إلى مسرح الشعر العربى ، واشتد بروزها فى عهد بنى أمية .

ولم يتجه الشعراء اتجاها يذكر إلى مفاتن الطبيعة الجديدة المتفتحة أمام نواظرهم فى الأمصار والحواضر . لقد اتجهوا بدلا منها ، إلى مناظر البادية ومافيها من رحلة وديار وإبل ونوق ووحش وغيره . .

ذلك حق الوطن الأول ! وميراث الآباء والأجداد ، ووديعة الماضى ، جذبت خواطرهم إلى الاقتداء بالأسلاف ، وبعث عهودهم مرة جديدة .

ولماذا يبعثونها فى هذا المجال ، وقد أصرت الدولة والناس على بعثها ، فى مجالات القبليات والعصبيات والحزبيات والمفاخرات ونحوها . . . ؟ لقد كادت تكون الحياة الأموية حياة جاهلية ، بما بعث فيها من ذلك ، وشجع عليه الخلفاء .

ولقد أصبح الشعر الجاهلى - وما يشبهه - فى مقدمة وسائل الثقافة وميدان النقاش والجدل ، وموضع الدرس والموازنة والنقد . فكان لذلك - كما ذكرنا - أثر فى جذب خواطر الشعراء حينذاك إلى تأثر القديم ومحاذاته ، فى الاهتمام بالبادية ومحتوياتها وصورها . . غير أنهم - فى جملتهم - لم يبلغوا فى مجال الصدق مبلغ الأسلاف . ولم يندمجوا الاندماج النفسى الذى اندمجوه . ولعل

أصدقهم ذو الرمة فى وصف ناقته ، وقيت ليلى فى بعض غزلياته . (١)

فقد أطال ذو الرمة فى وصف الناقة وأحاط به إحاطة شاملة تدل على امتزاج شعوره وخاطره بها . أما قيس ليلى فقد كان يمزج غزلياته هذه بوصف الطبيعة ، حتى ليبدو أنه يعشـــقها فيذكرها كلما ذكر حبيبته ، أو يذكر حبيبته كلما ذكرها . يقول .

ألا هل طلوع الشمس يهدى تحية إلى آل ليلى أو دنو غروبها

ويقول :

وماطلع النجم الذى يهتدى به ولا الصبح إلاهيجا ذكرها ليا

ومهما يكن من شىء ، فهذا عمر بن أبى ربيعة ، يفتتح إحدى قصائده بقوله :

قف بالديار عفا من أهلها الأثر عفى معالمها الأرواح والمطر

بالعرصتين فمجرى السيل بينهما إلى القرين إلى مادونه البسر (٢)

وهذا الفرزدق يصف الذئب ، وقد صادفه فى طريقه ، بهذه الأبيات .

وأطلس عسال وما كان صاحبا دعوت لنارى موهنا فأتانى

فلما دنا قلت أدن دونك إننى وإياك فى زادى لمشتركان

فبت أسوى الزاد بينى وبينه على ضوء نار مرة ودخان

فقلت له لما تكشر ضاحكا وقائم سبفى من يدى بمكان

تعش فإن واثقتنى لا تخوننى نكن مثل من ياذئب يصطحبان

وأنت امرؤ ياذئب والغدر كنتما أخيين كانا أرضعا بلبان (٣)

---

(١) راجع وصف الطبيعة وتطوره للأستاذ عمر الدسوقى وآخرين تحت عنوان « العصر الأموى » ـ وراجع شعر الطبيعة فى الأدب العربى للدكتور سيد نوفل ص ١١٧ وما بعدها .

(٢) راجع ديوان عمر بن أبى ربيعة ص ٧ ط المطبعة اليمنية ـ وقيل إن القرينين جبلان ـ والبسر : ماء لبنى عقيل .

(٣) راجع ديوان الفرزدق ـ والأطلس : المغبر لونه إلى سواد .. والعسال . المهتز ـ والموهن نحو نصف الليل أو بعده بساعة .

وهكذا تخيل الفرزدق فى الذئب شخصا يخاطبه ويدعوه موهنا ليأتيه ، ويدعوه إلى مشاركته زاده . واقتسم هذا الزاد بينه وبينه ، قاعدين حول النار يستدفئان . ولحظ منه توثبه للغدر والفتك ، فهدأ من توثبه ، لا خوفا منه ، ولكن حرصا عليه . وطلب إليه مواعدته ومواثقته ، ليعيشا صاحبين ، مع أن من خلق الذئب الغدر . . .

وينحو الأخطل نحو النابغة الذبيانى فى بعض قصائده ـ فضلا عن ديباجته ـ فشبه ناقته مثله ، بالثور الوحشى ، ثم استطرد فصور معركة بين الثور وكلاب الصيد ، فى قصيدة رائية ، كأنها رائية النابغة ، لو لا خمرياتها . ومطلعها .

تغير الرسم من سلمى بأجفار وأقفرت من سليمى دمنة الدار [1]

فيصف فيها الناقة . ويشبهها بالثور ثم يستطرد فى وصفه قائلا :

كأنها برج رومى يشيده لز بجص وآجر وأحجار
أو مقفر خاضب الأظلاف جادله غيث تظاهر فى ميثاء مبكار
فبات فى جنب أرطاة تكفئه ريح شآمية هبت بأمطار
يجول ليلته والعين تضربه منها بغيث أجش الرعد نيار
إذا أراد بها التغميض أرقه سيل يدب بهدم الترب موار
كأنه إذ أضاء البرق بهجته فى أصفها نية أو مصطلى نار
أما السراة فمن ديباجة لهق وبالقوائم مثل الوشم بالقار ... الخ [2]

---

(١) الأجفار : موضع فى ديار بنى تغلب ـ والدمنة : آثار الدار والناس وما سودوا .

(٢) راجع ديوان الأخطل : وجمهرة أشعار العرب ص ٢٣٧ ، ٢٣٨ ـ والأخطل شاعر بنى أمية للدكتور السيد مصطفى غازى ـ ولزه : شده وألصقه : والمقفر : الذى خلا من أهله ، أو ذهب طعامه وجاع ـ وتظاهر : تعاون وتكاثر : والميثاء : الأرض السهلة : والمبكار : الأرض التى تعجل فى إدراك نباتها : والأرطاة : شجرة عظيمة والجمع أرطى : والنيار : الواضح المضىء : والموار : =

ويصف ذو الرمة الهاجرة وحرها بقوله :

وهاجرة حرها واقد نصبت لحاجبها حاجبي
تلوذ من الشمس أطلاؤها لياذ الغريم من الطالب
وتسجد للشمس حرباؤها كما يسجد القس للراهب[1]

ولما انتقل الملك إلى بنى العباس ، واتخذوا بغداد عاصمة لهم ، أخذ العرب يدخلون فى دور حضارى واسع النطاق ، يقوم على دعائم من مدنية الإسلام وآداب العرب ، وحضارة الفرس وعلوم اليونان ، وغيرهم .

واتسع أفق الثقافة وزاد الرخاء ، وكثر المانحون من الرؤساء . وأقبل الناس على حياة الترف ومجالس الأنس وأنشئوا العمائر والقصور والحدائق والبساتين والبرك وأجريت الجداول ، وعمرت مشاهد الطبيعة بالحيوان الأليف ، والطير المغرد ، والنبت الجميل ، والزهر الباسم ، والشجرة المظلة .

واستهوت هذه الطبيعة الجميله ، فيمن استهوتهم بأزهارها ورياضها وغيثها وبرقها ومجالى الجمال فيها ، الشاعر الكبير أبا تمام ، فاحتفى بالربيع واحتفل بمقدمه ، وصدر بأوصافه بعض مدائحه . فذكر رقة حواشى الدهر ، وتكسر الثرى فى حليه ، وبذل المصيف ، وجدة الشتاء وفضل يده . وذكر المطر ، وقد أعقبه الصحو النضر والندى ، وقد ادهنت به لمم الثرى فكأنه عذاره . .

وود أبو تمام ، لو يعمر حسن الروض لتستمر به بهجة الأيام . وطلب إلى

= الكثير الحركة ، والبهجة : الحسن ـ و لأصفهانية : نوع من الثياب مصبوغ بالزعفران ـ والسراة : بكسر أوله أعلى كل شى. ، والمراد ظهر الثور : واللهق : على وزن جبل أو كتف ، الشديد البياض : والقار : الزفت أو شىء أصود يطلى به .

(١) راجع نهاية الأرب ج ١ ص ١٧ ط دار الكتب ـ وحاجبها : ما اطرد من رمالها وطال ، أو ما انتشر من ضوء الشمس فيها ـ والأطلاء : أبناء الوحش ـ

صاحبيه أن يرسلا نظريهما فى الأرض ليشهدا صورها البديعة ، ومرائيها الفاتنة ، من نهار مشمس طلع به زهر الربا فأقمر . ومن كل زهراء تترقرق بالندى فكأنهما عين تتحدر . . . إلى غير ذلك من مشاهد الطبيعة ، ومفاتن الربيع وألوانه الزاهية يقول :

رقت حواشى الدهر فهى تمر مر ... وغدا الثرى فى حليه يتكسر
بذلت مقدمة المصيف حميدة ... ويد الشتاء جديدة لا تكفر

ويذكر المطر :

مطر يذوب الصحو منه وبعده ... صحو يكاد من النضارة يقطر
وندى إذا ادهنت به لمم الثرى ... خلت السحاب أتاه وهو معذر

ويدعو صاحبيه لرؤية هذا الجمال ، ومنه النهار المشمس المقمر :

يا صاحبى تقصيا نظريكما ... تريا وجوه الأرض كيف تصور
تريا نهارا مشمسا قد شابه ... زهر الربا فكأنما هو مقمر .. الخ[1]

وينهج البحترى نهج أبى تمام ، ويضرب على أوتاره فى عشق الطبيعة الماثلة لعينيه ، فيجلو فيها شعرة فاتنا . فيه من روحه فيض ، ومن نفسه قبس . ومن مشاعره استيحاء . ويعيش ردحا فى جو هذه الطبيعة الزاخر بالجمال يصف سحبها وغيثها . ويرى أن صوت رعدها ارتجاز وحنين . وأنها صادقة الوعد . وأن مطرها سفح دمع من غير وجد . ونسيمها نسيم ورد . وصوتها زئير أسد . ولمعها لمع سيوف الهند . . الخ

---

(١) راجع ديوان أبى تمام — وشعر الطبيعة فى الأدب العربى ص ١٦٩ — والحواشى : الجوانب — وتتمرمر : تمور وتتحرك — واللمم : جمع لمة بكسر أوله ، وهى الشعر المجاوز شحمة الأذن — والمعذر : الذى بدا عذراه ، والعذار جانب اللحية .

ذات ارتجـــاز بحنين الرعد مجرورة الذيل صدوق الوعد
مسفوحة الدمع لغير الوجد لها نسيم كنسيم الورد
ورنة مثل زئير الأسد ولمع برق كسيوف الهند
جاءت بها ريح الصبا من نجد فانتشرت مثل انتشار العقد
فراحت الأرض بعيش رغد من وشى أنوار الربا فى برد
كأنما غدراتها فى الوهـــد يلعبن من حبابها بالنرد[1]

وينطلق البحترى . فينطلق معه الربيع . ويضحك مقبلا عليه يختال ، وينبه النيروز أوائل الورد ، ويفتقه برد النـــدى ، فكأنه يبثه حديثا كان مكتما . . . الخ . يقول :

أتاك الربيع الطلق يختال ضاحكا من البشر حتى كاد أن يتكلما
وقد نبه النيروز فى غسق الدجى أوائل ورد كن بالأمس نوما[2]
يفتقها برد الندى فكأنه يبث حديثا كان قبل مكتما[3]

وفى كثير مما ترى تشخيصا . خلع فيه الشاعر أحاسيسه وأخليته على موصوفه وأسند إليه ما يسند إلى الإنسان . لقد رأى فى تفتيق الندى للورد حديثاً ، ورأى فى ورق الشجر ، لباسا له موشى . . . الخ

ويسلط ابن المعتز حاسته البصرية على مشاهد الطبيعة ، بما لها من أشكال وألوان . فتوحى إليه بضروب من الخيال والتصور ، يتأنق فى إبرازها ببراعة الصناع . وأبرز أدروانه إلى ذلك ، التشبيه . . . فالهلال منجل صيغ من فضة .

---

(١) راجع ديوان البحترى — والارتجاز : التصويت والإنشاد ونظم الرجز — والوشى : نقش الثوب — والبرد : الثوب — والوهد : الأرض المنخفضة — وحباب المـاء ، بفتح أوله فقاقيعه — والنرد : إحدى اللعب .

(٢) النيروز والنوروز أول يوم من السنة القبطية .

(٣) راجع ديوان البحترى .

والثريا هودج فوق ناقة . والقمر فى النجوم ملك فى مواكبه ، والشمس تتلو البدر ، فهما قدحان من ماء وخمر . والصبح يتلو المشترى ، وهو عريان يمشى فى الدجى بسراج ... يقول :

فى الهلال :

انظر إلى حسن هلال بدا يهتك من إنواره الحندسا
كمنجل قد صيغ من فضة يحصد من زهر الدجى نرجسا[1]

وفى الثريا :

كأن الثريا هودج فوق ناقة يحث بها حاد إلى الغرب مزعج
وقد لمعت حتى كأن بريقها قوارير فيها زئبق يترجرج

وفى القمر :

قمر بدا لك مشرقا فى ليلة حسن الدجى أذياله عن ذيله

وفى الشمس والبدر :

حتى رأيت الشمس تتلو البدر فى كبد السما
فكأنه وكأنها قد حان من خمر وما

وفى الصبح :

والصبح يتلو المشترى فكأنه عريان يمشى فى الدجى بسراج[2]

وهكذا سار كثير من شعراء العباسيين فى الطريق ، ووصفوا بدائع الطبيعة ومحاسن جمالها .

---

(١) يهتك : يكشف ويفضح — والحندس : بكسر أوله وثالثه ، الليل المظلم والظلمة .
(٢) ديوان ابن المعتز — وشعر الطبيعة فى الأدب العربى للدكتور سيد نوفل .

وانتقل الشعر مع العرب إلى بلاد الأندلس ، حيث الطبيعة المزدهرة الغنية ، والأرض الخصبة الثرية ، والأنهار الجارية الوفية ، والجداول الرقراقة المضية . . وحيث الأجواء المعتدلة ، والأنسام الوانية . والأمطار الحانية ، والسواحل الممتدة ، والهضاب العالية ، والجبال المخضرة ، والسهول الفسيحة ، والمراعى المعشبة ، والنبت الناجم ، والثمر الدائم ، والفاكهة الشهية ، والكروم الحلوة ، والأطيار المغردة ، والشجر الباسق ، والماشية والأنعام .. إلى غير ذلك .

فوجد الشعر فى طبيعة البيئة ، مراحا غير مراحه القديم ، وسعة من العيش بعد ضيق ، ومرحا من الحياة بعد ضنك ، وتبسطا من الأيام بعد قبض . فتبسطت أساريره ، وتفتحت قسماته ، وهش للحياة وبش . وتأثر بهذه الطبيعة المواتية تأثرا بالغا . نقله من قسوة الصحراء إلى لين المدينة ، ومن صرامة البادية إلى رقة الحاضرة . وتم ذلك شيئا فشيئا ، حتى سلست عبارته ، وعذبت ألفاظه ، وغاضت عنه الغرابة والصلابة ، وتمشت فى أرجائه وحواشيه الموسيقا العذبة الوديعة ، وطبع بطابع هذه البلاد ، وظهرت فيه المجزوءات والموشحات ، وبدت فيه الرقة واللطف ، والرفاهة والترف . وصار للغة والأدب بذلك حياة جديدة . وأصبح الشعر أغانى نفسية هزجة ، وألحانا وجدانية متتابعة ، وأقبل الناس جميعا عربا وغير عرب ، على لغته السمحة ، فنسخت اللغات الوطنية وأقبلوا على الشعر ينظمونه أفانين . وكأن الناس أصبحوا وقد طبعوا على قوله والتغنى به ، وما واتتهم الفرصة لذلك ، يحدون به فرادى وجماعات ، ويتعنون به عمالا وصناعا وزراعا .

ومن أبدع ما تغنوا به مظاهر طبيعة بلادهم ومشاهدها الجميلة الوسيمة ، التى راقت عيونهم ، وأمتعت نفوسهم ، وجذبت حواسهم ، بأشكالها المغرية ، وألوانها الزاهية ، وجودها الجزل ، وخيرها العميم ، وكرمها الغامر . حتى بدت أمام عيونهم روضة الدنيا وجنة الأرض .

وأخذت آثار البيئة تبدو آياتها عليهم ، رويدا رويدا ، لبالغ تأثرهم ببيئتهم

العربية الأولى . حتى إذا تم لهم الاستقرار وطاب بهم المقام ، اتضحت هذه الآثار عليهم ، وصارت أندلسية خالصة ، إلا ما اقتضته العربية المشتركة ، ومعجمها فى اللفظ والأسلوب وجرى أكثر شعرائهم على وصف الطبيعة فى سمائها ونجومها وسحابها وبروقها ورعدها ومطرها ، وأرضها وجبالها وسهولها وأنهارها وجداولها ، ومدنها ورياضها وحقولها ، وفاكهتها وزهرها وشجرها وثمرها وطيرها ، وغير ذلك .

واندمج كثير منهم فى هذه المفاتن ، وامتزج بها امتزاجا نفسيا بالغا ، لم نشهد له نظيرا فى شعراء المشرق . فأجادوا تصويرها ، وتعمقوا بعاطفتهم وإحساسهم فى نواحيها ، وأنشئوا منها أحياء نابضة ، وشخوصا محسة ، ومزجوا أنباءها بأنبائهم ، وخصائصها بخصائصهم ، وشبهوا بها واستعاروا منها .

ومنهم على تتابع عصورهم : ابن شهيد وابن هانىء وابن زيدون وابن خفاجة الأندلسى وصاف الطبيعة .

يصدح الحمام باكيا على فراق إلفه ، فيرى فيه ابن شهيد زميلا له وشريكا فى آلامه ووجده ، فيناجيه قائلا :

وقلت لصداح الحمام وقد بكى ... على الغصن إلفا والدموع تجود
ألا أيها الباكى على من تحبه ... كلانا معنى بالخلاء فريد
فصفق من ريش الجناحين واقفا ... على القرب حتى ما عليه مزيد
وما زال يبكينى وأبكيه جاهدا ... وللشوق من دون الضلوع وقود

وتفتن مناظر الروض عينى ابن هانى ، فيرى كأن نور الشمس ينشر فيه سبائكها الذهبية ، وكأن كئوس الراح تسرى بعبقها ورياها فى خلاله ، فيقول :

ألم تريا الروض الأريض كأنما ... أسرة نور الشمس فيه سبائك
كأن كئوسا فيه تسرى براحها ... إذا عللتها الساريات الحوائك

كأن الشقيق الغض يكحل أعينا ويسفك فى لبانه الدم سافك[1]»

ويمتزج الولوع بالطبيعة والتعلق بمحاسنها ، بالولوع بالمحبوبة والتشوق إلى أيامها ومفاتنها ، عند ابن زيدون . إذ يذكر حبيبته بالزهراء ، فيمزج مشاعره نحوها ، بمشاعره نحو الطبيعة :

إنى ذكرتـــك بالزهراء مشتاقا والأفق طلق ومرأى الأرض قد راقا
وللنسيم اعتلال فى أصائله كأنه رق لى فاعتل إشفاقا
والروض عن مائه الفضى مبتسم كما شققت عن اللبات أطواقا
يوم كأيام لذات لنا انصرمت بتنا لها حين نام الدهر سراقا
نلهو بمـا يستميل العين من زهر جال الندى فيـــه حتى مال أعناقا
كأن أعينه إذ عاينت أرقى بكت لمـا بى فجال الدمع رقراقا[2]

وقد ابتعد ابن خفاجة الأندلسى عن دنيا السياسة ومقتضياتها . وعزف عنها وأخلد إلى حياة من الدعة . أطلق فيها مشاعره تتجاوب مع مشاهد الطبيعة الجميلة التى ولهت نفسه وملكت عليه حسه . فاتخذها معشوقة ، وهب لها خواطره ووجداناته ، ووجه إليه كل مخاطباته ومناجاته فهى عرسه الحلوة العطرة المزدانة وحبيبته السمحة المستجيبة . فنسيمها عليل وظلها ظليل ونورها طرف متنبه . وماؤها مبتسم وبرقها راية وسحابها كتيبة وأيكتها رياً متهادية ، وأراكتها معطوفة شاكرة ، وحمامها مرجع ، والروض نشوان من الصبا . . الخ . يقول :

---

(١) راجع شعراء الطبيعة ص ٢٥٤ ــ والأريض ، الروض المعجب للعين الذكى الخليق للخير ــ والساريات : السحب ــ والحوائك : الناسجة ــ واللبات : جمع لبة بفتح أوله ، وتشديد ثانية مع فتحه وهى النحر وموضع القلادة من العنق .

(٢) راجع ديوان ابن زيدون ــ والزهراء : بلد بالأندلس ــ والرقراق : المتحرك .

أحسن المدامة والنسيم عليل والظل خفاق الرواق ظليل
والنور طرف قد تنبه دامع والماء مبتسم يروق صقيل
وتطلعت من برق كل غمامة فى كل أفق راية ورعيل
حتى تهادى كل خوطة أيكة ريا وغصت تلعة ومسيل
عطف الأراكة فانثنت شكرا له طربا ورجع فى الغصون هديل
فالروض مهتز المعاطف نعمة نشوان يعطفه الصبا فيميل الخ(١)

واستقر الإسلام بمصر وتوطنت العربية رويدا رويدا بعد الفتح العربى . وما زالت حتى انتشرت بها المحادثات والمخاطبات ، وغلبت على اللغات الوطنية ، شأنها هنا شأنها هناك فى بلاد الأندلس . وتفتحت خواطر الأدباء بها والشعراء . وما زالوا حتى صنعوا لمصر شعراً عربيا ينم عنها ويدل عليها مما أوحت به إليهم وألهمت خواطرهم .

وزاد اتضاح هذه الظاهرة فى عهد الفاطميين وما والاه . وأغرم شعراء مصر كما أغرم سواهم بطبيعة بلادهم ، وأخذوا يغنونها ويمزجون أهازيجهم عنها بالحب والخمر والطرب ، ومنهم أبو الفتح بن قلاقس وتميم بن المعز وابن سناء الملك والقاضى الفاضل وابن الساعاتى ثم البهاء زهير والجمال بن مطروح وغيرهم .

ويصور لك ابن قلاقس وجه الصباح يشق بضوئه غلالة الظلماء حينما ينحل عقد الجوزاء ، ويريك أزهار الربا متوجة بالأندى ، ويجرى إليك النسيم ، فى فضل ردائه ، وينطق لك الحمام على منابر أيكه . . الخ .

شق الصباح غلالة الظلماء وانحل عقد كواكب الجوزاء

---

(١) ديوان ابن خفاجة الأندلسى . — والرعيل : جماعة الخيل — والخوطة : الغصن الناعم — والأريكة : واحدة الأيك وهو الشجر الملتف الكثير — والتلعة : ما ارتفع من الأرض أو ما انخفض منها ، ضد ، وهى مسيل للماء أيضا ، وما اتسع من فوهة الوادى — والأراكة : الأيكة .

وتكللت تيجان أزهار الربا بغرائب من لؤلؤ الأنداء
وجرى النسيم فجر فضل ردائه متمرسا بمساقط الأنواء
وعلا الحمام على منابر أيكه يبدى فصاحة ألسن الخطباء(١)

وهذه الأبيات التى نظمها البهاء زهير متغنيا بأرض وطنه مصر العزيزة . وقد ملك عليه الشوق إليها قلبه وخلب الحنين لبه . إثر فراق ما راق ، وابتعاد دون ميعاد . فما هدأت له أحشاؤه ، ولا رقأت أجفانه ، واندفع يبثها فى بعاده ما اختلج فى نفسه من الأشواق ، ويكشف لها ما استكن فى قلبه من حب . وتلك إحدى نوازع الوطنية الصميمة التى يولدها الإلف وطول الصحبة وطيب المقام وجمال الصلة ، بين المرء ووطنه وأهله ، ناعما بين طبيعته الحانية ، وعشائره الوافية . والأبيات من النوادر المبكرة فى بابها ، أى فى حب مصر والوفاء لها والتشوق الأصيل إليها والاتجاه العاطفى نحوها . يقول :

سقى واديا بين العريش وبرقة من الغيث هطال الشآبيب هتان
وحيا النسيم الرطب عنى إذا سرى هنالك أوطانا إذا قيل أوطان
بلاد متى ما جئتها جئت جنة لعينك منها كل ما شئت رضوان
تمثل لى الأشواق أن ترابها وحصبائها مسك يفوح وعقيان
فيا ساكنى مصر تراكم علمتم بأنى مالى عنكم الدهر سلوان
وما فى فؤادى موضع لسواكم ومن أين فيه وهو بالشوق ملآن
عسى الله يطوى شقة البعد بيننا فتهدأ أحشاء وترقأ أجفان(٢)

ونهض الشعر العربى فى مصر نهضة عظيمة فى العصر الحديث ، على يد عدة

---

(١) شعر الطبيعة ص ٢٨٧ .

(٢) المنتخب لطه حسين وآخرين ج ٢ ص ١٠٣ ط سنة ١٩٤٦ م — والشآبيب : جمع شؤبوب وهو الدفعة من المطر — والهتان : الكثير الانصباب — والعقيان : الذهب .

أفذاذ من شعرائها كالبارودى وحفنى ناصف وإسماعيل صبرى وحافظ إبراهيم وأحمد شوقى ومحمد عبد المطلب وعلى الجارم وعلى محمود طه وأحمد محرم والكاشف وغيرهم من الأعلام .

ونضج شعر الطبيعة المصرية على يد بعضهم بما أوحته إليهم من أسرارها ، وأثارته فى نفوسهم من أخبارها وعاونت الثقافات الأجنبية المنتشرة ، وآدابها ومعارفها ، على هذا النضج . فضلا عن انتشار الثقافات العربية المختلفة .

وقد لفتت آيات الربيع خاطر البارودى ، فذكر بها مواسم لهوه فى عصر الشباب ، وطفق يصف هذه الآيات ما بين أغصان مائجة بيد الصبا كأنها طيور مرفرفة بأجنحة خضر ، وندى فوق الشقيق كمدامع خد ، وشمس مغازلة بأشعتها الذهبية كشرار على جمر ، ومرعى اللفظ وشى ديمة ، ومرمى الخطوة أجوع مثر ، حتى بدت المروج لعينه سماء تروق بأنجم زهر .

وقد ماجت الأغصان بين يد الصبا ... كما رفرفت طير بأجنحة خضر
كأن الندى فوق الشقيق مدامع ... تجول بخد أو جمان على تبر
إذا غازلتها لمعة ذهبية ... من الشمس رفت كالشرار على الجمر
ففى كل مرعى لحظة وشى ديمة ... وفى كل مرمى خطوة أجرع مثر
مروج جلالها الزهر حتى كأنها ... سماء تروق العين بالأنجم الزهر (١)

ومازال الشاعر حتى ملك عليه الريف المصرى لبه ونبه خاطره ووجه حسه (٢). فوصف صباحه المشرق الندى وتنفس النوار به ، والطيور المتكلمة فيه بلغاتها ورأى بطاحه عطرة كأن بكل قرارة منها عطارا ، وذلك لزهرها الرفاف على الغصون . ومعه الطير الغرد والجدول الزخار والرياح الطيبة المعتدلة مع الهواجر

---

(١) الجمان : اللؤلؤ — والوشى : نقش الثوب — والديمة : مطر يدوم فى سكون بلا رعد وبرق — والأجرع : الرملة الطيبة المنبت لا وعوثة فيها

(٢) راجع « فى الأدب الحديث » للاستاذ عمر الدسوقى ج ٢ ص ١٥٣ .

القصيرة وقد انتشرت أشجار النخيل باسقة كأنها العمد والمنار ، وقد عقدت سعفها فى أعاليها وعلت ، وبدت بها عراجين بسرها كفتائل تمشت النار فى أعاليها . . . الخ . قال :

رف الندى وتنفس النور وتكلمت بلغاتها الأطيار
وتأرجت سر البطاح كأنما فى بطن كل قرارة عطار
زهر يرف على الغصون وطائر غرد الهدير وجدول زخار
ونواسم أنفاسهن طويلة وهواجر أعمارهن قصار
والباسقات الحاملات كأنها عمد مشعبة الذرا ومنار
عقدت ذلاذل سوقها فى جيدها وسمت فليس تنالها الأبصار
فأصولها للسابحات ملاعب وفروعها للنيرات مطار
يبدو بها زهر تخال إهانه فتلا تمشت فى ذراها النار . . الخ[1] .

وأمعن شوقى فى وصف الطبيعة المصرية ، وأفاض فى وصف كثير من معالمها . وحسبنا هنا أن ننوه بوصفه للجزيرة وبمطولته البارعة فى وصف النيل ومناجاته ، ووصف حضارة الدول على جانبيه . وبفرائده فى مخاطبة الآثار المصرية ومنها عصماؤه فى مناجاة أبى الهول . وبقصيدته المنقطعة النظير فى وصف مملكة النحل . ولشوقى فى مناجاة الربيع المصرى ووصف مجاليه وآياته ، أبيات فى أكثر من مناسبة .

ومنها أبياته الجيدة فى مطلع قصيدته التى ردبها على تحية الذين كرموه فى حفلة تكريمه عام ١٩٢٧ م .

مرحباً بالربيع فى ريعانه وبأنواره وطيب زمانه

---

(١) ديوان البارودى ج ٢ ص ٥٩ و ٦٠ ط بولاق سنة ١٩٥٣ — ورف : برق وتلألأ — والسرر : بضم ففتح جمع سرة بضم أوله وتشديد ثانيه مع الفتح وهى ، مكان السر من الصبى الذى تقطعه القابلة ، وهو هنا على التشبيه — والقرارة : ما اطمأن من الأرض — والذلاذل : أسافل القميص — والنيرات : النجوم — والزهو : البسر الملون — والإهان : عرجون البلح —

رفت الأرض فى مواكب آذا ... روشب الزمان فى عنفوانه
نزل الروض ضاحك البشر يمشى ... فيه مشى الأمير فى بستانه ...(١)

ومن مناجاته للنيل :

من أى عهد فى القرى تتدفق ... وبأى كف فى المدائن تغدق
ومن السماء نزلت أم فجرت من ... عليا الجنان جداولا تترقرق
وبأى عين أم بأية مزنة ... أم أى طوفان تفيض وتفهق
وبأى نول أنت ناسج بردة ... للضفتين جديدها لا يخلق
تسود ديباجا إذا فارقتها
فإذا حضرت اخضوضر الإستبرق.. الخ(٢)

ومن مناجاته لأبى الهول :

أبا الهول طال عليك العصر ... وبلغت فى الأرض أقصى العمر
فيالدة الدهر لا الدهر شب ... ولا أنت جاوزت حد الصغر
إلام ركوبك متن الرمال ... لطى الأصيل وجوب السحر
تسافر منتقلا فى القرون ... فأيان تلقى غبار السفر
أبنيك عهد وبين الجبال ... تزولان فى الموعد المنتظر .. الخ(٣).

وحافظ إبراهيم - وإن لم يكن فى المقدمة بين وصاف الطبيعة المصرية - مع أنه شاعر النيل - أفلتت منه بعض أبيات دال فيها على تأثره بمشاهدة الطبيعة . ومنها قصيدته الرائية الجيدة التى نظمها بمناسبة رحلته إلى إيطاليا عام ١٩١٣ م . وجمع فيها بين وصف مشاهد مصرية وغربية ، مع الموازنة بينهما . ومن أبدع قوله وصفه منظر البحر الثائر تحت السفينة « اسبيريا » ووصف بركان فيزوف ، وشمس إيطاليا وشمس مصر . ولعله أوحد شعراء العربية فى هذا الاتجاه .

وقد بدأ القصيدة ببيت هو منها كأنه العنوان . فحد عن العاصف وشدته ،

(١،٢،٣) الشوقيات - والإستبرق ، الديباج الغليظ ، وهو النقش .

والبحر وثورته ، وتوالى أمواجه ، وتلاعبه بالسفينة ، وثبات السفينة وقوة عزيمتها ، قال :

عاصف يرتمى وبحر يغير أما بالله منهما مستجير
وكأن الأمواج وهى توالى محنقات أشجان نفس تثور
أزبدت ثم جرجرت ثم ثارت ثم فارت كما تفور القدور
ثم أوفت مثل الجبال على الفـــلك وللفلك عزمة لا تخور
تترامى بجؤجؤ لا يبـالى أمياه تحوطه أم صخور
أزعج البحر جانبيها من الشـــد فجنب يعلو وجنب يغور

ويوازن بين شمس مصر وشمس إيطاليا ، وبين جو مصر وجو إيطاليا. فيقول فى طرافة :

شمسهم غادة عليها حجاب فهى شرقية حوتها الخدور
شمسنا غادة أبت أن توارى فهى غربية جلاها السفور
جوهم فى تقلب واختلاف غير أن الثبات فيهم وفير
جونا أثبت الجواء ولكن ليس فينا على الثبات صبور[1]

وقد ساق حب المطابقة إلى هذه الدعوى التى ادعاها الشاعر فى الشطر الأخير ، ولا أساس لها من الصحة . وليست هذه هى المرة الوحيدة التى يوقع حب المطابقة هذا الشاعر الكبير ، ، ويورطه فى مزاعم غير صحيحة فى إطلاقها . فقد أراد أن يمدح مرة المرحوم أحمد لطفى السيد ، فقال له :

يا كاسى الأخـــلاق فى بلد عن الأخـــلاق عار

---

(١) راجع ديوان حافظ ـ وجرجرت : صوتت وزمجرت : والجرجرة صوت البعير فى حنجرته ، وصب الماء فى الحلق ـ والجؤجؤ : الصدر ،

ثانيا : فى البيئة السياسية

والأحداث السياسية فى الوطن ، من أمس الأحداث بعواطف أهله ، ومن أوثقها صلة بمشاعرهم . ولاعجب فهى ذات متات بصميم حياتهم المادية والمعنوية. فإذا كانت ذات صلة بمطاعمهم ومشاربهم وبثروة بلادهم وخيرات وطنهم ، فهى ذات صلة بحريتهم وكرامتهم وشرفهم وأعراضهم . ولذلك ترى لها رجعا بعيدا وصدى بارزا فى شعر شعرائهم ، أو ينبغى أن يكون لها هذا الرجع والصدى .

إلا أن الحرية السياسية إذا كانت مكفولة للشعراء وغير الشعراء فى أحد الأوطان ، أو غامر الشعراء وقامروا بمصائرهم ، ولم يبالوا حاكما ظالما أو أميرا جائرا ، كان ذلك أدعى إلى انطلاقهم وإلى اندفاع ألسنتهم بالقول السائغ فى هذه الأحداث يسجلونها ويسجلون وقائعها وتفاصيلها واتجاهاتها . ومايكون لذلك من أدلة وعلل . وما تضطر إليه من مناقشة أو مجادلة ومحاجة . وحينئذ ترى نتاجهم مرآة صادقه لبيئتهم السياسية ومايتصل بها من حماسة وفخر ووصف وغيره .

فإذا لم تكن هناك حرية متاحة أو مغامرة جادة ، كان ذلك أوعى إلى كبت المشاعر وسجن الخواطر . فيخسر الأدب والتاريخ بذلك خسارة لا تعوض . وحينئذ لانظفر باللون السياسى فى الشعر إلامن جانب واحد ، هو الجانب الذى يرتضيه الحكام القائمون والأمراء المحكمون .

ويتناول شعر البيئة السياسية أحداث الوطن فى داخله وخارجه . كما يمتد إلى كل لون من الشعر يكون « الحاكم » وتصرفه محوراً أساسيا يدور حوله . لذلك يدخل فيه المديح وما قد يحر إليه من فخر أو هجاء أو رثاء أو نحوه .

ويربط الأستاذ عمر الدسوقى بين شعر البيئة السياسية فى مصر ، وبين وصف الطبيعة المصرية والتغنى بها ربطا طريفا ويرى أن شعراء مصر فى العصور المتأخرة

لم يلتفوا إلى الطبيعة المصرية ومافيها من جمال وفتنة ، لعدم شعورهم الوطنى أو إحساسهم القومى لأن هذا الشعور أو الإحساس من شأنه أن يدفع إلى الإعجاب بطبيعة البلاد فمحبتها والتعلق بها . (١) وهو تعليل جميل .

وشعر البيئة السياسية فى الجاهلية . يتمثل أوضح مايتمثل ، فيمانظمه شعراؤها فى معاركهم القبلية .

وقد يعتبر هذا الشعر القبلى لونا من الشعر الاجتماعى ، لأنه نتيجة انزاع فى مجتمع واحد ، ولكن إذا اعتبرنا أن كل قبيلة كانت تعيش كأنها دولة صغيرة ومجتمع مستقل ، بدا لنا النزاع المحتدم بين القبائل ، نزاعا سياسيا ، وبداشعره لونا من الشعر السياسى . فلا بأس من التوسع فى اعتباره هكذا ، على هذا الأساس .

فقد كان العرب حينذاك يعيشون قبائل متفرقة متنازعة ينجم الخلاف بينها لأتفه الأسباب بسبب أرض أو مرعى أو مفاخرة أو مراهنة أو استعلاء أو ثأر أو عشق أو نحو ذلك . وكثيرا ماكان يقوم على أثر هذا الخلاف حروب مبيرة ومعارك دامية يخوضونها أبطالا صناديد وفرسانا مغاوير . وقدتشتد شدتها وتطول مدتها ، حتى تصل إلى أربعين عاما — مثلا — كحرب البسوس وحرب داحس والغبراء . وتجد هذه الحروب والمعارك لدى شعراء القبائل المحتربة استجابة سريعة حادة متحمسة ، وتهز خواطرهم هزا عنيفا ، فينظمون فى وصفها ووقائعها وانتصاراتها وبطولاتها .

وكان الشعراء فى قبائلهم ألسنتهم الداعية وصحفهم المنشرة ومقاولهم الذادة ، يسجلون ويخلدون ويهددون ويتوعدون ، دفاعا عن شرف القبيلة وعرضها ومالها .

يقول ابن رشيق : « كانت القبائل من العرب إذا نبغ فيها شاعر أتت القبائل فهنأتها . وصنعت الأطعمة واجتمع النساء يلعبن بالمزاهر كما يصنعون فى

---

(١) فى الأدب الحديث ج ٢ ص ١٥٣ .

الأعراس ويتباشر الرجال والولدان . لأنه حماية لأعراضهم وذب عن أحسابهم وتخليد لمآثرهم ، وإشادة بذكرهم » . (١)

ومن أشهر حروب الجاهلية ـ كما أشرنا ـ حرب داحس والغبراء ، وكانت بين عبس وذبيان ، بسبب رهان بين هاتين الفرسين .

ومن أشهر حروب الجاهلية أيضاً حرب البسوس وكانت بين بكر وتغلب ابنى وائل . وكان كليب التغلبي ذا زهو وصلف وتيـــه ، وكان فارساً صنديداً اجتمعت له معد كلها ، وجعلوا له قسم الملك وتاجه ونجيبته وطاعته . وبلغ من بغيه أن كان يحمى مواقع السحاب فلا يرعى حماه . ولا تورد إبل مع إبله ، ولا توقد نار مع ناره . وكان قد تزوج جليلة بن مرة بن ذهل بن شيبان . وأخوها جساس ابن مرة وكان لجساس خالة تدعى «البسوس» بنت منقذ التميمية ، وكانت قد نزلت فى حماه . فمرت إبل لكليب فتفلتت ناقة البسوس واختلطت بإبله فوردت معها على حوضه ، فرآها كليب فأنكرها ، وصوب إليها قوسه فأصماها وخرم ضرعها . فنفرت الناقة وهى ترغو . وانتهت إلى البسوس ، فصرخت هذه وقذفت خمارها عن رأسها وصاحت « واذلاه واجاراه » وأنشأت تقول :

لعمرى لو أصبحت فى دار منقـــذ لما ضيم سعد وهو جار لأبياتى ...الخ

فلما سمعها جساس سكنها وقال : « والله ليقتلن غداً جمل عظيم أعظم عقراً من ناقتك » . وترقب جساس فرصة فى كليب فطعنه فأذراه .

وكان المهلهل أخو كليب شاعراً وفارساً ، ولكنه كان منصرفاً إلى معاقرة الخمر والنساء اتكالا على أخوه كليب . فلما قتل كليب هاجت هائجته وثارت ثائرته . وأخـــذ يجمع للفتك ببنى بكر . ويندب أخاه ويرثيه بأكثر من مرثية ، ومن أبياته :

كليب لا خير فى الدنيا ومن فيها إذا أنت خليتها فيمن يخليها . . الخ

---

(١) العمدة لابن رشيق ج ١ ص ٤٩ باب احتماء القبائل بشعرائها .

وتعددت لقاءات بنى تغلب بقبيلة بنى شيبان البكرية ، ومن انحاز إليها من قبائل بكر ، وتكررت أيامهم ، ومن بينها يوم واردات ويوم الذنائب ويوم عنيزة ، وكانت لتغلب على بكر وقد وصفه كليب ووصف غيره من الأيام فى قصيدة طويلة أولها :

أيلتنا بذى حسم أنيرى إذا أنت انقضيت فلا تجورى

وكان الحارث بن عباد البكرى قد انقبض فى أهل بيته عن مشاركة بنى شيبان فى الحرب ، وقال : « لا ناقة لى فى هذا ولا جمل ». حتى اجتمعت إليه قبائل بكر ، بعد أن أثخن فيهم التغلبيون ، وقالوا له : « فنى قومك »! فأرسل الحارث ـ ابنه أو ابن أخيه ـ بجيراً إلى مهلهل . وقال له : « قل له إنى اعتزلت قومى لأنهم ظلموك وخليتك وإياهم . وقد أدركت ثأرك وقتلت قومك » . فأتاه بجير ، فقتله مهلهل وقال له : بؤ بشسع نعل كليب » . فلما علم الحارث بقتله ، قال : نعم القتيل ودى بين الأخوين . ثم علم بأن المهلهل قتله بشسع نعل كليب ، فهاج وغضب وثار واستعد لحربه . وكان فارساً مغواراً وله فرس اسمها « النعامة » ، فانطلق ينشد :

لهف نفسى على بجير إذا ما جالت الخيل يوم حرب عضال

ويقول :

قتلوه بشسع نعل كليب إن قتل الرجال بالشسع غال
يا بجير الخيرات لا صلح حتى نملأ البيد من رءوس الرجال

ويقول :

قربا مربط النعامة منى لقحت حرب وائل عن حيال.. الخ[1]

واقتاد الحارث بنى بكر وحمل على التغلبيين حتى هرب مهلهل وتفرقت

---

(١) الحرب العضال : الشاقة المعيبة ـ والشسع : قبال النعل ، بكسر القاف ، وهو زمام بين الأصبع الوسطى والتى تليها ـ ولقحت الحرب : كناية عن استعدادها للشر والامتداد ، ولقحت الناقة قبلت اللقاح . ـ والحيال : أن يحمل الناقة فلا تلقح .

قبائل تغلب وكادت القبيلتان تفنيان فى حرب مبيدة طاحنة حمقاء استمرت زهاء أربعين عاماً (١) .

ومن أشهر حروب الجاهلية أيضاً حروب امرىء القيس الشاعر ـ ابن أخت مهلهل ـ ضد بنى أســـد . وكان أبوه حجر مملكا عليهم يدينون له بالطاعة ، كما دانت قبائل مضرية كثيرة لإخوته من أمراء كندة اليمنيين .

وكان حجر قد ظلم بنى أسد واستبد بهم وضربهم بالعصا حتى سموا « عبيد العصا » . فثاروا به وقتلوه . وكان قد أوصى بمتاعه لمن لايجزع عليه من بنيه . فكلهم جزع وبكى ، ما عدا امرأ القيس . وكان الخبر قد انتهى إليه وهو بدمون يلعب النرد . فلم يأبه للناعى ، حتى انتهى من لعبه . ثم التفت إلى الناعى ، وقال له : « ضيعنى صغيراً وحملنى دمه كبيراً . اليوم خمر وغداً أمر ، لاصحو اليوم ولاسكر غداً » ، وأنشده :

خليلى ما فى اليوم مصحى لشارب ولا فى غد إذ ذاك بالكاس نشرب

وقال :

أرقت لبرق بليـل أهل يضىء سـناه بأعلى الجبل
أتانى حديث فـكذبته بأمر تزعزع منـــه القلل
بقتل بنى أســـد ربهم ألا كل شىء سـواه جلل . . الخ

وبموت حجر بدأ امرؤ القيس عهـــداً جديداً من عهود حياته الواقعية والشعرية . وهب للأخذ بثأر أبيه من بنى أسد . وجمع لهم السلاح والجنود مستعيناً بأعمامه وغيرهم . ومثل شـعره فى هذه الحقبة تطورات الحرب وألوان الاتصال بينه وبين بنى أسد وغيرهم ممن اقتضت الحرب الاتصال به .

---

(١) خزانة الأدب للبغدادى ج ٢ فى الشاهد ١١٠ ـ والعقد الفريد ج ٣ « كتاب الدره الثانية فى أيام العرب ووقائعها .

ووفد عليه وفد بنى أسد وفيهم الشاعر عبيد بن الأبرص ، والمهاجر بن خداش وقبيصة بن نعيم ، رغبة فى مصالحته ؛ فأبى إلا الحرب ، فطلبوا النظرة حتى تضع الحوامل فقال لهم : « أما النظرة فقد أوجبتها الأجنة فى بطون أمهاتها ولن أكون لعطبها سببا . وستعرفون طلائع كندة من بعد ذلك ، تحمل فى الفلوب حنقا ، وفوق الأسنة عَلَقا :

إذا جالت الخيل فى مأزق تصافح فيه المنايا النفوسا

فانصرفوا عنه وقبيصة يقول له :

لعلك أن تستوخم الموت إن غدت كتائبنا فى مأزق الموت تخطر

ودهم أمرؤ القيس بنى كنانة يحسبهم بنى أسد - وكان هؤلاء قد رحلوا — فقال له بنو كنانة لسنا لك بثأر ، فقال يذكر بنى أسد ، ومعهم علباء بن الحارث قاتل أبيه :

ألا يا لهف هند إثر قوم هم كانوا الشفاء فلم يصابوا ... الخ

وما زال حتى رأى أتباعه من بنى بكر وتغلب ، أنه قد بلغ ثأره . فلم يقتنع . فانصرفوا عنه . فأمده « مرثد الخير بن ذى جدن الحميرى » - وهو أحد أقيال اليمن ، وكانت له به قرابة — بنحو خمسمائة مقاتل . ثم استأجر أناسا .

وظفر ببنى أسد ، كما قال فى شعره :

يادار ماوية بالحائـــل فالسهب فالخبتين من عاقل

ومنها قوله :

قولا لدودان عبيد العصا ما غركم بالأسد الباسل
قد قرت العينان من مالك ومن بنى عمرو ومن كاهل
ومن بنى غنم بن دودان إذ نقذف أعلاهم على السافل

ومنها :

نطعنهم سلكى ومخـــلوجة لفتك لأمين على النابل ... الخ

وقد أنكر عليه عبيد بن الأبرص قائلا :

يا ذا المخـــــــوفنا بقتـــل أبيـه إذلالا وحينـا
أزعمت أنك قـــد قتلـــت سراتنا كذبا ومينا ... الخ

إلى آخر هذه القصة .(١)

وعلى هذا الغرار ،مضت أيام العرب ووقائعها ، بين قبائلها . ومنها ماكان بين الأوس والخزرج ، وبين العرب والعجم .

وفى خارج إطار هذا النزاع القبلى ، تجد بعض شعراء الجاهلية ، يقصدون أمراء العرب بالحيرة أو الشام ، يمتاحون كرمهم ، وينشدون عطاءهم ؛ ويشيدون بمكارمهم ، كالنابغة وعلقمة وحسان ، فى رحيلهم إلى المناذرة والغساسنة .

ويتمثل شعر البيئة السياسية فى صدر الإسلام ، فى الشعر الدينى الذى نظمه الطرفان المتنازعان فى سبيل الدعوة الجديدة : المسلمون من جانب ، والمشركون من جانب . يتبادلون المفاخر ، ويصفون الحروب .

واستمر ذلك حتى دخل العرب فى دين الله أفواجا . فاتجه الشعر إلى الحديث عن الفتوحات ، وعن الأحداث الجلى فى عهد عثمان وعلى ، رضى الله عنهما .

ولنا أن نعتبر هذا الشعر ـ أيضا ـ من وحى البيئة الاجتماعية ، على أساس أن النزاع الدينى ظاهرة من ظواهر المجتمع ، وحالة من حالات أهل محلة واحدة . ولكننا نرى أيضا إلى جانب ذلك ، أن الدعوة الإسلامية لم تكن كأى نزاع دينى فى مجتمع واحد. لأنها امتدت إلى أصول الحكم وقواعد السياسة ، وقوضت

---

(١) راجع سيرة امرىء القيس فى شعراء النصرانية ج ١ ص٦ ـ وفى الأدب العربى وتاريخه فى الجاهلية لمحمد عبد المطلب ـ وفى العقد الفريد « أيام العرب » ـ وفى خزانة الأدب للبغدادى ـ وفى كتب المعلقات .

والسلكى : بضم فسكون ؛ الطعنة المستقيمة ـ والمخلوجة : الطعنة ذات اليمين وذات الشمال ـ واللأم السهم عليه ريش ـ والنابل : الحاذق بالنبل أى ضرب النبال .

دعائم النظام القبلى ، ووحدت العرب فى دولة ، وجعلت لهم خلاقه ، إلى غير ذلك مما لونها باللون السياسى إلى حد بعيد .

وخير من يمثل هذه الحقيقة من شعراء المسلمين، حسان بن ثابت الأنصارى، الذى كان حينذاك شاعر الرسول عليه الصلاة والسلام .

ومن قوله يرد على أبى سفيان ، فى هزيمته :

ألا أبلغ أبا سفيان عنى مغلغلة فقد برح الخفاء
بأن سيوفنا تركتك عبداً وعبد الدار سادتها الإماء
هجوت محمداً فأجبت عنه وعند الله فى ذلك الجزاء
فإن أبى ووالده وعرضى لعرض محمد منكم وقاء .

وكان عبد الله بن الزبعرى ، قد هجا المسلمين بعد غزوة أحد ، وذكر هزيمتهم ، ووجه حديثه إلى حسان وهو قريعه ، فقال :

يا غراب البين أسمعت فقل إنما تنطق شيئا قد فعل

ويقول :

أبلغا حسان عنى آية فقريض الشعر يشفى ذا العلل

ويقول :

ليت أشياخى ببدر شهدوا جزع الخزرج من وقع الأسل . . . الخ

فأجابه حسان من بحره ورويه ، يسفهه ويرد عليه قوله :

ذهبت بابن الزبعرى وقعة كان منا الفضل فيها لو عدل
ولقد نلتم ونلنا منكم وكذاك الحرب أحيانا دول

إذْ شددنا شدة صادقة فأجأناكم إلى سفح الجبل . . . الخ [١]

ومهما يكن من شيء فهذا حسان بن ثابت الأنصارى يسجل غدر الأنصار بعثمان بن عفان الخليفة فى يوم مقتله ، ويعيرهم بعدم النهوض لمعاونته ضد الثائرين عليه فى يومه الأيوم ـ وقد كانت الثورة بسبب سياسة عثمان ـ مستثنياً منهم بنى عمرو بن عوف التى وفت بنذرها بمعونتها لأبى عبد الله الزبير فى تلك الحادثة . فقال حسان مصورا بعض جوانب اليوم ، وبعض مشاهد الحادث :

أوفت بنو عمرو بن عوف نذرها وتلوثت غـــدرا بنو النجار
وتخاذلت يوم الحفيظة إنهم ليسوا هنالكم من الأخيار
ونسوا وصاة محمد فى صهره وتبدلوا بالعز دار بوار
أتركتموه مفردا بمضيعة تنتابه الغوغاء فى الأمصار
لهفان يدعو غائباً أنصاره يا ويحكم يامعشر الأنصار
هلا وفيتم عندها بعهودكم وفديتم بالسمع والأبصار
جيرانه الأدنون حول بيوته غدرواورب البيت ذى الأستار
إن لم تروا مددا له وكتيبة تهدى أوائل جحفل جرار
فعدمت ما ولد ابن عمرو منذر حتى ينيخ جموعهم بصرار [٢]

قد أسس الإسلام إذن ، من قبائل العرب دولة موحدة منظمة ، وقرر لها دعائمها السياسية والاجتماعية أرقى ما تكون الدول وتؤسس . فكان لذلك صداه فى شعر البيئة السياسية ـ ولا ريب ـ فقـــد حول النزاع القبلى الصريح إلى نزاع حول الدولة .

---

(١) راجع ديوان حسان بن ثابت ، حرف الهمزة واللام ـ والمغلغلة : الرسالة المحمولة من بلد الى بلد ـ والأسل : جمع أسلة ، وهى الرماح ـ وأجأه : أرغمه على الهرب .
(٢) ديوان حسان بن ثابت ـ والصرار : كسحاب أو كتاب ، واد بالحجاز .

وختم عصر صدر الإسلام بهذه الفتن الطاغية والخلافات المستعرة ، فقتل عثمان ووقع الخلف بين على ومعاوية وانتهى الأمر بأن حارب المسلمون بعضهم بعضاً ، ثم وقعت خدعة التحكيم ، وانشق جيش على شعبتين ، ثم قتل على غيلة . وخلص الملك لمعاوية ، فأسس دولته الأموية عام ٤٠ هـ .

وورثت هذه الدولة الجديدة رقعة من الأرض واسعة ، وممالك فسيحة فتحت فى عهد عمر رضى الله عنه . وهى جنات فى الأرض أنشأها الله : مصر والشام والعراق وفارس . فعملت على توسيعها والإضافة إليها حتى امتد ملكها من الأندلس والمحيط الأطلسى إلى أواسط آسيا وحدود الهند والصين .

وكانت مثقلة بأسباب الفتن والعصبيات والحزبيات ، وعمل بنو أمية على تغذية العصبية ، فعادت العصبية جذعة متشعبة : بين اليمنيين والمضريين ، وبين العرب والعجم : بل وبين بعض العلماء وبعض . وصارت الحزبية مدار سياسة الناس والدولة . وبرزت أربعة أحزاب قوية متنافسة كان لكل منها أثره فى كيان الدولة وحياة الناس . وهى متنافسة يناهض بعضها بعضا ، ولكل منها رأيه فى الحكم والخلافة ، ولكل منها أتباعه وأشياعه ، ولكل منها خطباؤه وشعراؤه ، كالأخطل من شعراء بنى أمية ، وكالكميت من شعراء آل البيت ، وكعبيد الله بن قيس الرقيات من شعراء آل الزبير ، وكالطرماح بن حكيم من شعراء الخوارج . وامتزجت فى أشعارهم الآراء السياسية والمدح والفخر والحماسة والهجاء إلى حد كبير .

وكانت حجة الأمويين فى أحقية الخلافة والملك أنهم طلاب ثأر عثمان ، وأنهم من قريش ، وأنهم أكفاء وأهل حزم وحسن تدبير وكرم وبراعة . لذلك نجد شاعرهم « الأخطل » يمدح عبد الملك بن مروان ، فيصف بنى أمية بالأصالة والذود عن الحق ، والصبر على المكاره ، وحسن الرأى وسعة الحيلة ، وعناية الله

بهم ، وقسوتهم على أعدائهم ، حتى يستسلموا لهم . فيحلموا عليهم ، يقول :

فى نبعة من قريش يعصبون بها ما إن يوازى بأعلى نبتها الشجر
حشد على الحق عيافو الخنا أنف إذا ألمت بهم مكروهة صبروا
وإن تدجت على الآفاق مظلمة كان لهم مخرج منها ومعتصر
أعطاهم الله جداً ينصرون به لا جد إلا صغير بعد محتقر
لم يأشروا فيه إذا كانوا مواليه ولو يكون لقوم غيرهم أشروا
شمس العداوة حتى يستقاد لهم وأعظم الناس أحلاما إذا قدروا (١)

وتقوم حجة العلويين وآل البيت فى أحقية الخلافة والملك على أنهم من بيت الرسول عليه السلام ، وأقرب الناس إليه . وأنهم من صميم قريش ، وأن الحديث الشريف يقول « الخلافة بين قريش » وأنهم أبلوا فى نصرة النبى والدين أحسن البلاء وينفون حجة الأمويين فى قولهم : إن النبى لا يورث . . .

وفى هذه المعانى دارت أشعار شعرائهم . ويقول الكميت من إحدى هاشمياته وهى مطولته البائية المشهورة :

يقولون لم يورث ولولا تراثه لقد شركت فيه بكيل وأرحب
وعك ولخم والسكون وحمير وكندة والحيان بكر وتغلب

ويقول مبينا بلاء آل البيت فى نصرة الرسول عليه السلام :

هم شهدوا بدرا وخيبر بعدها ويوم حنين والدماء تصبب
وهم رئموها غير ظئر وأشبلوا عليها بأطراف القنا وتحدبوا

---

(١) ديوان الأخطل . ـ والشعر السياسى للأستاذ أحمد الشايب ص ٨ ـ والأخطل شاعر بنى أمية للدكتور السيد مصطفى غازى ص ١١٧ ـ والنبعة : واحدة المنبع وهو شجر للقشى وللسهام ينبت فى قلة الجبل ـ وهى هنا على التشبيه ـ يعصبون بها : يشدون بها ويحمون ـ الأنف : الأباة ـ والمعتصر : المخرج ـ والشمس : بضم أوله جمع أشمس وهو الجموح الأبى .

فإن هى لم تصلح لحى ســـواهم فإن ذوى القربى أحق وأقرب.. الخ(١)

وكان عبد الله بن قيس الرقيات يحتج لقريش وينادى بالاعتزاز بها ، على أن تكون الأمور بيد آل الزبير ، منكرا أن يعتمد بنو أمية على اليمنية . ساخطا على هذه الفرقة القرشية :

حبذا العيش حين قومى جميع لم تفرق أمورها الأهـواء
قبل أن تطمع القبائل فى ملك م قريش . وتشمت الأعداء
أيها المشتهى فنـــاء قريش بيد الله عمرها والفناء
إن تودع من البلاد قريش لا يكن بعدهم لحى بقاء

ويمدح مصعب بن الزبير فيقول :

إنما مصعب شهاب من اللـــه تجلت عن وجهه الظلمـاء
ملـكه ملك قوة ليس فيه جبروت منه ولا كبرياء... (٢)

ويقول فى بنى أمية :

أنا عنـكم بنى أمية مزو ر وأنتم فى نفسى الأعداء

ومن الطريف أن تدور الأيام دورتها ويضطر عبيد الله بن قيس الرقيات هذا إلى مدح عبد الملك بن مروان بعد مقتل مصعب فيقول :

إن الأغر الذى أبوه أبو العـــاصى عليه القباب والحجب
يعتدل التاج فوق مفرقه على جبين كأنه الذهب(٣)

---

(١) هاشميات الكميت ص ٢٠، ٢١ ـ والشعر والشعراء لابن قتيبة ـ والأغانى ـ ورئموها : عطفوا عليها ولزموها ، وقد رئمت الناقة ولدها ، عطفت عليه ولزمته ـ والظئر : العاطفة على ولد غيرها ، المرضعة له فى الناس ـ وأشبلوا عليها : عطفوا عليها وأعانوها ـ وتحدبوا : تعلقوا وتعطفوا .

(٢، ٣) الشعر السياسى للأستاذ الشايب ص ٢١١ وما بعدها . والمنتخب للدكتور طه حسين وآخرين ج ٢ ص ١٢٩ ، ١٣٠ .

فينقده عبد الملك ويقول له : تمدح مصعبا بأنه شهاب من الله ، وتمدحنى كأننى ملك العجم . . .

ويركن شعراء الخوارج إلى التمسك بتقوى الله والتعلق بتعاليم القرآن الكريم وبأنه لافضل لامرىء على آخر إلا بتقوى الله ، ولا دخل للنسب ولا الحسب ولا الجاه فى ولاية الحكم . وأن الخلافة يليها الأتقى ولو كان عبدا حبشيا ، وكانوا إلى الحماسة والفدائية أقرب .

وهذا أحد شعرائهم : « الطرماح بن حكيم » يقتاد جواده ويقذف بنفسه فى المهالك فرارا من بطش الخلفاء ، مغامرا فى سبيل نصرة مبادئه ومبادىء حزبه حتى الموت . وهو نموذج لكثير من أبطال الخوارج . يقول :

وإنى لمقتاد جوادى وقاذف ... به وبنفسى العام إحدى المقاذف
لأكسب مالا أو أؤول إلى غنى ... من الله يكفينى عداة الخلائف
فيارب إن حانت وفاتى فلا تكن ... على شرجع يعلى بخضر المطارف
ولكن قبرى بطن نسر مقيله ... بجو السماء فى نسور عواكف . . الخ(١)

وحل العباسيون فى الملك والخلافة محل الأمويين ، إذ دالت دولتهم عام ١٣٢ هـ . ولم تدل معهم العصبية ولا الحزبية وبرزت المناهضة بين العباسيين والطالبين ، وبين العرب والعجم « الشعوبيين » . وكان لذلك صدى فى الشعر .

ويحتج مروان بن أبى حفصة للعباسيين على الطالبيين بقانون الميراث الإسلامى ، فيقول إن بنى البنات لا يرثون كما يرث الأعمام . ومعنى ذلك أن العباسيين أحق بالخلافة من الطالبيين .

ولما عقد المهدى البيعة لابنه الهادى ، قال مروان بن أبى حفصة يمدح المهدى :

---

(١) المنتخب ج١ ص ٧٢، ٧٣ ـ والشرجع : الكرسى المستطيل ـ والمطارف : الوسائد الحريرية .

يا ابن الذى ورث النبي محمدا دون الأقارب من ذوى الأرحام
الوحى بين بنى البنات وبينكم قطع الخصام فلات حين خصام
ما للنساء مع الرجال فريضة نزلت بذلك سورة الأنعام
أنى يكون - وليس ذاك بكائن - لبنى البنات وراثة الأعمام(١)

فغضب الطالبون من مروان ، ورد عليه شاعرهم محمد بن يحيى بن أبى مرة التغلبي يقول :

لم لا يكون وإن ذاك لكائن لبنى البنات وراثة الأعمام
للبنت نصف كامل من ماله والعم متروك بغير سهام(٢)

ودعبل الخزاعى كان شيعيا يمدح العلويين ويهجو العباسيين . ويقول متعجبا متوجعا ، فى مدحة مدح بها على بن موسى الرضا ، بخراسان :

مدارس آيات خلت من تلاوة ومنزل وحى مقفر العرصات
لآل رسول الله بالخيف من منى وبالركن والتعريف والجمرات
أرى فيئهم فى غيرهم متقسما وأيديهم من فيئهم صفرات
بنات زياد فى القصور مقيمة وآل رسول الله فى الفلوات(٣)

وضعفت نزعات السياسة رويدا رويدا ، وخبت جذوة مناهضتها للعباسيين على الأسس السابقة . واستعان العباسيون بالفرس ثم الترك فى أعمال الدولة وحمايتها . فدخلت عناصر جديدة . قضت على العصبيات والنعرات العربية . واتجه الشعراء حينذاك أكثر مما اتجهوا إلى خدمة الدولة والسير فى ركاب الخلفاء والملوك

---

(١) الشعر السياسى للأستاذ الشايب ص٦ - والمنتخب للدكتور طه حسين وآخرين ج٢ ص١٩٢ .
(٢) المصدر السابق .
(٣) الشعر السياسى ص١١ .

والرؤساء والقادة ومدحهم والمناحة عنهم والإشادة بأعمالهم ووصف فتوحاتهم وتمجيد شجاعتهم ، إلى غير هذا مما يشبهه .

واتصل — مثلا — أبو نواس بالرشيد والأمين . واتصل أبو تمام بالمعتصم ، والبحترى بالمتوكل ، والمتنبى بسيف الدولة الحمدانى ، وصارت مدائحهم لهؤلاء سجلا لكثير من أعمالهم فى سبيل الدولة .

وقد كانت قصيدة أبى تمام فى وصف فتح عمورية ، أعجوبة من أعاجيب المدح السياسى ، ونموذجا رائعا لوصف غزوة تمت فى سبيل الدولة وفى سبيل دينها ، وفى سبيل عزتها ونفوذها ومثالا من أمثلة اتصال شعراء المديح بصميم العمل الرسمى .

وكان المنجمون قد أرادوا المعتصم على أن يؤجل موعد غزو المدينة إلى وقت أكثر مناسبة ، حسبما قرءوا فى الطالع . . . فأبى واستخار الله وغزاها ، فقيض له الحظ النصر الكامل ، ففتحها ودك حصونها وأشعل النار فيها ، واستسلم له أهلها صاغرين . .

ويهزأ أبو تمام من المنجمين وكتبهم فى مطلع قصيدته فيقول :

السيف أصدق أنباء من الكتب ... فى حده الحد بين الجد واللعب
بيض الفصائح لا سود الصحائف فى ... متونهن جلاء الشك والريب
والعلم فى شهب الأرماح لامعة ... بين الخميسين لا فى السبعة الشهب
أين الرواية بل أين النجوم وما ... صاغوه من زخرف فيها ومن كذب

ويصف الحرب وبعض مشاهدها فيقول :

لقد تركت أمير المؤمنين بها ... للنار يوما ذليل الصخر والخشب
غادرت فيهم بهيم الليل وهو ضحى ... يشله وسطها صبح من اللهب
حتى كأن جلابيب الدجى رغبت ... عن لونها أو كأن الشمس لم تغب . . الخ(١)

---

(١) ديوان أبى تمام — وهبة الأيام للبديعى نشر المرحوم محمود مصطفى .

والمتنبي فى مدح سيف الدولة الحمدانى ، ووصف مغازيه أكثر من قصيدة ، ومنها بائيته التى مطلعها :

فدنياك من ربع وإن زدتنا كربا فإنك كنت الشرق للشمس والغربا

وفيها يذكر محاربة سيف الدولة للروم ، وفرارهم أمامه ، ويمدحه ويذكر جهاده :

هنيئاً لأهـــل الثغر رأيك فيهم وأنك حزب الله صرت لهم حزبا
وأنك رعت الدهر فيها وريبه فإن شك فليحدث بساحتها خطبا
فيوما بخيل تطرد الروم عنهم ويوما بجود تطرد الفقر والجدبا
سراياك تترى والدمستق هارب وأصحابه قتلى وأمـــواله نهبى
أتى مرعشا يستقرب البعد مقبلا وأدبر إذ أقبلت يستبعد القربا
كذا يترك الأعداء من يكره القنا ويقفل من كانت غنيمته رعبا(١)

وأغلب شعر البيئة السياسية فى الأوطان العربية ، يبدو أنه مشى على هذه السنة أمداً طويلا ، فى جملة أمره حتى العصر الحديث . أعنى عصر النهضة بمصر .

بدأ هذا العصر بمجىء الحملة الفرنسية على مصر ، فبدأ اتصالها بالخارج الذى كانت قد انقطعت عنه ، وانقطعت عنها أخباره منذ أمد طويل .

وقد كانت أهم دعائم النهضة استمرار اتصال مصر بالخارج بالبعثات التعليمية واستيفاد الأساتذة ، وبالترجمة والنقل من الآداب والمعارف الأوربية . ثم بانتشار التعليم والمطابع والصحف ، وإقبال الشعب على الثقافة بأنواعها ، وإقبال قادته على تنبيهه وإيقاظه إلى حقوقه وواجباته السياسية والوطنية ، إلى غير ذلك .

ولقد كان لذلك أثر كبير فى يقظته السياسية ومطالبة الحاكمين بمراعاة حقوقه

---

(١) ديوان المتنبي .

وضرورة اشتراكه فى الحكم درءا للظلم ومنعا للجور وضمانا لتحقيق المصلحة العامة . وتيسيرا لترقية مستوياته ، وتوصلا إلى مستقبل أعز وأكرم .

وفى سبيل هذه الغايات الوطنية النبيلة ، قامت ثوراته المتتابعة من لدن ثورة عرابى عام ١٨٨٢ م إلى ثورة جمال عبد الناصر المباركة عام١٩٥٢م . وقد شهدت الأمة عددا من أفذاذها وأعلامها الوطنيين الأبطال ، ممن عملوا على إسعادها ورفعة شأنها وكسب حقوقها ومكافحة المستعمرين والحكام الفاسدين والمستغلين .

وانتهت ثورة عرابى بالاحتلال الإنجليزى المشئوم ، الذى ظل جاثما على أنفاس المصريين أكثر من سبعين عاما ، حتى طرده رجال ثورة يوليو سنة ١٩٥٢م بقيادة جمال عبد الناصر .

وكانت مصر فى أوائل الاحتلال ذات صلة اسمية بتركيا ، وذات تبعية شكلية لها ، فكان يتداول عقول بعض أبنائها وقلوبهم ، الرغبة فى الاستقلال ، والإبقاء على الصلة بتركيا ، توصلا إلى إخراج المحتلين الإنجليز من أرضها .

وطالب أبناؤها فى ثوراتهم المتتابعة بإصدار دستور يجعل الشعب مصدر السلطات ، ليقضى بذلك على حكم الفرد الذى كان إحدى ذرائع الاحتلال . وصدر الدستور أكثر من مرة . وشهدت البلاد عدة هيئات نيابية فى مناسبات عدة .

بسبب هذه الحالة قامت الأحزاب السياسية بمصر ، وتعددت وتعادت وتنافست ، وتطورت بينها المنافسة حتى صارت سعيا إلى الحكم والوظائف ومازالت الأحزاب ذات أثر فى حياة البلاد ومعايشها واتجاهاتها ، بل وصحفها وتعليمها وتعليماتها ، حتى قضت عليها جميعا ثورة ٢٣ يوليو .

أعتقد أن الشعر بمصر فى هذه الحقبة إلى يومنا — على الرغم من ظروف السياسة وصعابها — كان مرآة لهذه الحياة السياسية . ووجدت البيئة السياسية فى شعرائها قلوبا مستجيبة وألسنة معبرة . وأن مجموع مانظموه فى المجال السياسى ،

يعبر إلى حد كبير ، عن هذه الحياة ، بآمالها وأحلامها ، وأدواتها ووسائلها ، وبمساندها من وفاق أو خلاف ، أو تعاون أو ائتمار ، أو هدف عام أو خاص . وما كان يتخللها من ثورات أو مفاوضات ، أو نحو ذلك .

ويضيق نطاق هـذه الوجازة ، عن أن ترسم صورة صحيحة مكتملة ، لشعر البيئة السياسية فى هذه الحقبة ، بل هذا يستأهل رسالة مستقلة . ونعتقد أن ما حظيت به البيئة السياسية من نتاج الشعراء ، أوسع مدى وأفسح دائرة ، مما كان منه فى العصور الماضية .

ولعلك لن ترى شاعراً من شعراء مصر الحديثة ، عاش متواريا جملة ، عن المجال السياسى ، ولم يدل بدلوه فى الدلاء . إما بشعر سياسى خالص لوجه السياسة يشرح فيه وجهة نظر ، ويسوق أدلة . أو يصف حادثة وطنية ، وما صحبها من المشاعر . أو يتجه إلى حزب معين فيمجد بعض أعماله ، أو إلى الأحزاب جميعها فيخاطبها فى أمر يعمها ، وإما بشعر فيه مديح أو هجاء أو رثاء أو حماسة ، يصور فيه بطلا وطنيا أو جبانا مارقا إلى غير ذلك .

ومن لدن عرابى حتى اليوم ، والشعر الوطنى والقومى ، وما يتصل به من الأغانى والأناشيد ، ينظم معبرا عن نزعات البلاد ووقائع سياستها وساستها . وكذلك الشعر الهادف إلى الوحدة ، والداعى إلى جمع شمل العرب ، أصبح ، منذ ثورة ٢٣ يوليو عام ١٩٥٢ م ، فى مقدمة ألوان الشعر التى يقبل عليها الشعراء لأنها تلمس من الجمهور المصرى والعربى ، شغاف قلبه وأعصابه ، ويعبر عن آماله وعن عميق مشاعره ودقيق خواطره .

وقد خاض شعراء مصر ، غمار السياسة ، بشعرهم ، مستجيبين لنداء بيئتهم ، ومنهم : البارودى وشوقى وصبرى وحافظ وعبد المطلب والجارم والرافعى ومحرم الكاشف .

ويتفاوتون فى العقيدة والمبدأ ، وفى الاتجاه والوسيلة ، وفى الظروف والملابسات . فليسوا جميعاً سواء .

لقد كان البارودى أحد المبكرين . وكان - وهو الشاعر الفحل ، والرائد الأسبق للشعر الحديث - فارساً مغوارا ، ومحاربا صنديدا ، وضابطا فى الجيش ومشاركا فى الثورة العرابية ، وأحد رجالها البارزين وقد خاض جملة من الحروب عاناها وكابدها بنفسه . فوصفها ووصف معالمها ومشقاتها وبلاءه فيها ، ومن هنا كانت حماسياته وفخرياته ممزوجتين . وقد وصف الحروب التى عاشها والثورة التى شارك فيها ، وتحدث عن دوره من وجهة نظره . إلى غير ذلك . .

يقول من قصيدة فى وصف حرب إقريطش :

فاليدر أكدر والسماء مريضة والبحر أشكل والرماح دوان
والخيل واقفة على أرسانها لطراد يوم كريهته ورهان . . الخ (١)

ويعرض بالحاكم المستبد ، فيقول مهدداً متوعداً :

يأيها الظالم فى ملكه أغرك الملك الذى ينفد
أصنع بنا ماشئت من قسوة فالله عدل والتلاقى غد

ويحاول أن يبرىء نفسه من تبعته فى الثورة العرابية ، ويصف مبادرته إليها ثم تخاذل أصحابه ، وحنثهم بمواثيقهم ونصحه لهم :

دعونى إلى الجلى فقمت مبادرا وإنى إلى أمثال تلك لسابق
فلما استمر الجد ساقوا حمولهم إلى حيث لم يبلغه حاد وسائق
فلا رحم الله أمرأ باع دينه بدنيا سواه وهو للحق رامق

(١، ٢) راجع ديوان البارودى شرح الشيخ شريف ج ١ ص ١١٩ - وراجع « فى الأدب الحديث » للأستاذ عمر الدسوقى ج ١ تحت عنوان « الشعر السياسى » - والأرسان : جمع رسن بفتحتين الحبل ، وما كان من زمام على الأنف .

على أننى حذرتهم غب أمرهم وأنذرتهم لو كان يفقه مائق(١)

وكان شوقى قبل عام ١٩١٤ م ، موظفاً بقصر الخديوى عباس الثانى ، ومقربا إليه ، فكان بحكم مركزه هذا شاعر القصر يصدر عما يصدر عنه صاحبه . وكان عباس قد ترجح بين الحملة على الإنجليز وبين موادعتهم . كما تقلب بين الرغبة فى تحقيق المطالب الوطنية ومعاونة زعمائها ، وبين إغفالها وإغفالهم .

فكان شعر شوقى فى هذا الميدان رجعا — فى جملته — لسياسة عباس ولهواه .

ولكنه بعد أن نفى إلى الأندلس ، وعاد إلى مصر ، وابتعد بحياته عن حياة القصر ، وتغيرت به أوضاع الحياة ، ولم يعد مرتبطا بمنصب يخشى عليه من الضياع ، اتجه بجمع نفسه إلى الشعب ، فكان — فى جملته — شاعر الشعب فى هذا الميدان ، يرجع مشاعره ، ويغنى خواطره .

سافر سعد زغلول إلى أوربا للمفاوضة ، فأطلق عليه أحد الشبان طلقا ناريا ، وهو فى محطة القاهرة فأصابه . فرجع ولم يسافر ، وحمل للمعالجة . وضجت البلاد لهذا العدوان الآثم ، والتاعت التياعا بالغا . وخشيت على زعيمها آنذاك أن يناله الأذى ، وهو رمز آمالها .

وقد عبر شوقى عن شعورها إزاء هذا الحادث . كما صوره تصويراً جميلا ، ورد فيه مايردده الشعب من أحلام وآمال . قال فى نونيته :

نجا وتماثل ربانها ودق البشائر ركبانها

ويقول :

نجا نوحها من يد المعتدى وضل المقاتل عدوانها

---

(١) راجع ديوان البارودى ، شرح الجارم ، ج ١ ص ٢٥٣ — وج ٢ ص ٣٣٧ .

وقى الأرض شر مقاديره لطيف السماء ورحمانها
ونجى الكنانة من فتنة تهـددت النيل نيرانهـا

وينعى على الشباب الجاهل اللاعب بالنار دون روية أو فطنة ، فيقول :

أرى مصر يلهو بحـد السلاح ويلعب بالنار ولدانها
وراح بغير مجال العقول يجيـل السياسة غلمانها

ويقول مخاطباً سعداً :

ويا سعد أنت أمين البلاد قد امتلأت منك أيمانها
فإن شئت فاوض وإن شئت دع فأنت الحقوق وميزانهـا
ولن ترتضى أن تقد القناة ويبتر من مصر سودانها ... الخ(١)

ولما استفحل الخلف بين الأحزاب وعانت البلاد منه ما عانت ، عنفهم شوقى تعنيفاً قاسياً ، فى قصيدة نظمها فى الذكرى السابعة عشر لمصطفى كامل ، فقال وهو يعبر بذلك عن شعور الجماهير .

إلام الخلف ياقومى إلا ما وهذه الضجة الكبرى علاما
وفيم يكيد بعضكم لبعض وتبدون العداوة والخصاما
وأين الفوز لا مصر استقرت على حال ولا السودان داما
وأين ذهبتم بالحق لمـا ركبتم فى قضيته الظلاما
لقـد صارت لكم حكما وغنما وكان شعارها الموت الزؤاما . . الخ(٢)

ولشوقى فى مجال السياسة أبيات وطنية سائرة منها قوله فى وصف الوطن وحبه :

وطنى لو شغلت بالخلد عنـه نازعتنى إليه فى الخلد نفسى

---

(١) الشوقيات ج ١ ص ٣٣٢ ـ وصحيفة الأهرام إثر الحادث .
(٢) الشوقيات ج ١ ص ٢٧٤

ومنه فى حكم الفرد :

زمان الفرد يا فرعون ولى ودالت دولة المتجبرينا

ومنه فى طلب الدستور ، مخاطبا الملك فؤدا :

فعجل يا ابن اسماعيل عجل وهات النور واهد الحائرينا

ومنه فى الاحتياط لكراسى النيابة :

دار النيابة قد صفت أرائكها لا تجلسوا فرقها الأحجار والخشبا

إلى غير ذلك .

وفى مراثيه لأعلام الجهاد الوطنى سطور وطنية ناطقة معبرة عن خواطر مصر وعما يجيش بصدور أبنائها .

وكان شوقى ـ كمصر ـ ذا هوى فى العروبة والشرق والإسلام . ولم يقصر عند كل مناسبة أن يظهر عواطفها إزاء هذه النواحى الثلاث . وفى عام ١٩٢٦ م أقيمت حفلة لإعانة منكوبى سوريا ، فنظم شوقى هذه القصيدة :

سلام من صبا بردى أرق ودمع لا يكفكف يا دمشق

ومعذرة اليراعة والقوافى جلال الرزء عن وصف يدق

ويقول :

وبى ممارمتك به الليالى جراحات لها فى القلب عمق

ويقول ، وترى نزعة العروبة والوحدة فى أبياته :

نصحت ونحن مختلفون دارا ولكن كلنا فى الهم شرق

ويجمعنا إذا اختلفت بلاد بيان غير مختلف ونطق [1]

---

(١) الشوقيات ج ٢ ص ٨٨

ولحافظ إبراهيم فى باب الشعر السياسى والوطنى باع طويل وصراحة وصرامة. وبخاصة قبل أن يوظف بدار الكتب ويحرص على وظيفته حرصا عاق قلمه ولسانه ، وكبت مشاعره الوطنية فى صدره ، فندر إفصاحه عنها .

ومن أكثر قصائده الوطنية التياعاً وحرقة ، وأدقها تعبيراً عن مشاعر قومه ، قصيدته فى حادثة دنشواى المشهورة ، بعد صدور الحكم فيها . وقد سخر فيها من الإنجليز سخرية شديدة وقال :

ليت شعرى أتلك محكمة التفتيش عادت أم عهد نيرون عادا
كيف يحلو من القوى التشفى من ضعيف ألقى إليه القيادا
إنها مثلة تشف عن الغيظ ولسنا لغيظكم أندادا

وينعى على المدعى العمومى « إبراهيم الهلباوى » الذى أيد الاتهام ، وكان - وهو المصرى - فى صف أكاذيب الإنجليز . فكان هو موضع السخط من الشعب . قال الشاعر يخاطبه :

أيها المدعى العمومى مهلا بعض هذا فقد بلغت المرادا
قد ضمنا لك القضاء بمصر وضمنا لنجلك الإسعادا
فإذا ما جلست للحكم فاذكر عهد مصر فقد شفيت الفؤادا
لاجرى النيل فى نواحيك يامصر م ولا جادك الحيا حيث جادا
أنت أنبت ذلك النبت يا مصر م فأضحى عليك شوكا قتادا

إلى قوله : أنت جلادنا فلا تنس أنا قد لبسنا على يديك الحدادا (٢)

---

(٢) ديوان حافظ ج ٢ ص ٢١ - و « فى الأدب الحديث » للأستاذ عمر الدسوقى ج ٢ ص ١٠٢ الطبعة الثانية

ثالثا ــ فى البيئة الثقافية

وأثر الثقافة فى توجيه الآداب والشعر ، واضح ملموس ، سواء أكانت الثقافة محلية أم وافدة أجنبية ، واستجابتهما لأنواع الثقافة ، ظاهرة لا تنكر .

وقد كان للعرب فى جاهليتهم ، إمارات فى أطراف الجزيرة ذات حضارة ومدنية ــ كإمارات المناذرة فى الشرق ، وإمارة الغساسنة فى الشمال(١) ، وملك التبابعة فى الجنوب « اليمن » ــ فضلا عن مكة وعن المدينة « يثرب » ، الواقعتين على طريق تجارى قديم .

وكانت مكة ، بوجه خاص ، ونظراً لسوقها ووقوعها فى كنف البيت الحرام ، مركزا لحركة تجارية قوية(٢) .

ويدلك على مبلغ حضـــارة الغساسنة ، أبيات حسان بن ثابت والنابغة الذبيانى ، فيهم .

يقول حسان بن ثابت يمدحهم :

يمشون فى الحلل المضاعف نسجها مشى الجمـــال إلى الجمال البزل

ويقول :

يسقون درياق الرحيق ولم تكن تدعى ولائدهم لنقف الحنظل (٣)

ويقول النابغة الذبيانى فى مدحهم :

---

(١) راجع أمراء غسان لنولدكه ، تعريب الدكتور بيدلى وآخر ، وبخاصة ص ٣٥ وما بعدها .

(٢) راجع تاريخ الفلسفة فى الإسلام للأستاذ ت . ج دى بور ، تعريب الأستاذ أبى ريدة ص ٣ و ٤

(٣) البزل : جمع بازل وهو البعير الذى طلع نابه . ــ والدرياق : الترياق والخمر ــ والرحيق : الخمر أو أطيبها أو أفضلها ، ــ والنقف : شق الحنظل ،

رقاق النعـــال طيب حجزاتهم يحيون بالريحان يوم السباسب

تحيتهم بيض الولائد بينهم وأكسية الإضريح فوق المشاجب(١)

أما حضارة اليمن ، فقد تحدث عنها القرآن الكريم فى قوله تعالى : « لقد كان لسبأ فى مسكنهم آية جنتان عن يمين وشمال» ...

فكانت البلاد ذات زرع وضرع ، وبناء وهندسة . وقد أقيم فيها سد مأرب المشهور ، الذى هدمه سيل العرم ، فى نحو عام ١١٥ قبل الميلاد .

وقد كشفت حديثاً بعض النقوش اليمنية ، وتبين منها شىء من تاريخ سكان اليمن القدماء ، الذين كونوا بها دولا ذات حضارة من معينية وسبئية وحميرية ، يرجع تاريخها إلى ما قبل الميلاد بعشرات السنين . وقد كانت لهم قدم راسخة فى المدنية ، وعرفوا بالبذخ والترف . لقد كانت حضارتهم وليدة التجارة ، وكانت ترد إليهم السلع من الهند والصين وجزر الهند الشرقية وسواحل إفريقية . وكانوا يفدون بها إلى الشام وإلى سواحل البحر المتوسط . فأفادهم ذلك غنى وثروة(٢) .

أما أغلب عرب الجزيرة العربية ، فقد كانوا يعيشون فى أرجاء الجزيرة ، أميين لا يقرءون ولا يكتبون ، إلا قليلا منهم . وكانوا مع هذا ، على شىء من العلم الضرورى ، الذى تقتضيه حياتهم ومعيشتهم ، فى وسط هذه الصحراء الواسعة ، وذلك كعلم النجوم والطب عن طريق التجربة ، وكمعرفة الأنساب ، وحفظ الأخبار والسير والفراسة والزجر ، ونحو ذلك .

واعتقادنا أن هذه الألوان الثقافية ، كانت فردية ، ولم تكن عامة فى متناول كل إنسان . ويبدو أن التجربة والخبرة كانت أهم وسائل الثقافة . لذلك نجم من

---

(١) الحجزة ، معقد الإزار . وهو الوسط والخاصرة — ويوم السباسب ، هو يوم السعانين وهو من أعياد النصارى وكان من أيامهم — والإضريح : الخز الأحمر — والمشاجب : ما يعلق عليه الثياب .

(٢) راجع «النابغة الذبيانى» لعمر الدسوقى ص ٧ و ١٣ و ١٤ و ٢٤ و ٢٥ و راجع هامشها .

بينهم حكماء عقلاء ، وشعراء ممتازون ، يدل شعرهم على عقل حصيف ، وحس مرهف ذى ثقافة ومعرفة .

ولعل أثر الثقافة الجاهلية فى الشعر ، يبدو فى هذه المحاجاة ، التى وقعت بين عبيد بن الأبرص وامرىء القيس - إذا صحت روايتها - ولعلها أقدم محاجاة أو ملاغزة أدبية ، نسبت لأديب :

وقد قيل إن عبيد بن الأبرص ، كان يوجه السؤال إلى امرىء القيس ، عن شىء يعميه عليه بصفات غامضة واسعة الاحتمالات ، فيجيبه امرؤ القيس ، مفصحا عن حقيقة المسئول عنه .

وكانا قد تلاقيا . فقال له عبيد : « كيف معرفتك بالأوابد » ؟ . فقال : « قل ما شئت تجدنى كما أحببت » . فقال عبيد :

ما حية ميته قامت بميتها ... درداء ما أنبتت سنا وأضراسا

فأجابه امرؤ القيس :

تلك الشعيرة تسقى فى سنابلها ... فأخرجت بعد طول المكث أكداسا

فقال عبيد :

ما السوء والبيض والأسماء واحدة ... لا يستطيع لهن الناس تمساسا

فأجابه امرؤ القيس :

تلك السحاب إذا الرحمن أرسلها ... روى بها من محول الأرض أيباسا[1]

ولعل أثر الثقافة أو التجربة ، بادٍ أيضا فى حكمة زهير بن أبى سلمى . وبخاصة فى معلقته . وهى تدل على رجاحة عقل . ودقة نظر ، وعمق فهم لطبائع الناس وأخلاق المجتمع وحاجاته . مع معرفه بالله وباليوم الآخر . ويعد بعض حكمه من إرهاصات النبوة الجديدة .

---

(١) راجع شعراء النصرانية ج ١ ص ٩ ط بيروت - والدرداء : التى لا أسنان لها .

يقول زهير فى معلقته :

فلا تكتمن الله ما فى نفوسكم ليخفى ومهما يكتم الله يعلم
يؤخر فيوضع فى كتاب فيدخر ليوم الحساب أو يعجل فينقم

ويقول :

ومن يغترب يحسب عدوا صديقه ومن لا يكرم نفسه لا يكرم
ومهما تكن عند امرىء من خليقة وإن خالها تخفى على الناس تعلم
ومن لم يصانع فى أمور كثيرة يضرس بأنياب ويوطأ بمنسم
ومن يجعل المعروف من دون عرضه يفره ومن لا يتق الشتم يشتم . . . الخ(١)

وبدهى أن أثر الثقافة فى الشعر ، لا يقتصر على بروزه فى شعر ثقافى ذى موضوعات علمية أو أدنى إلى العلم . فإن خطر الثقافة عظيم ، فهو يعين على خلق المعانى وتوليدها ، ويساعد على حسن إخراجها ودقة تصويرها ، فضلا عن تنبيه الخواطر إلى الموضوعات الكبرى والأحداث الهامة ، وإثارة العاطفة ، وإفساح المجال أمام الخيال .

إلا أنه لا شك أن ندرة الثقافة وانتشار الأمية وضعف اختلاط العرب حينذاك بغيرهم من الأمم ، كان له أثر فى النتاج الشعرى ، بدا أحيانا فى ضحالة المعانى وقربها وسطحيتها ، وفى سذاجة التشبيهات وحسيتها ، وفى قلق الارتباط بين أبيات القصيدة الواحدة ، إلى غير ذلك . وإن عج الشعر بالألفاظ الغريبة .

إلا أنه لا شك أيضا أن الأساليب الجاهلية بتراكيب جملها وعباراتها والملائمات الصوتية فيها نمت عن ذوق وموسيقا كانت فى جملة الأسباب التى قيضت لها سلطاناً وفرضت لها نفوذاً على أذواق الشعراء بعد العصر الجاهلى ، فظلت لهم نموذجا يحتذى ومثالا يقتدى به ، زمنا طويلا .

---

(١) راجع ديوان زهير بن أبى سلمى ، وكتب المعلقات . ونهاية الأرب ج ٣ ص٥٩ ـ والخليقة : الخلق والطبيعة ـ والمنسم خف البعير .

وأقبل الشعب العربى يجمع نفسه على الثقافة فى العصر العباسى بألوانها المختلفة من محلية لغوية وأدبية ودينية، ومن وافدة مترجمة عن اليونانية والفارسية والهندية فى علوم المنطق والفلسفة والحكمة والفلك والطب والتنجيم وغيرها. وبتوالى الأيام اكتسب الشعب ملكة علمية ومقدرة عقلية، وبدت آثار الثقافة الجديدة على شعر شعرائه.

بدت فى الشعر بعامة، فى جميع بيئاته. وبدت فى موضوعاته ومعانيه وأفكاره. بدت - مثلا - فى الموضوعات فابتدع شعر العلوم والقصص وشعر الحكمة والفلسفة. وبدت فى المعانى والأفكار والتصورات، فابتكرت ودقت وعمقت ورتبت، وهذبت وولدت، ودخلت المعانى العلمية والمصطلحات ميدان الشعر، ولونت معانيه بألوانها، إلى غير ذلك. وبدت فى الأساليب فدخلها التصنيع والهندسة والتعقيد واصطناع البديع والتأنق فى تخير اللفظ وترقيقه وإبعاده عن الغرابة والصلابة والحوشية[1].

ولعل أبا تمام والمتنبى وأبا العلاء أمثل النماذج للتدليل على ذلك.

وقبل أن نعرض عليك شيئا من شعرهم. نذكر أن هناك نوعا من الشعر جديدا ظهر فى هذا العصر نتيجة مباشرة لانتشار الثقافة العلمية والإقبال على التعليم وشعر العلوم وذلك بنظم حقائقها شعرا فى مزدوجات أو أراجيز، حرر الناظمون فيها أنفسهم من ربقة القوافى التقليدية. ويبدو أن الرغبة الأساسية من هذا النظم، كانت تهدف إلى تيسير التعليم على الناشئة، والمحافظة على العلم وحقائقه، إذ الشعر أسهل فى الحفظ وأقرب استحضاراً من النثر. وقد نظموا فى علم النجوم والطب والنحو والتاريخ والفرائض والفلسفة وعلم الحيوان[2].

---

(١) الفن ومذاهبه فى الشعر العربى لشوقى ضيف ص ٩١ وما بعدها. انظر الفصل الثالث والرابع والخامس.

(٢) اتجاهات الشعر العربى فى القرن الثانى الهجرى للدكتور محمد مصطفى هدارة ص ٣٥٧ وما بعدها.

ويرى بعضهم أن الشعر التعليمى بدأ قبل ذلك ، فى العصر الأموى . إذ كانت مجالس العلم والأدب واللغة قد انتشرت ، واتجهت أو اتجه بعض العلماء إلى العناية باللغة وجمع متونها وإبراز قواعدها . وكانوا يشافهون الأعراب لذلك ويستقدمونهم أو يقدمون عليهم ، وبرز حينذاك الرجاز من أمثال العجاج وابنه رؤبة ، فاصطنعوا الأراجيز وملئوها بالكلمات الغريبة ، حتى لتعتبر متونا لغوية . ويتضح أن هدفها إحياء اللغة ونشرها(١) .

ويبدو أن القصد إلى حفظ حقائق العلم ، بطريق نظمها شعراً ، كان من عمل العصر العباسى . ولعل أبان بن عبدالحميد اللاحقى من السابقين إلى ابتكار هذا النوع من الشعر ، أو من المكثرين منه . فقد نظم فى الفرائض وفى تاريخ الفرس والعقائد الفارسية والهندية وفى الأسمار والأساطير الأجنبية . ويقال إنه نظم كتاب السندباد - وهو من أصل هندى - ونظم كليلة ودمنة وما فيها من حكم على ألسنة الحيوان فى أربعة عشر ألف بيت(٢) .

ومن شعر أبان فى فريضة الصوم :

هذا كتاب الصوم وهو جامع ... لكل ما قامت به الشرائع
من ذلك المنزل فى القرآن ... فضلا على من كان ذا بيان
ومنه ما جاء عن النبى ... من عهده المتبع المرضى . . الخ(٣)

ومن نظمه لكليلة ودمنة .

هذا كتاب أدب ومحنة ... وهو الذى يدعى كليلة دمنة
فيه دلالات وفيه شعر ... وهو كتاب وضعته الهند
فوضعوا آداب كل عالم ... حكاية عن ألسن البهائم . . الخ(٤)

---

(١) التطور والتجديد فى الشعر الأموى لشوقى ضيف ص ٣٤٠ ، وما بعدها .
(٢) اتجاهات الشعر العربى فى القرن الثانى الهجرى ص ٣٦١ . - وفهرست ابن النديم .
(٣) المصدر السابق ص ٣٦٠ .
(٤) المصدر نفسه ص ٣٦٢ .

وقد وجد هذا الشعر التعليمى رواجا كبيراً لدى الأندلسيين - كما سنشير إليه بعد - .

وتمثل أرجوزة الشاعر الكبير أبى العتاهية المسماة « ذات الأمثال » ناحية من نواحى الشعر التعليمى الذى ظهر فى العصر العباسى ، ويعتبر أثراً مباشراً لانتشار الثقافات .

وهى فى مجموعها قصيدة تهذيبية تتضمن المواعظ والحكم والنصح والتحذير . ويقف فيها أبو العتاهية من الناس موقف المعلم من تلاميذه ، ويدلل بها على مدى عقله وثقافته ، فضلا عما أخذ به نفسه من الزهادة والنسك بعد حياة لاهية أكثر فيها من التجربة . وهو يقول فيها :

ما انتفع المرء بمثل عقله ... وخير ذخر المرء حسن فعله
إن الشباب والفراغ والجدة ... مفسدة المرء أى مفسده
اصحب ذوى الفضل وأهل الدين ... فالمرء منسوب إلى القرين . . الخ[1]

أما أبو تمام فقد اتضحت ثقافة عصره على شعره بأكثر من مظهر فى أغراضه المختلفة :

ومن ذلك لطف تصوره كقوله فى أبى دلف العجلى .

جم التواضع والدنيا بسؤددها ... تكاد تهتز من أطرافها صلفا

وقوله فى وصف شتاء خراسان الفارس :

يمسى ويضحى مقيما فى مبايته ... وبأسه فى كلى الأقوام مرتحل

وقوله فى هجاء أبى المغيث - وكان قد مدحه مراراً ممتاحاً كرمه ، فحرمه ولم يعطه ، وحجبه عن مجلسه ، فدب اليأس فى نفسه منه فهجاه ، فكان مما قاله :

---

(١) المصدر نفسه ص ٣٦٦ .

هب من له شيء يريد حجابه ما بال لا شيء عليه حجاب
ما إن سمعت ولا أراني سامعاً أبداً بصحراء عليها باب
من كان مفقود الحياء فوجهه من غـير بواب له بواب

ومن مظاهر ثقافته ، حكمه ، وقد مهد بها السبيل أمام المتنبي وأبي العلاء . ولم تكن صادرة عن فلسفة خاصة ومبدأ مكتمل ، ولكنها منتزعة من المناسبات ، في مقام مديح أو هجاء أو رثاء أو غيره . ولكنها تدل على عقلية واسعة أفرهتها الثقافة .

ومن حكمه قوله في الحظ :

ينال الفتى من دهره وهو جاهل ويكدى الفتى في دهره وهو عالم
ولو كانت الأرزاق تجرى على الحجا هلكن إذاً من جهلهن البهائم

ومن قوله في الصبر :

ومن لم يسلم للنوائب أصبحت خلائفه طرا عليه نوائبه

ومنها قوله في لون من الشجاعة :

إن الأسود أسود الغاب همتها يوم الكريهة في المسلوب لا السلب

ومنها قوله في التنقل :

فإني رأيت الشمس زيدت محبة إلى الناس أن ليست عليهم بسرمد

ومن مظاهر ثقافته : استدلالاته العقلية على قضاياه الشعرية كقوله :

لا تنكرى عطل الكريم من الغنى فالسيل حرب للمكان العالى

وقوله :

ليس الحجاب بمقص عنك لى أملا إن السماء ترجى حين تحتجب

ومنها إغرابه فى الخيال ، كقوله يمدح بحب القتال :

كأن به غـــداة الروع وردا وقد وصفت له نفس الشجاع

وكقوله فى العطايا :

تـكاد عطاياه يجن جنونها إذا لم يعوزها بنغمة طالب(١)

ولأبى تمام مظاهر أخرى كثيرة تدل على سعة تأثير الثقافة المعاصرة فيه .

وللمتنبى فى باب الحكم والأمثال مايربو على كل شاعر ، وتتصل حكمه وأمثاله بنواحى الخلق والمجتمع والسياسة وطبائع الناس .

ومنها قوله :

إذا رأيت نيوب الليث بارزة فلا تظنن أن الليث يبتسم

أعيذها نظرات منك صادقة أن تحسب الشحم فيمن شحمه ورم

وما انتفاع أخى الدنيا بناظره إذا استوت عنده الأنوار والظلم

وقوله :

ذو العقل يشقى فى النعيم بعقله وأخو الجهالة فى الشقاوة ينعم

وقوله :

عش عزيزاً أومت وأنت كريم بين طعن القنا وخفق البنود

وقوله :

كل حلم أتى بغـــير اقتدار حجة لاجىء إليهـــا اللئام

من يهن يسهل الهوان عليه ما لجرح بميت إيلام (٢)

وقد عنى بعضهم بجمع حكم المتنبى . وقد جمعها صاحب الرسالة الحاتمية وأورد

---

(١) ديوان أبى تمام - وأخبار أبى تمام للصولى - والورد : الحمى .

(٢) ديوان المتنبى .

بجوارها حكم أرسطو المشابهة .

وكان المعرى شاعر أفيلسوفا مؤلفاً ذا رأى وعقيدة . وهو من أكرم ما أنتجت الحركة الثقافية العباسية القائمة على علوم العرب والعلوم المترجمة . وكان زاهدا عفا كريم النفس ، وكان متشائما يبغض الحياة ويدعو إلى الزهد فيها . وقد نعى على أبيه لأنه سبب وجوده . ولم يتزوج لئلا يكون سبباً فى إشقاء غيره ، وكان حائرا كثير التساؤل عن حقيقة الأديان ، وكان متكلما فى الأخـــلاق والمجتمع ناقدا للأوضاع ، عطوفا على الحيوان لا يأكل منه ما أحل ، نباتيا يجتزىء بالقليل .

وكان شعره صدى لكل أولئك ، وصدى للحياة الواقعية التى يحياها . وبدهى أنه لا يمثل بذلك نزعات العصر الذى يعيش فيه . غير أنه بما أفاد من الثقافة والعلم ، وبما حصل من المعرفة ، وبما درس من أحوال المجتمع ، وجه تفكيره وجهة كان لخصائصه الذاتية أثر فيه وفيما انتهى إليه من مبادىء .

ومن شعره فى جناية أبيه :

هذا جناه أبى عـــلى وما جنيت على أحد

ومن عطفه على الحيوان :

تسريح كفك برغوثا ظفرت به أبر من درهم تعطيه محتاجا

ويقول فى اختلاف الناس :

خلق النـاس للبقاء فضلت أمة يحسبونهـــم للنفاد
إنما ينقلون من دار أعما ل إلى دار شقوة أو رشـاد

وفى أديان الناس :

هفت الحنيفة والنصارى ما اهتدت ويهـود حارت والمجوس مضلله
اثنان أهل الأرض . ذو عقل بلا دين وآخر دين لا عقل له (١)

---

(١) اللزوميات وغيره من دواو بن أبى العلاء .

ويفلسف ابن الفارض نزعة التصوف . ويقول - هو ومن ينهج نهجه - بوحدة الوجود ، أى لا موجود إلا الله سبحانه . ولا موجود مستغن بذاته إلا وجود الله أما العالم فليس وجوده من ذاته ولا بذاته ولا لذاته ، ولا قوام له بذاته . وإنما هو عندهم «شأن» من شئون الله . وبعضهم يعبر بأنه فعل من أفعاله . ولذلك ما ثم إلا الله وأسماؤه وأفعاله .

ويقول بوحدة الشهود . وهى عندهم حال تستولى على بعض الصوفية ، يفقد صاحبها التمييز بين نفسه وبين ذات الله ، أو بين المخلوقات وبين الله ، فيرى أن الحوادث هى الله ، وأن الله يخاطبه بها(١) .

ويعبر ابن الفارض عن وحدة الوجود بقوله .

وفى الصحو بعد المحو لم أك غيرها وذاتى بذاتى إذ تحلت تجلت

.....

ولما طاب المقام بعرب الأندلس فى بلادهم الجديدة الممتعة الخصبة الطيبة الهواء الجارية الماء ، وأمنوا على أنفسهم عادية الأعداء ، التفتوا إلى ألوان الثقافة وأنواع المعرفة يتدارسونها ويثقفون عقولهم بها ، ويتزودون بها خبرة فى الحياة وفهما للأمور . ونقلوا إلى بلادهم تباعا ، كتب المشارقة فى العلوم الشرعية والعربية ، ولم يعانوا الترجمة والنقل كما عاناها المشارقة ، اكتفاء بما نقلوه عنهم ، ولأنهم لم يختلطوا بأمم ذات حضارة سابقة لها كتب قيمة ، كالأمم التى خالطهم المشارقة .

وما زالوا حتى انتشرت ببلادهم العلوم والمعارف . وغلبت عليهم النزعات الأدبية أكثر من سواها ، فلم يتعمقوا فى فلسفة ، ولم يتمسكوا بمذهب ،

---

(١) راجع الفلسفة الإسلامية للأستاذ ت . ج . دى بور ، تعريب الأستاذ محمد عبد الهادى أبو ريدة ، ص ٨٩ ، ٩٠ .

إلا من ندر من الخاصة . يقول المقرى : « وكل العلوم لها عندهم خطر إلا الفلسفة والتنجيم . فإن لها حظا عظيما عند خواصهم . ولا يتظاهر بها خوف العامة . فإنه كلما قيل : فلان يقرأ الفلسفة أو يشتغل بالتنجيم ، أطلقت عليه العامة اسم «زنديق» وقيدت أنفاسه . فإن زل فى شبهة رجموه بالحجارة أو حرقوه قبل أن يصل أمره إلى السلطان ، أو يقتله السلطان تقربا لقلوب العامة » ... الخ (١)

وهذه العبارة تمثل فى جملتها عامة الحال فى الأندلس . فقد كان كثير من ملوكها وفقهائها متعصبين ضد هـذه العلوم ، ولم يبح الاشتغال بها إلا أخيراً .

ويبدو مما مر أن الثقافة الأدبية — كما نوهنا — كانت صاحبة السيادة فى تلك البلاد . ولهذا لم يبرز من بين شعرائهم فيلسوف كالمعرى ، أو حكيم كالمتنبى ، أو مصنع كأبى تمام . وعاش شعرهم فى جملته سهلا سمحا غير بعيد الغور ، قريب التناول ، مقبولا من السمع ، مشوقا للنفس ، لما امتلأ به من هاجساتها وعواطفها .

وقد تجلى أثر الثقافة هناك فى مظاهر متعددة — فضلا عن تجليه فى بشاشة الأدب والشعر وسعتهما — ومنها ما نظمه الشعراء فى التصوف والحكم والأمثال ، وفى حقائق العلوم . وهذه فنون — كما رأينا — سبقهم بها المشارقة . ولكن الأندلسيين فاقوهم فى نظم العلوم حتى صاروا أساتذة هذا الفن . ويبدو أن سبب ذلك أن علماء الأندلس كانوا شعراء أو العكس . وهم نمط مما ستجده بمصر فى العصر المملوكى . لقد اجتمع لهم من العلم والمعرفة ، ومن المقدرة على نظم الشعر ، ما أوحى إليهم بتقييد شوارد العلوم وضبطها وضبط قواعدها فى قوالب شعرية تحفظها من الضياع وتعين على استحضارها وتعلمها .

ونظم ابن هانىء فى الحكمة فقال :

إنا وفى آمال أنفسنا طول وفى أعمارنا قصر

---

(١) نفح الطيب للمقرى ص ١٠٢ ج ١ فى الباب الأول من القسم الأول .

لنرى بأنفسنا مصارعنا لو كانت الألباب تعتبر
مما دهانا أن حاضرنا أجفاننا والغائب الفكر .. الخ

ومن نظم حقائق العلوم : أبو طالب عبدالجبار ، نظم أرجوزة فى التاريخ(١) وأحمد بن عبد ربه صاحب العقد الفريد ، نظم أرجوزة فى تاريخ بنى أمية بالأندلس(٢)، وأرجوزة فى العروض(٣). والشاطبى نظم قصيدة « حرز الأمانى » فى القراءات . وابن مالك الأندلسى نظم الكافية والخلاصة المعروفة بالألفية ، فى النحو . إلى غير ذلك .

ومهما قيل فى هذا اللون من الشعر فهو نظم ثقافى على كل حال .

ولا تعتبر أراجيز التاريخ من الشعر القصصى أو ملاحمه ، لمزايلتها الخيال الشعرى والتصورات الأدبية الجميلة ، ووصف المعارك بما تتطلب من الحماسة ، وتمجيد البطولات ، إلى غير ذلك .

وكانت الثقافة فى مصر قد ركدت ركودا كبيرا فى العصر العثمانى ، بعد هذا الانتعاش الواسع الذى شهدته فى عصر المماليك . فقد عنى العثمانيون عناية كبيرة بتجريد مصر من كل دعائم النهوض . فأخذوا أموالها وكتبها ورجالها وأهل الفن فيها وأوقافها . حتى أقفلت مساجدها ودور التعليم فيها . وجنوا بذلك على آدابها بعامة ، فصارت ضحلة ضيقة متعثرة .

ثم قيضت لمصر فى عصرها الحديث أسباب النهضة على نحو مابينا فيما سبق . فانتشر التعليم وفتحت المدارس وأرسلت البعثات إلى الخارج وترجمت كتب أجنبية ، وانتشرت الصحف والمطابع ، وطبعت مخطوطات عدة ودواوين شعرية .

---

(١) الذخيرة لابن بسام .
(٢) العقد الفريد ج ٣ .
(٣) العقد الفريد ج ٤ .

وأسست الجامعات ، ونظمت الدراسات العليا وقررت مجانية التعليم . وبذلك اتسع أفق الثقافة وجمعت بين القديم والجديد ، والشرقى والغربى . وحفلت بها دور التعليم والنوادى وقاعات المحاضرات ، وعمرها أعلام العلم والأدب والثقافة من كل لون . وبرزت العناية باللغة العربية الفصحى باعتبارها اللغة القومية .

كان لهذا صدى فى محيط الشعر — ولاريب — كان يقظة فى الأذهان وإثراء فى الأفكار ، وانطلاقا فى الأقلام ، واتجاها إلى التعبير عن حاجة البلاد فى كل نواحيها ، وعدم الوقوف أمام صنعة أو تصنيع ، وإن لم يخل الشعر جملة من الاهتداء بالقدماء ، والاقتداء بهم فى بعض مسالك الشعر .

ونضحت آثار الثقافة على الشعر فى جميـــع ميادينه . فى الميدان السياسى والاجتماعى — كما رأينا — ووجدت أغراض جديدة كمخاطبة الآثار وشعر القصة والشعر التمثيلى ، وكالشعر الوطنى والقومى والأغانى والأناشيد الوطنية .

غير أن آثار الثقافة لم تظهر فى حكمة تساق أو مثل يضرب ، أو فلسفة تشرح . — وإن لم يخل الشعر جملة من هـذه الاتجاهات — غير أن جد الحياة السياسية وجد الحياة الاجتماعية الجديدتين ، لم يدعا مجالا للتخصص فى مثل هذه الأغراض .

وأوضح مابدا أثر الثقافة . فى انطلاق الأفكار ومحاولة التجديد ، وفى ابتكار المعانى ، ودقة التعبير عن حاجات الأمة . مع الخضوع — خضوعا ما — لبعض أساليب القدماء ومناهجهم ، بتأثير ثقافتهم القديمة ، أو الصلة التى تربطنا بهم .

وقد تعددت — مثلا — معارضات شعرائنا للأقدمين . ومن ذلك قصيدة توفيق البكرى فى رثاء أبيه . فإنه عارض بهـا قصيدة المتنبى فى رثاء جدته ، التى مطلعهـا :

ألا لا أرى الأحداث مدحا ولا ذما فمـا بطشها جهلا ولا كفها حلما

ويقول البكرى :

سقت رحمة الله الضريح وما ضما وروت به هاما وروت به عظما
يعز على العلياء أن يسكن الندى ترابا وأن نلقى به الحسب الضخما(١)

وعارض شوقى بردة البوصيرى فى مدح الرسول عليه السلام التى أولها :

أمن تذكر جيران بذى سلم مزجت دمعا جرى من مقلة بدم

فقال شوقى :

ريم على القاع بين البان والعلم أحل سفك دمى فى الأشهر الحرم

وعارض شوقى ابن زيدون فى قصيدته التى مطلعها :

أضحى التنائى بديلا من تدانينا وناب عن طيب لقيانا تجافينا

فقال شوقى :

يانائح الطلح أشباه عوادينا نشجى لواديك أم نأسى لوادينا

وعارض شوقى سينية البحترى فى وصف إيوان كسرى التى مطلعها :

صنت نفسى عما يدنس نفسى وترفعت عن جدا كل جبس

فقال شوقى أندلسيته التى مطلعها :

أختلاف النهار والليل ينسى اذكرا لى الصبا وأيام أنسى

إلى غير ذلك .

وبتأثير الثقافة القديمة ظل بعض شعرائنا يتحدث عن الحيا والغيث ، وعن الناقة والجمل والهودج ، وعن الديار والمنازل ، وعن اللوى والرقمتين . .

ومن الطريف أن يحيي شوقى أم عباس فى عودتها من الخارج إلى مصر ، بقصيدة عصماء يبدؤها بقوله :

---

(١) شعراء مصر للمرحوم الأستاذ العقاد ص ٥٦ ، ٥٧

ارفعى الستر وحيي بالجبين وأرينا فلق الصبح المبين
وقفى الهودج فينا ساعة نقتبس من نور أم المحسنين
واتركى فضل زماميه لنا نتناوب نحن والروح الأمين
قد سقينا بمحياك الحيا ولقينا حول يمناك اليمين .الخ(١)

واصطنع البارودى بعض ألوان البديع على نمط مسلم بن الوليد وابن المعتز . ومنه قوله :

هذى الجزيرة فانظر هل ترى أحدا ينأى به الخوف أو يدنو به الطمع

وقوله :

ونادى المنادى للصلاة بسحرة فأحيا الورى من بعد طى إلى نشر

وقوله :

دهر يغر وآمال تسر وأعمار تمر وأيام لها خدع

غير أننا إذا نشدنا الحكمة والمثل وجدناهما عند كثيرين من شعرائنا هؤلاء، ينتزعونها من الملابسات ومقامات القول ، على نمط أكثر العباسيين . وهما على كل ، نتيجة الثقافة العامة لا الخاصة ، أو ثقافة التجربة لا ثقافة النظر والدرس .

ومن حكم البارودى .

إن الحياة لثوب سوف تخلعه وكل ثوب إذا مارث ينخلع

وقوله :

والدهر كالبحر لا ينفك ذا كدر وإنما صفوه بين الورى لمع
لو كان المرء فكر فى عواقبه ماشان أخلاقه حرص ولا طمع(٢)

ومن حكم شوقى قوله ـ وقد انتزعه من المناسبة :

---

(١) الشوقيات ج ١ ص ٣١٩ .
(٢) ديوان البارودى .

من مات فى فزع القيامة لم يجد قدما تشيع أو حفاوة ساع

قاله فى رثاء المنفلوطى الذى مات يوم أطلق طلق نارى على زعيم البلاد إذ ذاك سعد زغلول. فشغل الناس بالحادث ولهوا عن وداع هذا الكاتب الكبير.

وكان المنفلوطى فقيرا حسن التجمل أمام الناس، يضغط أعصابه ليبدو أمام الناس غنيا مثريا، حذرا من الإشفاق. فقال شوقى:

ولرب بؤس فى الحياة مقنع أربى على بؤس بغير قناع

ولشوقى فى سياق رثاء الزعيم مصطفى كامل:

دقات قلب المرء قائلة له إن الحياة دقائق وثوان

فارفع لنفسك قبل موتك ذكرها فالذكر للإنسان عمر ثان

إلى غير ذلك من أمثاله.

وشوقى وغيره ممن يذهبون مذهبه فى الحكمة، يصدرون فيها عن روح دينية كريمة، هى سمة من سمات المجتمع المصرى.

وإلى جانب ذلك نشعر بمحاولة الشعراء أن يجددوا فى المعانى والتصويرات. ولا ريب أنهم أجادوا ذلك فى ميدان السياسية والاجتماع، لامتلاء بيئتيهما بكل جديد.

ويصور شوقى جهل المتعالم هذا التصوير الجديد:

والجهل لا يلد الحياة مواته إلا كما تلد الرمام الدودا

لم يخل من صور الحياة وإنما أخطاه عنصرها فمات وليدا (١)

وقد نوهنا فيما سبق، بالشعر القصصى والتمثيلى، ويعتبران نصرا للأدب المصرى الحديث. وما كان ذلك إلا بسبب تعاطى الثقافات والاطلاع على أدب الغرب والأدب اليونانى.

---

(١) أبيات شوقى عن الموقيات.

ويعتبر من الشعر القصصى ، مطولة شوقى « صدى الحرب » (١) التى يصف فيها الوقائع التى جرت بين الدولة التركية واليونانية ، وكانت حينـذاك ذات صلة بمشاعر مصر . ومنها « كبار الحوادث فى وادى النيل » لشوقى أيضاً ، التى وصف فيها حوادث مصر ودولها من لدن الفراعنة حتى زمنه(٢) . ومنها « عمرية » حافظ و « علوية » عبد المطلب . وملحمة محرم الكبرى فى سيرة الرسول عليه الصلاة والسلام .

ومن الشعر التمثيلى . قمبيز . ومصرع كليوبترا . ومجنون ليلى ، وغيرهما لأحمد شوقى . وقيس ولبنى لعزيز أباظة .

وبتأثير الثقافة الجديدة ، اهتم النقاد المحدثون بتوجيه الشعراء نحو العناية بتهذيب شعرهم وصوغه على قواعد وفى اتجاهات معينة . فمنهم من دعا إلى العناية بالمعنى والفكرة ، وإلى وحدة القصيدة دون وحدة البيت . ومن دعا إلى العناية بالشكل والقالب ، أى بطريقة التصوير لأن ذلك هو مجال الفن ومجلاه . ومن دعا إلى الاهتمام بالمضمون أولا ، على أن ينتزع من الحياة الواقعة ومن ملابسات الأمة . ومن دعا إلى الانطلاق من الوزن القافية ، والوقوف باللفظ أو التعبير عند تمام الدفقة الشعورية ، وإلى غير ذلك من ألوان المناهج .

وفى رأينا أنه لم ينهض حتى اليوم مذهب بعينه محدد القواعد والأهداف ، مدعوم بأدلته القوية ، بحيث يأخذ بتلابيب الشعراء بعامة ، ويقهرهم على اعتناقه وتحذيه ، على أساس أنه المذهب الذى تتطلبه البيئة الحاضرة .

وعلى كل فقد كانت هناك ثمرة من حركة النقد ، عبر عنها الأستاذ عمر الدسوقى ملخصا ، فقال :

---

(١) أولها ، بسيفك يعلو الحق والحق أغلب .

(٢) أولها ، همت الفلك واحتواها الماء .

« وكانت الثمرة الطبيعية لكل هذه الآراء فى النقد وفى توجيه الشعراء أن تعددت مدارسه . فمدرسة آثرت الشعر التقليدى العربى فى روحه ومعانيه ، وتشبيهاته وأخيلته ، وموضوعاته وصياغته ، وإن لم تنج من التأثر بمظاهر الحضارة والنهضة القومية وتوجيه النقاد . ومن هؤلاء : عبد المطلب وتوفيق البكرى والجارم وإسماعيل صبرى ، وحافظ إبراهيم ، وأحمد محرم .

ومدرسة جمعت بين القديم والجديد ، أخذت من الأول حسن الصياغة وطريقة القصيدة ، وتأثرت بالشعراء القدامى فى موسيقاهم ومعانيهم ، وعارضتهم ، وأخذت من الجديد بطرف فى الموضوعات ، والتشبيهات ، وأحيانا فى القالب ، وانفعلت بحوادث عصرها ، من مثل شوقى ومحمود طه المهندس .

ومدرسة قلدت ثم جددت باعتدال دون خروج فى الجملة على قواعد اللغة ، من أمثال مطران والعقاد والمازنى وأبى شادى ، والصيرفى وشيبوب .

ومدرسة أثرت أن تنحو النحو الغربى . وتهجر كل مايمت إلى الشعر العربى بصلة . ومن هذه المدرسة شعراء المهجر . وأقرب المصريين إليهم شكرى .

أما شعراء الشباب ففيهم نزعات كثيرة لم تتركز بعد ، وهم يقلدون عدة مدارس غربية تقليدا لم يصدروا فيه عن حاجة طبيعية ، أو ضرورة اجتماعية أو سياسية ، كما فعل شعراء أوربا . بل أمعنوا فى التجديد والتقليد . فصار منهم الرمزيون ، والسرياليون ، والواقعيون ، والصوريون . إلى غير ذلك من المذاهب التى ما أنزل الله بها من سلطان فى مصر (١) .

---

(١) فى الأدب الحديث ج ٢ ص ٢٣٣ فى نهاية الفصل الثالث .

رابعا ــ فى البيئة الاجتماعية

البيئة الاجتماعية أفسح البيئات أمام الشعر ، وأشدها تأثيراً فيه . إنها تتيح له آفاقا عدة . وتفتح أمامه أبواباً للقول لاحصرلها وفيها سعة من الحرية وفرصة للانطلاق . ويغلب أن يكون تعبيره عنها أوسع مدى ، ومظاهر آثارها عليه أوضح بياناً .

وبتأثير البيئة الاجتماعية يتجه الشعر اتجاهات خاصة ، ويطرق أبوابا بعينها .

وإذا كان الشعر الجاهلى قد عبر فأحسن التعبير ، عن ألوان بيئته ، وكان حسن الاستجابة لدواعيها ، فإنه عبر فصدق ، ونطق فأجاد ، عن بيئته الاجتماعية. لقد عودت هذه البيئة الصحراوية أهلها ، على تقاليد وعادات ونظم ، نطق بها الشعر وبينها .

لقد كان من عاداتهم ـ مثلا ـ عشق المرأة وعشق ديارها من أجلها ومن أجل ما لها من الذكريات فيها . لذلك وقفوا على ديارها بعد رحيلها وساءلوها وساءلوا دمنتها ونؤيها ـ وربما وقفوا على الديار لغير ذلك ـ (١) ووصفوا عادات المرأة وبخاصة المرأة المترفة الناعمة . وألمعوا إلى تأثير المرأة فى نفوسهم عند الحروب ـ على الرغم من أنه كان من عادة بعض القبائل وأد بعض بناتها لدمامتهن أو لخوف العار أو الفقر .

وعلمتهم بيئتهم الصحراوية وحياتهم القبلية وحياة الترحل أن يكونوا كرماء ويحبوا الكرم ويمجدوه ويدعوا إلى إكرام الضيف وغوث الملهوف والمحافظة على الجار والدفاع عنه . لأن كلا منهم عرضة لنزول الحاجة وانقطاع السبيل به والاضطرار إلى الاستغاثة والاستجارة .

ونشأتهم على الشجاعة والشهامة والاعتماد على النفس فى هذه البوادى التى

(١) النابغة الذبيانى ص ٥٢

لا حكومة فيها ولا شرطة ولا جيش منظم ، فاضطر كل فرد أن يكون جندى نفسه ، وكل قبيلة أن تكون كتيبة نفسها .

وإلى جانب هذا تحلوا بالعفة والحلم والعدل ، وحب الحرية والإباء ، والوفاء ، وكانوا يتمدحون بهذه الأخلاق والصفات ويفتخرون بها . كما افتخروا بحسبهم ونسبهم .

وإن كان قد شاع بينهم حب الخمر والتمتع بالنساء والمقامرة واتخاذ الرقيق والجوارى ، فقد كان منهم من يتخذ المقامرة مثلا فرصة للكرم . فيجود بما يربحه ويكرم به .

وإلى جوار هذه العادات ، كانت الوثنية دين عامتهم ، ولكنها الوثنية المبسطة الساذجة التى تفىء إلى الوحدانية عند المناسبة (١) وقليل منهم المتأله واليهودى والنصرانى .

ووجدت عاداتهم وتقاليدهم هذه ، وغيرها صدى فى شعر شعرائهم .

وهذا امرؤ القيس يفتتح معلقته المشهورة بذكر أحبابه ومنازلهم ، ويقف باكياً ويستوقف صاحبيه عليها ، قائلا :

قفا نبك من ذكرى حبيب ومنزل بسقط اللوى بين الدخول فحومل
فتوضح فالمقراة لم يعف رسمها لما نسجته من جنوب وشمال(٢)

وهكذا فعل النابغة فى افتتاح إحدى قصائده :

عوجوا فحيوا لنعم دمنة الدار ماذا تحيون من نؤى وأحجار
أقوى وأقفر من نعم وغيره هوج الرياح بهابى التراب موار(٣)

---

(١) النابغة الذبيانى للأستاذ عمر الدسوقى ص ٤٩ ، ٥٠ تحت عنوان الصحراء ص ٤٥

(٢) معلقات العرب للدكتور طبانة .

(٣) شعراء النصرانية . وجمرة أشعار العرب ـ والنؤى : الحفير حول الخيمة أو الخباء . ـ يمنع عنه السيل ـ والهابى : تراب القبر ، والتراب الثائر ـ والموار : الكثير الحركة .

ويصف لأعشى المرأة المترفة فيذكر بياضها وطول شعرها وأسنانها المصقولة ومشيتها المتريثة ، وهى عائدة من زيارة جارتها . ووسواس حليها ، وتراخى جسدها من شدة الترف والنعومة :

غراء فرعاء مصقول عوارضها تمشى الهوينا كما يمشى الوجى الوجل
كأن مشيتها من بيت جارتها مر السحابة لا ريث ولا عجل
تسمع للحلى وسواسا إذا انصرفت كما استعان بريح عشرق زجل
ليست كمن يكره الجيران طلعتها ولا تراها لسر الجار تحتفل
يكاد يصرعها لولا تشددها إذا تقوم إلى جاراتها الكسل[1]

وامرؤ القيس يضوع المسك من صاحبتيه كأنه النسيم المعطر برائحة القرنفل :

إذا قامتا تضوع المسك منهما نسيم الصبا جاءت بريا القرنفل

وكانت صاحبته إذا أضحت ترى فتيت المسك فوق فراشها ، وهى تنام حتى الضحا ، وذلك دليل الترف والدلال والسيادة .

وتضحى فتيت المسك فوق فراشها نئوم الضحا لم تنتطق عن تفضل[2]

وكانوا يستبسلون فى القتال استجابة لتحريضها ، ومخافة أن يسبيها الأعداء . يقول عمرو بن كلثوم فى معلقته :

على آثارنا بيض حسان نحاذر أن تقسم أو تهونا
يقتن جيادنا ويقلن لستم بعولتنا إذا لم تمنعونا[3]

وكان تعلقهم بالكرم وحب الكرماء مضرب الأمثال ، ويصف حسان بن ثابت أبناء جفنة ـ الغساسنة ـ بقوله :

---

(١) ديوان الأعشى الكبير للدكتور محمد محمد حسين ـ والغراء : البيضاء ـ والفرعاء : النامية الشعر الطويلته — والعوارض : صفحات العنق ـ والوجى : الحافى — والعشرق : نبات — والزجل : الذى له صوت .

(٢) الحياة العربية للدكتور الحوفى ص ٢٩٥ .

(٣) المصدر السابق ص ٢١٥ .

يغشـــون حتى ما تهر كلابهم لايسألون عن السواد المقبل (١)

ويفتخر بالكرم والشجاعة والأبناء :

انا الجفنات الغر يلمعن فى الضحا وأسيافنا يقطرن من نجدة دما
ولدنا بنى العنقاء وابنى محرق فأكرم بنا خالا وأكرم بنا ابنما (٢)

وأمر حاتم الطائى غلمانه بأن يشبوا النار ، وأن يوسعوا فيها لتكبر وتعلو ، حتى تجلب الضيفان . ويحبب إليهم أن يعجلوا بإشعالها:

إذا ما البخيل الخب أخمد ناره أقول لمن يصلى بنارى أو قدوا
توسع قليلا أو يكن ثم حسبنا وموقدها البادى أعف وأحمد (٣)

ويفتخر حسان بن ثابت بسيفه ولسانه :

لسانى وسيفى صارمان كلاهما ويبلغ مالا يبلغ السيف مذودى

ويتمدح عنترة بشجاعته وفرسيته وعفته :

وحليل غانية تركت مجدلا تمكو فريصته كشدق الأعلم
ســـبقت يداى له بعاجل طعنة ورشاش نافذة كلون العنـــدم
إذ لا أزال على رحالة ســـابح نهد تعاوره الكماة مـــكلم
طورا يجرد للطعان وتارة يأوى إلى حصد القسى عرمرم
يخبرك من شهد الوقيعة أننى أغشى الوغى وأعف عند المغنم (٤)

وفى أبيات رقيقة مترفة يصف حسان بن ثابت معاقرته الخمر مع أصحابه بجلق :

لله در عصـابة نادمتهـــم يوما بجلق فى الزمان الأول

---

(١) ، (٢) ديوان حسان .

(٣) الحياة العربية للدكتور الحوفى ص ٣١٥ .

(٤) معلقات العرب للدكتور طباطة ص ١٨٥ ـ تمكو : تصفر ـ والفريصة : واحد الفريص وهى أوداج العنق ـ الشدق : طفطفة الفم من باطن الخد ـ الأعلم: يريد الفرس ـ النافذة : القناة أو الطعنة ـ والنهد : الفرس الجميل الجسيم ـ والكماة : الشجعان مفردها كمى .

يمشون فى الحلل المضاعف نسجها مشى الجمال إلى الجمال البزل
ولقد شربت الخمر فى حانوتها صهباء صافية كطعم الفلفل
يسعى على بكأسها متنطف فيعلنى منها وإن لم أنهل
إن التى ناولتنى فرددتها قتلت قتلت فهاتها لم تقتل
كلتاهما حلب العصير فعاطنى بزجاجة أرخاهما للمفصل (١)

ويجمع طرفة بن العبد لذاذاته ـ وهى الخمر والحرب والنساء ـ فى قوله :

ولولا ثلاث هن من عيشة الفتى وجدك لم أحفل متى قام عودى
فمنهن سبقى العاذلات بشربة كميت متى ما تعل بالماء تزبد
وكرى إذا نادى المضاف محنبا كسيد الغضا نبهته المتورد
وتقصير يوم الدجن والدجن معجب ببهكنة تحت الخباء الممدد (٢)

ويسجل طرفة عاداتهم فى الدعوة العامة إلى الوليمة فى المشتاة :

نحن فى المشتاة ندعو الجفلى لا ترى الآدب فينا ينتقر
حين قال الناس فى مجلسهم أقتار ذاك أم ريح قطر
بجفان تعترى نادينا من سديف حين هاج الصنبر
كالجوابى لا تنى مترعة لقرى الأضياف أو للمحتضر (٣)

ويذكر زهير بن أبى سلمى « الله » فى شعره ، « ويوم الحساب » :

فلا تكتمن الله ما فى نفوسكم ليخفى ومهما يكتم الله يعلم
يؤخر فيوضع فى كتاب فيدخر ليوم الحساب أو يعجل فينقم (٤)

---

(١) ديوان حسان بن ثابت .
(٢) معلقات العرب ـ والكميت : الخمر فيها سواد وحمرة ـ والمحنب : الفرس يبعد ما بين رجليه بغير اعوجاج ـ وسيد الغضا : يريد الأسد ـ والبهكنة : الشابة الغضة اللينة .
(٣) الأغانى .
(٤) معلقات العرب للدكتور رطبانة .

ويقسم النابغة « بالله » للنعمان ليذهب ريبته .

حلفت فلم أترك لنفسك ريبة وليس وراء الله للمرء مذهب

وكان أمية بن أبى الصلت متألها ، وكان أكثر من ذكر الله فى شعره فى الجاهلية :

الحمد لله ممسانا ومصبحنا بالخير صبحنا ربى ومسانا

رب الحنيفة لم تنفد خزائنه مملوءة طبق الآفاق سلطانا .. الخ

وتطلع بنو أمية إلى الحجاز - بعد أن استقر بهم المقام بدمشق واتخذوها دار خلافة - فوجدوا بها بقية من الصحابة وناشئة من أبناء المهاجرين والأنصار ، الذين يعيشون على مجد آبائهم ، ممن بنوا بسواعدهم وجهادهم وتفديتهم دولة العرب والإسلام. وأنهم لابد متطلعون إلى الملك متكلمون فى السياسة مناهضون للدولة . فرأوا من حسن النظر وبعده أن يشغلوا بالهم بما يقعدهم فى عقر ديارهم خاملين وادعين ، لايتطلعون إلى ملك ولا يناهضون دولة . فأغدقوا عليهم المال والرواتب وأجزلوا لهم فى العطاء(١) . فذاق هؤلاء طعم النعمة - وكانوا قد بدءوا قبل هذا يذوقونها - وجنح بهم الثراء إلى الترف ، وأغرتهم البلهينة بطلب اللذة . فشغلوا بالمسامرة والمعاقرة(٢) ، ولهوا بالمنادمة . وفرغت قلوبهم من حب المجد والرياسة إلى العشق والمغامرات . فطابت لهم مجالس الأنس ومحافل الرقص والغناء ، وكثر من حولهم المعينون والمساعدون . واتضح ذلك فى المدينة أكثر من سواها .

وهكذا أقبل الحجازيون منهم على حياة ترف ومجون سافرة متنقلة ، وأقبل

---

(١) الشعر الغنائى فى الأمصار الإسلامية للدكتور شوقى ضيف ج ١ ص ٣٢ وما بعدها نشر دار الفكر العربى . وعمر بن أبى ربيعة عصره وحياته وشعره لجبرائيل جبور ج ١ - طبع بيروت سنة ١٩٣٥

(٢) المصدر نفسه ص ٤٧ عن الأغانى ج ١٥ ص ١٥ - وعمر بن أبى ربيعة لجبرائيل جبور ج ١ ص ٦١ وما بعدها .

أهل البادية منهم على حياة عشق عفة غالبا ، إذ لم ينالوا من أسباب الغنى والترف ما ناله أهل الحواضر . فكان للفاقة والحرمان أثر فى اتجاه كثير منهم إلى التقوى والتعفف[١] . والشعراء منهم يرتادون زوايا هذه الحياة ، ويعبون مما يعب منه قومهم ، فكان شعرهم صدى لحياتهم هذه .

ونشأ فى الحاضرة - مثلا - عمر بن أبى ربيعة ، غزلا صريحا رقيقا ، وقصصيا محاورا ، يتعقب النسوة ، ويطلع عليهن فى مآمنهن ، ويلاقى بعض معشوقاته منهن فى خدورهن ، ثم يعود واصفا قاصا مشبعا بذلك نفسه وفنه ، ومصورا حياته وحياة اللاهين من أبناء الحجاز ، ومتنبها إلى نفسية المرأة وحركاتها وإشارتها ، مدركا لأهوائها وعواطفها وخلجاتها[٢] .

ونشأ فى البادية - مثلا جميل بثينة - أوقيس ليلى - عاشقا صدق فى عشقه . ومحبا وهب نفسه لحبه ، وعفيفا لم يفجر ، ومتأبيا لم يفحش ، وعذريا لم يسف ولم يمن . وأودع فى شعره ماصور به حياته وحياة أمثاله من أعفاء نجد والبادية .

ويصف عمر بن أبى ربيعة فى رائيته ، مغامرته بزيارة معشوقته ليلا فى دارها بين حيها ، يقول :

فلما فقدت الصوت منهم وأطفئت ... مصابيح شبت بالعشاء وأنؤر
وغاب قمير كنت أرجو غيوبه ... وروح رعيان ونوم سمـــر
ونفضت عنى النوم أقبلت مشية الـ ... سحباب وركنى خيفة القوم أزور
فجئت إذ لافيتها فتولهت ... وكادت بمكنون التحية تجهر
وقالت وعضت بالبنان فضحتنى ... وأنت امرؤ ميسور أمرك أعسر ..الخ

وقبع عمر فى خدر معشوقته ، إلى أن تقضى الليل إلا أقله ، فاحتارا كيف

---

(١) راجع جبرائيل جبور فى كتابه عن عمر بن أبى ربيعة ج ١ ص ١٨٩ .
(٢) مقدمة ديوان عمر بن أبى ربيعة ص ٨ ط بيروت سنة ١٩٦١ م .

يرحل ، ثم أخبرت أختيها، ثم خرجن وهو بينهن إلى أن جاوز الحى . . ويقص عمر هذه القصة تقول معشوقته يقول :

أقص على أختى بدء حديثنا ومالى من أن تعلما متأخر
لعلهمـــا أن تبغيا لك مخرجا وأن ترحبا صدرا بما كنت أحصر
فقامت كئيبا ليس فى وجهها دم من الحزن تذرى عبرة تتحدر
فقالت لأختيها أعينا عـــلى فتى أتى زائرا والأمر للأمر يقـدر
فأقبلتا فارتاعتا ثم قالتـــا أقلى عليك الهم فالخطب أيسر
يقوم فيمشى بيننا متنكرا فلا سرنا يفشو ولا هو يظهر
فكان مجنى دون ما كنت أتقى ثلاث شخوص كاعبان ومعصر . . الخ(١)

ويصور جميل بثينة ولوعه وحبه وأصالة عشقه فيقول .

أقول لداعى الحب والحجر بيننا ووادى القرى لبيك لما دعانيا
فلم تنكر الداعى ولكن حبها أصيل ويبلى كالذى كنت باليا
فما أحدث النأى المفرق بيننا سلوا ولا طول اجتماع تقاليا
كأن لم يكن نأى إذا كان بعده تلاق ولكن لا إخال تلاقيا
خليلى إن لم تبكيا لى ألتمس خليلا إذا أنزفت دمعا بكى ليا

ويقول :

وأنت التى إن شئت كدرت عيشتى وإن شئت بعد الله أنعمت باليا
وأنت التى ما من صديق ولا عدى يرى نضو ما أبقيت إلا رثى ليا(٢)

وقيضت للشعوب فى عصر بنى العباس حرية واسعة ومساواة حرموها من قبل ، فى عصر بنى أميـــة الذين كانوا متعصبين للعرب . فازداد بسبب ذلك ،

---

(١) ديوان عمر بن أبى ربيعة ط بيروت
(٢) ديوان جميل للدكتور حسين نصار،

اختلاطهم وامتزاجهم بالمجاورة والمعاملة والمصاهرة ، ونتج من بعد من الجميع ، جيل عباسى، إسلامى الدين، عربى اللغة، فارسى الحضارة ، يونانى العلم . أوخذت عصبية العرب تتوارى، وتخمد فيهم جذوة التباهى بكرم الأصل والنجار . وأخذوا يدخلون فى طور حضارى واسع النطاق بعيد الآفاق ، انتشرت فيه ألوان الثقافة والمترجمات عن يونان وغيرها ، فى علوم مختلفة - وفق ما أشرنا - واتسعت الدواوين وغزتها النظم الفارسية. وتغيرت أشكال الدولة فى الزى والشعار وطرق المعيشة بما يناسب مستواها الحضارى ، وانفسح المجال أمام صناعتها وفنونها ، وبنيت العمائر والقصور والبساتين والبرك . وأقبل كثير من الناس على النعيم والتمتع بملاذ الدنيا . وظهرت مفاسد جديدة وانتشرت المجونيات والتبذل ، ومجالس الخمر والأنس والمنادمة والغناء والطرب . ورحلات الصيد والرياضة . وانتهز بعضهم فرصة حرية الرأى فكشفوا عن سريرتهم ودخيلة أفكارهم ، فظهر الزنديق والشعوبى والمتطرف . وظهرت العصبية بين العرب والعجم .

وأقبل الشعراء يصورون فى أشعارهم هذه الحياة الجديدة الحضارية بمحاسنها ومساوئها . فوصفوا قصورها وبساتينها ومجالس أنسها وبركها ومصايدها وصناعتها وأدواتها ، وما يجرى بها من مجون وخلاعة وتهتك وتهالك على الخمر ، أو تهالك على الزهد . وتغزلوا بالمذكر والمؤنث ، واتجه بعضهم إلى الأدب المكشوف . وأتوا فى كل أولئك بالرائع الممتع من حر الشعر ورقيقه . وهذبوا لفظه ورققوا أسلوبه بما يلائم الحياة المترفة ، ونأوا عن الغريب الجاف ، ونعى بعضهم على مسلك الجاهليين فى مفتتح قصائدهم من الولوع بمساءلة الدار ومخاطبة الأطلال .

ولم تخل الحياة حينذاك من كريم بذال يمدح، وشجاع صوال يمجد ، وعاقل رزين يطرى ، ومخلص أمين يثنى عليه ، ووفى حر يصادق ويحب ، ونزيه عف يود ويقدر، ودمث مواضع يجل ويقتدى به .

وأبو نواس الذى اشتهر بمقارفة الخمر والتهالك على شربها ، استبدل وصفها بذكر الأطلال والديار فى مفتتح قصائده أحياناً ، فقال :

ألا فاسقنى خمراً وقل لى هى الخمر ولا تسقنى سراً إذا أمكن الجهر

ويقول :

لا تبك ليلى ولا تطرب إلى هند واشرب على الورد من حمراء كالورد

ويقول واصفاً سكيراً :

ومستطيل على الصهباء باكرها فى فتية باصطباح الراح حذاق

فكل كف رآه ظنه قدحاً وكل شخص رآه قال ذا ساق

وهو الذى يقول فى عزة النفس :

ومستعبد إخوانه بثرائه لبست له كبراً أبر على الكبر

إذا ضمنى يوما وإياه محفل يرى جانبى وعراً يزيد على الوعر..الخ(١)

ومن مكشوف غزل بشار قوله :

ياعجباً للخلاف ياعجبا بنى الذى لام فى الهوى الحجر

حسبى وحسب الذى كلفت به منى ومنه الحديث والنظر

أوقبلة فى خلال ذاك وما بأس إذا لم تحل لى الأزر

أوعضة فى ذراعها ولها فوق ذراعى من عضها أثر..الخ(٢)

ويتغزل ابن الرومى فى « وحيد » المغنية فيقول :

ياخليلى تيمتنى وحيد ففؤادى بها معنى عميد

غادة زانها من الغصن قد ومن الظبى مقلتان وجيد

---

(١) ديوان أبو نواس ـ والصهباء : الخمر .

(٢) ديوان بشار .

ومن دقيق وصفه لها ولصوتها قوله :

تتغنى كأنها لا تغنى ... من سكون الأوصال وهى تجيد
لا تراها هناك تجحظ عين ... لك منها ولا يدر وريد
من هدو وليس فيه انقطاع ... وسجو وما به تبليـــد
مد فى شأو صوتها نفس كا ... ف كأنفاس عاشقيها مديد
وأرق الدلال والغنج منه ... وبراه الشجا فكاد يبيد
فتراه يموت طورا ويحيا ... مستلذ بسيطه والنشيد
فيه وشى وفيه حلى من النغ ... م مصوغ يختال فيه القصيد . .(١)

ويصف ابن الرومى صانع الرقاق :

ما أنس لا أنس خبازا مررت به ... يدحو الرقاقة مثل اللمح بالبصر
ما بين رؤيتها فى كفه كرة ... وبين رؤيتها قوراء كالقمر
إلا بمقدار ما تنداح دائرة ... فى صفحة الماء يرمى فيه بالحجز(٢)

ويصف البحترى بركة للمتوكل الخليفة العباسى ، وما يبدو فيها من المحاسن وهو شعر حضارى وإن اتصل بشعر الطبيعة :

يامن رأى البركة الحسناء رؤيتها ... والآنسات إذ لاحت مغانيها
بحسبها أنها من فضل رتبتها ... تعد واحدة والبحر ثانيها
ما بال دجلة كالغيرى تنافسها ... فى الحسن طورا وأطوارا تباهيها

ويقول يصف مياهها :

تنصب فيها وفود الماء معجلة ... كالخيل خارجة من حبل مجريها
كأنما الفضة البيضاء سائلة ... من السبائك تجرى فى مجاريها

---

(١) (٢) ديوان ابن الرومى ص ٩٨ اختيار الكيلانى .

إذا علتها الصبا أبدت لها حبكا مثل الجواشن مصقولا حواشيها.. الخ(١)

ومنذ بدء عصر النهضة الكبرى بمصر ، انتعشت حياتها السياسية ، وتعددت فيها وسائل النهوض الثقافى الحضارى، وأخذ مجتمعها يزيح عن كاهله مخلفات الماضى الثقيلة ، ويحاول جاهدا الوصول إلى مستوى أكرم وأسعد وأنبل . وذلك بإقامة وسائل الحضارة ، واصطناع أسباب المدنية الحديثة . ومنها نشر التعليم وإنعاش التجارة وإنشاء الصناعات وإقامة السدود والحواجز ، وشق الترع وتنمية الزراعة بالوسائل الحديثة ، وتسويق البضائع ، وتجميل المدن وفتح ميادينها وشق شوارعها، وتزويدها بالبساتين والحدائق والشجر ، وتأسيس دور الكتب والمتاحف والخيالة والمسرح ، فضلاعن تعدد المطابع التى عكفت على طبع الصحف ، وطبع الكتب قديمها وجديدها .

وقد بلغت مصر فى حياتها المعاشية بفضل ثورتها الأخيرة إلى مستوى حضارى أسمى ، ومن عناصره الثقافة والثروة والتحرر والابتداع والجد والتعاون .

وقد نبتت بها مشكلات اجتماعية كثيرة منها ما وجد سبيله إلى الحل ، ومنها مالايزال محل النظر . وقد تناولها الكتاب والخطباء والشعراء بالحديث المفصل الطويل ، بين مؤيدين ومعارضين .

ومن هذه المشكلات: سفور المرأة وحجابها، وتعليم البنت، وتوظيف المتعلمة ، ونيابة المرأة ، ومشاكل التعليم وأهدافه ومناهجه . وإصلاح القوانين ومنها قوانين الأحكام الشخصية ، ومحو الأمية ، والاهتمام بشئون العمال والفلاحين والدعوة إلى التجديد ، وتقويم الأخلاق ، والدعوة إلى المحبة والتعاون ، والقضاء على العادات المسترذلة ،والعناية بسعادة الأسرة والطفل والحدث والمريض والمشرد، وتحرى العدالة والمساواة بين النظراء من موظفى الدولة ومن غيرهم . وتوزيع

---

(١) ديوان البحترى ص١٦ طبع الجوائب ـ وحبك الماء بضمتين الجعد المتكسر منه . ـ واجوشن: الدروع ، مفردها جوشن .

الثروة بالطريقة الاشتراكية العادلة المنتجة، وموضوع زيادة النسل وصلته بالثروة العامة . والنزاع بين القصحى والعامية . وإنهاض الفنون الشعبية. إلى غير ذلك .. ولم تخل هذه الحياة من مباذل الحضارات ومجاناتها وتقليد الأوربيين فيها .

ولقد وجدت هذه المشاكل أو أكثرها صدى فى الشعر الحديث وشارك شعراء مصر فيها بالرأى والحث والتوجيه والنقاش ، بأوفى نصيب . وصار كتاب الشعر صفحة مشرقة وسجلا رائعاً للنهضة الحضارية ولنزعات المجتمع .

ومن أطرف ما نظمه حافظ ابراهيم ، فى الدعوة إلى النهوض والتجديد أبيات من قصيدته فى حفل تكريم شوقى وهى قوله :

ملأنا طباق الأرض وجدا ولوعة ... بهند ودعد والرباب وبوزع
وملت بنات الشعر منا مواقفا ... بسقط اللوى والرقمتين ولعلع
وأقوامنا فى الشرق قد طال نومهم ... وما كان نوم الشعر بالمتوقع
تغيرت الدنيا وقد كان أهلها ... يرون متون العيس ألين مضجع
وكان بريد العلم عيرا وأنيقا ... متى يعيها الإيجاف فى البيد تظلع
فأصبح لا يرضى البخار مطية ... ولا السلك فى تياره المتدفع
وقد كان كل الأمر تصويب نبلة ... فأصبح بعض الأمر تصويب مدفع
ونحن كما غنى الأوائل لم نزل ... نغنى بأرماح وبيض وأدرع
عرفنا مدى الشىء القديم فهل مدى ... لشىء جديد حاضر النفع ممتع
لدى كل شعب فى الحوادث عدة ... وعدتنا ندب التراث المضيع(١)

ومن اجتماعيات حافظ : اللغة العربية تنعى حظها . والحملة على فوضى الرأى وعدم الثبات عليه. والمنافقة والطمع غير المشروع . وتحيته للناشئين . ومعاضدة الجامعة . والدعوة إلى العناية بالأطفال والعميان ، وإلى تعليم البنت . وهو صاحب هذا البيت المشهور :

---

(١) ديوان حافظ ج ١ ص ١٣٠ .

والأم مدرسة إذا أعددتها أعددت شعباً طيب الأعراق

وإلى جانب ذلك كانت لحافظ مباذل ومجونيات وخمريات لا بأس من أن نذكرك منها بهذه الأبيات :

أوشك الديك أن يصيح ونفسى بين هم وبين ظن وحدس
يا غلام المدام والكاس والطا س وهيء لنا مكانا كأمس

ويقول :

واسقنا يا غلام حتى ترانا لا نطيق الكلام إلا بهمس
خمرة قيل إنهم عصروها من خدود الملاح فى يوم عرس(١)

ويمثل إسماعيل صبرى بغزله دورا من أدوار الغزل ، فى المجتمع المصرى الجديد ، وذلك فى قصيدته الغزلية التى منها هذه الأبيات :

يا لواء الحسن أحزاب الهوى أيقظوا الفتنة فى ظل اللواء
فرقتهم فى الهوى ثاراتهم فاجمعى الأمر وصونى الأبرياء
إن هذا الحسن كالماء الذى فيه للأنفس رى وشفاء
لا تذودى بعضنا عن ورده دون بعض واعدلى بين الظماء الخ (٢)

يقول الأستاذ العقاد — رحمه الله — : « وكان إسماعيل صبرى قد تلقى العلم فى فرنسا واطلع على آدابها وآداب الأوربيين فى لغتها . وكان من الاتفاق العجيب أنه اطلع على الآداب الفرنسية وهى فى حالة الذوق القاهرى من بعض الوجوه ، لأنها كانت تدين على الأكثر الأغلب بتلك الرفاهة الباكية التى كان يمثلها لامرتين وإخوانه الأرقاء الناعمون » .

---

(١) ديوان حافظ ص ٢٤١
(٢) ديوان صبرى ص ١٠٧

وقال أيضاً : « فهنا ذوق وكياسة ، وليس هنا عشق وحرارة . ولن تذكرنا هذه الأبيات بعاشق يهوى معشوقاً يقف عليه نفسه ويطلب إليه أن يقف عليه نفسه . وإنما تذكرنا بنديم قاهرى فى سهرة من سهرات الطرب يلتف مع صحبه بغانية أو مغنية ، يتلطف فى الزلفى إليها والثناء عليها . ولا يشعر من وراء ذلك بلوعة ولا غيرة من المنافسين ، قناعة منه بالراحة بين الأحزاب ، والعدل بين الظماء » (١) .

ويذهب الدكتور شوقى ضيف إلى أن هذا الغزل روحانى غير ملتاث برغبات الجسد ، وفيه تقديس للجمال وتصوير له فى خشوع . ومن ثم فلا بأس عنده من أن يفتن به غير الشاعر من رواد ناديه ، وأن ينعموا به ويستظلوا بلوائه (٢) .

ويعارض هذا الرأى الأستاذ عمر الدسوقى ، ويتساءل كيف أن صبرى « المهذب الرقيق الحاشية رجل النادى الذى اشتهر بأنه لا يفحش ، يطلب من محبوبته أن تنزع الثوب عن جسمها أمام الندامى ، لا بل أمام الملأ أجمعين ليروا تكوين سكان السماء . . . ولا شك أن هذه فلتة من فلتات صبرى ، ما فطن إليها » (٣) .

والأستاذ الناقد يشير إلى بيت الشاعر من هذه القصيدة :

وانزعى عن جسمك الثوب بين الملا تكوين سكان السماء

وأعتقد أن الدافع ليس روحانياً كما يقول الدكتور شوقى ضيف ، فأى روحانية هذه التى بين رجل وامرأة غريبة عنه ، ثم أى روحانية هذه التى تدعو إلى التجرد للنظر فى محاسن الجسد .

وأعتقد أن الدافع لا يعدو أن كان الشاعر واقعاً تحت تأثير البيئة وتقاليدها وأوضاعها حينذاك . وقد كانت ترى فى المرأة « العامة » التى تخطر أمام أنظار

---

(١) شعراء مصر للمرحوم الأستاذ العقاد ص ٣٤ و ٣٥ .

(٢) دراسات فى الشعر العربى المعاصر للدكتور شوقى ضيف .

(٣) فى الأدب الحديث ج ٢ ص ٢٨٠ .

الرجال ، ـ راقصة أو مغنية أو ممثلة أو لاعبة أو عضواً فى النادى ـ أنها « جمال للجميع » وأنها نهب مقسم بين الناظرين ، لايليق أن يختص بها دونهم واحدمنهم. ولا تزال هذه النظرة قائمة فى مجتمعنا حتى اليوم .

هذا ، وإسماعيل صبرى قصير الباع فى الشعر الاجتماعى ، لا تكاد تجد فى ديوانه قصائد تنم عن اندماج مشاعره بمشاعر المجتمع على مستوى شوقى وحافظ . ولعل أجود ما نظمه فى هـــذا الميدان قصيدته التى قالها على لسان « فرعون » يخاطب المصريين ويستنهض هممهم إلى العمل وهى التى يقول فيها :

لاتقربوا النيل إن لم تعملوا عملا ... فماؤه العذب لم يخلق لكسلان
ردوا المجرة كدا دون مورده ... أو فاطلبوا غيره ريا لظمآن
وابنوا كما بنت الأجيال قبلكم ... لا تتركوا بعدكم فخرا الإنسان. الخ(١)

وكان الشاعر محمد عبد المطلب مدرساً يعانى شقاء المعلم فى عمـــله ، ويشعر بما كانت تعانيه طائفة المعلمين من عنت وإرهاق ، وإنكار الفضل وعدم التقدير، وبما كانت تقاسيه من الحرمان لدى الدولة والمجتمع ، ولدى الخاصة والعامة معاً ، فلم تظفر بحقوقها أو مساواتها بغيرها من الطوائف المماثلة .

وفى حفلة أدبية أقيمت عام ١٩٢٤ م بنادى طلبة مدرسة المعلمين العليا نظم قصيدته فى موضوع المعلم وفى مشاكله .

وقد بدأ بأبيات غزلية رقيقة ، كأنما أراد بها أن يثبت لنقاده مقدرته على نظم الشعر الحضارى الغزل ـ فضلا عن تعلقه ببدويته ـ . قال :

على النيل من سيف الجزيرة جؤذر ... هفاتاتها والحسن بالتيه يأمر
مدل بريعان الصبا فهو ينثنى ... دلالا كما شاء الجمال ويخطر .... الخ

---

(١) ديوان صبرى ص ١٧٢ .

والواقع أن أستاذنا كان فى غزله مقلداً للقدماء فى افتتاحياتهم .

وقد أفاض فى وصف شقاء المعلم وبين للناس دأبه المضنى وعمله المتواصل وحقه المهضوم :

بنى مصر مابال المعلم كاسفاً ... يرى الناس فيها يكبرون ويصغر
سبيل النبيين الكرام سبيله ... يعم به الدنيا صلاحا فتعمر
سلوا عنه جنح الليل كم بات متعبا ... تنام حواليه النجوم ويسهر
سلوا عنه عيناً قرح السهد جفنها ... يخط عليها فى الظلام ويسطر ..الخ(١)

ولعل شوقى أكثر شعراء مصر الحديثة استجابة لأحوالها الاجتماعية وعواطف مجتمعها ، وأوضحهم أداء لصورها الحضارية فله قصائد فى : المديح النبوى ، وهو تعبير كريم عن مشاعر أهل مصر تجاه رسولهم الكريم .

ومنها :

سلوا قلبى غداة سلا وتابا ... لعل على الجمال له عتابا ... الخ

ومنها :

ولد الهدى فالكائنات ضياء ... وفم الزمان تبسم وثناء ... الخ

ومنها :

ريم على القاع بين البان والعلم ... أحل سفك دمى فى الأشهر الحرم ...الخ

وقد حلت من قلوب الجماهير المصرية العربية محلها ، وغناها المغنون .

وله قصائد فى وصف آثار مصر :

منها :

أبا الهول طال عليك العصر ... وبلغت فى الأرض أقصى العمر ...الخ

---

(١) ديوان عبد المطلب ص ١١١، ١١٢

ومنها :

درجت على الكنز القرون ومشت على الدن السنون .. الخ

ومنها :

قفى يا أخت يوشع خبرينا أحاديث القرون الغابرينا ... الخ

وله قصائده فى العمال :

أيها العمال أفنوا العمر كداً واكتسابا . . . إلخ

وفى تحية الشباب وتكريمهم وحفزهم إلى العمل من أجل الوطن :

بأبى وروحى الناعمات الغيدا الباسمات عن اليتيم نضيدا ... الخ

وفى انتحار الطلبة :

ناشىء فى الورد من أيامه حسبه الله أبا لورد عثر ... الخ

وفى تكريم المعلم :

قم للمعلم وفه التبجيلا كاد المعلم أن يكون رسولا ... الخ

وفى تكريم الأزهر :

قم فى فم الدنيا وحى الأزهرا وانثر على سمع الزمان الجوهرا ... الخ

وفى وصف الصحافة الحديثة :

لكل زمان مضى آية وآية هذا الزمان الصحف ... الخ

وفى تكريم المؤلفين من أصدقائه :

أنا من بدل بالكتب الصحابا لم أجد لى صاحباً إلا الكتابا ... الخ

وفى وصف البال :

حف كأسها الحبب فهى فضة ذهب ... الخ

وفى السفور والحجاب :

صداح يامك الكنا رويا أمير البلبل ... الخ

ويضيق المقام دون استيعاب محاسن شوقى فى هذا الباب - وهو وحده يعتبر مرآة ناصعة لكثير من أوضاع المجتمع المصرى الجديد ، وما اعترك فيه من الأفكار ، وما تشابك فيه من العواطف .

بهذه الأمثلة المتعددة ، التى سقناها فى هذه الوجازة ، من أوطان وعصور مختلفة ، نعتقد أننا دللنا على مدى ما كان لبيئاتها من آثار ضخمة فى الشعر ، وأن هذه البيئات صاحبة الأثر الأول والأكبر فى النتاج الشعرى . مع اعترافنا بما يكون لكل شاعر على حدة من خصائص ذات أثر . وأن الشعراء بنتاجهم هذا كانوا أبناء بيئاتهم البررة الأوفياء الذين عبروا عنها وسجلوا أحداثها وصوروا حياتها بما فيها من عواطف وأفكار .

ومصر موطن من هذه المواطن ، وعصرها المملوكى أحد عصورها الطويلة : وها نحن أولاء نحاول فى الفصول القادمة أن ندرس بيئاتها الأربع فى العصر المذكور ، دراسة فيها تفصيل وإحاطة مناسبة ، ونتلمس أثرها فى نتاج شعرائها ، لنعرف إلى أى مدى كانت استجابتهم لها وتأثرهم بوحيها ، وإلى أى مدى - تبعاً لذلك - بلغ مستوى حياتهم وحياتها .

الباب الأول

فى

وصف البيئات المصرية

وفيه أربعة فصول

الفصل الأول

فى

فى وصف البيئة الطبيعية

طبيعة مصر :

مصر بالأمس - فى عصر المماليك - هى مصر قبل الأمس ، وكما هى اليوم، فى طبيعتها التى خلقها الله عليها ، طبيعة موقعها ومناخها وفصولها ونباتها ، وتضاريسها ، ونيلها . لم تتغير على مدى السنين إلا لماما وغرارا فى بعض أجزائها.

اللهم إلا فى عصور ما قبل التاريخ يوم كانت أرضها هضبة عالية واسعة فسيحة، قليلة السكان مبعثرة القطان تتضام أجزاؤها ، وتتلاءم أطرافها . وتمتد فيها صحراء مترامية رملية ، إلى جهة الغرب ، ذات تلال وواحات وأغوار ، تتصل اتصالا مباشراً بصحراء إفريقية الكبرى ، وصحراء مترامية أخرى ، إلى جهة الشرق ، ذات صخور وجبال، تتعالى كلما شارفت ساحل البحر الأحمر - الذى يفصلها عن آسيا - حيث تمتد عليه شواطئها الشرقية . وكان يسمى بحر « القلزم » وفى شمال أحد خليجيه - وهو خليج السويس - كانت تتصل بصحراء سيناء ، حتى فصلت بينهما قناة السويس التى حفرت فى العصر الحديث .

وتأخذ هذه الهضبة فى الانخفاض فى اتجاهها الشمالى نحو البحر المتوسط - « البحر الرومى » - حيث تمتد شواطئها الشمالية .

ثم حدث - على ما يرويه بعض علماء الجغرافية - تشقق فى هذه الهضبة - التى هى جزء من الهضبة الإفريقية الشاملة - وذلك بفعل زلزال شديد ، صدع أرضها،

وشق سطحها ، وأقام بين جزئيها أخدوداً ضيقاً ، هيأ للماء المنحدر من أعاليه فى الجهات الاستوائية والحبشية ، أن يتدفق فيه ، فيملأ شعابه ويكون لنفسه مجرى، وينسيل منحدراً نحو الشمال ، ماراً بصعيد مصر ، ثم إلى وجهها البحرى ، مكوناً فى أرضه دلتاه، صابا فى البحر المتوسط « جهة رشيد. » ثم تفرع منه إلى الشرق فرع آخر ، اتجه شمالا نحو البحر المتوسط أيضاً صاباً فيه بجوار دمياط .

ومن طمى النهر وغرينه كسا النهر جانبيه ودلتاه طبقة خصبة . وكان لها منه على مدى الأيام الغـــذاء والكساء . ويبدو أن النهر تعددت فى دلتاه فروعه ، وشقت منه جداول عدة كانت تسمى خلجاناً[١] . وسنشير إليها .

هذا الماء أو النهر هو النيل المبارك السعيد ، الذى أجراه الله ـ منذ أجراه ـ لمصر حياة لها ، ومدا لوجودها ، ورزقا ميسراً لسكانها ، وأمناً وجمالا لقطانها .

لقد وهب النيل لمصر بمائه وطميه ، الرى والخصب والطعام والثروة . لقد نجم على جانبيه النبت ، واخضر العشب . ونما الشجر وازدهر ، وهوم الطير وبنى أعشاشه ، ونزح الحيوان فاغتذى وروى عطاشه . واطمأن الإنسان ووفدت جماعاته ، لتعيش بجوار النيل على حفافيه ، وتقاربت شعباً وحد الوطن المشترك بينهم ، وجمع البلد الواحد بين قلوب أفرادهم[٢] .

ويجرى النيل فى مصر آتياً من السودان مرفوداً من الحبشة . فيمر على أسوان فى شق من الأرض ضيق ، حوله من كل جانب من جانبيه جبل هو جزء من الهضبة التى أشرنا إليها . ويستمر معه الجبلان إلى الشمال ، وهو يسير نحو دلتاه ، كأنهما حارسان . ويفصل كل جبل عن شاطئه القريب منه فاصل ضيق من أرض زراعية أخصبها النيل وكساها وسقاها .

---

(١) راجع صبح الأعشى ج ٣ ص ٢٩٢ — وخطط المقريزى ج ١ ص ١١٢ وما بعدها .
(٢) كتاب مؤتمر النيل — بحث للدكتور سليمان حزين ص ٣٠

وننقل لك هنا شيئا فى وصف طبيعتها ، معتمدين على ماكتبه علماؤها فى العصر المملوكى فمن ذلك :

قول المقريزى عن تضاريسها :

« ويكتنفها فى العرض إلى منتهاها جبلان أحدهما فى الضفة الشرقية من النيل، وهو المقطم . والآخر فى الضفة الغربية منه . والنيل متشرف فيما بينهما. وهما جبلان أجردان غير شامخين ، يتقاربان جداً فى وصفهما من لدن أسوان إلى أن ينتهيا إلى الفسطاط . ثم يتسع ما بينهما ويتفرج قليلا . ويأخذ المقطم منها مشرقا ، والآخر مغرباً ، على رواب فى مأخذيهما وتفريج فى مسلكيهما . فتتسع أرض مصر من الفسطاط إلى ساحل البحر الرومى الذى عليه الفرما وتنيس ودمياط ورشيد والإسكندرية[١] » .

ويقول القلقشندى : « والمقطم يسامت الفسطاط وربما أطلق على جميع الجبل . ويليه من جهة الشمال « اليحاميم » وهى الجبال المتفرقة المطلة على القاهرة من جانبها الشرقى . وسميت كذلك لاختلاف ألوانها [٢].

ويقول المقريزى : « فضل مابين عرض مـــدينة أسوان التى هى أوغلها فى الجنوب ، وعرض مدينة تنيس التى هى أوغلها فى الشمال ، تسعة أجزاء ونحو سدس جزء » [٣] -

ويبدو أنه يعنى بالجزء ، ما نعنيه فى عصرنا بالدرجة العرضية .

وفى منخفضاتها الشمالية توجد عدة بحيرات منها بحيرة الفيوم ، ويعبر عنها بالبركة وهى بحيرة حلوة بالقرب من الفيوم . قيل : وفيها أسماك كثيرة تتحصل من صيدها جملة كثيرة من المال . وبها من آجام القصب والطرفاء والبردى

---

(١) خطط المقريزى ج ١ ص ٢٣

(٢) صبح الاعشى ج ٣ ص ٣٠٩ و ٣١٠ و ٣١١

(٣) خطط المقريزى ج ١ ص ٢٤

مايتحصل منه المال الكثير(١) .

وبحيرة بوقير وماؤها ملح ، وتقع بين الإسكندرية ورشيد ، وبها سمك كثير ومن أنواع الطير كل غريب . وبجوانبها الملاحات التى يحمل منها الملح إلى بلاد الفرنج وغيرها . هذا ، وقد غلب الرمل عليها فجفت فى زمان صاحب صبح الأعشى. ومات ماكان يصاد منها من السمك البورى ، وانتهى ماكان يتحصل منها من الملح المنعقد بسواحلها(٢).

وبحيرة نستروه . وماؤها ملح ، وتقع بالقرب من البرلس . وسميت باسم قرية قريبة منها اسمها نستروه وكانت تغل سمكا فى كل عام بنحو عشرين ألف دينار(٣) .

ويبدو أنها هى بحيرة البرلس الحالية .

وبحيرة تنيس وماؤها ملح أيضاً ومتصلة بالبحر الرومى . ويصب فيها بحر أشموم المتفرع من فرع دمياط ، فيعذب لذلك ماؤها أيام زيادة النيل . وتقع شرق الدقهلية إلى جهة البحر(٤) .

ويبدو أنها هى بحيرة المنزلة الحالية .

ونما بمصر من النبات على جانبى النيل وخلجانه ، وفى أرضه وبساتينه ، كثير من أنواعه لاتعد ولا تحصى .

وقد ذكر القلقشندى من زروع مصر مايلى :

البر والشعير والذرة والأرز والباقلى والحمص والعدس والبسلا والجلبان واللوبيا والسمسم والقرطم والخشخاش والخروع والسلجم وبزر الكتان والبرسيم . وغير ذلك من الحبوب المقتاتة وغيرها .

وقال : وبها قصب السكر فى غاية الكثرة . والبطيخ ، والقثاء على اختلاف أنواعهـــا . والملوخيا ، والقلقاس ، واللفت ، والباذنجان ، والدباء ،

(١و٢و٣و٤) صبح الأعشى ج ٣ ص ٣٠٧ ، ٣٠٨

(٤) صبح الأعشى ج ٣ ص ٣٠٧و٣٠٨

والهليون ،والقنبيط ، وأنواع البقول المختلفة كالثوم ، والبصل والكرات والفجل وغيرها .

وقال : وأما رياحينها ففيها الآس والورد والبنفسج والنرجس والياسمين والنسرين والبان والليتوفر ، وأزهار المحمضات ، والريحان الفارسى على اختلاف أنواعه . والمنثور فيها بقلة ، وإنما كثر بالإسكندرية . إلى غير ذلك من الأنواع التى يشق استيعابها .

وقال : وأما فواكهها ففيها الرطب والعنب والتين والرمان والخوخ والمشمش والقراصيا والبرقوق والتفاح والكمثرى ، والسفرجل بقلة ، واللوز الأخضر ، والنبق والتوت والفرصاد والموز . ولا يوجد فيها الجوز والفستدق والبندق والإجاص إلا مجلوبا بعد جفافه . وإن زرع بأرضها شىء من ذلك لم يفلح . والزيتون فيها بقلة . ولا يستخرج منه زيت البتة . وإنما يؤكل ملحا .

وفيها من المحمضات : الأترج والحماض ، والكباد ، والنارنج ، والليمون ، على على اختلاف أنواعها .

وقال : وأما أصناف المطعوم ، ففيها ما يستطاب من الألبان والأجبان والعسل ، الذى لايساوى حسنا ، ولا يشبهه غيره من سائر الأعسال ، والسكر الكثير من المكرر ، والتبغ ، والوسط ، والنبات . ـ ومنها يجلب إلى أكثر البلاد. قال فى « مسالك الأبصار » : وقد نسى به ماكان يذكر من سكر الأهواز .

وقال : وبها من أنواع الحلوى والأشربة المتخذ ذلك من السكر والأشربة الفائقة مالا يوجد فى غيرها من الأقاليم .

وقال : وبها من لحم الضأن والبقر والمعز ، مالا يعادله غيره فى قطر من الأقطار لطافة ولذة .

وقال : ومن محاسنها ـ محاسن مصر ـ أن فاكهتها لايدوم نوع منها فى جميع السنة ، فيمل ، بل أتى كل نوع منها فى وقت ، فتتشوق النفوس إلى طلبه . ويكون

لقدومه بهجة . ولا يعترض على ذلك بدوام أكل الجنة . فإن الجنة أكلها لا يمل بخلاف مآكل الدنيا . ولأهل الرفاهية بذلك فرحة ، وتتغالى فيه فى ابتدائه ، مع أنه يجتمع فى الحين الواحد من الفواكه والرياحين مالا يحتاج معه فى زمنه إلى غيره.

وقال : قال المهذب بن ممانى فى « قوانين الدواوين » :

« بعثت غلاما لى ليحضر من فكاهى القاهرة ما وجد من أنواع الفاكهة والرياحين ، فأحضر لى منها الورد والنرجس والبنفسج والياسمين والمنثور والمرسين والريحان والطلح والبلح والجمار والخيار والبطيخ الأخضر والباقلى ، والتفاح ، والفقوس ، والأترنج . والنارنج والأشباه ، والليمون ، والتمرهندى الأخضر ، والعنب والحصرم[1] » .

وروى المقريزى قال :

ومن محاسن مصر أنه يوجد بها فى كل شهر من شهور السنة القبطية صنف من المأكول والمشموم ، دون ماعداه من بقية الشهور . فيقال : رطب توت . ورمان بابه ، وموزهاتور ، وسمك كيهك ، وماء طوبة ، وخروب أمشير ، ولبن برمهات . وورد برمودة ، ونبق بشنش ، وتين بشونة ، وعسل أبيب ، وعنب مسرى[2] » .

وروى هذه الرواية صاحب صبح الأعشى عن بعض الجوالين فى الآفاق الذى طاف أكثر المعمور من الأرض ـ واختلف عن المقريزى فى خروب أمشير ولبن برمهات ، فعكسهما . فقال : خروب برمهات ولبن أمشير[3] .

وقال المقريزى فى ذكر خلجان النيل :

---

(١) صبح الأعشى ج ٣ ص ٣١١ و ٣١٢ ، ٣١٣ .

(٢) خطط المقريزى ج ١ ص ٤٤

(٣) صبح الأعشى ج ٣ ص ٣١٣

« قال أبوزهم : كانت الجنات بحافتى النيل من أوله إلى آخره من الجانبين ، ما بين أسوان إلى رشيد ، وسبعة خلج : خليج الإسكندرية ، وخليج سخا ، وخليج دمياط ، وخليج سدوس ، وخليج منف ، ، وخليج الفيوم ، وخليج المنهى ، متصلة لا ينقطع منها شىء ، وزروع مابين الجبلين كله من أول مصر إلى آخرها مما يبلغه الماء . وكان جميع أرض مصر كلها تروى يومئذ من ستة عشر ذراعا ، لما قد دبروا من قناطرها وجسورها » (١) .

وقال أيضاً

ومن محاسنها ـ محاسن مصر ـ أن صيفها خريف لكثرة فواكهه ، وشتاءها ربيع لما يكون بمصر حينئذ من القرظ والكتان (٢) ، و « أن الذى ينقطع من الفواكه فى سائر البلدان أيام الشتاء يوجد بمصر » (٣)

وقال أيضا

« وأرض مصر ذات أجزاء كثيرة ، ويختص كل جزء منها بشىء دون غيره . وعلة ذلك ضيق عرضها ، واشتمال طولها على عرض الإقليم الثانى والثالث . فإن الصعيد فيه من النخل والسنط وآجام القصب والبردى ومواضع إحراق الفحم وغير ذلك شىء كثير . والفيوم فيه من النقائع وآجام القصب ومواضع تعطين الكتان شىء كثير . وأسفل أرض مصر فيه من النبات أنواع كثيرة كالقلقاس والموز وغير ذلك . وبالجملة فكل بقعة من أرض مصر لها أشياء تختص بها وتتفضل عن غيرها » (٤) .

أما مواشيها ووحوشها وطيورها ، فقد ذكرها القلقشندى فقال :

« أما مواشيها ، ففيها الإبل المستجادة ، والبقر العظيمات القدود ، والأغنام

---

(١) الخطط ج١ ص ٣٦ تحت عنوان « ذكر طرف من فضائل مصر » .
(٢و٣) الخطط ج ١ ص ٤٤
(٤) ـ الخطط ج ١ ص ٦٩

لمستطابة اللحوم ، والخيول المسومة . والبغال النفيسة ، والحمر الفارهة ، مما ليس له نظير فى إقليم من الأقاليم ، ولا مصر من الأمصار .

وأما وحوشها . ففى براريها الغزلان ، والنعام ، والأرانب ، والثعالب ، والضباع ، والذئاب ، وغير ذلك . ويجلب إلى سلطانها الفيلة والزرافات ، وغيرها من الوحوش من البلاد القاصية ، والسباع من بلاد الشام من مملكته لتكون فى إصطبلاته زينة لمملكته .

وأما طيورها ففيها من الطيور الدواجن فى البيوت : الدجاج ، والإوز والحمام. ومن الطيور البرية : الصقر والعقاب والنسر والكركى ، واللغلغ والأوز التركى ، والمرزم والبجع والبشون والجرج ، والحجل والكروان ، والسمانى ، والبلبل . وسائر أنواع العصافير ، والأنواع المختلفة من طيور الماء .

ويجلب إلى سلطانها سائر أنواع الجوارح الصائدة ، على اختلاف أجناسها من أقاصى البلدان . ويقع التغالى فى أثمانها للغاية القصوى . » .. الخ[1]

هذه بعض خيرات مصر ، وأجزاء طبيعتها ، ومشاهدها ، كما تراءت فى العصر المملوكى وقبله . وما تزال ماثلة فيها حتى يومنا هذا ، إلا ما ندر ، مما تناولته يد الطبيعة نفسها أو يد التهذيب ، فغيرت منه بالزيادة أو النقص :

وبسبب هذه الخيرات والثروة العظيمة ، وبسبب موقع مصر ، هذا الموقع المتوسط ، بين الشرق والغرب ، وبين الشمال والجنوب ، فى دنيا العالم القديم ، مما جعلها ممراً تجارياً هاماً ، وجعلها مرادا للسياحة والرحلة والتجارة بل ولطلب العلم ، وبالجملة بسبب أهمية موقعها هذا كانت — وما تزال — موضع طمع الطامعين ولهج الغزاة الفاتحين من كل حدب وصوب ، من حول حدودها ، أو بعيداً عنها .

---

(١) ـ صبح الأعشى ج ٣ ص ٣١٤.

وفى العصور الغابرة غزاها ـ مثلا ـ من الشرق العمالقة والفرس والعرب . ومن الغرب الليبيون ، ومن الشمال المقدونيون واليونان والرومان . ومن الجنوب النوبيون .

وفى العصور المتوسطة ، دهمها الفاطميون من الغرب وأسسوا فيها دولتهم التى ظلت زهاء قرنين وأكثر ، ووليها بعدهم الأكراد ، وأخذت فى هذه الأثناء تشتد حملات الصليبيين عليها ، وهم فى الجملة أهل أوربا وبخاصة الفرنسيون والإنجليز .

ولما آلت سلطنتها إلى أمراء المماليك ، عانت مع الحملات الصليبية الوافدة إليها من أوربا ، حملات التتار الوافدة إليها من الشرق ومن قلب آسيا وبلاد الصين ، ثم ظهرت فى الأفق دولة العثمانيين النازلة من آسيا الصغرى . فصبرت مصر لهؤلاء الأعداء الثلاثة صبرا طويلا وكافحتهم كفاحا نبيلا ، حتى تغلب العثمانيون عليها أخيراً .

اضطر أهل مصر ، إذن ، بحكم موقعها ، وبحكم هذا الطمع فى بلادهم ، أن يعيشوا منذ عصور الفراعنة حتى نهاية العصر المملوكى ـ وكما يعيشون فى لحظتهم الراهنة ـ ذادة مكافحين ينافحون دون أرضها ويجاهدون الغزاة عنها ، ويردون الطامعين فيها ، لذلك امتلأ تاريخهم بالحروب وأنبائها ، وفاضت حياتهم بالقتال وأخباره ، وأكثر ما حاربوا كانوا فى أرض فلسطين والشام ، وفى سبيل بلادهم العزيزة تحملوا كل تضحية فى النفس والمال ، وكل بذل فى الرأى والحيلة ، وكل مغامرة فى سبيل أهدافها وإعلاء شأنها ، والحفاظ عليها كريمة حرة عزيزة ، وعلى ثروتها موفورة ذاخرة ، ساعين ما استطاعوا إلى إقرار السلام ، والدعوة إلى التعاون والتفاهم والمودة ، عاملين على المشاركة فى بناء حضارة الإنسان .

ولا عجب فمصر لهم مصدر العطف والحنان ، ومصدر الأمن والاطمئنان . لهم فيها الهواء والماء ، والملبس والغذاء ، والمأوى والوقاء ، بل لهم فيها الأمل الذى

ينشدونه ، والحلم الذى يحلمونه . . ولهم فيها الرفيقة الوفية والأبناء . والأهل والصهر والأقرباء . والخلصان والأصفياء . ولهم فيها مراحات اللهو والذكرى ، ومراتع الصبا وأربع الشباب .

هكذا كانت مصر فى عصر المماليك . هى أرض طيبة ، ونيل مبارك ، وخصب منتشر . ورخاء مقبل ، ونبت صاعد ، وشجر وارف ، وزهر ضاحك ، وثمر ناضج ، وطير مغرد ، وحيوان طيع ، وإنسان آمل عامل ، وعابد متوكل خاضع ، وشعب واع يقظ قانع ، وشكره لله دائم ، على ماوهب من جنات وعيون ، وزروع ومقام كريم ، مع مسالمة للصديق ، ومقاومة للعدو . دون منافقة فى إلف ، ولا فجور فى خصومة ، ولا دعوة إلى شر ، ولا نكول عن خير .

قال القلقشندى عن مصر :

« أما محاسنها ، فلا شك أن مصر ، مع ما اشتملت عليه من الفضائل ، وحفت به من المآثر ، أعظم الأقاليم خطراً وأجلها قدرا ، وأخمها مملكة ، وأطيبها تربة ، وأخفها ماء ، وأحسنها ثمارا ، وأعدلها هواء وألطفها ساكنا .

ولذلك ترى الناس يرحلون إليها وفودا ، ويفدون عليها من كل ناحية ، وقل أن يخرج منها من دخلها ، أو يرحل عنها من ولجها ، مع ما اشتملت عليه من حسن المنظر وبهجة الرونق ، لاسيما فى زمن الربيع ، وما يبدو بها من الزروع التى تملأ العين وسامة وحسنا ، وتروق صورة ومعنى (١) »

ومصر واقعة فى المنطقة المعتدلة الشمالية ماعدا جزءا يسيرا فى جنوبها واقعاً فى المنطقة الاستوائية ، ولهذا تجد مناخها معتدلا فى جملته ، ويميل إلى الدفء فى أغلب أيام السنة ، مع سماء صافية تتلألأ نجومها . إلا أن بعض أسابيع فصل

---

(١) صبح الأعشى ج ٣ ص ٢٨٥

الصيف يشتد حرها ويتطرف ، وبعض أسابيع فصل الشتاء يزيد بردها ويشتد وتغيم سماؤها . ولكن هـــذا يسير ومحتمل بجانب المناخ المعتدل الدافىء الذى يصاحب أغلب السنة كما أشرنا . وهذا لا يمنع القول إن السواحل أكثر اعتدالا من الأماكن البعيدة عنها ، وبخاصة المواطن النائية فى صحراوات مصر ، فإنهـا إلى التطرف أميل ، وإلى القارية أدنى . فيزيد حرها أغلب الصيف وبردها أكثر الشتاء . وبلاد الصعيد فى جملة أمرها أبعد عن الاعتدال إذا قرنت ببلاد الوجه البحرى .

والملاحظ بناء على ماشرحنا ، أن فصول السنة على جانبي النيل ، لاتفترق فى مناخها افتراقا متباينا ، فهى فى جملة أمرها قريبة التماثل والتشابه . ولعل لذلك كله أثره فى اعتدال مزاج الشعب المصرى فى جملته أيضاً ، وعـدم ميله إلى التطرف الشديد فى معالجة أموره ومشاكله ، وجنوحه أولا إلى الملاينة والمصانعة والتفاهم فى مسالمة وموادعة ، حتى إذا ما استنفد الجهد صبره ، واستغرق المشكل حيلته ، اشتد وعنف ، بعد أن رق ولطف .

ولا يفقد أبدا أمله ، وإن بلغ مشارف اليأس . هكذا عوده النيل ، فإنه مهما نقص فلا بد له من فيض ، ومهما تأخر فلا مناص له من قدوم ، ومهما شرقت معه الأرض ، فلا بد له من معاودتها بالوفاء ...

نهر النيل :

وليس بمستغرب أن يسوس النهر العظيم أخلاق الشعب الكريم ، وأن يطبعه بطابعه . وسترى كيف كان أثره الضخم فى نفوس أدبائه وشعرائه ، لقد سرح بخيالهم كل مسرح وراح به كل مراح ، وأطافه كل مطاف . فتصوروه حبيبا شغل قلب عروسه ، ومولا كريما يجىء بالفضة والذهب ، وملكا راعيا يتفقد أحوال رعيته ، إلى غير ذلك مما سنقصه عليك فى حينه .

ولم يسلم الجغرافيون والمؤرخون القدامى — وهم يتحدثون عن النيل ومنابعه — من سرحات الخيال ومداعبات العاطفة .

ولعل الذى نسميه نحن اليوم خيالا ووهما ، كان فى تقديرهم حينذاك ضربا من الحقيقة . وهذا غاية ما يذهب النفس من السحر والبهر .

ولقد تتابعت حديثا رحلات الكشف إلى منابع النيل ومساقط مياهه فى كل ناحية . ودارت حوله من كل جانب ، حتى رأى الكاشفون هذه المنابع على حقيقتها رأى العين ، وصوروها عن خبرة ومعاينة ، ووضعوا لها المصورات الموضحة الدقيقة . وأصبحت المعلومات عن النيل فى هذه الناحية ، من مقررات العلم ومسلماته . ومجملها أنه ينبع من المنطقة الاستوائية ويمر على بحيراتها ويدخل أرض السودان فى منطقة بحر الجبل . ويسير إلى الشمال باسم النيل الأبيض ، إذ يلتقى بالنيل الأزرق وسوباط وعطبرة ، ويتلقى منها المياه القادمة من الحبشة ، وهى مياه فيضانه . ويصادفه عدة جنادل صخرية فى طريقه . ويدخل مصر بالقرب من حلفا ، سائراً نحو الشمال . حيث يتفرع إلى فرعيه فرع رشيد وفرع دمياط ، اللذين يصبان فى البحر المتوسط .

والمنبع الاستوائى هو المنبع الدائم حيث تسقط الأمطار الاستوائية الدائمة . والمنبع الحبشى هو المنبع الموسمى الذى يسقط فيه الأمطار الموسمية الصيفية هناك على جبال الحبشة ، بغزارة ، فتنحت وهى منهمرة جبالها وصخورها السوداء وتحيلها إلى هذا الغرين العجيب المخصب .

أما القدماء فقد ذهبوا مذاهب ، وهم مسحورون بجلال النيل كما سحر الأدباء والشعراء . وهم معذورون فى تصورهم وفى تقديرهم . فمن أين يأتى هذا النهر المبارك العظيم ، وبهذا الفيض الغامر من الماء العذب المخصب ، فيهب الحياة والرزق ، ويبشر بالأمل والسعادة ؟ لا بد أنه يأتى من جهة مباركة مقدسة ... لا بد أنه يأتى الجنة . فهو إذاً كوثرها ...

إن شعراء مصر — إلى وقتنا هذا — يقول أحدهم :

النيل العذب هـــو الكوثر والجنة شاطئه الأكبر

لقد ذكر المقريزى ، أو نقل ، أن النيل ينبع هو ونهر الفرات من سدرة المنتهى . وروى ما حدث به ابن عبد الحكم عن عبد الله بن عمر — رضى الله عنهما — أنه قال : « نيل مصر سيد الأنهار . سخر الله له كل نهر بين المشرق والمغرب . فإذا أراد الله أن يجرى نيل مصر ، أمر كل نهر أن يمده . فتمده الأنهار بمائها . وفجر الله له الأرض عيونا ، فأجرته إلى ما أراد الله عز وجل . فإذا انتهت جريته ، أوحى الله إلى كل ماء أن يرجع إلى عنصره .(١)

وروى عن كعب الأحبار أنه قال : « أربعة أنهار من الجنة وضعها الله فى الدنيا : النيل نهر العسل فى الجنة . والفرات نهر الخمر فى الجنة . وسيحان نهر الماء فى الجنة . وجيحان نهر اللبن فى الجنة .(٢)

وروى أن المسعودى قال : « نهر النيل من سادات الأنهار وأشراف البحار ، لأنه يخرج من الجنة ، على ما ورد به خبر الشريعة (٣) .

وروى المقريزى هذه القصة الطريفة ، وهى قصة رحلة كشف قديمة لمنابع النيل . فقال ما ملخصه :

« كان الوليد(٤) بن دومغ العملبق قد خرج فى جيش كثيف ، يتنقل فى البلدان ويقهر ملوكها ، ليسكن ما يوافقـــه منها . ثم سنح له أن يخرج ليقف على مصب النيل ، فيعرف ما بحافتيه من الأمم . فأقام ثلاث سنين يستعد لخروجه . وخرج فى جيش عظيم ، فلم يمر بأمة إلا أبادها . ومر على أمم

---

(١) الخطط ج ١ ص ٨٠ ، ٨١

(٢) المصدر نفسه ص ٨١

(٣) المصدر نفسه ص ٨١

(٤) ذكره صبح الأعشى فى ج ٥ ص ٤٨٥ .

السودان وجاوزهم . ومر على أرض الذهب ، فرأى فيها قضبانا نابتة من ذهب . ولم يزل يسير ، حتى بلغ البطيحة التى ينصب ماء النيل فيها من الأنهار التى تخرج من تحت جبل القمر(١) . وسار حتى بلغ هيكل الشمس . وتجاوزه حتى بلغ جبل القمر . وهو جبل عال ـ وإنما سمى جبل القمر ، لأن القمر لا يطلع عليه ، لأنه خارج من تحت خط الاستواء ـ ونظر إلى النيل يخرج من تحته ، فيمر فى طرائق وأنهار دقاق ، حتى ينتهى إلى حظيرتين ، ثم يخرج منهما فى نهرين حتى ينتهى إلى حظيرة أخرى . فإذا جاوز خط الاستواء ، مدته عين ، تخرج من ناحية نهر مكران بالهند . وتلك العين تخرج أيضاً من تحت جبل القمر ، إلى ذلك الوجه . ويقال إن نهر مكران مثل النيل يزيد وينقص وفيه التماسيح والأسماك التى مثل أسماك النيل ... »(٢)

ويبدو أن المراد بالحظيرتين والحظيرة ، البحيرات .

وروى المقريزى كذلك فقال : «وذكر قوم من أهل الأثر أن الأنهار الأربعة، تخرج من أصل واحد من قبة فى أرض الذهب ، التى من وراء البحر المظلم ، وهى سيحون وجيحون والفرات والنيل وأن تلك الأرض من أرض الجنة . وأن تلك القبة من زبرجد ، وأنها قبل أن تسلك البحر المظلم أحلى من العسل وأطيب رائحة من الكافور »(٣)

ويستمر المقريزى فى نقل آراء الجغرافيين أو أشباه الجغرافيين ممن تحدثوا عن منابع النيل وحدسوا مساقطها ومخارجها ، ثم يخلص منها جميعا بأن يقرر رأيه الذى انتهى إليه فى هذا الموضوع ، على ضوء الآراء المتقدمة ، فيقول :

« والذى تحصل من هذا القول أن النيل مخرجه من جبل القمر ، وأن زيادته إنما هى من فيض البحر عند المد . فأما كون مخرجه من جبل القمر فمسلم ، إذ

---

(١) القمر : بفتح أوله وثانيه ؛ أو بضم أوله وسكون ثانيه .

(٢) الخطط ج ١ ص ٨٤

(٣) المصدر نفسه ص ٨٤ .

لا نزاع فى ذلك . أما كون زيادته لا تكون إلا من ردع البحر له بما حصل فيه من المد ، فليس كذلك . نعم ، توالى هبوب الرياح الشمالية على وفور الزيادة ، وردع البحر له إعانة على الزيادة . ومن تأمل النيل علم أن سيلا سال فيه ، ولابد . فإنه لايزال أيام الشتاء وأوائل فصل الربيع ، ماؤه صافيا من الكدرة . فإذا فرغت أيام زيادته وكان فى غاية نقصه تغير طعمه ، ومال لونه إلى الخضرة . وصار بحيث إذا وضع فى إناء يرسب منه شبه أجزاء صغيرة من طحلب . وسبب ذلك أن البطيحة التى فى أعالى الجنوب تردها الفيلة ونحوها من الوحوش ، حتى يتغير ماؤها ، فإذا كثرت أمطار الجنوب فى فصل الصيف ، وعظمت السيول الهابطة فى هذه البطيحة ، فاض منها ما تغير من الماء ، وجرى إلى أرض مصر . فيقال عند ذلك « توحم النيل » . ولا يزال الماء كذلك حتى يعقبه ماء متغير ويزاد عكره بزيادة الماء . فإذا وضع منه أيام الزيادة شىء فى إناء ، رسب بأسفله طين لم يعهد فيه قبل أيام الزيادة وهذا الطين هو الذى تحمله السيول التى تنصب فى النيل حتى تكون زيادته منها . » (١)

ولما تحدث القلقشندى عن النيل ، أراح نفسه بادئ ذى بدء وقال : « أما ابتداؤه وانتهاؤه ، فاعلم أن ابتداءه من أول الخراب الذى هو جنوبى خط الاستواء ، المقدم ذكره ، ولذلك عسر الوقوف على حقيقة خبره » .(٢)

ثم قال : « وقد ذكر الحكماء أنه ينحدر من جبل القمر » بفتح القاف والميم كما هو المشهور . وإما بضم القاف وسكون الميم » . كما نقله فى « تقويم البلدان » عن ضبط ياقوت فى « المشترك » . وابن سعيد فى « معجمه » . (٣)

---

(١) المصدر نفسه ص٩٠ راجع ايضا مسالك الأبصار ج١ص٦٧ـ راجع أيضا ما كتب عن النيل فى حسن المحاضرة .

(٢) صبح الأعشى ج ٣ ص ٢٨٩ .

(٣) المصدر نفسه ص ٢٩٠ ، ٢٩١ .

ثم نقل القلقشندى أقوالا أخرى فى وصف منبعه وانحداره ومجراه وتنقله وجنادله وفروعه ، إلى غير ذلك . (١)

وهكذا ترى مبلغ تصوراتهم وخيالاتهم عن النيل وما يتصل به .

فيضانه ومقياسه :

وللنيل - كما نوهنا - موسم فيضان فى كل عام . يرتفع فى إبانه ماؤه فى مجراه رويدا رويدا فى يوليو وأغسطس وسبتمبر ، ويبلغ عادة فى سبتمبر أقصى ارتفاع له ويثبت فى اكتوبر ونوفمبر أو يأخذ فى النقص رويدا ، ثم ينقص إلى أن يشح ويبلغ نهاية نقصه فى إبريل ومايو ويونيو . وهى شهور التحاريق .

وسبب فيضانه - كما نوهنا أيضا - هبوط الأمطار الغزيرة على بلاد الحبشة فى موسم الصيف لهبوب الرياح الموسمية الصيفية عليها ، آتية من جهة الشرق مارة بالمحيط . فتمتلىء وديان الحبشة بالماء وهى روافد النيل وأهمها النيل الأزرق . فتتدفق فى مجراه ، وتربو على مياه منبعه الدائم الاستوائى .

وكانوا فى العصر المملوكى - كما اعتادوا - يضبطون مواعيد الفيضان والوفاء بالشهور القبطية ، لاطراد الحساب بها واتساق مواعيدها . ويبلغ النيل حد الوفاء عادة فى شهر مسرى .

وقال المقريزى :

« ويبتدىء النيل بالتنفس والزيادة بقية بئونة . وهو حزيران - وأبيب - وهو تموز - ومسرى - وهو آب . فإذا كان الماء زائداً ، زاد شهر توت كله ، وهو أيلول ، إلى انقضائه » (٢) .

---

(١) المصدر نفسه ص ٢٩٠ ، ٢٩١

(٢) الخطط ج ١ ص ٩٥ ط مطبعة النيل عام ١٣٢٤ هـ

وكان اعتماد الزراع فى مصر ، على مياه الفيضان وارتفاعها . فإذا بلغ الماء ستة عشر ذراعاً عم أراضى الحياض ، ولم تشرق الأرض ، وإذا نقص عنها خيف الشرق والجدب والقحط والغلاء ، وإذا زاد عنها إلى ثمانية عشر ذراعا خيف الغرق والبوار والأوبئة .

فإذا عم الماء الأرض بفيضانه وغطاها ، ثم نقص وتراجع ، انكشفت الأرض ، ثم أخذت سيلها إلى الجفاف ، ويزرعها الزراع ، وينتظرونها إلى وقت الحصاد .

وهذا الرى ، وهو رى الحياض ، تشير إليه رسالة عمرو بن العاص إلى سيدنا عمر ، ويصف بها أرض مصر ، يقول :

« اعلم يا أمير المؤمنين أن مصر قرية غبراء ، وشجرة خضراء . طولها شهر . وعرضها عشر . يكتنفها جبل أغـــبر . ورمل أعفر ، يخط وسطها نهر مبارك الغدوات . ميمون الروحات . تجرى فيه الزيادة والنقصان . كجرى الشمس والقمر له أوان . . . يدر حلابه ويكثر فيه ذبابه . . ثمرة عيون الأرض وينابيعها . حتى إذا اصطخب عجاجه . وتعظمت أمواجه . فاض على جانبيه فلم يمكن التخلص من القرى بعضها إلى بعض ، إلا فى صغار المراكب وخفاف القوارب . وزوارق كأنهن فى المخايل . ورق الأصايل . فإذا تكامل فى زورته ، نكص على عقبيه كأول ما بدأ فى جريته ، وطما فى درته ، فعند ذلك تخرج أهل ملة محقورة . وذمة مخفورة . يحرثون بطون الأرض . ويبذرون بها الحب . يرجون بذلك النماء من الرب . لغيرهم ما سعوا من كدهم ، فناله منهم بغير جدهم . فإذا أحدق الزرع وأشرق ، سقاه الندى . وغذاه من تحته الثرى .

فبينما مصر يا أمير المؤمنين لؤلؤة بيضاء . إذ هى عنبرة سوداء . فإذا هى زمردة خضراء . فإذا هى ديباجة رقشاء . فتبارك الله الفعال لما يشاء » (١) .

---

(١) راجع « الفاروق عمر » للدكتور محمد حسين هيكل ج ٢ .

ومهما قيل فى هـذا النص ، فهو يصور حالة مصر والأرض الزراعية فيها ، وفيضان النيل إليها وتغطيته لها وسقيها وكسوتها بالطمى ، ثم تكشف مائه عنها ، وزرعها ، ثم ظهور نباتها أخضر ، وزهورها ذات ألوان .

ولها بذلك أربعة أدوار . مرة تكون أرضها لؤلؤة بيضاء ، حينما يعلوها الماء ويعمها ، فتلمع تحت أشعة الشمس بيضاء ناصعة ، وتصبح قراها فى وسط هذا الماء الغامر ، كالجزر فى البحر ، تصل بينها الزوارق كالحمائم البيضاء أو غيرها ، لقلاعها المنشورة .

ومرة تكون عنبرة سوداء ، حيثما يتكشف من فوقها الماء وينحسر عنها عائداً إلى مجرى النيل بعد تغطية ورى ظلا أسابيع متعددة ، تتسرب منها بقاياه ، لنقص مياهه وانقطاع فيضه ، فتعود إلى مجراه ، فيخرج الزراع ليبذروا الحب ، وهم يرجون الثمار أو النماء من الرب .

ومرة تكون زمردة خضراء ، وذلك إذا نبت النبت ، ونجم الزرع ، أخضر نضراً لينا ، كالحياة الجديدة الآملة . ويظل النبات هكذا زمنا ، إلى أن يقترب من إبان نضجه

ومرة تكون ديباجة رقشاء ، وثوبا مزخرفا فيه ألوان بهيجة وأشكال بديعة وتهاويل معجبة ، وذلك حينما تبدو الأوراق الخضراء ، والأزهار المتفتحة الملونة ، والثمار الناضجة .

وقد ذكر المسعودى مصر فقال : « وصف الحكماء مصر فقالوا : ثلاثة أشهر لؤلؤة بيضاء ، وثلاثة أشهر مسكة سوداء ، وثلاثة أشهر زمردة خضراء ، وثلاثة أشهر سبيكة حمراء .

فاللؤلؤة البيضاء ، زمان النيل ، والمسكة السوداء ، زمان نضوب الماء عن أرضها ، والزمردة الخضراء ، زمان طلوع زرعها ، والسبيكة الحمراء ، زمان هيج الزرع واكتهاله » (١) .

---

(١) صبح الأعشى ج ٣ ص ٢٨٥

وهـذا الوصف . هو الوصف نفسه الذى جاء فى رسالة عمرو بن العاص ، على وجه التقريب .

ولم تكن مصر تعرف فى قديمها الرى الصيفى « المستديم » بل عرفت ذلك فى العصر الحديث . فبنت السدود على النيل — وما تزال تبنيها — وخزنت المياه فى جزء من مجراه ، أو فى بحيرات صناعية متصلة به . ومن ثم استطاعت أن تستفيد من مياه فيضانه أكثر من قبل ، وأن تتحكم فيها ، ولو إلى حد ، وأن تنظم دورات زراعية فى الأرض ، متوالية يكثر بها المحصول ، ويتنوع . بدلا من الاقتصار على دورة واحدة كل عام .

ولكن فى العصور الماضية — وفى جملتها العصر المملوكى — كان المتبع هو رأى الحياص وهو مرتبط ارتباطاً كلياً بمواعيد فيضان النيل ووفائه ونقصه وتخلفه وتراجعه . ولهذا اهتموا بمراقبته مراقبة دقيقة .

وورثوا هذا الاهتمام من أسلافهم . فقد أقاموا للنيل مقياساً يتبين عنده زيادة مائه ونقصه . وتعلقت نفوسهم بهذا المقياس علواً وانخفاضاً . فإذا علا الماء عنده زفت البشرى وعمت الفرحة وقرب الأمل فى اليسر والرخاء . وإذا نقص أو لم يف فى موعد الوفاء ، تبلبلت الخواطر وخيف الجدب وتوقع القحط والغلاء . وإذا زاد عن حده خشى الغرق وعمت الشكوى .

ولمقياس النيل تاريخ حافل . وقد أفرده بالبحث فى باب طويل ، صاحب « تقويم النيـــل » ويستخلص مما رواه ، ومما رواه المقريزى ، وأبو المحاسن ، والسيوطى وغيرهم ما يلى[1] .

١ — أن مصر عرفت مقاييس النيل قبل دخول الإسلام إليها . ومنها « مقياس

---

(١) راجع تقويم النيل لأمين سامى ج ١ ص ٦٥ وما بعـدها . وخطط المقريزى ج ١ ص ٩٢ تحت عنوان مقاييس منيل وزيادته وحسن المحاضرة ج ٢ ص ٢٢٠ تحت عنوان « ذكر المقياس » .

منف » ، قيل إن يوسف عليه السلام هو الذى بناه . ومقياس إخميم ، وقيل إن دلوكة الملكة العجوز أقامته ببلاد إخميم ، وقيل أقامت مقياساً آخر فى أنصنا .

٢ — أنه بنى بمصر عدة مقاييس بعد دخول الإسلام إليها . ومنها : مقياس قيل إن عمرو بن العاص بناه عند أسوان ، ثم عند دندرة ، ثم عند أنصنا . وقال المقريزى إنه بناه بحلوان . — ولعله بنى عدة مقاييس فى جهات متعددة . ومنها مقياس بناه عبد العزيز بن مروان والى مصر ، بحلوان عام ٨٠ هـ . ومنها مقياس بناه أسامة بن زيد التنوخى — وكان عاملا على خراج مصر — بجزيرة الروضة — فى خلافة الوليد بن عبد الملك . ثم أبطل . وبنى مقياساً غيره فى الروضة أيضاً عام ٩٧ هـ فى خلافة سليمان بن عبد الملك . ومنها مقياس أقامه الخليفة المأمون بالروضة أيضاً بدلا من مقياس أسامة الذى هدمه الماء ، وذلك عام ١٩٩ هـ . وقد أتمه الخليفة المتوكل العباسى عام ٢٤٧ هـ وهو أكبر المقاييس . وقد بنى فى ولاية يزيد بن عبد الملك على مصر . وقدم من العراق محمد بن كثير المهندس فتولى بناءه . — ومنها مقياس يقال إن أحمد بن طولون بناه فى الجزيرة أيضاً .

هذا وأهم المقاييس قبل الإسلام ، مقياس منف . وبعد الإسلام مقياس المتوكل بالروضة .

ومقياس الروضة هذا هو الذى ظل مستعملا طول عصر المماليك . وقد أمر الأشرف قايتباى عام ٨٨٦ هـ ، بتجديد بعض أماكنه وإصلاح أساسه(١) .

وقد روى المقريزى فى وصف المقياس ، ما يلى ، قال :

« والمقياس عمود رخام أبيض مثمن ، فى موضع ينحصر فيه الماء عند انسيابه إليه . وهذا العمود مفصل على اثنين وعشرين ذراعا . كل ذراع مفصل على أربعة

---

(١) بدائع ابن إياس ج ٢ ص ٢٠٥ .

وعشرين قسما متساوية تعرف بالأصابع . ماعدا الاثنى عشر ذراعاً الأولى ،فإنها مفصلة على ثمان وعشرين أصبعاً ، كل ذراع. والأذرع الأولى هى السفلى » .

وقيل فى سبب اختلاف تقسيم أذرعه ، ما يلى : — وقد ذكره المقريزى نقلا عن القضاعى عن الحسن بن محمد بن عبد المنعم . ونقله السيوطى أيضاً :

« لما فتحت العرب مصر . عرف عمر بن الخطاب ـ رضى الله عنه ـ ما يلقى أهلها من الغلاء عند وقوف النيل عن حده فى مقياس لهم . فضلا عن تقاصره . وأن فرط الاستشعار يدعوهم إلى الاحتكار . وأن الاحتكار يدعو إلى تصاعد الأسعار ، بغير قحط .

فكتب عمر إلى عمرو ، يسأله عن شرح الحال . فأجابه :

« إنى وجدت ما تروى به مصر ، حتى لا يقحط أهلها ، أربعة عشر ذراعاً . والحد الذى يروى منه سائرها حتى يفضل عن حاجتهم ، ويبقى عندهم قوت سنة أخرى ، ستة عشر . والنهايتان المخوفتان فى الزيادة والنقصان ـ وهما الظمأ والاستبحار ـ اثنا عشر ذرعاً فى النقصان . وثمانية عشر ذراعاً فى الزيادة » .

هذا ، والبلد فى ذلك الوقت ، محفور الأنهار معقود الجسور عندما تسلموه من القبط ، وخميرة العمارة فيه .

فاستشار أمير المؤمنين عمر رضى الله عنه ، علياً رضى الله عنه ، فى ذلك . فأشار أن يكتب إليه ، أن يبنى مقياساً ، وأن ينقص ذراعين من اثنى عشر ذرعاً ، وأن يقرما بعدها على الأصل ، وأن ينقص من كل ذراع بعد الستة عشر ذراعاً أصبعين ففعل ذلك ، وبناه بحلوان .

فاجتمع له بذلك كل ما أراد من حل الإرجاف ، وزوال ما منه كان يخاف . بأن جعل الاثنى عشر ذراعاً أربع عشرة ، لأن كل ذراع أربع وعشرون أصبعاً . فجعلها ثمانيا وعشرين ، من أولها إلى الاثنى عشر ذراعاً . يكون مبلغ الزيادة على

الاثنى عشر ثمانيا وأربعين إصبعاً . وهى الذراعان . وجعل الأربع عشرة ست عشرة . والست عشرة ثمانى عشرة ، والثمانى عشرة عشرين [١] .

وهذا التقدير لمناسيب مياه الفيضان ، لم يثبت تماماً فيما بعد ، وطرأ عليه تغيير وتعديل بلا ريب .

الاحتفال بوفائه :

وقد وكل بالمقياس من يلاحظ ارتفاع الماء عنده باستمرار ، إذا حان موسم الفيضان . ويبشر الناس بكل زيادة ، ويصعد إلى السلطان بأخبارها بين الحين والحين .

واشتهر طيلة عصر المماليك اسم « ابن أبى الرداد » وكان مختصاً بمراقبة المقياس والبشارة بمناسيب الماء عنده .

وأصل ابن أبى الرداد هذا ، يرجع إلى الفقيه عبد الله بن عبد السلام بن أبى الرداد المؤذن ، وكان أصله من البصرة ، فقدم إلى مصر وحدث بها فلما بنى المتوكل مقياس الروضة عام ٢٤٧ هـ ، أمر ألا يتولى أمره إلا رجل من المسلمين ، فاختار القاضى بكار بن قتيبة ، بن أبى الرداد الفقيه ، لمراقبة المقياس ، وأجرى عليه الرزق .

وقد توفى ابن أبى الرداد المذكور فى عام ٢٦٦هـ ، وبقى عمله وراثياً فى ذريته ، فظلوا يتوارثونه واحداً بعد آخر ، وظلوا كذلك طول العصر المملوكى .

وكان للنداء بالزيادة أثر هام فى حياة الناس والدولة معاً . والمعتاد أن حد الوفاء هو ستة عشر ذراعا ، وعندها يستحق الخراج وإذا لم يبلغ الماء هذا الحد ، كان الشرق ، وإذا زاد على ثمانية عشر ذراعاً كان الغرق .

---

(١) راجع خطط المقريزى ج١ ص ٩٢ تحت عنوان « مقاييس النيل وزيادته » — وحسن المحاضرة للسيوطى ج ٢ ص ٢٢٠ تحت عنوان « ذكر المقياس » .

وكانوا يضبطون مواعيد الفيضان بالشهور القبطية [١] ، ويقع الوفاء ـ كما ذكرنا ـ عادة فى مسرى . فيحتفل السلطان أو من ينوب عنه بعيد وفاء النيل . وتختلف أبهة الاحتفال وعظمته والعناية به باختلاف الأيام والظروف والشخصيات المحتفلة .

وكان الاحتفال تقليداً من تقاليد الدولة . فيرأس السلطان بنفسه هذا الاحتفال ـ كما فعل برقوق عام ٨٠٠ هـ ، والمؤيد شيخ عام ٨١٦ هـ والناصر بن قايتباى عام ٩٠٣ هـ ، والظاهر خشقدم عام ٨٧٠ هـ ، وكما شارك فيه قانصوه الغورى عام ٩١٧ هـ ـ .

أو ينيب السلطان نائبا عنه ـ والمعتاد أنه ينيب عنه نائب سلطنته أو أتابكى جنده . وقد يندب أميرا آخر من كبار أمرائه كالأستادار أو الدوادار .

ويجرى الاحتفال ـ عادة ـ نهارا . ولعلها المرة الوحيدة التى احتفل بهذا العيد ليلا ، فيها ، وذلك عام ٩٠٣ هـ الذى رأس الاحتفال فيه الناصر محمد ابن قايتباى .

ويجرى الاحتفال بأن يركب السلطان أو مندوبه ، سفينة تتبعها سفن أخرى كثيرة ملأى برجال الدولة والجند ، تسير بهم إلى جهة المقياس بجزيرة الروضة ، فيشاهدونه ويشاهدون الماء عنده ومدى ارتفاعه ، ويخلقون عمود المقياس ـ أى يطلونه بالخلوق ، وهو نوع من العطور ـ ويدورون إلى موضع السد وهو فى فم الخليج الكبير ـ خليج أمير المؤمنين ـ فيكسر السد على مرأى منهم ، فتتدفق مياه النيل فى الخليج . ثم يأكلون ويشربون ويلهون أحيانا بضروب من اللهو ثم يعودون . وتكسر بعد ذلك سدود خلجان أخرى من خلجان النيل ، ويخلع السلطان الخلع ويهدى الهدايا .

---

(١) راجع بدائع الزهور لابن إياس فى خلال حوادث كل عام ـ وراجع النجوم الزاهرة لأبى المحاسن فى أعقاب كل عام . وراجع أيضاً تقويم النيل لأمين سامى .

وفى مناسبات الفيضان والوفاء وأعياده ، ينظم الشعراء مقطوعاتهم وقصائدهم وما توحى به إلى خواطرهم هذه الأيام الحافلة السعيدة ، كما تكتب البشارات النثرية بعبارات منظومة أدبية شاعرية . وتبعث إلى الجهات لتقرأ فيها إعلانا بالفيضان والوفاء .

وفى بعض السنين أمر السلطان بقراءة القرآن الكريم فى ليلة الاحتفال بجوار المقياس . وأمر بمبيت قضاة الشرع هناك .

واعتاد الناس فى يوم عيد الوفاء أن يخرجوا فى سفن نيلية يرتادون بها خلجان مصر ، أو يتجمهرون على جانبيها طلبا للهو والمتعة والتفرج والعبث .

وإذا لم يف النيـــل فى ميعاده ، صدر أمر السلطان فيخرج القضاة والناس للاستسقاء ، أو لقراءة القرآن والحديث وللدعاء ، طلباً للوفاء ، واستشفاعا إلى الله لإجراء الماء .

وفى عام ٨٦٦ هـ تأخر ماء الفيضان عن حد الوفاء فى ميعاده . فأفتى الشيخ أمين الدين يحيى الأقصرائى — أحد أعلام علماء الدين حينذاك — للسلطان خشقدم ، سلطان العصر ، بأن يستعين ببنى العباس صغاراً وكباراً ، وأن يضعوا فى أفواههم ماء . ثم يمجوه فى إناء ويصب فى فسقية المقياس ففعـــلوا فزاد . . . [1] .

وكما يستسقون طلبا للزيادة يستسقون طلباً للهبوط إذا طغى الفيضان وخيف الضرر . كما وقع فى عام ٧٦١ هـ .

خلجانه وقناطره :

يقول المقريزى :

« اعلم أن النيل إذا انتهت زيادته ، فتحت منه خلجان وترع .. يتخرق الماء

---

(١) بدائع الزهور ج ٢ ص ٧٤ ، ٧٥ — وتقويم النيل ج ١ ص ٢٢٣

فيها يمينا وشمالا ، إلى البلاد البعيدة عن مجرى النيل . وأكثر الخلجان والترع والجسور والأخوار ، بالوجه البحرى . أما الوجه القبلى وهو بلاد الصعيد ، فإن ذلك قليل فيه ، وقد ذهبت معالمه ودرست رسومه من هنالك »(١) .

وهو يعنى بالخلجان ، الجداول التى تشق فى إحدى النواحى ، وتستمد المياه من النيل ، أو من خليج آخر .

قال المقريزى :

« والمشهور من الخلجان . خليج منجا . وخليج منف . وخليج المنهى . وخليج أشموم طناح . وخليج سردوس . وخليج الإسكندرية . وخليج دمياط . وخليج القاهرة . وبحر أبى المنجا . والخليج الناصرى ظاهر القاهرة »(٢) ، وقد أشرنا من قبل إلى رواية له أخرى عنها .

وقد ردد المقريزى قول ابن عبد الحكم عن أبى زهم السماعى : فقال : « كانت مصر ذات قناطر وجسور بتقدير وتدبير ، حتى إن الماء ليجرى تحت منازلها وأفنيتها ، فيحبسونه كيف شاءوا ويرسلونه كيف شاءوا »(٣) .

ونعتقد أن حبس الماء هنا لرى الناس ولضروراتهم ، لا لسقى الأرض وزرعها زرعا عاما للغلات الأساسية .

وعدد المقريزى مرة أخرى نقلا عن ابن الحكيم ، هذه الخلجان بشىء من التغيير .

ونعتقد أيضاً أن هذه هى الحالة الغالبة فى مصر ، التى كانت أيام المماليك . فقد تعددت خلجان النيل حينذاك . بقصد إيصال الماء إلى الجهات النائية عن النيل ، ثم لحبس جزء منها لسقى الناس وضروراتهم ، على مدى أيام السنة . علما بأن مدينة كالفسطاط كانت تسقى من ماء النيل مباشرة ، لقربها منه ، ومدينة

---

(١) الخطط ج ١ ص ١١٢ تحت عنوان « ذكر الخلجان التى شقت من النيل »

(٢) الخطط ج ١ ص ١١٢ .

(٣) الخطط ج ١ ص ١١٢ .

كالقاهرة ،كانت تستعين بالآبار فى بعض أيام السنة ، لبعدها عن ماء النيل . وتشرب من مائه بخاصة فى أيام دخوله فى الخليج[١] .

وفوق هذه الخلجان كانت تقام القناطر ، وقد تقام على جانبى إحدى القناطر محال للبيع والشراء والتفرج . وعلى جانبى هذه الخلجان كانت تنشأ الحدائق والبساتين والأبنية والعمائر ، والأسواق ، وتكثر الزروع ، ويزدحم الناس من السكان والمارة والمرتاضين . وقد يتصل مابين قنطرة وأخرى بالمبانى أو البساتين أو الأشجار المظلة .

وروى المقريزى قال : « اعلم أن قناطر الخليج الكبير عدتها الآن أربع عشرة قنطرة ، وعلى خليج فم الخور قنطرة واحدة ، وعلى خليج الذكر قنطرة واحدة ، وعلى الخليج الناصرى خمس قناطر ، وعلى بحر أبى المنجا قنطرة عظيمة ، وبالجيزة عدة قناطر »[٢] .

وعلى سبيل المثال نذكر لك ما سجله المقريزى عن « قناطر الأوز » . وتصويره نعتبره نموذجا لما كان لغيرها ، على وجه الإجمال ، ويرسم منظراً من مناظر ذلك الزمان . قال :

« هذه القناطر على الخليج الكبير ، يتوصل إليها من الحسينية . ويسلك من فوقها إلى أراضى البعل وغيرها ، وهى أيضاً مما أنشأه الملك الناصر محمد بن قلاوون فى سنة خمس وعشرين وسبعمائة . وأدركت هناك أملاكا مطلة على الخليج بعد سنة ثمانين وسبعمائة . وهذه القناطر من أحسن متنزهات أهل القاهرة ، أيام الخليج ، لما يصير فيه من الماء ، ولما على حافته الشرقية من البساتين الأنيقة . إلا أنها الآن قد خربت . وتجاه هذه القنطرة منظرة البعل — التى تقدم ذكرها عند ذكر مناظر الخلفاء — وبقيت آثارها إلى الآن . أدركناها يعطن فيها الكتان . وبها عرفت

---

(١) الخطط ج ٢ ص ١٨٦ .

(٢) الخطط ج ٣ ص ٢٣٧ .

الأرض التى هناك فسميت إلى الآن بأرض البعل . وكان هناك صف من شجر السنط ، قد امتد من تجاه قناطر الأوز ، إلى منظرة البعل ، وصار فاصلا بين مزرعتين ، يجلس الناس تحته فى يومى الأحد والجمعة ، للنزهة . فيكون هناك من أصناف الناس رجالهم ونسائهم ، مالا يقع عليه حصر . ويباع هناك مآكل كثيرة .

وكان هناك حانوت من طين ، تجاه القنطرة ، يباع فيها السمك ، أدركتها وقد استؤجرت بخمسة آلاف درهم فى السنة ، عنها يومئذ نحو مائتين وخمسين مثقالا من الذهب ، على أنه لا يباع فيها السمك إلا نحو ثلاثة أشهر ، أو دون ذلك .

ولم يزل هذا السنط إلى نحو سنة تسعين وسبعمائة . فقطع . وإلى اليوم تجتمع الناس هناك . ولكن شتان بين ما أدركنا وبين ما هو الآن . وقيل لها قناطر الأوز . »[1]

وقال المقريزى فى سياق حديثه عن « قنطرة الحاجب » وكانت على الخليج الناصرى الذى حفره الناصر بن قلاوون . وكانت تصل ما بين أرض الطبالة إلى منية السيرج . « أى من جهة بركة الرطلى إلى أقاصى شبرا الآن » — قال المقريزى :

« ولما عمرت هذه القنطرة ، اتصلت العمائر فيما بينها وبين كوم الريش ، وعمر قبالتها ربع ، عرف بربع الزيتى . وكان على ظهر القنطرة صفان من حوانيت ، وعليها سقيفة ، تقى حر الشمس وغيره . »[2]

وقد عنينا بالتنويه بالخلجان والقناطر هنا ، عقب حديثنا عن النيل ، لأنها تتمم طبيعته ، وتعتبر جزءاً من البيئة الطبيعية المصرية ، لصلتها الوثيقة بمياه

---

(١) الخطط ج ٣ ص ٢٤٠ .

(٢) الخطط ج ص ٢٤٦ .

النهر وبفيضانه ونقصانه ، وما ينشأ حوله من البساتين ، وما يؤسس من المنازه العامة والخاصة ، ذات الزروع والأشجار والأزهار . وإن كانت مظهراً من مظاهر الحضارة والمدنية ، ذا صلة بالحياة والبيئة الاجتماعية

منازه مصر والقاهرة :

ومنازه مصر والقاهرة كثيرة كانت حينذاك ، عدا الخلجان والقناطر . وكان القاهرى إذا احتاج إلى فرجة فى النيل مشى مسافة بعيدة بظاهرها بين المبانى التى خارج السور ، إلى موضع يعرف بالمقس . وجوها لا يبرح كدرا بما تثير الأرجل من التراب . (١)

وأحسن موضع فى ظواهرها للفرجة أرض الطبالة ، لا سيما أرض القرط والكبتان . وكان يجرى فى هذه الأرض خليج ينور نوار الكبتان على جانبيه (٢)

وكانت بركة الفيل فى ظاهر القاهرة وكانت دائرة كالبدر . والمناظر فوقها كالنجوم . واعتاد بعض السلاطين أن يركب فيها بالليل ، ويسرج أصحاب المناظر على قدر همتهم وقدرتهم فيكون بذلك لها منظر عجيب (٣)

قال المقريزى :

« وقد دخلت فى الخليج الذى بين القاهرة ومصر ، ومعظم عمارته فيما يلى القاهرة . فرأيت فيه من ذلك العجائب . وربما وقع فيه قتل بسبب المسكر ، فيمنع فيه الشرب . وذلك فى بعض الأحيان . وهو ضيق . عليه فى الجهتين مناظر كثيرة العمارة بعالم الطرب والتهكم والمخالعة . حتى إن المحتشمين والرؤساء لا يجيزون العبور به فى مركب . وللسرج على جانبيه منظر فتان . وكثيراً ما يتفرج فيه أهل الستر بالليل » . (٤)

---

(١) و (٢) الخطط ج ٢ ص ١٨٧ ، ١٨٨ .

(٣) الخطط ج ٢ ص ٨٨ ـ وج ٣ ص ٢٦٢ .

(٤) الخطط ج ٢ ص ١٩ .

وخليج أمير المؤمنين ، أو الخليج الكبير ، وهو الذى يحتفل بكسر سده يوم الاحتفال بعيد الوفاء حفر فى عهد سيدنا عمر بن الخطاب — رضى الله عنه — عام ٢٣ هـ أيام حكم عمرو بن العاص . وكان يصل النيل ببحر القلزم - البحر الأحمر — ويبدأ من مصر ويمر على القاهرة وتجرى فيه السفن ، لتقرب بين الحجاز ومصر ، أيام الفيضان . وفى طريقه يمر على بستان « المشتهى » . قال المقريزى :

« وما برح هذا الخليج منتزها لأهل القاهرة يعبرون فيه بالمراكب للنزهة ، إلى أن حفر الملك الناصر محمد بن قلاوون الخليج المعروف الآن بالخليج المصرى . » (١)

وقال : « قال جامع سيرة الناصر محمد بن قلاوون : وفى سنة ٧٠٦ هـ رسم الأميران بيبرس وسلار بمنع الشخاتير والمراكب من دخول الخليج الحاكمى ، والتفرج فيه ، بسبب ما حصل من الفساد والتظاهر بالمنكرات ... الخ . (٢)

وقال عن الخليج الناصرى مانصه : « يخرج من بحر النيل ويصب فى الخليج الكبير . أنشأه الناصر محمد بن قلاوون عام ٧٢٥ هـ من النيل مارا بناحية سرياقوس . وصار هذا الخليج مواطن أفراح ، ومنازل لهو ، ومغنى صبابات ، وملعب أتراب ، ومحل تيه وقصف ، فيما يمر من المراكب وفيما عليه من الدور . وما برحت مراكب النزهة تمر فيه بأنواع الناس على سبيل اللهو ، إلى أن منعت المراكب منه وكانت عليه جملة من القناطر » ... الخ . (٣)

ومن أهم منازه القاهرة « بركة الرطلى » . وكانت من جملة أرض الطبالة . وعرفت ببركة الطوابين ، فقد كان يضرب فيها الطوب . فلما حفر الخليج الناصرى مر بجوارها ، وصب فى الخليج الكبير ، من بحرى أرض الطبالة . فروى ماؤه

---

(١) الخطط ج ٣ ص ٢٣٢ ، ٢٣٣ .

(٢) الخطط ج ٣ ص ٢٣٣ :

(٣) الخطط ج ٣ ص ٢٤١ .

أرض هذه البركة وملأها . وكان فى إحدى زواياها نخل كثير وبجوار النخل شخص يصنع الأرطال الحديد، فنسبت إليه البركة وقيل: «بركة الرطلى» وبقيت النخيل مدة طويلة . وأقيم جسر بين البركة والخليج . فعمر المكان وتتابع الناس فبنوا الدور حول البركة حتى لم يبق بدائرها مكان خال . وصارت المراكب تعبر إليها من الخليج الناصرى ، وتدور تحت البيوت مشحونة بالناس فى أحوال من اللهو يقصر عنها الوصف . وتظاهر الناس فى المراكب بأنواع المنكرات .

فإذا نضب ماء النيل وتراجع ، جفت البركة وزرعت بالقرظ وغيره . وكان الناس يجتمعون فيها حينذاك بكثرة فى يوم الأحـــد والجمعة .

قال المقريزى : « وأدركت بهذه البركة من بعد سنة سبعين وسبعمائة إلى سنة ثمانمائة أوقاتا انكفت فيها عمن كان بها أيدى الغير ، ورقدت عن أهاليها أعين الحوادث ، وساعدهم الوقت إذ الناس ناس ، والزمان زمان . . . الخ [١]

أقول: وقد ظلت هذه البركة على شئ كثير من عمارها وزهوها وزينتها ، وكان يسكن بالقرب منها كثير من أعيان الناس وظلت منزها للقاهريين ، إلى أن أبطل ملاهيها السلطان الأشرف طومای باى فى آخر الدولة ، زمان اشتباكها مع العثمانيين ، فلحق البركة الخراب والبوار . [٢]

ومن المنازه « بركة الحبش» . قال المقريزى إنهـــا من أشهر برك مصر . وكانت فى ظاهر الفسطاط جنوبيها بين الجبل والنيل . قال : « وظلت عامرة إلى وقتنا هذا »

وقال : « وأحسن ماوصفت به بركة الحبش قول عيسى بن موسى الهاشمى أمير مصر وقد خرج إلى الميدان الذى بطرف المقابر . فقال لمن معه : «أتتأملون الذى أرى» ؟ قالوا : «وما الذى يرى الأمير» ؟ قال : أرى ميدان رهان . وجنان

---

(١) راجع الخطط ج ٣ ص ٢٦٣ ص ، ٢٤٥ ، ٢٤٦ .

(٢) راجع بدائع ابن اياس تاريخ الغورى وطومان باى ،

نخل . وبستان شجر ، ومنازل سكنى . وذروة جبل . وجبانة أموات ، ونهرا عجاجا . وأرض زرع ، ومراعى ماشية ، ومرتع خيل ، وساحل بحر ، وصائد نهر . وقانص وحش . وملاح سفينة . وحادى إبل . ومفازة رمل . وسهلا وجبلا . فهذه ثمانية عشر منتزها فى أقل من ميل فى ميل . » (١)

ومن أحب المنازه إلى القاهريين جزيرة « الروضة » . وهى الجزيرة البارزة فى مجرى النيل بين الفسطاط والجيزة . وهذه الجزيرة لها تاريخ حافل عظيم . وقد اهتم بها العالم الكبير جلال الدين السيوطى ، فألف فيها مؤلفا قيما اسمه « كوكب الروضة » ، لايزال إلى اليوم مخطوطا . وقد حشد فيه كل المعلومات التى استطاع جمعها عن الروضة وتاريخها والملوك والأمراء الذين اهتموا بها ، والأبنية التى بنيت عليها ، والصناعات التى قامت فيها ، والبساتين التى أنشئت فى نواحيها ، والزروع والثمار التى نضجت فى أرضها ، ومبلغ صلتها بالنيل وفيضانه ومقياسه ، وما قيل فى ذلك كله من أحاديث وأخبار وسير ومن شعر ونثر . فهو كتاب جامع عظيم النفع ، يغنى عن أسفار ودواوين . وقد اعتمدنا كثيراً على أخباره ، وانتفعنا بما أورده من النصوص الشعرية ، وسيتبين لك هذا ، فى الفصل الأول من الباب الثانى ، من هذا البحث .

وتلخص أخبار هذه الجزيرة فى أنها كانت تسمى « الجزيرة » فقط أو « جزيرة مصر » . واتخذها الناس وبعض الأعيان بل الأمراء والسلاطين منزها ومفترجا يرتاضون فيه ، بل يقيمون . وقد أنشأ بها الإخشيد منزهاً خاصاً سماه « المختار » وعمره بالبساتين والدور والخزائن . ثم أنشأ بها الأفضل شاهنشاه بن أمير الجيوش بدر الجمالى ، مكاناً نزها سماه « الروضة » وتردد إليها كثيراً . فصارت الجزيرة كلها تعرف بالروضة . ثم إن الخليفة الفاطمى الآمر بأحكام الله أحب حسناء بدوية تسمى « العالية » رغبت عن سكنى قصورة ، فبنى لها فى الروضة ،

---

(١) راجع الخطط ج ٣ ص ٢٤٩ .

مكاناً نزهاً جديداً بجوار المختار سماه « الهودج » - وكان بها مكان آخر يسمى « المشتهى » من المنازه التى أنشأها الفاطميون (١) . وهذه الجزيرة هى التى بنى فيها الملك الصالح نجم الدين الأيوبى « قلعة الروضة » وأسكن فيها مماليكه ، وسماهم « البحرية » .

وقال تاج الدين محمد بن عبد الوهاب بن المنوج فى كتابه « إيقاظ المتغفل واتعاظ المتأمل » :

« وإنما سميت جزيرة مصر بالروضة لأنه لم يكن بالديار المصرية مثلها . وبحر النيل حائز لها ودائر عليها . وكانت حصينة وفيها من البساتين والثمار ما لم يكن فى غيرها . ولما فتح عمرو بن العاص مصر ، تحصن الروم بها مدة . فلما طال حصارها وهرب الروم منها خرب عمرو بن العاص بعض أبراجها وأسوارها ، وكانت مستديرة عليها ، واستمرت إلى أن عمر حصنها أحمد بن طولون فى سنة ٢٦٣هـ ولم يزل هذا الحصن حتى خربه النيل »(٢) .

وقال على بن سعيد فى كتاب « المغرب فى حلى المغرب » :

« الروضة أمام الفسطاط ، فيما بينها وبين مناظر الجيزة . وبها مقياس النيل . وكانت متنزهاً لأهل مصر فاختارها الملك الصالح بن الملك الكامل سرير السلطنة ، وبنى فيها قلعة مسورة بسور ساطع اللون محكم البناء عالى السمك ، لم تر عينى أحسن منه . وفى هذه الجزيرة كان « الهودج » الذى بناه الخليفة الآمر ، لزوجته البدوية التى هام فى حبها »(٣) .

وقال زين الدين بن الوردى فى كتابه « فريدة العجائب وفريدة الغرائب » ، ما نصه :

---

(١) راجع الخطط ج ٣ ص ٢٨٩ .

(٢) كوكب الروضة للسيوطى ورقة رقم ١١

(٣) كوكب الروضة للسيوطى ورقة رقم ١١ .

« وقبالة الفسطاط الجزيرة المعروفه بالروضة . وهى جزيرة يحيط بها بحر النيل من جميع جهاتها . بها فرج ونزه ومقاصف وقصور ، ودوروبساتين . وتسمى هذه الجزيرة « دار المقياس » . وكانت فى أيام بعض ملوك مصر ، يجتاز إليها على جسر من السفن ، فيه ثلاثون سفينة . وكان بها قلعة عظيمة تخربت . وبها المقياس ، يحيط به أبنية دائرة على عمد ، وفى وسطه فسقية عميقة ، ينزل إليها بدرج من الرخام دائرة ، وفى وسطها عمود رخام قائم ، وفيه رسوم أعداد الأذرع والأصابع ، يعبر إليها الماء من قناة عريضة » (١) .

وروى المقريزى أن جميع الجزر التى فى النيل ، حدثت فى الإسلام ، ماعدا جزيرة الروضة(٢) .

هذا . ومن منازه القاهرة ومفترجاتها أيضاً « الأزبكية » ، التى أنشأها الأتابكى الأمير أزبك بن ططخ ، منذ عام ٨٨٠ هـ . وسنشير إليها وإلى « بركة الرطلى » أيضاً ، إشارة قريبة ، عند حديثنا عن البيئة الاجتماعية .

بحار مصر :

وتقع البلاد المصرية على بحرين عظيمين . إذ تمتـــد سواحلها الشمالية على البحر المتوسط الذى تقع عليه السواحل الشمالية لإفريقية ، والسواحل الجنوبية لأوربا . ويتصل بالمحيط الأطلسى عن طريق مضيق جبل طارق . ويمتد البحر المتوسط شرقا حتى تقع عليه السواحل الغربية لآسيا .

وتمتد السواحل الشرقية لمصر ، على البحر الأحمر ، الذى ينتهى من ناحية الشمال بخليجى السويس والعقبة . ومن ناحية الجنوب إلى مضيق باب المندب الذى يصله بالمحيط الهندى .

---

(١) المصدر نفسه ورقة رقم ١١ .

(٢) المصدر نفسه ورقة رقم ١٢ .

بحر الروم :

هو ما يطلق عليه الآن « البحر المتوسط » . وفى العصور الوسطى ، عرف ببحر الروم أو البحر الرومى ، وقد أضيف إلى الروم ، لسكنى أممهم عليه من شماليه . وقد يقال له أيضاً : « البحر الشامى » لوقوع سواحل الشام عليه .

وهو حد مصر الشمالى . وتطل عليه ـ آنذاك ـ عدة بلاد ، منها الإسكندرية ودمياط وتنيس والفرما والعريش وغيرها . هو نهاية مصب النيل .

ومخرجه من جهة الغرب ، بين الأندلس والمغرب ، سائرا إلى القسطنطينية . ويقال إن الإسكندر الجبار حفر مجراه من المحيط الغربى . وأن جزيرة الأندلس وبلاد البربر ، كانت أرضاً واحدة ، وكثر بين أهلها النزاع ، فحفر زقاقاً بينهما ، وعقد عليه قنطرة ، وضع على طرفيها حراساً ، لايسمحون بالمرور إلا بإذن .

فإذا خرج بحر الروم من هـذا الزقاق ، مر مشرقاً إلى بلاد البربر وشمال المغرب الأقصى ، إلى وسط بلاد المغرب ، على إفريقية وبرقة والإسكندرية وشمال التيه وأرض فلسطين ، والسواحل من بلاد الشام . ثم يعطف إلى أنطاكية فبلاد القسطنطينية .

وقيل إن فيه مائة وسبعين جزيرة عامرة ، فيها أمم كثيرة ، منها صقلية وإقريطش .

وبعد الإسكندرية يسير شرقا إلى مصب فرقة النيل الشرقية . وبعدها إلى رشيد (١) .

بحر القلزم .

هو مايطلق عليه الآن « البحر الأحمر » . وفى العصور الوسطى عرف ببحر

---

(١) الخط المقريزية ج١ ص ٢٦ تحت عنوان البحر الرومى ـ وصبح الأعشى ج ٣ ص ٢٢٤ وما بعدها .

القلزم - بضم القاف والزاى - والقلزم واحد القلازم ، وهى الدواهى والمضايقات. ومنه « بحر القلزم » لأنه مضيق بين جبال . وعرف بذلك أيضاً ، لأنه كان بساحله الغربى فى شرق أرض مصر ، مدينة تسمى « القلزم » ، فسمى هذا البحر باسمها . وقد خربت .

وبحر القلزم خليج من المحيط الشرقى ، يجاوزه إلى بـــلاد اليمن ، مارا على سواحل مهرة ، أول بلاد اليمن ، ويمتد من شماليها على سواحل اليمن ، حتى ينتهى إلى مدينة عدن - فرضة اليمن - ثم إلى باب المندب ، وهو فرضة بين جبلين . ثم يمتد شمالا إلى الجحفة ، وهى ميقات الإحرام لأهل مصر ، ثم يتصل بينبع . ثم يجاوز مدين حتى يقارب أيلة ، وهى من كور مصر ، حتى ينتهى إلى فرضة الطور ، وهى مكان حط وإقلاع لمراكب الديار المصرية وما يصل إليها من اليمن وغيرها . ويمر فى الشمال حتى يصل إلى فرضة السويس . وهى مكان حط وإقلاع للديار المصرية أيضاً . وعنده ينتهى بر العرب ببحر القلزم . ثم يمتد موازيا لبلاد الصعيد ، حتى ينتهى إلى مدينة « القلزم » التى ينسب إليها هذا البحر ، ويقابلها من بر الحجاز أيلة ، ثم يسامت الطور ، ثم يمتد إلى القصير ، وهى فرضة قوص . ثم عيذاب فرضتها أيضاً . إلى سواحل السودان ، حتى يصير عندسواكن . ومايزال يمتد حتى يصل إلى رأس جبل المندب ، وهناك يضيق ثم يتصل بالمحيط . . .(١)

هـذا ، وكان بحر القلزم « البحر الأحمر » ، طريقا من طرق مصر ، إلى الحجاز واليمن ، فى عصر المماليك . سواء أكان ذلك للحج أم الزيارة أوطلب العلم والمجاورة . أو غير ذلك .

ويعتبر من أهم الممرات التجارية بين الشرق والغرب ، وطريقا لاستيراد سلع الهند وشرق إفريقية وغيرهما إلى مصر . وقد استفادت منه مصر فائدة

---

(١) الخطط المقريزية ج ١ ص ٢٤ تحت عنوان بحر القلزم - وصبح الأعشى ج ٣ ص ٢٤٢ .

ضخمة . إذ أكسب موقعها أهمية تجارية كبيرة . درت عليها أرباحا مالية طائلة .

ومنذ عهد السلطان الأشرف الغورى ، أخذ هذا الطريق يفقد جزءا كبيرا من أهميته بالنسبة لمصر ، وذلك بسبب كشف طريق رأس الرجاء الصالح ، إذ أخذت السفن تدور حوله آتية من الغرب ، قاصدة إلى سواحل الهند وشرق إفريقية وغيرها .

وكان بحر الروم « البحر المتوسط » ، طريقا لاتصال مصر بالشام وسواحل إفريقية الشمالية ، وسواحل البندقية والأندلس ، ونحوها من ثغور جنوب أوروبا . وكان امتدادا لطريق البحر الأحمر إلى بلاد الغرب .

ولكنه كان مصدر خطر على مصر ، أيام الحروب الصليبية . وعن طريقه وفد صليبيو أوربا إلى سواحل الشام ومصر ، أكثر من مرة ونزلوا بدمياط فخربوها . وتلصصوا منه هم وقراصنة القبارصة ، فى سواحل الإسكندرية فنهبوها وعاثوا فيها فسادا أكثر من مرة ، فى العصر المملوكى .

والملحوظ أن بحار مصر ، لم تحظ بعناية كبيرة من شعرائها ، حينذاك ، مع أن البحار ومرائيها وشواطئها وأمواجها وتياراتها والسفن التى تتهادى على على سطحها من أجمل مشاهد الطبيعة المصرية .

ويبدو أن سبب ذلك ، اضطراب معلومات الناس حينذاك عن هذه البحار . كما أن الحركة العلمية والأدبية ، كانت مركزة ، إلى حد كبير ، فى مدينة القاهرة البعيدة عن هـــذين البحرين ، وأن البارزين من الأدباء والشعراء كانوا يعيشون فيها ، كدأبهم الغالب فى أكثر العصور ، وهو المعيشة فى العواصم ، حيث رجال الحكم ومرادات الجاه .

ومع ذلك سنظفر بأبيات طريفة ـ فيما بعد ـ للأديب شهاب الدين بن حجر

العسقلانى يصف فيها سفينته وهو ذاهب إلى حج بيت الله الحرام ، بالبحر الأحمر .

كما أننا سنظفر بأبيات أخرى لشعراء آخرين فى وصف « سفن النيل » .

مدن مصر .

وتنتشر مدن مصر وقراها ، على ضفتى النيل ودلتاه وشواطىء بحرها ، وهى أيضا مظهر حضارى ، أو مشهد من مشاهد حياتها الاجتماعية . ولكنها تربض فى أماكنها لاتنتقل ، وتقبع فى مواطنها ثابتة لا تريم ، فتكسب بطول المقام وإلف العين ، صفة الطبيعة الخالدة ، وتصبح قطعة من البيئة الطبيعية.

ويزيدها ما تقع عليه من النهر وجداوله ، أو البحر وثنياته ، لصوقا بطبيعة البلاد ، ويضفى عليها ذلك كله جلالا وقدسية .

ومن أشهرها لذاك العهد :

القاهرة :

العاصمة الخالدة ، مقر الحكومة المصرية اليوم ، وعاصمة الجمهورية العربية المتحدة الفتية . ومركز الثقافة العربية والإسلامية الحديثة ، ومنتدى السياسة العربية المكافحة .

وهى - اليوم - ممتدة من سفح المقطم إلى النيل ، مع اتساع كبير إلى الجنوب فى اتجاه حلوان ، وإلى الشرق فى اتجاه عين شمس وألماظة .

وهى - اليوم - فى عصرنا الحديث الثورى - من أكبر مدن الشرق وأجملها ، وأمنها مدنية وحضارة . وهى أكثرها دور تعليم وجامعات ، وأفتنها مبانى ومنشآت ، فضلا عما بها من مخلفات العصور الماضية وآثارها ، وبذلك جمعت بين قديمها التالد ، وحديثها الطريف .

ويقول عنها تقى الدين المقريزى ما ملخصه :

« إن القاهرة المعزية ، رابع موضع انتقل إليه سرير السلطنة ، من أرض مصر ، فى الدولة الإسلامية . وكان قبلها فى الفسطاط فالعسكر فالقطائع . إلى أن قدم القائد جوهر الصقلى بعساكر مولاه المعز لدين الله الفاطمى . فبنى القاهرة حصنا ومعقلا . وصارت دار خلافة ينزلها الخليفة بحرمه وخواصه . إلى أن انقرضت الدولة الفاطمية ، فسكنها من بعدهم السلطان صلاح الدين يوسف بن أيوب ، ثم من وليه من أسرته على مصر . »

وكان صلاح الدين قد بنى قلعة الجبل . ويبدو أن أول من سكنها من ملوك الأيوبيين هو الملك الكامل محمد بن العادل أبى بكر بن أيوب . ومن ثم صارت هذه القلعة مقر الحكم وسكن الملوك إلى نهاية العصر المملوكى .(١)

ويقول المقريزى أيضا ، نقلا عن ابن عبد الظاهر فى كتابه « الروضة البهية الزاهرة » ، وعن غيره ، ما ملخصه :

« وفى الحقيقة ، قاهرة المعز التى أنشأها القائد جوهر ، عند قدومه من حضرة مولاه المعز لدين الله أبى تميم معد ، إلى مصر فى شعبان سنة ٣٥٨ هـ ، إنما هى ما دار عليه السور فقط . غير أن السور الذى أداره القائد جوهر ، تغير وعمل ، منذ بنيت إلى زمننا هذا ، ثلاث مرات . ثم حدثت العمائر فيما وراء السور من القاهرة ، فصار يقال لداخل السور : « القاهرة » . ولما خرج عن السور : « ظاهر القاهرة » .

ويقول أيضا ما ملخصه :

« والآن تطلق القاهرة على ما حازه السور الحجر الذى طوله من باب زويلة الكبير ، إلى باب الفتوح وباب النصر . وعرضه من باب سعادة وباب الخوخة ، إلى باب البرقية والباب المحروق .

---

(١) راجع الخطط المقريزية ج ٢ ص ١٥٧ تحت عنوان « ذكر القاهرة قاهرة المعز لدين الله » .

ثم لما توسع الناس فى العمارة بظاهر القاهرة . وبنوا خارج باب زويلة ، حتى اتصلت العمائر بمدينة فسطاط مصر . وبنوا خارج باب الفتوح وباب النصر ، إلى أن انتهت العمائر إلى الريدانية . وبنوا خارج باب القنطرة ، إلى حيث الموضع الذى يقال له « بولاق » ، حيث شاطىء النيل . وامتدوا بالعمارة من بولاق على الشاطىء إلى أن اتصلت بمنشأة المهرانى . وبنوا خارج باب البرقية والباب المحروق ، إلى سفح الجبل بطول السور . صار حينئذ العامر بالسكنى على قسمين : أحدهما يقال له ، « القاهرة » . والآخر يقال له « مصر » .

فأما مصر ، فإن حدها على ما وقع عليه الاصطلاح فى زمننا هذا الذى نحن فيه ، من حد أول قناطر السباع ، إلى طرف بركة الحبش القبلى ، مما يلى بساتين الوزير ، وهذا هو طول حد مصر . وحدها فى العرض من شاطىء النيل الذى يعرف قديما بالساحل الجديد ، حيث فم الخليج الكبير وقنطرة السد ، إلى أول القرافة الكبرى .

وأما حد القاهرة ، فإن طولها من قناطر السباع إلى الريدانية ، وعرضها من شاطىء النيـــل ببولاق ، إلى الجبل الأحمر . ويطلق على ذلك كله « مصر والقاهرة » .

وفى الحقيقة قاهرة المعز التى أنشأها القائد جوهر عند قدومه من حضرة مولاه المعز لدين الله أبى تميم معد ، إلى مصر فى شعبان سنة ثمان وخمسين وثلثمائة ، إنما هى مادار عليه السور فقط . »[1]

وقد ملأها رجال العصر المملوكى — ملوكا وأمراء ورؤساء وأعيانا — بكثير من العمائر والمنشآت ، ومنهـا المساجد التى هى دور تعليم وعبادة . وسنشير إليها بعد .

---

(١) راجع الخطط المقريزية ج ٢ ص ١٧٧ تحت عنوان « ذكر حد القاهرة » ، وص ١٧٩ تحت عنوان « ذكر بناء القاهرة » .

وقد خصص المقريزى أكثر كتابه « الخطط » للحديث عن القاهرة وأجزائها وعمائرها إلى زمانه — وقد توفى المقريزى عام ٨٤٥ هـ فذكر المساجد والمدارس ودور الكتب والزوايا والشوارع والحارات والأزقة ، والمسالك والأبواب والمناظر والقصور ، والجداول والقناطر والجسور ، وغير ذلك .

ومن بين ما كتبه عنها كثير من معالمها فى العصر المملوكى .

الإسكندرية :

يقول المقريزى عنها ما ملخصه : «هذه المدينة من أعظم مدائن الدنيا وأقدمها وضعا . وقد بنيت غير مرة . فلما كانت أيام اليونانيين ، جددها الإسكندر بن فيليبش المقدونى ، فعرفت به » . (١)

وتقع الإسكندرية على ساحل بحر الروم . وقد شهدت عصورا مختلفة . وكانت مركز علم وفلسفة ودين ، فى بعض هذه العصور . وبنيت فيها منارتها العجيبة ، وزودت بمكتبتها الشهيرة قديما . وأقيم فيها عمود السوارى المعروف .

وكانت أحد مراكز العلم كذلك فى عصر المماليك . ومن أوسع مدن مصر عمرانا حينذاك ، وأحد ثغورها التى تتجر مع الغرب .

وقد زارها كل من الأشرف قايتباى ، والأشرف الغورى ، زيارة حافلة .

وكانت هدفا للصوص الفرنجة وقراصنة قبرص وغيرهم فى العصر المملوكى .

تنيس :

كانت فى جزيرة وسط بحيرة تعرف ببحيرة تنيس ـ قرب دمياط ـ ويكون ماؤها فى أكثر الأيام ملحا ، لدخول ماء بحر الروم إليها عند هبوب الرياح الشمالية .

---

(١) خطط المقريزى ج ١ ص ٢٣٢ تحت عنوان « ذكر مدينة الإسكندرية ـ راجع أيضا تقويم البلدان لأبى الفداء .

بلبيس :

قصبة الحوف . وكان بها أشجار ونخيل كثير ، وهى قاعدة الولاة بالحوف . ويمر بها من الأنهار الآخذة من النيل حال زيادته ، نهر يعرف ببحر ابن سنجا .

قال المقريزى :

« وقد خربت منذ عهد الحوادث بديار مصر ، بعد سنة ست وثمانمائة ، بعد ما أدركناها وبها عمارة كثيرة ، وفيها عدة بساتين . وأهلها أصحاب يسار ونعم سنية . » (١)

دمياط :

كانت مدينة مسورة على البحر الرومى ، عند المصب الشرقى للنيل . ثم خربت ، وبنى بالقرب منها بليدة تسمى « المنشية » . وهى ذات أسواق وحمامات . وكان خراب دمياط عام ٦٤٨ هـ . وكانت أسوارها من منشآت المتوكل الخليفة العباسى . وكان خرابها بسبب هجوم الفرنجة عليها المرة بعد المرة ، وبخاصة فى العام المذكور . فاضطر أرباب الدولة إلى هدمها ، تعويقا لهجوم الفرنجة ، ثم إنها جددت فيما بعد .

ويقول المقريزى :

« وأما دمياط الآن ، فإنها حدثت بعد تخريب مدينة دمياط ، وعمل هناك أخصاص . وما برحت تزداد إلى أن صارت بلدة كبيرة ، ذات أسواق وحمامات وجوامع ومدارس ومساجد . ودورها تشرف على النيل الأعظم . ومن ورائها البساتين ، وهى أحسن بلاد الله منظراً (٢) .

رشيد :

بليدة على غربى النيل ، عند مصبه فى البحر . ومصب النيل فى البحر عند

---

(١) تقويم البلدان لأبى الفداء ص ١١٩ ـ وخطط المقريزى ج ١ ص ٢٩٦ .

(٢) تقويم البلدان ص ١١٧ — وخطط المقريزى ج ١ ص ٣٤٤ ، وما بعدها ، وص ٣٦١ .

رشيد خاصة يسمى « الأرمسية » ، وتخافه المراكب عند طلوعها فيه من البحر . ورشيد على مرحلة شرقى الإسكندرية . وهى ثغر جليل على ضفتى النيل والبحر الملح(١) .

المحلة :

مدينة كبيرة ذات أسواق . وهى قصبة كور الغربية من الديار المصرية . ويقال إن فى بلاد مصر مائة قرية يقال لكل منها : المحلة(٢) .

أسيوط :

إحدى قصبات الصعيد . قيل إن فى جهتها جبل الطير . وحديثه أن يحج إليها الطير فى كل سنة ، ويترك منها واحداً ملعقاً فى شقيف(٣) .

أسوان :

قال المقريزى : « أسوان فى آخر بلاد الصعيد . وهى ثغر من ثغور الإقليم يفصل بين النوبة وأرض مصر . وكانت كثيرة الحنطة وغيرها من الحبوب والفواكه والخضراوات والبقول . وكانت كثيرة الحيوان من الإبل والبقر والغنم . ولحمانها غاية فى الطيب والسمن . وكانت أسعارها أبداً رخيصة ، وبها تجارات وبضائع تحمل منها إلى بلاد النوبة . ولا يتصل بأسوان من شرقها بلد إسلامى . وفى جنوبها جبل به معدن الزمرد . وهو فى برية منقطعة عن العمارة . وعلى خمسة عشر يوماً من أسوان ، معدن الذهب . ويتصل بأسوان من غربيها الواحات . ويسلك من أسوان إلى عيذاب ، ويتوصل من عيذاب إلى الحجاز وإلى اليمن والهند(٤) » .

(١ ، ٢) تقويم البلدان ص ١١٧ .

(٣) المرجع نفسه ص ١١٣ .

(٤) الخطط ج ١ ص ٣١٩ تحت عنوان « ذكر مدينة أسوان » .

(٥) راجع هذه المدن وأخبارها فى الخطط المقريزية ج ١ ، وفى تقويم البلدان لأبى الفداء .

هذا ومدن مصر المشهورة فى تلك الحقبة كثيرة العدد . ومنها أيضاً : أنصنا والجيزة وحلوان وقوص وأسنا . . .

جبال مصر :

ذكرنا فى مطلع حديثنا عن طبيعة البلاد المصرية ، أن أرضها هضبة عالية يشقها نهر النيل هضبتين ، وتتراءى أجزاء من هاتين الهضبتين جبالا .

وقد عرف الأقدمون بعض هذه الجبال وتحدثوا عن أخبارها . وننوه هنا بشىء من ذلك .

قال المقريزى ماملخصه : أن أرض مصر بأسرها محصورة بين جبلين آخذين من الجنوب إلى الشمال قليلى الارتفاع — والمقريزى يعنى بأرض مصر نيلها وما حوله من الأرض الزراعية والمدن العامرة — ويقول : وأحدهما أعظم من الآخر . والأعظم منهما هو الجبل الشرقى المعروف بجبل لوقا . والغربى جبل صغير وبعضه غير متصل ببعض . والمسافة بينهما تضيق فى بعض المواضع ، وتتسع فى بعضها . وعلل عدم نباتهما بعلل ، منها : أنهما مالحان . وأن قوة طين مصر تجذب منهما الرطوبات الموافقة فى التكوين ولأن قوة الحرارة تحلل منهما الجوهر اللطيف العذب . وكذلك مياه الآبار منهما مالحة . وذكر أن هذين الجبلين يجففان مايدفن فيهما . فإن أرض مصر بالطبع قليلة الأمطار —

وقال : وتتعدد أسماء هذين الجبلين بحسب مواضعهما من الإقليم ، فيطل على الفسطاط وعلى القاهرة الجبل المقطم[1] .

جبل المقطم :

يتحدث المقريزى عن جبل المقطم حديثاً غريباً . فيذكر أن أوله من الشرق من الصين حيث البحر المحيط . وأنه يمر على بلاد الطط ، ويمتد إلى السند إلى

---

(١) الخطط المقريزية ج ١ ص ١٩٨ تحت عنوان ذكر الجبال .

جيحون . . الخ . حتى ينتهى إلى لبنان فالشام ، حتى يصل إلى بحر القلزم من جهة ، ويتصل من الجهة الأخرى ويسمى المقطم .

ويبدو أن المقريزى بهذه الدورة يربط سلاسل جبال آسيا بمقطم مصر ، ويرى أنها جميعا جبل واحد يتشعب ويمتد بأسماء مختلفة . ولذلك استمر مع امتداد المقطم على جانبى النيل حتى أوصله إلى جبال المغرب .

وقال: إنه عرف بمقطم بن مصرايم بن بيصر بن حسام بن نوح عليه السلام . وقيل إن مصرايم بن بيصر ، كما كشف ما فى هذا الجبل من كنوز مصر وفيها الذهب والزبرجد والفيروزج وغير ذلك ، وقد وصف له عمل الصنعة - يعنى الكيمياء - جعل أمرها إلى رجل من أهل بيعة يقال له مقيطام الحكيم ، فكان يعمل الكيمياء فى الجبل الشرقى ، فسمى به المقطم .

وروى عن الكندى فى فضائل مصر أن عمرو بن العاص - رضى الله عنه - سار فى سفح الجبل المقطم ومعه المقوقس فقال له :

ما لجبلكم هذا أقرع ليس به نبات كجبال الشام ، فلو شققنا فى أسفله نهرا من النيل وغرسناه نخلا ! فقال المقوقس : « وجدنا فى الكتب أنه كان أكثر الجبال أشجارا ونباتا وفاكهة(١) .

الجبل الأحمر .

قال المقريزى ما ملخصه . هذا الجبل مطل على القاهرة من شرقيها الشمالى ويعرف باليحموم . قال القضاعى: اليحاميم هى الجبال المتفرقة المطلة على القاهرة من جانبها الشرقى وجبابها ، وتنتهى هذه الجبال إلى بعض طرق الجب ، وقيل لها اليحاميم لاختلاف ألوانها ، واليحموم كلام العرب ، الأسود المظلم —

وروى المقريزى عن ابن عبد الظاهر أنه قال عند ذكر الجبل الأحمر أن القضاعى ذكر أن اليحموم هو الجبل المطل على القاهرة ، ولا أرى جبلا يطل على القاهرة غيره(٢) .

(١و٢) الخطط ج١ ص ١٩٨ تحت عنوان ذكر الجبل المقطم وص ٢٠١ وذكر الجبل الأحمر - وحسن المحاضرة ج١ ص ٦٧ .

جبل يشكر :

يقول المقريزى ماملخصه: «هذا الجبل فيما بين القاهرة ومصر - يعنى الفسطاط - عليه الجامع الطولونى .

قال القضاعى : جبل يشكر بن جديلة بن لخم ، وهو الذى عليه جامع ابن طولون . ويشكر بن جديلة قبيلة من قبائل العرب احتطت عند الفتح بهذا الجبل، فعرف بجبل يشكر لذلك .

وقال ابن عبد الظاهر : « وكان هذا الجبل يشرف على النيل ، وليس بينه وبين النيل شىء . وكان يشرف على البركتين ، أى بركة الفيل والبركة التى تعرف اليوم ببركة قارون » .

وعلى هذا الجبل كانت تنصب المجانيق التى تجرب قبل إرسالها إلى الثغور .

وقال المقريزى ما ملخصه : «ويجاوره جبل « الكبش » . وكان قديماً يشرف على النيل من غربيه ، ثم لما اختط المسلمون مدينة الفسطاط بعد فتح أرض مصر ، صار الكبش من جملة خطة الحمراء القصوى [1] .

آثار مصر :

أغرمت بعض الأمم - فى القديم والحديث - بصنع الآثار ، كالأبنية والتماثيل والأدوات والحيوانات والمناظر المختلفة ، التى ترمز إلى معان خاصة ، لها فى حياة الأمة شأن وأثر ، فى العقيدة أو المدنية أو الصناعة أو نحو ذلك .

وتعيش هذه الآثار مع الأمم ، وتتتابع عليها الأيام ، وتحول عليها السنون ، وهى قائمة فى مكانها لا تريم ولا تتحرك . وتعتاد العين رؤيتها فى مكانها الثابت ، وتكتسب بمرور الزمن قداسة وإعجاباً ، قد لا يكونان لها حين بنائها وصنعها . بل اكتسبتهما من الدوام والاستمرار والإلف ، والصبر على مقاومة عوادى التلف .

---

(١) الخطط ج ١ ص ٢٠١ تحت عنوان « جبل يشكر » — وحسن المحاضرة ج ١ ص ٦٩

وتصبح بهذا الوضع كأنها جزء لا يتجزأ من طبيعة البلاد ، مع أنها فى أصل بنائها دليل على دين أو سياسة أو حضارة .

وكثيراً ما تصبح مصدر وحى وإلهام لأدباء الشعب وشعرائه ، فيحوكون من حولها الأساطير ، ويستوحون منها الحكم والأمثال .

والأهرام وأبو الهول من أشهر آثار مصر الخالدة . وهما من صنع الفراعنة القدماء . وهما دليل حضارة مصرية واسعة ، وفن دقيق ، وحياة روحية عميقة .

وقد رسخا على وجه الأرض فى صحراء مصر ، آلاف السنين ، لم ينل منهما القدم ، ولم تمسهما يد البلى ، بل قاما ومثلا مثول الجبال ، حتى أصبحا قطعتين غاليتين من طبيعة هذه البلاد .

وكانا موضع تفكير المصريين فى عصر المماليك[1] - شأنهما فى كل عصر - وإليك شيئاً من ذلك :

الأهرام :

يقول المقريزى : « اعلم أن الأهرام كانت بأرض مصر كثيرة جداً . منها بناحية بوصير شىء كثير ، بعضها كبار وبعضها صغار ، وبعضها طين ولبن ، وأكثرها حجر . وبعضها مدرج ، وأكثرهما مخروط أملس .

وقد كان منها بالجيزة تجاه مدينة مصر ، عدة كثيرة كلها صغار ، هدمت فى أيام السلطان صلاح الدين يوسف بن أيوب ، على يد قراقوش . وبنى بها قلعة الجبل ، والسور المحيط بالقاهرة ومصر والقناطر التى بالجيزة .

وأعظم الأهرام ، الثلاثة التى هى اليوم قائمة تجاه مصر . وقد اختلف الناس فى وقت بنائها ، واسم بانيها ، والسبب فى بنائها . وقالوا فى ذلك أقوالا متباينة أكثرها غير صحيح » . . . الخ[2] .

---

(١) راجع حسن المحاضرة للجلال السيوطى ج ١ تحت عنوان « عجائب مصر القديمة » و « ذكر الأهرام » ص ٣١ و ٣٣

(٢) الخطط المقريزية ج ١ ص ١٧٩ و ١٨٠

وقد أورد المقريزى بيانات وأخباراً كثيرة عن بناة الأهرام ، وأسباب بنائها وطريقته ، وعن أجزائها وأبعادها وأبوابها وحوائطها وممراتها ، إلى غير ذلك . وكلها مسائل تحتاج إلى مراجعة وتحقيق واسع .

ويقول شهاب الدين بن فضل الله العمرى ـ المتوفى عام ٧٤٨ هـ :

« وسن ذلك الأهرام بمصر ، وأجلها الهرمان بجيزة مصر ، وقد أكثر الناس القول فى سبب مابنيا له فقيل : هياكل للكواكب ، وقيل : قبور ومستودع مال وكتب ، وقيل : ملجأ من الطوفان ، وهو أبعد ما قيل فيهما ، لأنها ليست شبيهة بالمساكن . .

وأقربها إلى الصحة ـ والله أعلم ـ أنها إما هياكل كواكب ، وإما مواضع قبور . ولقد فتح أكبرها فى زمان المأمون حين قدم مصر ، فلم يظهر منه ما يدل على ماوضع له . وعلى ألسنة الناس أنه وجد ذهباً ، فوزنه وحسب مقدار ماأنفقه فوجده سـواء بسواء ، لا يزيد أحدهما على الآخر بشىء ، لعلمهم السابق أنه سينفق عليه مثل هذا المقدار . فوضع هذا المقدار بإزاء ما ينفق عليه . ووجدت هذا فى كثير من الكتب . فراجعت التواريخ الصحيحة والكتب المسكون إليها ، فلم أجد المأمون وجد به شيئاً ، ولا استفاد زائداً عما يعلم به الناس علماً .

وأدل الأدلة على أن أحدهما هيكل بعض الكواكب ، أن الصابئة كانت تأتى حقيقة تحج الواحد ، وتزور الآخر ، ولا تبلغ به مبلغ الأول فى التعظيم . والله أعلم بحقيقة أمرها وجلية أحوالها .

وهى أشكال لهبية ، كأن كل هرم لهبة سراج ، آخذة فى أسافلها على التربيع ، مسلوبة فى عمود الهواء ، آخذة فى الجو حتى إلى التثليث . ولولا استدارة سفل أبلوج السكر لشبهناها به وتحتمل أن يكون هذا الشكل موضوعاً لبعض الكواكب لمناسبة اقتضته .

ولقد أصعدت غير مرة ، ماراً على الأهرام بجميع بلاد الجيزة ، ورأيت منها ما دثر بعضه ، وما دثر كله . فإذا هى مصفحة البناء ، شيئاً على شىء ، لا فسحة

فى أوساطها ، كما تكون مساحات الدور بين الجدران . وإنما هى بناء ملتصق على بناء ، بعضها فوق بعض .

ووجدت بعض الأهرام مبنية بالطوب . وهذا أكبر دليل على أنها لم تتخذ ملجأ من الطوفان » .

وقال : « على أن الهدم قد شرع فى قلع هذه الآثار ، ونقل أحجارها إلى الأبنية والمساكن ، نبه لها الدهر طرفا غافياً وقلباً غافلا . فأصبحت هاوية الأركان تابعة السكان ، فلقد صدق عليها المتنبى قوله :

أين الذى الهرمان من بنيانه من قومه مايومه ما المصرع
تتخلف الآثار عن سكانها حيناً ويدركها الفناء فتتبع

وأن فيها لعبرة للمعتبر ، وتذكرة للمدكر . وآية لمن أناب . وتبصرة فى الدنيا لمن يلد للفناء ويعمر للخراب » (١) .

أبو الهول :

يقول شهاب الدين بن فضل الله :

« ومن ذلك أبو الهول . وهو اسم لصنم يقارب الهرم الكبير . فى وهدة منخفضة تقع دونه شرقاً بغرب . لا يبين من فوق سطح الأرض إلا رأس ذلك الصنم وعنقه ، أشبه شىء برأس راهب حبشى عليه غفارية . على وجهه صباغ أحمر إلى حوة . لم يحل على طول الأزمان وقديم الآباد . وهو كبير ، لو كان شاخصاً كله لما قصر عن عشرين ذراعاً طوله ، فى غاية مناسبة التخطيط .

ويقال إنه طلسم يمنع الرمل عن المزدرع . وزاد تحسين هذا القول إليهم وتصويره لهم ، أنه على نهاية الرمل إلى جهة المزروع .

---

(١) مسالك الأبصار لابن فضل الله العمرى ج ١ ص ٢٣٥ .

وفى أبى الهول يقول أبو منصور ظافر الحداد :

تأمل هيئة الهرمين وانظر وبينهما أبو الهول العجيب
كعاريتين على رحيل بمحبوبين بينهما رقيب
وفيض البحر عندهما دموع وصوت الريح بينهما نحيب
وظاهر سجن يوسف مثل صب تخلف وهو محزون كئيب (١)

ويقول المقريزى - ناقلا عن القضاعى وابن المتوج أيضاً — ما ملخصه : « هذا الصنم بين الهرمين عرف أولا ببلهيب . وتقول أهل مصر اليوم أبو الهول. وهو صنم الهرمين ، كبير من الحجارة لا يظهر منه سوى رأسه فقط . ويقال إنه طلسم ، لئلا يغلب على إبليز الجيزة . وجثته مدفونة تحت الأرض . ويقتضى القياس بالنسبة إلى رأسه أن يكون طوله سبعين ذراعاً فصاعدا . وفى وجهه حمرة ودهان يلمع ، عليه رونق الطراوة . وهو حسن الصورة مقبولها ، عليه مسحة بهاء وجمال كأنه يضحك تبسما .

ويقابله فى بر مصر قريباً من دار الملك صنم عظيم الخلقة والهيئة متناسب الأعضاء ، كما وصف ، وفى حجره مولود وعلى رأسه ماجور . الجميع من صوان ماتع . يزعم الناس أنه امرأة وأنها سرية أبى الهول المذكور . وهى بدرب منسوب إليها .

ويقال إن أبا الهول طلسم الرمل يمنعه عن النيل ، وأن السرية طلسم الماء يمنعه عن مصر . وقد نزل فى سنة ٧١١هـ أمير يعرف « ببلاط » فى نفر من الحجاريين والقطاعين ، وكسروا الصنم المعروف بالسرية ، وقطعوه أعتاباً وقواعد ، ظنا أن يكون تحته مال ، فلم يوجد سوى أعتاب من حجر عظيمة » ... الخ .

---

(١) المصدر نفسه ص ٢٣٨ - وسجن يوسف شمال الأهرام على بعد منه فى ذيل خرجة من جبل فى طرف الحاجر - قاله صاحب المسالك .

وقال ما نصه : « وفى زمننا كان شخص يعرف بالشيخ محمد صائم الدهر من جملة صوفية الخانقاه الصلاحية سعيد السعداء ، قام فى نحو من سنة ٧٨٠ هـ لتغيير أشياء من المنكرات . وسار إلى الأهرام وشوه وجه أبى الهول وشعثه. فهو على ذلك حتى اليوم . ومن حينئذ غلب الرمل على أراض كثيرة من الجيزة . وأهل تلك النواحى يرون أن سبب غلبة الرمل على الأراضى فساد وجه أبى الهول . ولله عاقبة الأمور[1] » .

وتنتهى بذلك جولتنا حول بلاد مصر وبيئتها الطبيعية وأهم أجزاء هذه البيئة ، ومشاهدها ومناظرها . وهى مشاهد ومناظر تشعرك بالجلال وتوحى إليك بالقداسة ، وتحفزك إلى المحبة، لما فيها من هدوء ووداعة، وما تتسم به من نقاء وطهر ، وما تتصف به من حسن وفتنة وجمال . وما تتعطف به عليك من سماحة وكرم ، فى غير من . كما فهمها وتصورها أبناؤها حينذاك ، مع خيال وأسطورية .

وهى تغاير البيئة البشرية التى يحتدم فيها نزاع البشر وقتالهم حول المنفعة وتختلف فيها القيم ، وتصنع فيها التاريخ عوامل كثيرة لا حد لإحصائها ، أهمها نوازع الغرائز والأخلاق .

هذه البيئة السياسية — هى التى ننتقل إليها فى الفصل التالى ، فنحدثك عن طرف منها .

---

(١) خطط المقريزى ج ١ ص ١٩٧ - راجع أيضاً حسن المحاضرة ج ١ ص ٣١ تحت عنوان « ذكر عجائب مصر قديمة » .

الفصل الثانى

فى

وصف البيئة السياسية (١)

١ — قيام الدولة

وليت دولة المماليك حكم البلاد المصرية وما يتبعها من الأمصار ، فى المدة الواقعة بين سنتى ٦٤٨ هـ — ٩٢٣ هـ . وقسمها بعض المؤرخين دولتين هما : البحرية من سنة ٦٤٨ هـ إلى ٧٨٤ هـ ، والجركسية من سنة ٧٨٤ هـ إلى ٩٢٣ هـ .

وبدأ نشوء المماليك البحرية ، لما تربع على عرش مصر ، الصالح نجم الدين الأيوبى عام ٦٣٦ هـ ، واشترى لنفسه نحو ألف مملوك ، وبنى لهم قلعة فى جزيرة الروضة بالقرب من المقياس وسماهم « البحرية » .

وعنى بتربيتهم تربية عسكرية ، ثم اتخذ منهم جنداً وحرساً . وقد حفظوا له اليد ، وذكروا له الصنيع ، وكانوا عند حسن ظنه ، إذ دافعوا عن ملكه وبلاده دفاع المستبسل المستميت .

ولما غزا الصليبيون البلاد المصرية عام ٦٤٧ هـ ، ونزلوا فى دمياط وخربوها ، وساروا منها مع النيل إلى الجنوب ، التقى بهم جنود الصالح هؤلاء يقودهم أمراؤهم ، وهم فى مقدمة جيش كبير عاونه أهل البلاد معاونة كبرى . فهزموهم فى موقعتى

---

(١) أوجزنا الحديث عن البيئة السياسية فى هذا الفصل اعتماداً على مافصلناه عنها فى المجلدين الأول والثانى من هذه الموسوعة .

« المنصورة » و « فارسكور » ، وحملوهم خسائر فادحة ، وأسروا أحد كبار قوادهم وهو « لويس التاسع » ملك فرنسا ، وسجنوه فى دار القاضى فخر الدين بن لقمان ، بالمنصورة ، كما هو مشهور .

ومات الصالح على فراشه قبيل المعركة . فكتم خبر موته ، ودبرت زوجته « شجرة الدر » الأمر ، حتى عاد ابنه المعظم « توران شاه » الذى كان مقيما فى حصن كيفا .

وعاد « توران شاه » وأتم المعركة . ثم وقع بينه وبين زوجة أبيه « شجرة الدر » وأمراء البحرية ، نزاع أدى إلى قتله ، واختيار « شجرة الدر » سلطانة على البلاد . فلبثت قليلا ثم تنازلت عن السلطنة لأحد كبار أمراء البحرية وهو « عز الدين بن أيبك » الجاشنكير ، بعد مشورة الأمراء . فكان أول ملوك البحرية . وما عتم أن تزوج شجرة الدر . وكان ذلك فى ربيع الآخر عام ٦٤٨هـ .

وتوالى ملوك البحرية تباعا ، فكان من أبرزهم :

١ - المظفر قطز : وقد استطاع أن يوقع بالتتار فى موقعتين حاسمتين هما « عين جالوت » و « بيسان » . وقد حسم بهما شر التتار عن مصر بصفة نهائية .

٢ - الظاهر بيبرس : ويعتبر المؤسس الحقيقى لعظمة الدوله البحرية . وكان من قبل من مماليك الصالح الأيوبى . وقد قاد جيوش قطز فى حربه مع التتار . ووعده قطز بولاية حلب ، ثم لم يبر بوعده ، فتآمر بيبرس على قتله ، وأعلنه أتباعه سلطانا على مصر مكان قطز .

وكان قوى الشكيمة حاسم الرأى غيوراً على الإسلام ، بطلا فارساً مغواراً . فأكسب الملك هيبة ورهبة . وقد تمت فى عهده أمور على جانب كبير من الأهمية ، منها إخضاع بلاد الشام والقضاء على الخارجين فيها . ودحر التتار وإذلال الفرنجة وهزيمة السلاجقة . وقد غزا وفتح جملة بلاد على طول طريقه الساحلى وغيره ،

إلى بلاد الأكراد . وفتح بلاد سيس وعبر الفرات بجيوله إلى ألبيرة طلباً للتتار، وغزا بلاد السودان واحتاز جزءاً منها . وهكذا امتدت سلطنة مصر فى زمانه امتداداً كبيراً .

وقد أقام بمصر خلافة عباسية ثانية ، بقيت إلى آخر العصر ، وعدد قضاة الشرع ، فنصب من كل مذهب من المذاهب السنية الأربعة قاضى قضاة ـ هذا عدا ما أنشأه من العمائر والمرافق النافعة .

٣ — المنصور قلاوون ، ويعتبر من أعظم ملوك الدولة البحرية ، وقد بنى « البيمارستان » المنصورى المشهور ، وغزا جملة غزوات موفقة ، ومن فتوحاته ، فتح طرابلس وحصن المرقب وحمص .

٤ — الأشرف خليل بن قلاوون ، وقد غزا وفتح جملة بلاد وحصون . ومنها مدينة عكا آخر قلاع الصليبيين فى الشرق ، ومنها قلعة الروم .

٥ — الناصر محمد بن قلاوون ، وقد حكم البلاد نحو ٤٢ عاما ، وقد استقرت مصر فى أيامه ، وهابتها الملوك وأهدوا إلى سلطانها ، ودانت له بلاد الشام ، وفر التتار من بأسه . وبعد أن هزموه فى موقعة « سلمية » كر عليهم فى موقعة « مرج الصفر » كرة صادقة هزمهم بها هزيمة منكرة .

وامتلأ عصره برجال العلم والأدب . وقسم الإقطاعات تقسيما جديداً عرف « بالروك الناصرى » . وحفر الخليج الناصرى عام ٧٢٥ هـ .

وانتقل الملك عام ٧٨٤ هـ إلى الظاهر برقوق ، وكان جركسيا . وبه بدأت الدولة الثانية وهى الدولة الجركسية ، وعاشت إلى الفتح العثمانى عام ٩٢٣ هـ .

واتبعت سياسة الدولة السابقة ، فى المحافظة على استقلال البلاد ، وصيانة ممتلكات السلطة المصرية ومكافحة أعدائها فى الخارج من التتار والصليبيين والسلاجقة ، ثم العثمانيين .

وقد كانت الفتن الداخلية ومؤامرات العربان من أهم أسباب القلق واضطراب الأمن فى داخل البلاد ، وذلك فى الدولة البحرية . فزاد أمرها فى الدولة الجركسية زيادة كبيرة . فضلا عن اندلاع الفتن والفرقة والطائفية بين جماعات المماليك — وهم جند الدولة — وقد أدى ذلك فى النهاية إلى اضطراب الدولة وضعفها ثم القضاء عليها .

وأهم ملوك الجراكسة :

١ — الظاهر برقوق : كان قاسياً فاتكا وقد عمل على رد جيوش « تيمورلنك » التترى عن حلب . وأعدم كثيراً من منافسيه فى الملك .

٢ — المؤيد شيخ المحمودى : وهو الذى بنى جامعه المشهور بالقاهرة بجوار بابى زويلة .

٣ — الأشرف قايتباى : ولعله أعظم ملوك الجراكسة . حكم زهاء ثلاثين عاماً . وحفظ السلطنة سليمة بالرغم من كثرة الخارجين عليه . وقد غزا بلاد العثمانيين وأدبهم واحتل منهم مدينة « قيسارية » ، وأدب العربان الثائرين ضده . وفلل سيوف الفرنجة . فضلا عن منشآته النافعة التى منها برجه بالإسكندرية . وكان مشغوفاً بفرض الضرائب وجمع الأتاوات .

٤ — الأشرف قانصوه الغورى : الذى تولى السلطنة فى أحرج أوقاتها ، وقد تألبت عليها أعداؤها فى الخارج ولاسيما العثمانيون ، وتذاءبت عليها الفتن فى الداخل ولاسيما من الجند . وقد لقى العثمانيين فى معركة[1] « مرج دابق » عام ٩٢٢ هـ وقضى عليه فيها .

٥ — الأشرف طومان باى : الذى ولى السلطنة بعد الغورى . وكان العثمانيون زاحفين على الشام ومصر . وقد لقيهم مستبسلا مستميتاً فى الدفاع عن البلاد ، فى معركة

---

(١) مرج دابق شمال حلب .

« الريدانية » وغيرها . ولكنهم هزموه أخيراً وشنقوه على باب زويلة(١) .

---

٢ ـ أجناس المماليك

وقد كان وجود الرقيق ظاهرة اجتماعية ، انتشرت فى عصور مختلفة وفى أمم متعددة . وذاعت بين الأمم الإسلامية فى عصورها الوسطى . وعاون على ذيوعها كثرة الحروب وتفاقم الفتن فى غرب آسيا ووسطها . فكثر يتم الأطفال وفرار الجوارى ، وهانت فلذ الأكباد فعرضت فى الأسواق ، وراجت أعمال النخاسين .

وكثر استخدام الرقيق التركى والجركسى والمغولى والفارسى والكردى وغيره . وانتشر استخدام الرقيق فى مصر منذ ولاية أحمد بن طولون . وأصبحت مصر والشام سوقاً فسيحة لبيعه ، وأقبل سلاطينها وأمراؤها على شرائه ، وغالى بعضهم فى ذلك ورفع أثمانه . ونظراً لما كان ينتظره من المستقبل الباهر ولما كان يغدق عليه من عناية وعزوجاه ، ولما كان يرتقب له من إمارة أو سلطنة ، أقبلت الآباء تعطى أبناءها للنخاسين طواعية واختياراً ، ليبيعوهم فى مصر .

وقد حرص سلاطين المماليك وأمراؤهم ـ فى الدولتين البحرية والجركسية ـ على الاستكثار من الرقيق واقتنائه . واعتاد السلاطين شراء المماليك الجدد وتربيتهم تربية عسكرية واتخاذهم جنداً للدولة ، فكان منهم جنودها السلطانية . وقد يدفع الحظ بأحدهم وتؤهله شجاعته ومهارته وذكاؤه إلى العتق ثم إلى رتب الإمارة فالسلطنة(٢) .

---

(١) راجع فى تاريخ دولتى المماليك : المجلد الأول من هذه الموسوعة . وبدائع ابن إياس وسلوك المقريزى . والنجوم الزاهرة لابن تغرى بردى ، وتاريخ دولة المماليك فى مصر للسير وليم موير .

(٢) راجع ما كتبناه عن هذا الموضوع فى المجلد الأول .

وسلاطين الدولة البحرية ينسبون فى جملتهم إلى الجنس التركى . وسلاطين الدولة الجركسية ينسبون فى جملتهم إلى الجنس الجركسى . ولكن بينهم جميعاً سلاطين ليسوا من الجنسين المذكورين . فقطز خوارزمى ، وكتبغا المنصورى من التتار . ولاجين وخشقدم روميان .

والأتراك والجراكسة قبائل متفرقة . فالمنصور قلاوون ـ مثلاً ـ من القبجاق ، من قبيلة برج أغلى . وهم فرع من الأتراك تنقلوا حتى استقروا بحوض نهر « إثل » ـ الفلجا ـ جنوب روسيا الحالية(١) .

وقال المقريزى عن الجراكسة : « إنهم من اللاض والروس . وهم أهل مدائن عامرة وجبال ذات أشجار ، ولهم أغنام وزروع . وكلهم فى مملكة صاحب مدينة « سراى » قاعدة خوارزم . وملوك هذه الطوائف لملك «سراى» كالرعية . فإن واروه وهادوه كف عنهم . وإن لاغزاهم وحصرهم . وكم مرة قتلت عساكره منهم خلائق ، وسبت نساءهم وأولادهم وجلبتهم رقيقا إلى الأقطار . فأكثر المنصور قلاوون من شرائهم ، وجعلهم وطائفة اللاض جميعاً فى أبراج القلعة وسماهم « البرجية »(٢) .

وقال المقريزى فى موضوع آخر : « وبلغت عدة المماليك السلطانية فى أيام الملك المنصور قلاوون ستة آلاف وسبعمائة . فأراد ابنه الأشرف خليل ، تكميل عدتها عشرة آلاف مملوك . وجعلهم طوائف ، فأفرد طائفتى الأرمن والجركس وسماها « البرجية » لأنه أسكنها فى أبراج بالقلعة . . . . . وأفرد جنس الخطا والقبجاق وأنزلهم بقاعة عرفت بالذهبية والزمردية » .

---

(١) راجع تراجم سلاطينهم وأمرائهم فى كتب الأعلام كالدرر والمنهل والضوء . فضلا عما كتب عنهم فى السلوك والنجوم والبدائع . وراجع أيضاً هامش السلوك ج ١ ص ٦٦٣ — وصبح الأعشى ج ٤ ص ٤٥١ و ٤٥٦ و ٤٦٧ و ٤٦٨ .

(٢) راجع خطط المقريزى ج ٣ تحت عنوان « ذكر دولة المماليك الجراكسة » . وصبح الأعشى ج ٤ ص ٤٦٥ — وهامش السلوك فى آخر ترجمة قلاوون .

ثم قال : « ثم شغف الملك الناصر محمد بن قلاوون بجلب المماليك من بلاد أزبك وبلاد توربز وبلاد الروم وبغداد . وبعث فى طلبهم وبذل الرغائب للتجار فى حملهم إليه ودفع فيهم الأموال العظيمة(١) » .

وعنى المنصور قلاوون بتنشئة المماليك تنشئة عسكرية دقيقة ، وعنى بطعامهم وشرابهم ولباسهم ومبيتهم وأسلحتهم إلى غير ذلك . واطردت العناية بهم والاستكثار من شرائهم فى عهد بنى قلاوون ، حتى بلغ عدد من اشتراه منهم الناصر بن قلاوون - على ما روى - نحو اثنى عشر ألف مملوك . وبلغ عدد جيوشه من هؤلاء المدربين نحو أربعة وعشرين ألفاً .

واقتدى كثير من الأمراء بسلاطينهم فى اقتناء المماليك ، واتخاذهم حرساً . وقد روى ابن حجر العسقلانى أن يلبغا الناصرى - الذى كان مملوكا للناصر حسن حفيد قلاوون ، ثم أعتقه ورقاه إلى الإمارة - استكثر من المماليك الجلبان وبالغ فى الإحسان إليهم والإكرام ، حتى صاروا يلبسون الطرز الذهبية العريضة ، ويركب معه منهم نحو ألف نفس . إذا وقعت الشمس عليهم تكاد من شدة لمعانها تخطف البصر . وبلغت عدة مماليكه ثلاثة آلاف . وكان يسكن الكبش بالقرب من قناطر السباع . فكان موكبه من أعظم المواكب(٢) .

---

٣ - طبقتا الأمة

وكانت الأمة المصرية فى العصر المملوكى تتألف من طبقتين متميزتين : الطبقة الحاكمة ، والطبقة المحكومة .

أما الطبقة الحاكمة فهى هؤلاء المماليك - من الأتراك أو الجراكسة - الذين

---

(١) خطط المقريزى ج ٣ تحت عنوان : الطباق بساحة الإيوان .

(٢) الدرر الكامنة ج ٣ رقم ١٢١٨ فى ترجمة يلبغا العمرى .

وصفناهم آنفاً ، وهم طبقة طارئة على البلاد توطنت فيها ، وتجددت عن طريق الشراء من الخارج ، طول العصر ، وكان منهم السلطان ، والأمراء ، وعامة الجند .

وأما الطبقة المحكومة ـ أعنى طبقة الشعب ـ فكان منها التجار وذوو الرفاهة والنعمة واليسار ، ومنها الباعة والسوقة والزراع والصناع والعمال ، ومنها طلاب العلم والفقهاء « المتعممون » . ـ وسنشير إلى ذلك فيما بعد أيضاً .

وهذه الطبقة هى عامة الشعب المصرى من الجنس العربى . ويمتزج بها كثير من العربان والأقباط ، ورواسب من اليهود والنصارى والروم والعجم والكرد والمغاربة ، وأوشاب من الترك والجركس والتتر .

ويختار السلطان عادة من بين الأمراء عن طريق الشورى أو القوة . وقد يجىء عن طريق الوراثة . ويقام له حفل عظيم يبايع فيه بالسلطة ، على نحو مابينا فيما سبق .

وهو بدوره يرقى الأمراء ويعين الموظفين ويدير حركة الدولة ، وتتركز فى يديه إدارتها .

وقد استأثر الأمراء بوظائف الدولة الرئيسية . واستعانوا فى القضاء برجال الدين من المتعممين . وفى الكتابة ونحوها برجال القلم من المتعممين أيضاً . فكانت وظائف القضاء والكتابة وقفاً على هؤلاء وهم من أبناء الشعب[1] .

واستأثرت كذلك بالجندية . وبملكية الأراضى الزراعية إذ قسمتها إقطاعات يفرقها السلطان بحسب مشيئته وفقاً لمراتب الأمراء والجند .

والطبقة المحكومة ليس لها من أمر الحكم شىء . فهى تفلح الأرض وتسقى الزرع وتدر اللبن وتجنى الثمر ، لأهله من أصحاب الإقطاعات . أو تتجر وتعمل ، ثم تؤدى الضرائب التى تفرض عليها . وليس لها أن يسلك أحد منها فى سلك

---

(١) تحدثنا عن وظائف الدولة ومناصب الأمراء وغيرهم فى المجلد الأول .

الجندية ، ولا أن يملك الأرض الزراعية أو يؤجرها من السلطان . وإن كان قد سمح لأفرادها بأن يتعلموا فى المساجد(١) ، وأن يملكوا الدور . وأن يؤجروها، وأن يزاولوا البيع والشراء . وأن يحترفوا ما شاءوا من الحرف ...

---

٤ - موقف الدولة بين مسلمى العالم

وفى الوقت الذى سيطر فيه هؤلاء المماليك على مصر ، وحكموها هى ومايتبعها بقوة السلاح والفروسية . عاصرتهم أمم إسلامية عدة ، تقلبت بها الأحوال واختلفت صروف الزمان .

وكان التتار قد قضوا على الخلافة العباسية البغدادية نهائيا منذ عام ٦٥٦ هـ ، وأخذوا يحكمون العراق وما والاه شمالا وشرقا . وأخذوا يركزون هجماتهم على بلاد السلطنة المصرية فى الديار الشامية والحلبية . وبذلك دب النزاع بينهم وبين سلاطين مصر ، وظلت الحروب والوقائع سجالا بين الفريقين زمنا طويلا .

وعانت الدول الإسلامية فى أواسط آسيا من هؤلاء التتار ما عانت ، وزالت دول وجدت أخرى . وكان التتار وثنيين من قبل ، فما عتموا بعد سنين أن أسلم بعضهم وتنصر بعض . وانقسموا فيما بينهم دويلات ، تتابعت وتنازعت .

ثم كانت دول الإسلام فى المغرب قد اضطرب حبلها وانتكث فتلها ، وتوالت محنها . وكانت بلاد الأندلس قد وقع بعضها غنيمة فى يد البربر من ناحية، وضغط الفرنجة على جوانبها من ناحية أخرى ، حتى صار بأسها بينها شديدا ، وتفاقمت بين أهلها العداوات حتى تنازعوا فاقتتلوا .

وهكذا ترى ما كان يعانيه العالم الإسلامى ودوله من الشقاء . وتطلع سلاطين المماليك حينئذ ، فرأوا أن الله سبحانه وتعالى ، قد وهب لهم من مصر ملكا كبيرا

---

(١) تحدثنا عن الحركة العلمية والتعليمية بتفصيل فى المجلدين الثالث والرابع من هذه الموسوعه .

وأصبحوا به أقوى ملوك المسلمين على الأرض . ورأوا أن الأقدار قد ناطت بهم أمانتين كبيرتين ، عليهم أن ينهضوا بهما . وهما مكافحة التتار الطامعين فى الوطن العربى ، المقبلين على الفتك بالمسلمين والعرب . ومكافحة الصليبيين الذين كانوا إلى ذلك الحين ، لا تزال أطماعهم تراودهم لاحتلال أجزاء من الوطن العربى أيضا .

وبجوار ذلك كان عليهم النهوض بإحياء علوم الدين ، حتى يبعثوا منها ما طمست معالمه ، ويجددوا منه ما بلى ، ليعوضوا العالم الإسلامى عما فقده من أسفار العلم وذخائر الإسلام شرقا وغربا .

ورأوا أنهم بنهوضهم بذلك كله يدعمون بناء دولتهم ، ويرفعون صرح مملكتهم ، ويحلون من قلوب المسلمين والعرب أرفع محل وأفضل منزل .

وقد رأينا كيف أقام الظاهر بيبرس خلافة عباسية قاهرية بمصر ، وكسب بذلك لها كسبا أدبيا عظيما ، ولفت قلوب المسلمين فى مشارق الأرض ومغاربها إليها ، وربطها بها . فكانت القاهرة — بلا مبالغة — عاصمتهم الروحية .

وعمل سلاطين المماليك — فى جملة أمرهم — على دوام الصلة بينهم وبين البلاد العربية والإسلامية ، بعامة ، واحتفظوا — ما استطاعوا — بالديار الحلبية والشامية والحجازية ، منضمة إلى البلاد المصرية تحت راية سلطنة واحدة ، بل وأضافوا أحيانا إليها أجزاء من شرق ليبيا وشمال السودان وضفاف الفرات وشمال حلب .

---

٥ — معالم السياسة الخارجية

مما سبق تتراءى لك معالم السياسة الخارجية للدولة المملوكية . وتتلخص فى محاربة أعداء مصر والطامعين فى بلاد سلطنتها . وأبرزهم التتار والفرنجة والصليبيون وبعض أمراء التركمان ، ثم العثمانيون الذين أخذ نجمهم فى الصعود

رويداً رويدا ، حتى أخذوا يهددون الدولة المصرية بصفة جادة ، منذ عهد الأشرف قايتباى .

التتار :

فلما فرغ هولاكو التترى من فتح العراق أرسل يهدد ملك دمشق الناصر — من بقايا الأيوبيين — ويراوده عل تسليم دمشق . وفى إحدى رسائله إليه يقول :

أين المفر ولا مفر لهـــا رب ولنا البسيطان الثرى والماء ...[١]

وأخذ فى الزحف فعلا على مدن الشام وحلب ، فأسقطها مدينة بعد أخرى، ودخل فى طاعته كثير من حكامها ، وفر آخرون من وجهه .

فشعر سلطان مصر حينئذ — المظفر قطز — بخطر الغزو التترى ، يقترب من مصر ويهدد سلطنتها . وبخاصة عندما وافته الأخبار بأن طلائع التتار قد بلغت ظواهر دمشق ، وأنها أخذت فى النهب والسلب ، وفى القتل والأسر ، بدون روية وبغير وازع .

وتلقى قطز إنذارا من هولاكو ، وتهديدا مماثلا ، دعاه فيه إلى التسليم والطاعة. وقد أرسل هولاكو إنذاره مع أربعة من أمرائه ، وقد وصف بين سطوره مقدار سطوته وقوته ، ومبلغ بأسه وشدته ، وبسالة جنده وقادته ويقول :

« يا أهل مصر ، أنتم قوم ضعاف ، فصونوا دماءكم منى ، ولا تقاتلونى فتندموا »[٢] .

عندئذ جمع قطز أمراء دولته واستشارهم فى الأمر ، فأجمعوا على محاربة

---

(١) تاريخ الخلفاء للسيوطى ، فى ترجمة الخليفة المعتصم بالله . وسلوك المقريزى ج ١ ص ٤١٥ .

(٢) بدائع الزهور لابن إياس ج ١ ص ٩٦ — وسلوك المقريزى ج ١ ص ٤٢٧ وفيه نص الرسالة .

التتار ، وردهم عن بلاد مصر وسلطنتها . وجمعوا عدداً ضخما من الجنود بينهم كثيرون من عربان الشرقية والغربية ، وعاونهم أهل البلاد بالمال والرجال جهادا فى سبيل الله والوطن .

وفى أواخر شعبان عام ٦٥٨ هـ خرج قطز ، ومعه الأمير بيبرس فى جيش لجب عظيم ، وأمر بإعدام رسل هولاكو . وسار إلى الصالحية ففلسطين ، حتى بلغ بجنده « عين جالوت » . فالتقوا بجموع هولاكو وكتائبه الضخمة فانتصروا عليهم انتصارا رائعا ، وهزموهم هزيمة ساحقة ، وتتبعوا فلولهم إلى « بيسان » ، فكانت بين الفريقين هناك معركة طاحنة أثخن المصريون فيها فى رقاب التتار وأبادوهم وغنموا منهم غنائم لاتحصى .

وقد تجلت فى هاتين المعركتين شجاعة المماليك وأمرائهم وبخاصة الأمير بيبرس الذى تجلى بمواهبه العسكرية .

وقد استطاع بيبرس بعد قليل أن يتخلص من سلطانه قطز ويقفز مكانه على عرش السلطنة عام ٦٥٨ هـ نفسه . فاعتلت عليه البلاد الشام بعض الاعتلال إذ خرج بها عليه الأمير « سنجر الحلبى » وأعلن بنفسه سلطانا عليها ، فأدبه بيبرس هو ومن معه .

وعاود التتار الزحف على الشام فجرد بيبرس جيشا قويا استعدادا للقائهم . وجاءته الأنباء أن التتار بلغوا الفرات وملكوا « البيرة » ، فلقيهم على ضفافه فى موقعة عظيمة دارت رحاها عليهم ، فقتل منهم خلق كثير وأسر عدد كبير ، وذلك عام ٦٧٠ هـ .

وفى عام ٦٧٥ هـ عاودوا الزحف فخف إليهم بيبرس واتجه إلى حلب ولقيهم فى معركة حامية أثخن فيهم بها إثخانا شديدا وفر ملكهم « أبغا » ، فاتبعه بيبرس إلى « الأبلستين » والتقى به مرة أخرى ، فانتصر بيبرس بعد أن قتل من جنود التتار

نحو مائة ألف نفس ، وهرب « أبغا » إلى جهة زبيد ، وبيبرس يطارده . ثم عاد بيبرس إلى « قيسارية » وحاصرها حتى استسلم له أهلها .

واستطاع بيبرس فى معاركه هذه مع التتار — ومع الفرنجة كما سنرى — أن يفتح جملة من المـــدن والحصون كانت فى أيديهم أو يغزوها ، ومنها : ألبيرة ، والكرك ، وحمص ، وقيسارية ، وأرسوف وصفد ويافا ، والشقيف ، وأنطاكية ، وحصن الأكراد وصافيتا وبلاد سيس .

وسيرت المناشير بهذه الفتوح إلى شتى الأمصار ، مكتوبة بأساليبها الأدبية البارعة ، بأقلام النابهين من كتاب الإنشاء . ونظم فيها ، أو فى بعضها ، القصائد والمقطعات كما سيأتى بيانه . (١)

وآلت السلطنة بعد قليل إلى الملك المنصور قلاوون . وفى عام ٦٧٩ هـ أيام ولايته أغار التتار بزعامة الأمير « منكوتمر » أخى ملكم « أبغا » على مدينة حلب . فخف إليهم المنصور فى عدد ضخم من جنده على ظهور الخيل . فجلا التتار عن حلب فارين من وجهه قبل أن يلحق بهم . ثم عادوا إليها فأغذ المنصور السير إليهم فتلاقوا على « المرج الأصفر » فى أوائل عام ٦٨٠ هـ فانهزم التتار شر هزيمة بعد موقعة دامية . وأوقع فيهم المنصور السبى والغنم .

وفى عام ٦٩٩ هـ فى عهد السلطنة الثانية للناصر بن قلاوون أخذ التتار فى الزحف على مدينة حلب مرة ثانية بقيادة ملكم « غازان » بن أرغون بن أبغا بن هولاكو ، بجند يبلغ نحو مائتى ألف . فخرج الناصر محمد إلى لقائه بجند كثيف

---

(١) مما يذكر من مواقف بيبرس وحميته للاسلام والمسلمين ، أنه لما زحف هولاكو ملك التتار يريد حلب ، اضطرب ملكها الناصر الأيوبى وعظم خوف أمرائه وعسكره وكان لديه حـــينذاك بيبرس . فأخذ أحد الأمراء ، وهو زين الدين الحافظى يعظم شأن هولاكو ويشير بعـدم الدخول معه فى حرب ، رأن يداري بالدخول فى طاعته ، فصاح به الأمير بيبرس وضربه وسبه وقال له : « أنتم سبب هلاك المسلمين » . ثم فارقه إلى خيمته . وبعد قليل التحق بالمظفر قطز فى مصر وقاد معه الحملة ضد التتار فهزمهم فى عين جالوت — سلوك المقريزى ص ٤١٩ حوادث عام ٦٥٧ هـ .

وتلاقى الفريقان فى « سلمية » قرب بعلبك ، فدارت الدائرة على الناصر وجيشه ففر مهزوما إلى بعلبك ، ونهب التتار عتاده وذخيرته وأثخنوا فى جنده وفلوله .

وبهذا النصر تهيأ «غازان» لدخول دمشق وامتلاك الشام جملة . فتحول إليها. فخاف أهل دمشق وتشاوروا فى الأمر واستقر رأيهم على طلب الأمان . وأوفدوا إلى « غازان » وفدا لذلك ، فيه جمع من علماء الدين منهم بدر الدين بن جماعة ، وزين الدين الفارقى ، وتقى الدين بن تيمية الحرانى ونجم الدين بن الصرصرى وعز الدين بن تركى وعز الدين بن القلانسى وجلال الدين القزوينى وغيرهم . فأمنهم غازان .

ثم إن «غازان » حاصر قلعة دمشق مدة فلم يستطع الاستيلاء عليها لمناعتها ، فرحل عنها . وعهد بنيابة دمشق إلى الأمير « قفجق » أحد الأمراء المصريين ، وكان نائبا من قبل على الشام من قبل المنصور لاجين فخرج عنه وزين للتتار غزو الشام .

وعاد الناصر إلى القاهرة ولم يهدأ له بال فجهز جندا كثيفا زحف به على دمشق ، فأظهر له نائبها « قفجق » الخضوع . ثم عاد إلى القاهرة .

وما لبث حتى أعاد التتار الكرة على ضفاف الفرات عام ٧٠٠ هـ ، فخرج الناصر محمد بن قلاوون للقائهم . فلما بلغ غزة بلغه أن نائب حلب كسرهم كسرة حاسمة فروا على إثرها هاربين . فعاد إلى القاهرة .

وفى عام ٧٠٢ هـ تواترت الأخبار عن حلب أن أحد أمراء « غازان » وهو « قطلوشاه » قد دخلها فجأة بجملة من جنده واحتلوها . فبعث إليهم الناصر عدة من الجنود لإجلائهم ، ثم هب الناصر بجموع كثيفة ، فيها كثير من العربان ، وسار بهم إلى الشام . وكان « غازان » نفســـه قد قارب « حماة » . فالتقى الجمعان فى « مرج راهط » (١) فدارت بين الفريقين معركة هائلة انفرط على إثرها عقد التتار

---

(١) يسمى أيضا « مرج الصفر » أو « شقحب » راجع العبر لابن خلدون .

ودارت الدائرة على « غازان » وجنوده . كانت هذه المرقعة إحدى المواقع الحاسمة بين التتار ومصر

وعاود التتار عبثهم بجهات حلب . فهم الناصر بتأديبهم فتراجعوا خوفا منه ، وبعد قليل وقف تيار اعتدائهم نسبيا ، حتى صار إلى السلطنة المصرية « برقوق » .

وفى عهد السلطان الظاهر برقوق هذا ، ظهر ملك للتتار قوى الشكيمة قاسى القلب محب للتدمير شبيه بهولاكو ، وهو « تيمورلنك » . وقد جمع جموعا كثيفة من أتباعه ، وزحف بهم من قلب آسيا ناسلا إلى غربها ، فبلغ تبريز وخربها وقتل أهلها . ودهم بلاد التركمان والأكراد وزحف متجها إلى بغداد .

وبعد قليل كر تيمورلنك ثانيا على بلاد الأكراد ، ثم حاصر البصرة . كل هذا وبرقوق آخذ فى الاستعداد للقائه . ثم خرج بجملة جنده إلى الشام فبلغ دمشق فى ربيع الآخر عام ٧٩٦ هـ . ومنها رحـــل إلى حلب . فعلم أن جنود « تيمورلنك » قد بلغت إلى « ألبيرة » على الضفة اليسرى لنهر الفرات ، فعبره برقوق بجنود مصر ليلا — وقيل إنهم كانوا ينفخون القرب ويجعلونها تحت بطون الخيل فيعبرون بها إلى الضفة اليسرى — . فأوقعوا بجنود التتار إيقاعا جزئيا وغنموا منهم أشياء كثيرة . ولكنهم لم يلتقوا فى معركة حاسمة . ورحل « تيمورلنك » بلا منازلة . فعاد برقوق إلى مصر .

وآلت السلطة بعد برقوق إلى ابنه النـاصر فرج عام ٨٠١ هـ . وفى عهده اعتدى جند « تيمورلنك » على بغداد . فاجتمع لصده صاحبها القان « أحمد بن أويس » ومعه « قرايوسف » أمير التركمان . وكسروا الجند كسرة بالغة وذلك عام ٨٠٢ هـ . فلما انكسروا قصدوا مدينة « ملطية » وكانوا نحو سبعة آلاف نفس . ثم بعثوا إلى نائب حلب يطلبون إليه أن يخلى لهم مكانا لنزولهم . فهب نائب حلب ومعه نائب حماة بجنودهما ودارت بين العسكرين دائرة الحرب فانهزم النائبان هزيمة منكرة

وسمع سلطان مصر الناصر فرج بأنباء هذه المعارك ، فرسم لنائب الشام وصفد وطرابلس بأن يجمعوا ما استطاعوا من الجند ويمموا شطر حلب ويقيموا بها .

وفى أوائل عام ٨٠٣ هـ بلغ السلطان أن جنود تيمورلنك بلغوا مدينة « سيواس » وقتلوا أهلها ودفنوا بعضهم أحياء وأحرقوا البعض الآخر . وأن ملك بنى عثمان والقان أحمد بن أويس وقرا يوسف توجهوا إلى مدينة « برصا » هاربين من وجهة التتار .

ثم توالت الأنباء بأن تيمورلنك امتلك مدينة « عينتاب » وغيرها ، وأنه اقترب من حلب . ثم أرسل رسله إلى نائب حلب ، فضرب النائب أعناقهم وأخذ يستعد للقاء التتار ، وحصن مدينته بالمدافع والمكاحل والجنود . ولكن تيمورلنك استطاع أن يدهمه هو ومدينته ، وبطش به وبأهلها بطشا شديداً ، حتى كانت القتلى أكواما مكدسة فى شوارع المدينة . فطلب نائب حلب منه الأمان ، فأمنهم تيمورلنك وصارت المدينة وقلعتها فى يديه .

وسرى الألم والحزن فى نفوس المصريين لما أصاب حلب وأهلها . وأخذ السلطان فرج فى الاستعداد للقتال . ثم خرج بجند كثيف إلى غزة فدمشق . والتقى بالتتار فهزم طائفة منهم هزيمة منكرة فولوا الأدبار ، ثم وقع الخلف فى صفوف أمراء السلطان فعاد بهم إلى مصر .

وكان ذلك مشجعا للتتار . فزحفوا ثانية على دمشق ووقعت بينهم وبين أهلها معارك عدة ، ثم أرسل إليهم « تيمورلنك » للتفاهم معه . فذهب إليه القاضى « تقى الدين بن مفلح » الحنبلى ، ومعه خمسة من أعيان المدينة . وبعد لأى أمن التتار المدنية ، ففرح أهلها وفتحوا أبوابها لهم . وبذلك سقطت دمشق فى يد تيمورلنك . وما عتم أن فرض عليها الضرائب الباهظة وجباها له القاضى ابن مفلح . وجمع له ما لهم ودوابهم . ثم إنها لم تقنعه ، واعتذر له ابن مفلح ، فلم يقبل ووضعه فى القيد

هو وأعوانه . . وقسم تيمورلنك المدينة بين أعوانه فنزلوا بأنفسهم إلى نواحيها فجبوا الضرائب وجمعوا المال والدواب ، وقتلوا وهتكوا وعذبوا ما شاء لهم هواهم ، وأذاقوا المدينة بذلك سوء النكال . ثم أمر تيمورلنك بإحراق المدينة فأحرقت وأصبحت أطلالا بالية . وهذا جزاء الخوف والاستسلام والاختلاف . . .

واستمر ذلك نحو ثمانين يوما . ثم طلب تيمورلنك إلى السلطان فرج إطلاق سراح أحد أمرائه ـ وكان مأسوراً لديه منذ أيام برقوق ـ وهو «إطلمش» ، وكان من أقاربه . واعتذر له تيمورلنك عن إساءاته فأطلقه الناصر فرج على أن يطلق تيمورلنك ما عنده من الأسرى ويرحل عن بلاد الشام . فأطلقهم ورحل جملة إلى بلاد الشام .

حينئذ أرسل الناصر فرج الأمير « نوروز الحافظى » نائبا من قبله على الشام ليصلح أحوالها ويدبر أمورها ، ويعيد إليها الأمن والرخاء .

ومن لطف الله بالشام وبمصر أن هلك تيمورلنك ومات فى عام ٨٠٤ هـ — وقيل عام ٨٠٧هـ — (١) بعد أن ملك من أواسط آسيا إلى حدود الشام .

وهدأت فتن التتار بعد ذلك وركدت ريحها نسبيا ، بعد أن لبثت زهاء قرنين وهى شجا فى حلق مصر والشام ، وخطرا ماثلا على سلطنة المماليك .

الصليبيون :

أما الصليبيون فقد كانوا شغلا شاغلا لسلاطين مصر فى هذه الحقبة ، كما كان التتار سواء بسواء . وربما كانوا أكثر شغلا لبالهم منهم ، ذلك لأنهم مسيحيون وظلوا على مسيحيتهم ، أما التتار فقد كانوا وثنيين ثم أسلموا ، أو أسلم كثير منهم ، وتفرقوا وكونوا دولا إسلامية .

والصليبيون أفاقون طامعون جملة فى الاستيلاء على بلاد العرب والمسلمين

---

(١) راجع ابن إياس حوادث عام ٨٠٤ هـ — وعجائب المقدور لابن عربشاه .

منذ أمد ، وما كانت الحروب التى وقعت بينهم وبين جيوش مصر فى العهد المملوكى إلا امتدادا لتلك الحروب الصليبية التى اشتهرت فى تلك العصور الوسطى مبتدئة فى عهد الفاطميين فالأيوبيين ، ثم امتدت فى خلال العصر المملوكى (١)

وقد وفدوا إلى هذه البلاد من أنحاء أوربا وبينهم أجناس مختلفة ، يقودهم بعض المغامرين من الملوك والقواد والرهبان من الإنجليز والفرنسيين وغيرهم ، يلبسون لباس الدين ويسترون أطماعهم تحت مسوحه .

وكانوا قد أسسوا لهم مستعمرات ، وملكوا مدناً على سواحل البحر الأبيض ببلاد الشام وحلب ، صارت مباءة الأوربيين . وقد جهد سلاطين مصر فى استردادها وإجلائهم عنها ، فكانت الحرب بينهما سجالا .

ومن أشهر من قاومهم من سلاطين المماليك الظاهر بيبرس ، فقد حاربهم واسترد منهم كثيراً من المدن التى انتزعوها فيما سلف أو أسسوها مستعمرات لهم . ومن بينها صفد وأنطاكية وقيسارية وأرسوف وطبرية ويافا والشقيف وبغراس والقصير وحصن الأكراد والقرين وحصن عكا وصافيتا والمرقبة وحلب وبانياس وطرسوس . وكان اشتغال بيبرس بمحاربتهم واقعاً على وجه التقريب ما بين سنتى ٦٦٤ هـ ، ٦٧٥ هـ (٢) .

ولما ولى الملك المنصور قلاوون أمر السلطنة فتح مدينتى المرقب وجبلة وحاصر طرابلس عام ٦٨٨ هـ ونصب عليها المجانيق ودخلها عنوة بعد ٣٤ يوماً . (٣) وأعد العدة لفتح عكا التى تعصت على من قبله ، وجهز لها جيشاً كثيفاً . ولما بدأ يخرج به من مصر دهمه المرض فمات بعد قليل (٤) .

---

(١) راجع تاريخ هذه الحروب فى كتاب « تاريخ دولة المماليك فى مصر للسير ولم موير » ص ١٠ تحت عنوان « مختصر تاريخى للحروب الصليبية » .

(٢) راجع سلوك المقريزى فى حوادث هذه الأعوام .

(٣ ، ٤) العبر لابن خلدون ج ٥ ص ١ ٤ وراجع أيضاً تشريف الأيام والعصور .

وخلفه ابنه الأشرف خليل فأعاد تجهيز الجيش، وسار به نحو عكا فى عام ٦٩٠ هـ ونصب حولها ٧٥ منجنيقاً ، وحاصرها عدة أيام حصاراً عنيداً ثم اقتحمها عنوة وهدم أسوارها . ثم سار من بعدها إلى جبت وبيروت فافتتحهما . ويعتبر بعض المؤرخين سقوط مدينة عكا ومدن الساحل فى يد سلاطين مصر عام ٦٩١ هـ نهاية للحروب الصليبية[١] .

على أنه ثمة وقائع أخرى تلت هذه الحروب ، وهى تصور لنا ـ مع ما سبق ـ قصة هذه السياسة الخارجية للدولة ومدى اهتمامها بها واتصالها بأطرافها . ومن ذلك :

هجوم فرنجة جزيرة قبرص على ميناء الإسكندرية عام ٧٦٧ هـ وبقيادة حاجبهم فى أسطول عظيم ، يقال إنه بلغ سبعين مركباً مليئة بالعـــدد والعدة والخيول والفرسان . فباغت سكانها ونضحهم بالنبل وأحرق باب المدينة واقتحمها ، ففر أهلها منها وأصابهم فى فرارهم كثير من الأذى والسوء من عربان ضواحيها . أما فرسان قبرص فقد نهبوا من المدينة ما استطاعوا حمله ، وأسروا من أسروا . ثم عادوا إلى سفنهم وأقلعوا إلى حيث أتوا .

وكان نائب المدينة إذ ذاك قد فارقها للحج . وسلطان مصر إذ ذاك أيضاً ، الأشرف شعبان حفيد قلاوون ، ونائب سلطنته « يلبغا العمرى » ، فكتب كتيبة حين علم الخـــبر ، وساقها إلى الإسكندرية ، فوجدت هؤلاء اللصوص قد رحلوا عنها . فأمر بإصلاح ما أفسدوه . وهم بتشييد عمارة بحرية قوية . ولكن الأيام لم تعاونه[٢] .

وروى ابن إياس فى هذه الواقعة أن نائب الإسكندرية جمع عدداً من عربان

---

(١) راجع سلوك المقريزى وبدائع الزهور فى تاريخ الأشرف خليل .
(٢) العبر لابن خلدون ج ٥ ص ٤٥٤ ، والبدائع ج ١ ص ٢١٤ .

البحيرة والتقوا بالفرنجة القبرصيين فى معركة حامية ، فانكسر النائب ومن معه وفروا من وجههم ، فأحرقوا باب رشيد ودخلوا منه إلى المدينة ، وعاثوا فيها فساداً ونهبوا وسلبوا وقتلوا كثيراً من المسلمين . ثم فروا قبل مجىء السلطان إليهم من القاهرة(١) .

ومما يذكر أيضاً أن السلطان الأشرف برسباى بعث فى عام ٨٢٩ هـ تجريدة قوية إلى قبرص ففتحها وأسر ملكها - جينوس بن جاك - وجىء به إلى القاهرة مصفداً فى الأغلال ، ومعه عدد من جنوده . وكان ملكهم راكباً وعليه خوذته وسلاحه . فأمر الأشرف برسباى بأن تعلق هذه الخوذة على باب مدرسته بسوق الوراقين لتكون عبرة وذكرى(٢) .

وفى عهد الأشرف قايتباى أخذت جموع من الفرنجة يتلصصون على سواحل مصر الشمالية ويباغتونها من حين إلى آخر ، وينهبون ما تصل إليه أيديهم ، ويأسرون من التجار وغير التجار من يقع لهم . وأكثروا من التلصص على سواحل الإسكندرية ودمياط .

فاهتم الأشرف قايتباى للأمر . وأخذ يعين لهم آنا بعد آن ، تجريدة بحرية تتبع آثارهم ، وترجع منهم ما استطاعت إرجاعه مما سلبوه ، وتعمل على قطع دابرهم .

وفى عام ٨٨٠ هـ وقعت إحدى حوادثهم فى مدينة الإسكندرية . إذ أغاروا عليها واحتالوا حتى أسروا عدداً من تجارهم . ومن بينهم بعض أخصاء السلطان ، وحملوهم إلى بلادهم . فأمر السلطان بالقبض على جميع تجار الفرنجة بثغر الإسكندرية ، وبعث أحد خواصه ، وهو « قيت الساقى » لتنفيذ الأمر .

---

(١) البدائع حوادث عام ٧٦٧ هـ .

(٢) راجع قصة هذه الواقعة ودخول جينوس مصر ووقوعه أمام برسباى . فى المنهل الصافى فى « برسباى » .

فاضطلع به وقبض عليهم ، وأمرهم بأن يراسلوا ملوكهم بما فعله السلطان بهم ليكون عبرة وعظة ؟ ولكى يطلقوا سراح تجار الإسكندرية، شرطا لإطلاق سراحهم هم . — فتم الأمر وفق مشيئة السلطان[١] .

وفى عهد السلطان الغورى «٩٠٦ هـ — ٩٢٢ هـ» ، نشط البرتغاليون إلى إيذاء مصر بدافع من حقدهم عليها بسبب ما تجبيه من الضرائب على البضائع المارة بها بين الشرق والغرب ، إذ كانت مصر هى الطريق الوحيد بين الجهتين . فأخذوا فى التلصص على الشواطىء المصرية وغير المصرية من سواحل البحر الأحمر وشرق إفريقيا وجنوب آسيا ، يتلمسون السفن المصرية والمتاجر المصرية ليلحقوا بها السوء . وكان من نتائج نشاطهم كشف طريق رأس الرجاء الصالح الذى هدد مصر فى مورد من أهم موارد ثرائها .

وقد استغاث بالغورى عدد من أمراء الهند والعرب ، ممن تربطهم بمصر روابط اقتصادية ودينية . فاضطر الغورى إلى إنشاء عمارة بحرية عظيمة بقيادة أحد أمرائه ، لرد عدوان البرتغاليين وغيرهم من الفرنجة فى شرق إفريقية وبلاد العرب والهند. فظلت تكافحهم سنوات ولكنها لم تفلح أخيرا فى رد عدوانهم[٢].

العثمانيون:

ومن أنكى ما ابتليت به السلطنة المصرية ، قيام دولة الأتراك العثمانيين ، التى أسست على أنقاض الدول السلجوقية ثم الدول التترية المتبعثرة ، وملكت بلادا فى الأناضول وأرمينية وشمال الفرات ، وأخذت فى التوسع فى جميع الاتجاهات من حولها ، وطمعت فى أرض العرب .

---

(١) راجع ترجمة قايتباى فى بدائع الزهور .

(٢) راجع ترجمة الغورى فى بدائع الزهور ج ٥ — وتاريخ دولة المماليك للسير وليم موير ص ١٦٨ ، ١٦٩ .

لقد أخذ النزاع بينهم وبين مصر يحتدم شيئاً فشيئاً ، منـــذ عهد الأشرف قايتباى « ٨٧٢ هـ - ٩٠١ هـ » . إذ عاونوا بعض الأمراء الخارجين عليه . فجرد على الخارجين حملة كسرت شوكتهم . ثم تنبه للعثمانيين أنفسهم ، فحاربهم أكثر من مرة وانتصر عليهم ، وعادت جيوشه ظافرة غانمة تسوق فى أصفادها عديداً من أسراهم .

ولقد خرجت إليهم فى عام ٨٩٣ هـ حملة مصرية كبيرة العدد بقيادة الأتابكى « أزبك بن طخ » ، فأوقعت بهم وهزمتهم هزيمة منكرة ولوا بعدها مدبرين ، واستولت منهم على مدينة « أدنة » - أطنا - .

وخرجت إليهم حملة أخرى عام ٨٩٥ هـ ، فبلغت فى زحفها إلى آسيا الصغرى - موطنهم الأصلى - واستولت على مدينـــة « قيسارية » . ثم تصالح الفريقان وتبادلا الأسرى .

وهكذا دفع قايتباى غائلة العثمانيين عن الوطن العربى ، ووقى مصر والشام وحلب وغيرها شرهم .

ولكن خطرهم من بعد قايتباى أخذ يستشرى ويشتد ، ولم يحسمه حاسم . حتى كانت الطامة الكبرى التى أصابت مصر على يدهم . إذ أوقع سلطانهم سليم الأول بجيش مصر فى موقعة « مرج دابق » عام ٩٢٢ هـ . وكان يقوده سلطانها الأشرف الغورى ، الذى مات فى المعركة . ومن ثم زحف جيش العثمانيين على حلب فالشام ثم على مصر ، فلقيه بها سلطانها الجديد الأشرف طومان باى . وبعد معارك قاسية ووقائع طاحنة منها موقعة « الريدانية » تم للعثمانيين فتح هذه البلاد فى أوائل عام ٩٢٣ هـ .

استقلال البلاد وبسط نفوذها :

ويتجلى لك من هذه الوجازة ، مدى مجاهدة سلاطين المماليك ، ومبلغ مكابدتهم

المشاق فى محاربة الطامعين فى سلطنة مصر وما يتبعها من البلاد . هادفين إلى المحافظة عليها وعلى استقلالها وعاملين على بسط نفوذها خارج حدودها .

وعلى الرغم من أن طبقة المماليك ، طبقة طارئة على البلاد المصرية ، ومتجددة تجددا مستمرا عن طريق الخارج — كما نوهنا — لم تقاوم جماهير الشعب وجودهم مقاومة تذكر .

ويبدو أنهم اكتسبوا بالتوطن وبالدين المشترك — الذى هو دين البلاد أو أغلبيتها الساحقة — صفة المصرية . واتخذ سلاطينهم وأمراؤهم هذه البلاد وطنالهم ، لا يعرفون لهم وطنا سواه . ولا بدع . فقد جلبوا إليه ونشئوا فيه ، وشبوا تحت سمائه وفوق أرضه ، وملأهواؤه صدورهم حياة وحركة ، وحاطتهم نعمه أينما ساروا ، واتسع لهم صدره بما لم يتسع به لهم صدر غيره ، وآل إليهم حكمه بحسب تقلبات الأحوال وتصاريف الأقدار ، إذ انتقل إليهم سهلا ميسرا عقب الدولة الأيوبية ، فكان فى جملته امتدادا لحكمهم .

فلا غرابة إذاً أن نصبوا أنفسهم ذادة عنه ومدافعين ، وحاطوا استقلاله بكل ضرب من ضروب الصيانة . وغزوا باسمه فى كل مكان يحيط به ، ونشروا رايته على كثير من الآفاق المجاورة ، وأدخلوا فى حوزته جملة من البلاد ، وأحسنوا سمعته بين دول العالم المعروفة حينذاك بصفة عامة ، وبين دول المسلمين بصفة خاصة فانتشر بذلك صيت مصر شرقا وغربا وشمالا وجنوبا . وامتد ملكها فى بعض أيامهم ، بل وفى معظم أيامهم إلى بلاد المغرب غربا ، والنوبة جنوبا ، والحجاز والشام وحلب وضفاف الفرات شرقا ، وإلى قبرص وغيرها من جزر البحر المتوسط شمالا .

لقد حافظوا على استقلال هذه البلاد ، وبطشوا بكل من بغى عليه ، أو اعتدى على طرف من أطراف هذا الوطن العظيم . لذلك شغلوا أنفسهم وجزءا كبيراً من زمنهم بالحروب الخارجية .

وحافظوا على بلاد الشام وحلب بصفة خاصة . وكانت حروبهم لهذين البلدين وفى سبيلهما وفى ربوعهما . اعتبروهما جزءا لا يتجزأ من مصر ، فالمعتدى عليهما معتد عليها . وعنوا بهما عنايتهم بها . ونسقوهما نسقا إداريا مماثلا لنسقها . وقسموهما « نيابات » يليها أجل أمراء مصر ، وكان نائب دمشق أكبر نواب السلطنة بعد نائب السلطان بالقاهرة .

ومن أجل البلاد الشامية والحلبية ، اعتركوا مع التتار والصليبيين . وحاربوا دونهما أمراء التركمان وملوك فارس وبغداد ، وأمراء الأرمن وغيرهم ممن حفزتهم الأطماع إلى الاعتداء عليهما أو على أى جزء آخر من بلاد السلطنة .

الاهتمام بالوطن العربى والإسلامى :

وهكذا ترى مبلغ حرصهم على مصر وما يتبع سلطنتها . وهى إذ ذاك جزء كبير من الوطن العربى الواسع . لقد حفظوه موحداً بمجموع الأطراف ملتئم الشمل ، يشعر سكانه فى كل قاصية منه ، أنهم سكان محلة واحدة .

ولم يقف جهدهم عند هذا الحد ، بل كانوا يمدون يد المعونة إلى كل من لجأ إليهم أو استنجد بهم من أمراء المسلمين وملوكهم .

نذكر ـ على سبيل المثال ـ الظاهر بيبرس . فقد عاون الخليفة المستنصر العباسى على رد عرش آبائه من التتار ، فجهزه بجيش . ولكن التتار تغلبوا عليه فى النهاية وهزموه[1] .

وساعد السلطان برقوق ، القان أحمد بن أويس صاحب بغداد فى زمانه ، ضد التتار[2] .

(١،٢) راجع ترجمة بيبرس وبرقوق فى بدائع الزهور لابن إياس ، وفى سلوك المقريزى .

وبعث الغورى عمارته البحـــرية لمعاونة ملوك المسلمين بالهند ، والعرب بسواحل المحيط ، على الفرنجة البرتغاليين ، العابثين بشواطئهم وتجارتهم — كما أشرنا — .

وأرسل الغورى أيضاً رسله ، إلى ملوك الفرنجة يلفت نظرهم إلى ضرورة الرفق بمسلمى الأندلس وضرورة الكف عن إيذائهم ، فى نظير أنه يعامل الفرنجة المقيمين فى سلطنته معاملة حسنة . وهددهم بالإساءة إلى هؤلاء الرعايا ، إذا لم يستجيبوا إلى ندائه . لقد فعل ذلك حينما استغاث به صاحب الأندلس من حصار الفرنجة له(١) .

هكذا أتيحت فرص عدة لهؤلاء السلاطين ، بوءوا فيها مصر مركز الزعامة الحربية والسياسية والأدبية ، بين الأمم العربية والإسلامية وغيرها فى عصورهم الوسطى . وجعلوها موضع هيبة وإعظام من الدول الأخرى .

وقد كان من نتائج ذلك ، نشوء العلاقات والصلات بين مصر وغيرها من الدول . وترتب على هذا إرسال الرسل وتبادل القصاد والسفراء بينهما . وعلى سبيل المثال نذكر :

ا — من رسل مصر وسفرائها :

الأمير برسباى أمير آخور ثان ، بعثه الملك الأشرف إينال إلى السلطان محمد الفاتح يهنئه بفتح القسطنطينية عام ٨٥٧ هـ .

والأمير يشبك الجمالى ، بعثه الأشرف قايتباى عام ٨٧٨ هـ إلى ابن عثمان ملك الروم أيضاً برسالة تتضمن الود والصداقة .

---

(١) راجع ترجمة الأشرف الغورى فى بدائع ابن إياس ج ٥ .

وتغرى بردى الترجمان ، بعثه الأشرف الغورى عام ٩١١ هـ إلى البترك ليمنع عبث الفرنجة بسواحل مصر .

والطواشى بشير ، بعثـــه الأشرف الغورى إلى بلاد اليمن والهند ، ليدعوا ملوكها إلى التعاون مع عسكره على قتل الفرنجة - البرتغاليين - بسفن التجارة فى المحيط الهندى .

ب - ومن رسل الدول إلى مصر :

رسل أرسلهم صاحب اليمن إلى الناصر بن قلاوون عام ٧١٢ هـ ومعهم هدايا نفيسة .

ورسول أرسله صاحب ماردين إلى الظاهر برقوق عام ٧٨٨ هـ يخبره بتحركات تيمور لنك التترى ، واستيلائه على تبريز وغيرها من المدن والبلاد .

ووفد بعثه بايزيد الأول ملك العثمانيين ، إلى الناصر فرج بن برقوق عام ٨٠٣ هـ ومعه هدايا قيمة للسلطان وأمرائه ، ليحذره من تيمورلنك .

ورسول بعثه السلطان محمد الفاتح ملك العثمانيين إلى الأشرف إينال يخبره بفتحه مدينة القسطنطينية . وذلك عام ٨٥٧ هـ . وقد زينت القاهرة لهذه البشرى وعم أهلها الفرح العظيم .

ورسول قدم من لدن صاحب الهند الملك غياث الدين إلى الأشرف قايتباى ، ومعه هدايا قيمة للسلطان وللخليفة المستنجد بالله يوسف ، طالباً من الخليفة تقليدا له بولايته على إقليم الهند[1] .

---

(١) راجع أخبار هؤلاء القصاد فى المجلد الثانى من موسوعتنا هذه - وفى بدائع الزهور لابن إياس ، حوادث التواريخ المذكورة .

٦ - موقف الشعب من السياسة الخارجية

ولك أن تتساءل : ما موقف الشعب من هذه السياسة ؟ .

لقد كانت هذه السياسة والاتجاهات البادية فيها ، والحروب التى شنت فى سبيلها ، تهدف إلى حفظ كيان السلطنة المملوكية وعدم المساس بسكانها وأرضها وخيراتها ، وإبقاء استقلالها وكرامتها .

وهى سياسة ، وإن بدت فى صالح حكامها ، تدور ، فى الحق ، حول الدفاع عن الأرض العربية والتى أغلب سكانها من المسلمين ، سواء أكانوا بمصر أم فى البلاد التابعة لسلطنتها .

وهى تتفق ومصالح الشعب ورعاية حياته ومرافقه ، والحرص على حاضره ومستقبله فالمصلحة المشتركة نقطة الالتقاء . ولا سيما إذا وضعنا فى الاعتبار ، ما سبقت إليه الإشارة ، وهو أن المماليك ، بالرغم من أنهم غرباء ، لم يشعروا بهذه الغربة . وهم وإن كانوا لم يندمجوا فى صفوف الشعب ولم يصاهروا طبقاته مصاهرة تذكر ، يدل سياق الحوادث على أنهم اتخذوا مصر وطناً لهم - كما نوهنا - وارتضوها دار إقامة . عشقوها وجرى عليهم من المشاعر ما جرى على سكانها ، وأحسوا بضرورة المحافظة عليها والذود عن كيانها .

وقد وضعتهم الأقدار ذادة عن المسلمين ، وعن الوطن الإسلامى ، فى إحدى فترات تاريخه الحرجة . هذا إلى أنهم أقاموا حكومتهم - فى جملة نظمها لا فى تفصيلها - على النظم والتعاليم الإسلامية . وكان لعلماء الدين عندهم كلمة مسموعة ورأى مطاع ومشورة نافذة . وكانوا يفيئون إليهم الآونة بعد الأخرى لعرض فكرة أو دراسة مشكلة أو طلب نصيحة . وكثيرا ما كانوا ينطوون تحت كلمتهم.

وقد روى أن عز الدين بن عبد السلام - « ٦٦٠ هـ » - كان من أكبر الدعاة الذين حرضوا الملك المظفر قطز على قتال التتار الكفرة ، وصدهم عن ديار

المسلمين . وقد اتصل حبله بحبل الظاهر بيبرس ، وقيل إن بيبرس كان منقمعا تحت كلمته .

ويقول تاج الدين السبكى :

« إن التتار لما دهمت البلاد عقيب واقعة بغداد ... وجبن أهل مصر عنهم ، وضاقت بالسلطان ـ يعنى المظفر قطز ـ وعساكره الأرض ، استشاروا الشيخ عز الدين — رحمه الله — فقال : « اخرجوا وأنا أضمن لكم على الله النصر . » . فقال السلطان له : « إن المال فى خزانتى قليل . وأنا أريد أن أقترض من أموال التجار » . فقال الشيخ عز الدين : « إذا أحضرت ماعندك وعند حريمك ، وأحضر الأمراء ما عندهم من الحلى الحرام ، وضربته سكة ونقدا ، وفرقته فى الجيش ولم يقم بكفايتهم . ذلك الوقت اطلب القرض . وأما ما قبل ذلك فلا . » . فأحضر السلطان والعسكر كلهم ما عندهم من ذلك بين يدى الشيخ .

— وكان الشيخ له عظمة عندهم وهيبة ، بحيث لا يستطيعون مخالفته ، فامتثلوا أمره فانتصروا . » . (١)

ومن الضرورى أن ننوه لك بموقف رجلين آخرين من رجال الدين — ورجال الدين ألسنة الشعب وذادته ـ ونحن بصدد الحديث عن السياسة الخارجية وموقف الشعب منها .

هذان الرجلان هما تقى الدين بن تيمية ، وجلال الدين السيوطى .

وابن تيمية — « ٧٢٨ هـ » — أحد فحول علماء الدين فى هذه الحقبة ، ذوى الآراء الحرة والأفكار الجريئة ، وممن وهبوا أنفسهم لإصلاح الجماعة الإسلامية بل الإنسانية . وقد كانت آراؤه سببا فى نشوء حركة فكرية عظيمة كان لها نتاج علمى جليل .

---

(١) طبقات الشافعية لتاج الدين السبكى ج ٥ فى ترجمة الشيخ عزالدين بن عبد السلام ،

وقد كتب ابن تيمية رسالة سياسية جليلة أرسلها إلى « سرجواس » ملك جزيرة قبرص . وتسمى « الرسالة القبرصية » . (١)

والرسالة موجهة إلى ملك مسيحى خارج الدولة يحكم جزيرة ، مافيء حكامها بين الآن والآن ، يغيرون على شواطىء مصر ويتلصصون على سواحلها . وكان يعيش فى هذه الجزيرة كثير من المسلمين .

والرسالة — وإن كانت فى ثوب نصيحة — تتناول كثيراً من العلاقات السياسية القائمة آنذاك .

ويبدو أن الملك سرجواس ، كان قد طغى وبغى ، وظلم من قبله من المسلمين . فبعث ابن تيمية إليه ينذره ويحذره ، أملا فى أن يقلع عن طغيانه وبغيه .

وقد كتبها فى جرأة وبغير رفق ، كأنه قائد يبعث إنذارا إلى عدوه . وطفق فيها يحدثه عن الله وأنبيائه وعن حكمة الخلق ، وعن منشأ الشرك ، وعن ضلال الرؤساء عن الشرع ، وعن بنى إسرائيل وقسوة قلوبها وعصيانها ، وعن المسيح وتمرد بنى إسرائيل عليه . ويحدثه عن ضرورة رعاية العدل والإنصاف بين رعيته من المسلمين . وينبهه إلى ما فعله الرسول عليه الصلاة والسلام ، مع نصارى زمانه من رعاية وحسن معاملة . وأخذ يهدده بأن يقع به مثل ماوقع للتتار الذين لم تغنهم كثرتهم أمام جنود المسلمين . . . الخ . (٢)

وتشعرك الرسالة بسعة باع بعض رجال الدين حينذاك ، ومبلغ اشتراكهم أحيانا فى سياسة بلادهم الخارجية .

وجلال الدين السيوطى — « ٩١١ هـ » — الذى ترك رصيدا اضخما فى ميدان العلم والتأليف ، أدلى بدلوه فى الدلاء . وكان هو الآخر أحد ألسنة الحق والشعب .

---

(١) تقع هذه الرسالة فى نحو ٤٠٠ سطر . ومنها نسخة مطبوعة بدار الكتب المصرية تقع فى ٣٣ صفحة تقريبا .

(٢) راجع هذه الرسالة والحديث عنها فى المجلد السادس من هذه الموسوعة .

وقد بلغه أن ملوك التكرور المسلمين . قد تفشى الظلم منهم للرعية وانتشرت محاباتهم لأتباعهم على حساب رعيتهم . وقد تجاوزوا فى أحكامهم حدود الله وأحكام الشريعة واتبعوا الهوى ، وصار قضاتهم — على مابدا — يحكمون بغير ما أنزل الله ، وفشت فيهم عادات ليست من الدين فى شىء ، ويظنون أنها من الدين .

لهذا كتب السيوطى إليهم ، وبخاصة إلى ملكهم « محمد بن صعفن » صاحب أكدر ، وإلى إخوته . ينصحهم ويردهم إلى حكم الله ويذكرهم بقوته سبحانه ، وبأنه أحق أن يخشوه ويتقوا عذابه . الخ(١) .

من هذا وذاك ، يتبين لك ملامح كثيرة من الاتجاه السياسى لشعب هذه البلاد ، وهو يرمى إلى المحافظة عليها والحرص على ممتلكاتها من أعداء المسلمين والعرب . والدفاع عن البلاد العربية والإسلامية ، والإبقاء الدائم على العلاقات الودية والأخوية بين مصر وبين العرب والمسلمين فى شتى بقاع المعمورة .

وهى سياسة تتفق فى جملتها ومصالح الطبقة الحاكمة . فلم يكن هناك خلاف بينهم بسببها ، ولهذا لم تكن هناك مناهضات أو معاكسات للسياسة الخارجية .

لقد نصب السلاطين أنفسهم ذادة ومدافعين عن الإسلام والعروبة ، فكان هذا هو المخدر الذى نوم الشعب عن مناهضة هؤلاء الغرباء ومقاومة وجودهم حكاماً فى بلاده .

بل كان الشعب ينهض فى كثير من الأوقات لمعاونتهم وقت الحرب ، فيقدم المال والرجال والطعام والدواب وما إلى ذلك من ضروب المعونة .

---

(١) رسالة السيوطى مخطوطة بدار الكتب المصرية ، ضمن مجموعة رقم ٤١٦ .

٧ - معالم السياسة الداخلية

أما السياسة الداخلية ، فقد كان الأمر مختلفاً . وقد أشرنا إلى استئثار الطبقة الحاكمة بكل أسباب القوة والغلبة ، واستبدادها بكل وسائل المال والجاه والرأى ، دون الشعب . فقصروا مناصب الدولة الرئيسية - العسكرية - على أنفسهم . ولم يستخدموا من أبناء الشعب إلا من دعت إليه الحاجة الماسة ، وذلك فى مناصب القضاء والكتابة وما إليهما ، مما لا يحسنه طبقة المماليك .

فقد كان القضاء - فى جملته - شرعياً ، تتبع فيه أحكام الشريعة الغراء بحسب المذاهب الأربعة ، لهذا اضطروا إلى اتخاذ القضاة ونوابهم من بين علماء الدين . .

وكانت الكتابة فى ديوان الإنشاء وفى دواوين الدولة باللغة العربية ، فاضطروا إلى اتخاذ الكتاب والمنشئين من أبناء الشعب الذين يجيدون الكتابة .

وكان التعليم فى المساجد تعليما دينياً عربياً ، فاتخذوا العلماء معلمين ، وكذلك اتخذوا الخطباء والأئمة والمفتين ، « وكل هؤلاء من أبناء الشعب ، ومن خريجى المساجد ، المتعممين » .

وفتحوا المساجد أمام الشعب ، يتعلم فيها من تلهج نفسه بالتعليم . ووقفوا عليها الأوقاف ، وأغدقوا عليها المال ، ورتبوا الدروس - كما سنشير إليه - .

ولكنهم إزاء ذلك ، لم يسمحوا لأحد من أبناء الشعب بالاندماج فى صفوف الجيش ، ولا أن يتعلم تعليما عسكرياً فى طباق القلعة كالمماليك . وملكوا الأرض الزراعية إقطاعات ، يوزعها السلطان على أمرائه وجنوده . وأطلقوا لأنفسهم العنان فى فرض الضرائب المرهقة ، وإقامة المصادرات الظالمة(١) .

---

(١) راجع موضوعات الجندية والوظائف والإقطاع والضرائب والمصادرات فى المجلد الثانى من هذه الموسوعة .

ولأنه كان بيدهم كل وسائل القوة - كما نوهنا - لم يكن الشعب ليستطيع معهم أن يصيب نجاحا لو حدثته نفسه يوما بمقاومتهم أو استنكار وجودهم .

على أن حكومتهم - وإن كانت فريدة بين الحكومات فى شكلها وتكوينها وتعاقبهم عليها - كانت مسبوقة بحكومات من قبلها أجنبية فى أصلها ، عن البلاد - كالفاطميين والأيوبيين - استأثرت أيضا بما استأثرت هذه به دون الشعب . فلم يكن الأمر جديداً عليه ...

وما دمنا بصدد الحديث عن البيئة السياسية ، لا نرى مناصاً من الإشارة إلى أمرين ، يصور كل منهما جانباً من جوانب هذه البيئة ، وهما الفتن الداخلية وثورات العربان .

الفتن الداخلية [1] :

لم تخل الدول التى حكمت مصر فى العصور الوسطى من قيام الفتن والمؤامرات الداخلية التى تحركها أطماع الرؤساء فى الحكم . ولكن الفتن التى قامت فى عصر دولتى المماليك كانت من الكثرة بحيث لا نكون مبالغين إذا قلنا إن مصر لم تشهد صراعاً بين حكامها ومتملكى زمام الأمور فيها كما شهدته فى العصر المملوكى . ولعل طبيعة حكومة المماليك وتكوينها ذات دخل فى استشراء هذه الفتن وتفاقمها واطرادها . فإن المملوك الذى ورد إلى هذه البلاد رقيقاً ، لا يمنعه مانع من أن يحلم بالملك ووصوله إليه فى يوم من الأيام . وقد رأى بعينيه نماذج لذلك ماثلة . وقد ربى على الشجاعة والفروسية وأخذ بأسباب الفتوة ، ومارس أعمال الحرب والقتال . وكانت مواهب المملوك فى هذه المجالات ذات شأن كبير فى تقديره وفى تقدمه وترقيته ، بل وفى جمع الأتباع من حوله إذا أصبح أميراً . ومن ثم يستطيع

---

(١) أخبار هذه الفتن فى بدائع الزهور وسلوك المقريزى والنجوم الزاهرة . فى التواريخ المبينة فى كل منها وفى تراجم الملوك المذكورين بها .

أن يعد العدة ويعمل الحيلة ويجمع الأتباع والأشياع ويأتمر ويثير الفتنة حتى يصل إلى هدفه . وكانت السلطنة أحب الأهداف ولذلك وبسببها كثيرا ما كان القتال يحتدم بين المتنازعين وتجرى الحروب والمعارك الأهلية .

ولا شك أن هذه الفتن كان لها دخل كبير فى تأخر البلاد نسبيا ، عما كان يمكن أن تتقدم إليه من رخاء ومدنية وسعادة . وقد كثرت هذه الفتن فى العهد الجركسى كثرة ملحوظة . وأدت الخلافات المحتدمة بين الأمراء المتنازعين فى سبيل الأطماع ، بل وبين الجنود أنفسهم وطوائفهم فى سبيل الاستئثار بالنفع والحصول على المال ، إلى تضعضع الجيش وتفتيت القوى ، حتى كانت كارثة الاحتلال العثمانى . وإليك أخبار بعض هذه الفتن ، على سبيل المثال :

وقد بدأت سلسلة هذه الفتن والمؤمرات من أول عهد الدولة بالحكم . وافتتحتها شجرة الدر الأيوبية التى تآمرت على زوجها «عز الدين بن أيبك» أول سلاطين البحرية ، فقتلته عام ٦٥٥ هـ . ومنها مؤامرة بيبرس على سلطانه المظفر قطز إذ اغتاله أثناء عودتهم من معركتهم الظافرة مع التتار ، ٦٥٨ هـ . ومنها مؤامرة الأمير « بيدرا » عام ٦٩٣ هـ على اغتيال السلطان الأشرف خليل بن قلاوون . وبعد اغتياله استقر رأى اتباع بيدرا على سلطنته ولقبوه « بالملك الأمجد ». غير أن أتباع الأشرف قتلوا « بيدرا » فى ليلته . ومنها الفتنة التى قامت عام ٦٩٣ هـ وبين الأميرين « كتبغا المنصورى » و « سنجر الشجاعى » وكان سلطانهما الناصر محمد بن قلاوون صغير السن إذ ذاك . فتنازعا واحتربا فى سبيل الاستئثار به وبالحكم معه . فقتل الشجاعى وخلع الناصر ، وتولى « كتبغا » السلطنة . ومنها الفتنة التى وقعت عام ٧٦٢ هـ بين السلطان الناصر حسن بن الناصر بن قلاوون ، وبين مملوكه « يلبغا » وكان قد رقاه السلطان فأصبح فى مصاف كبار الأمراء . ولكن وقعت العداوة بينه وبين سيده فجمع كل منهما لزميله واقتتلا . ثم قبض على السلطان وخنق . وانفرد « يلبغا » بالحل والعد فى عهد السلطان المنصور محمد

ابن حاجى الذى خلف عمه حسنا . ومنها الفتنة الطائشة الشعواء بل الثورة الجامحة الحمقاء التى أثارها الأمير « منطاش » مملوك الظاهر برقوق ، ضد سيده هذا ، وكان سبباً فى قلق سلطنته . وفر منه إلى بلاد الشام حيث ظل يعبث ضده فيها ، حتى شدد السلطان عليه وقتل . ومنها الفتن الجامحة التى وقعت فى عهد قايتباى بين أميرين من كبار أمرائه وهما أقبردى الدوادار ، وقانصوه خمسمائة . ومنها مؤامرة الأمير طومان باى ضد السلطان الناصر محمد بن قايتباى عام ٩٠٣ هـ إذ أعد له كميناً بالجيزة ودعاه إلى النزول عنده ليقضى ساعة هنيئة ، ثم اغتاله ووثب هو على السلطنة وتلقب بالعادل . ومنها فتن المماليك الجلبان ومشاغباتهم فى عهد الغورى ـ وقبله ـ بسبب روابتهم ، حتى إن السلطان هددهم بالنزول عن عرشه ، فلم يزدادوا إلا شراسة وإصرارا ، وكانوا بسبب عداوتهم للمماليك القرانصة ، من أسباب فشل حملة الغورى ومن أسباب هزيمته فى مرج دابق .

ثورات العربان :

وهى لون من الفتن الداخلية . وإن كان القائمون بها من العربان أو البدو الضاربين فى أطراف البلاد بالشرقية والغربية والبحيرة والوجه القبلى ، وفى صحراء الشام وبادية بلاد العرب . وقد تعددت فتنهم وثوراتهم وشغلوا بال السلاطين واستنفدوا من الدولة مجهوداً كبيراً فى المال والرجال . ويغلب عليهم فيها طابع النهب والسلب وأخذ ما بيد الأتراك من مال وجاه . فيغيرون على الطريق ويقطعون المسالك . ويفجئون المدن ، بتدبير من رؤسائهم وأمرائهم . وإليك طرفاً من أخبارها .

فمنها فى عام ٦٥١ هـ ثورة عربان الصعيد والوجه البحرى بقيادة الأمير الشريف « حصن الدين بن ثعلب » وكان بجهة « دهروط » وهى ديروط . فقطعوا الطريق على السابلة . وتلصصوا على الشواطىء وقالوا « نحن أصحاب البلاد

وصرحوا بأنهم أحق بالملك من المماليك » . وبلغت عدتهم ١٢ ألف فارس . وقد قاومهم الترك بقيادة الأميرين « فارس الدين أقطاى » المستعرب ، « وفارس الدين أقطاى » الجمدار ، وشتتوا شملهم وشنقوا عدداً منهم وسجنوا زعيمهم[١] .

وفى عام ٦٩٩ هـ فى عهد الناصر بن قلاوون اختلفت قبيلتا جابر ومرديس بالبحيرة وأغاروا على أجرانها وأحرقوا ما فيها، فأرسل إليهم الناصر حملة تأديبية بقيادة الأمير « بيبرس » الدوادار المنصورى ، فكسروهم وأجلوهم وغنموا منهم وسبوا[٢] .

وفى عام ٧٥٤ هـ ثار عربان الصعيد بقيادة أحدهم واسمه « ابن الأحدب » شيخ قبيلة «عرك» وأشاعوا الفساد ونهبوا الغلال . وذلك فى عهد الصالح صلاح الدين ، فخرج إليهم بنفسه ومعه حملة بقيادة الأمير «طاز» و « شيخو العمرى » وغيرهما ، فقتلوا منهم نحو النصف غير الأسرى ، وغنموا خيلا وجمالا وغنما وسيوفاً . ثم طلب ابن الأحدب الأمان من السلطان فأمنه[٣] .

وفى عام ٧٨١ هـ فى عهد المنصور على بن الأشرف شعبان ، سطا نحو خمسة آلاف عربى من عربان البحيرة على مدينة دمنهور بزعامة كبيرهم «بدر بن سلام» فنهبوا الأسواق والبيوت والقرى من حولها فأرسل إليهم حملة بقيادة الأتابكى «برقوق» فشتتوا شملهم وقتلوا منهم نحو ألف وأسروا نساءا وصغاراً ، وغنموا مالا ودواب[٤] . ونظم القيم خلف الغبارى زجلا فى هذه الواقعة .

وفى عهد الأشرف قايتباى تعددت فتن العربان وثوراتهم فى الشرقية والبحيرة والصعيد . وكان منها فى عام ٨٧٥ هـ ثورة عربان الشرقية . وكان من شيوخهم « عيسى بن بقر » ، فعزله قايتباى وعين مكانه قريبه « صقر بن بقر » . وبعث جنداً

---

(١) السلوك ج ١ ص ٣٨٦ .

(٢ ، ٣) بدائع الزهور ج١ ص ١٢٢ ، ٢٠٠ .

(٤) البدائع ج ١ ص ٣٤٠ و ٣٤١ .

إليهم بقيادة الأميرين « تمر » حاجب الحجاب ، و « قانصوه الخفيف » الإينالى . فعادوا فى صفر عام ٨٧٦ هـ وقبضوا على طائفة من المفسدين العرب وفيهم « موسى بن عمران » من رؤسائهم ، وغيره فأعدمهم السلطان(١) .

ومنها فى عهد قايتباى ثورة عربان البحيرة عام ٨٧٧ هـ فأدبهم الأمير « أزبك ابن طط » . وما هدأت هـــذه الفتنة حتى ثار عرب الشرقية من بنى وائل وبنى حرام . فخرج لتأديبهم الأمير « يشبك الدوادار » فى شوال عام ٨٧٩ هـ . وفى العـام المذكور ثار عرب عزالة بضواحى الجيزة ونهبوا خيول المماليك وقتلوا جماعة من غلمانهم وأطلقوا السجناء ، فساق السلطان عليهم جنداً لم يظفروا منهم بطائل . ثم وفد إليه شيخهم « مهنا بن عطية » وشفع فيهم بعضهم فأمنه السلطان وعفا عنه(٢) .

وفى عهد الغورى ثار العربان مراراً منهامرة فى الشرقية عام ٩٠٧ هـ . واعتدى عربان مكة بزعامة « الجازانى » على ركبى الحجاج المصرى والشـامى وقتلوا عددا من رجالهما ونهبوا المال وعروا النساء وذلك عام ٩٠٨ هـ . وفى العام المذكور ثار عربان الشرقية والغربية وبلاد الصعيد ، قيل : وكادوا يملكون البلاد من أيدى مقطعيها « فجرد عليهم الغورى حملات تأديبية . (٣) إلى غير ذلك من أخبـار هذه الفتن .

---

(١) راجع أخبار فتن العربان فى عهـد قايتباى ، فى بدائع بن إياس ، فى ترجمة قايتباى ج ٢ ص٩٦ ، ١٢٧ ، ١٢٩ ، ١٣٤ إلى ١٣٧ ؛ ١٥٤ ، ١٥٦ ، ١٦٢ . ١٨٠ ، ١٨٢ ، ١٨٣ ، ٢٤٠ ، ٢٤٣ .

(٢) بدائع الزهور فى سياق حوادث الأعوام المذكورة .

(٣) راجع البدائع ج ٥ فى تاريخ الغورى .

٨ — موقف الشعب من السياسة الداخلية

لكن على الرغم من أن أسباب الوعى القومى ، من ثقافات وتجارب وصلات أخرى ، مما له أثر فى يقظة المشاعر الوطنيـــة — على نسق مما نراه فى العصور الحديثة — لم تكن قد قيضت للشعب حينذاك — سنرى فى شعر البيئة الاجتماعية ، نصوصا شعرية ، تكشف بوضوح عن أشياء كانت تعتلج فى صدور الجماهير ، وفى نفوس الناس ، عبر عنها بعض شعرائهم بها .

لقد كانوا يضيقون ذرعا بالأتراك وباستبدادهم وجورهم ، وباختصاصهم أنفسهم بأسباب الرزق دونهم . وبتقلبهم فى النعيم ، مع حرصهم وشدة بخلهم وقسوة قلوبهم على الرعية . .

وكانوا ينقمون على فتن الجنود وعبثهم المستمر . ولاسيما نزولهم إلى الأسواق ونهبهم بضائعهم وهجومهم على المنازل أو سرقة مافيها ، وإقلاقهم راحة المارة وخطف عمائهم وما بأيدهم .

وكانوا يثورون ويضجون بالشكاية بين الحين والحين . وبخاصة عند فرض الضرائب المرهقة الظالمة .

غير أن هذه الحوادث قليلة ، ولم يتبلور الأمر فى مرة ، حتى يصبح رأيا عاما ، يمكن أن يكون له تأثير فى تسيير دفة الحكم .

وقد أشرنا إلى فتن الأمراء ومؤامراتهم ، طمعا فى سبيل السلطنة أو المناصب والحكم . وأشرنا إلى أن الائتمار كان يتطور أحيانا إلى الاشتباك والقتال ، وإلى قيام حرب أهلية مهلكة ، كثيراً ما كانت تقع معاركها فى ميدان الرميلة بالقلعة ، أو حول القلعة . إذ كانت قلعة الجبل مقر الحكم ومبيت السلطان . وتقع أحيانا فى جهات أخرى .

وينقسم المحتربون قسمين متنازعين ، وليس الشعب أو فئة منه ، طرفا من

أطراف هذا النزاع . دائماً تحتدم المعركة بين بعض الأمراء وبعض ، ولا صلة للشعب بهذا الاعتراك، ولا يد له فيه . بل كان حكمه والتحكم فيه والسيطرة عليه، هى محل النزاع بين هؤلاء الأمراء .

ويبدو أن جماهير الشعب كانت تنظر إلى طوائف هذه الطبقة نظرة واحدة — فى جملة الأمر — ولا تفضل طائفة على أخرى ، ولا تؤثر فرداً على آخر ، بل هم جميعا فى نظرها سواء .

لذلك ما كان يثير اهتمامها — فى هذه المعارك والمؤامرات الداخلية — انتصار هذا أو ذاك . ولا كان يقع فى أملها أن يظفر أمير من المعتركين بآخر . لأنهم فى نظرها سواء . وهما بالنسبة إليها كرجل واحد ، غالبهم ومغلوبهم . ومن ثم فهى لا تنصر فريقا منهما على سواه .

وأغلب الظن أن الجماهير ، كانت تقف من هذه الحروب الأهلية ، موقف المشاهد المتفرج بها ، مكتفية بألم مكتوم تحتفظ به ، وشائعات مضطربة تطلقها . . .

وكانت هذه الفتن والحروب كثيرة كثرة لافتة — كما أشرنا — ومع ذلك لم يتضح لها أثر يذكر فى النتاج الشعرى أو الأدبى إلا نادراً ، وذلك كالفتنة التى وقعت فى أيام الملك الأشرف شعبان حفيد قلاوون وأدت إلى قتله ، فقد سجلها فى زجلية فريدة، قيم الزجل فى زمانه خلف الغبارى . وكالفتنة التى وقعت بين الملك المؤيد شيخ المحمودى والأمير نوروز الحافظى نائب الشام حينذاك ، وأدت إلى وقوع الحرب بينهما ، وقتل الأمير نوروز ، فقد سجلها شاعره تقى الدين بن حجة الحموى فى بعض قصائده .

أغلب الظن أيضاً أن العلاقة الشخصية — لا الروح الجماهيرية العامة — كانت الحافز إلى نظم هذا الرجل أو الشعر .

ولنا أن نستدل من ندرة هذا الاتجاه فى الشعر أو الزجل ، على ضعف صلة جماهير الشعب بهذا الضرب من النزاع الداخلى .

أما فتن العربان ، فإن جماهير الشعب كانت ـ ولا ريب ـ ناقمة عليها أشد النقمة . ونعنى بجماهير الشعب . الزراع والصناع والعمال وأرباب الحرف والباعة والسوقة والتجار وعامة المثقفين ونحو ذلك ، وهى الجماهير التى منها تتكون الأغلبية العظمى للشعب .

وكانت فتن العربان ، تحمل بين أسبابها بعض الدوافع التى نستطيع وصفها بأنها دوافع وطنية ، إذ كانوا يقولون « إن البلاد بلادنا » . وكانت أهدافهم العامة ، الثورة على الأتراك ـ الطبقة الحاكمة ـ والانتقاض عليها ، ومكايدتها .

ولكن ثوراتهم كانت تنحو من الناحية العملية ، إلى إلحاق الأذى بسكان الريف والمدن ـ وهم جماهير الشعب ـ ومفاجأتهم بين الوقت والآخر ، ونشر الرعب والفزع بينهم ، ونهب ما بأيديهم من الغلات والدواب وغيرها .

لهذا كانت ثوراتهم ـ كما أشرنا ـ موضع نقمة من هؤلاء السكان .

ولو أتيح لهذه الثورات ما يجعلها عامة وشاملة ، تضم إلى العربان جماهير الشعب ، مع التركيز وحسن القيادة وتوجيه الضربات إلى العنصر التركى أو الجركسى الحاكم ، توجيها مباشرا ، لكان للمسألة وجه آخر .

وسترى أن الزجل قد سجل أنباء بعض هذه الفتن والثورات ، ووصف ما تخللها من فساد وعبث ، وما كان فيها من نهب وسلب ، وما أشاعته من قلق وخوف .

وقد سجلها الزجالون وروح السخط عليها بادية ، وعلامات الغضب على القائمين بها واضحة ، وإزجاء المديح للأتراك الذين قاوموهم وردوا عبثهم وقضوا على فتنهم ، بارز .

ونعتقد أن روح الشعب وشعوره نحوها ، هو الذى أملى ذلك على الزجالين .

وكانت الضرائب من أهم ما يثير ثائرة جماهير الشعب ، وذلك لفداحتها وظلمها وللطرق التعسفية التى كانت تجبى بها أحيانا .

وقد بدت هذه الثورة فى صور مختلفة .

منها : النصائح التى يقدمها بعض العلماء إلى السلطان .

وللشيخ محيى الدين النووى نصيحة ثمينة ، وجهها إلى الملك الظاهر بيبرس ، طلب فيها أن يرفق بالرعية ويعدل بينها ، ويلغى المكوس التى فرضها عليها .

وقيل إن الظاهر لما خرج إلى قتال التتار بالشام ، أخذ فتوى من علمائها ، بأنه يجوز له أخذ مال من الرعية ليستنصر به ، ووقع العلماء بالفتوى ما عدا النووى ، فلما طلب اليه السلطان التوقيع امتنع . وقال له :

« إنى سمعت أن عندك ألف مملوك ، لكل منهم حياصة من ذهب ، وعندك مائة جارية لكل منهن حق من الحلى »

وطلب إليه أن ينفق ذلك أولا على الجهاد ، ثم يفتيه بالأخذ من مال الرعية .

وأرسل النووى نصيحته هذه — أو رسالته — مع الأمير بدرالدين بيلبك أمير الشام حينذاك إلى السلطان .

فلما اطلع عليها السلطان ردها ، وأنكر ما جاء فيها ، وأجاب عليها إجابة خشنة أعترض بها على هذه النصيحة . فلما وقف النووى على إجابة السلطان ، أرسل إليه رسالة جديدة ، فند فيها مزاعم السلطان واعتراضاته .

ويفهم من هذه الرسالة الجديدة أن اعتراضات السلطان تتلخص فيما يلى :

أولا : أن ما يفرضه من الضرائب ، حق للجنود لأنهم يقومون بواجب الجهاد ، بينما قعدت عنه الطوائف الأخرى .

وقد رد النووى بأن الجهاد ليس مختصاً بالأجناد . والجهاد فرض كفاية . فإذا قرر له السلطان أجناداً مخصوصين ، أنفق عليه من بيت المال . وتفرق باقى الرعية للمصالح العامة من الزراعة والصناعة وغيرها . ولا يحل للسلطان أن يأخذ شيئاً من الرعية ، ما دام بيت المال عامراً بالمال ـ وقد كان عامراً .

ثانياً : أنه يرفض نصيحة الشيخ ، ويرى أنه كان أولى به أن يتقدم بها إلى الكفار . . .

وقد رد النووى متهكماً على السلطان بقوله : كيف يقاس ملوك الإسلام وأهل الإيمان والقرآن ، بطغاة الكفار ؟ وبأى شىء كنا نذكر طغاة الكفار ، وهم لا يعتقدون شيئاً من ديننا ؟ » .

ثالثاً : أخذ يمن عليه بأنه قام مع جنوده بأعباء الجهاد وطرد الأعداء ، وأنه فتح كثيرا من البلاد والحصون .

وقد رد النووى على ذلك بأن حمد للسلطان جهاده ، وأن هذا هو واجبه ، وأن ثوابه مدخر له عند الله . وأن جهاد السلطان لا يعفى من تقديم النصيحة الواجبة إليه .

رابعاً : هدده بأنه سينتقم من الرعية ، بسبب هذه النصيحة .

وقد رد النووى على ذلك ، بسخرية لاذعة ، وبأنفة وكبرياء . قائلا : « وأما تهديد الرعية بسبب نصيحتنا ، وتهديد طائفة من العلماء ، فليس هو المرجو من عدل السلطان وحلمه . وأى حيلة لضعفاء المسلمين الناصحين نصيحة للسلطان ولهم ، ولا علم لهم به ، وكيف يؤاخذون به لو كان فيه ما يلام عليه .

وأما أنا نفسى ، فلا يضرنى التهديد ولا أكثر منه ولا يمنعنى ذلك من نصيحة السلطان . فإنى أعتقد أن هذا واجب على وعلى غيرى . وما ترتب على الواجب ، فهو خير وزيادة عند الله تعالى . إنما هذه الحياة الدنيا متاع ، وإن الآخرة هى دار القرار . وأفوض أمرى إلى الله ، إن الله بصير بالعباد .

وقد أمرنا رسول الله صلى عليه وسلم ، أن نقول الحق حيثما كنا . وألانخاف فى الله لومة لائم . ونحن نحب السلطان فى كل الأحوال ، وما ينفعه فى آخرته ودنياه ، ويكون سببا لدوام الخيرات له ، ويبقى ذكره على مر الأيام ، ويخلد به فى الجنة ، ويجد نفسه يوم تجد كل نفس ما عملت من خير محضرا . »[1]

وهكذا ، ترى هذا الشيخ العظيم ، يقف من السلطان هـذا الموقف الصلب ، والسلطان فى جبروته وعنفوان قوته . ما هابه ولا خشى وعيده ، ورمى فى وجهه بكلمة الحق سافرة صارخة ، جريئة مدوية . خوفا على الرعية ، وحفاظا على الدين ، وصونا للحق .

ومنها أيضاً : وقوف بعض قضاة الشرع وعلماء الدين ، فى وجـه السلطان ، عندما يجمعهم مجلسا ليستشيرهم فى فرض ضريبة جديدة . فكان بعضهم يمانعه فى حزم وعدم تردد ، وفى إصرار . وفى أكثر الأحايين كان لذلك أثره فى منع الضريبة أو تخفيفها .

وقد حدثناك قريبا ، عن موقف الشيخ عز الدين بن عبد السلام من السلطان المظفر قطز حينما أراد فرض ضريبة على الرعية ، ليستعين بها على قتال التتار ، وذلك عام ٦٥٨ هـ .

ومن الحوادث المماثلة :

أن السلطان قايتباى ، احتاج فى عام ٨٩٦ هـ إلى مال ينفق منه على تجاريده ضد العثمانيين . فجمع القضاة الأربعة ، وطلب إليهم إقراره على فرض ضريبة ، مقدارها إيجار سنة على الأوقاف ، وعلى الأملاك بمصر والقاهرة ، سواء أكانت

---

(١) راجع حسن المحاضرة للسيوطى ج ٢ ص ٧٥ ، ٧٧ ، ٧٩ ـ وفيه نص الرسالة الثانية للنووى — أما الرسالة الأولى فلم يسجل منها شىء .

أماكن أم أرضاً مزروعة ، أو حمامات أو طواحين أو أفراناً أو مراكب أو غير ذلك .

وبعد جدال شديد ، وتوقف ، وأخذ ورد ، اتفقوا على فرض إيجار خمسة أشهر فقط .

وأن السلطان قانصوه الغورى ولى السلطنة عام ٩٠٦ هـ والخزائن الشريفة خاوية على عروشها ، والجنود يثورون فى وجهه طلبا للنفقة والرواتب . فجمع مجلساً من الأمراء والخليفة والقضاة ، وطلب إليهم إقراره على الاستيلاء على أموال الأوقاف وعلى أرضها . وبعد جدال عنيف ، استقر الرأى على أن يأخذ من ريع الأوقاف سنة كاملة ، ومن إيجار الأملاك بالقاهرة وغيرها عشرة أشهر معجلة .

ومنها أيضاً ثورة جماهير الشعب نفسها على هذه الضرائب المرهقة . وكانت هذه الثورة نادرة . ومن أشدها ما كان فى زمن السلطان الغورى ، بسبب الضريبة التى قررها على أملاك القاهرة وغيرها ، ومقدارها إيجار عشرة أشهر عدا إيجار سنة كاملة من ريع الأوقاف - وهى الضريبة التى أشرنا اليها فى السطور السابقة .

وقد كانت طريقة الجباية تعسفية وكان فيها السجن والتعذيب والتزوير ، وسلط السلطان على الشعب عدد امن الأمراء الغلاظ لجمع هذه الضريبة .

ولما طالبوا بها أصحاب الأملاك ، أخذ هؤلاء يطالبون بها السكان ، ليدفعوها معجلة ، ليوافوا بها الجباة ، ويمنعون عن أنفسهم الإيذاء .

فاتسعت بذلك دائرة السخط والغضب ، وتجمهر القاهريون إثر صلاة يوم جمعة — ٨ المحرم عام ٩٠٧ هـ — وتعقبوا الأمراء وهم خارجون من الصلاة ، وبخاصة الأتابكى « قيت الرجبى » . وطالبوهم بالرحمة والعدل ، وبمخاطبة السلطان لتخفيف هذه الضريبة الفادحة .

وقد أخذ الأمير « قيت » وغيره من الأمراء ، فى التفلت من الجماهير وعدم الإصاخة إليهم، فأخذوا فى رجمه هو ومن معه ، فأصيب بعضهم ، وأعمل المماليك السيف فى الشعب ، حتى تفرق شمله .

وتكرر الحادث فى اليوم التالى ، وتعرضت الجماهير للأمير أزدمر المهمندار، فوعدهم بالتوسط لدى السلطان الغورى ، لتخفيف الضريبة .

وكانت النتيجة أن اكتفى السلطان بفرض إيجار سبعة أشهر ، بدلا من عشرة .

من هذا وذاك تتبين لك ملامح الاتجاه الشعبى بشأن السياسة الداخلية . — فضلا عن السياسة الخارجية .

وسترى حينما نعرض لدراسة الشعر فى البيئتين السياسية والاجتماعية ، مدى لهذه الاتجاهات جميعها ، مع التعليل والتعليق عليه .

الفصل الثالث

فى

وصف البيئة الثقافية (١)

تمهيد :

لكى نتحدث عن البيئة الثقافية ، ينبغى أن نعرف أولا ، أن البلاد المصرية عريقة ، منذ عصورها الأولى الغابرة ، فى ميادين العلوم والآداب والفنون ، وفى مضمار الحضارة والمدنية . وبدت آثار اشتغالها بذلك فى ميادين شتى من ميادين حياتها ، فى معابدها وهياكلها وآثارها ومحنطاتها ، وفى أهرامها وأبى هولها ، وفى نقوشها وبرديها . وفى مدارسها ومصنوعاتها ، مما تتحدث عنه كتب التاريخ والآثار الماثلة حتى اليوم .

هذا كله غنى عن البيان ، وغنى عن التعريف . وقد كانت مصر فى ذلك ، معلمة العالم الأولى . أو على أقل تقدير ، إحدى معلماته البارزات .

ولا ريب أنها انفردت دون سائر معلماته بألوان من العلوم والفنون ، والفلسفات والصناعات ، لونت حضارتها ، فصارت نسيج وحدها ولم تشاركها فى ذلك معلمة أخرى .

وتوالت عليها تباعا عصور مواتية معاونة ، تفسح لها الطريق فى مضمار رسالتها الإنسانيه التى دأبت على تبليغها للناس . ومنها عصور معوقة مثبطة ، تغلق أمامها السبيل ، فتنهنه من نشاطها ، وتحد من عجلتها .

---

(١) فصلنا الحديث تفصيلا وافيا عن موضوعات الثقافة ومايتصل بها ، فى المجلدين الثالث والرابع من هذه الموسوعة . ولهذا أوجزنا الحديث هنا إيجازا مناسبا للمقام ، وسطرنا مادعت إليه ضرورته .

ولكنها فى كل حالة ، تكمن فى طواياها ، نواياها الفطرية، ورغباتها الطبيعية ، وتصميمها الأكيد فى الانطلاق فى ميادين العلم الفسيحة ، لتهيء لنفسها وللناس ، مايرجون من السعادة والرفاهية والخير . وهى فى ذلك تترقب الفرص وتتحين المناسبات .

ومنذ أن بنى بها مسجد عمرو بن العاص بالفسطاط ، بعد الفتح العربى ، وهى تشهد ألوانا من حلقات العلم والأدب ، تتسع وتضيق ، وفقا لمقتضيات الظروف. وأخذت تصطبغ فى اتجاهاتها الثقافية ، بالألوان الإسلامية والعربية . وشارك فى ذلك كله مسجد عمرو ومسجد ابن طولون من بعده .

وغزا الفاطميون البلاد المصرية عام ٣٥٨ هـ . ومنذ ذلك الوقت ، وحركة العلم فيها دائبة ، ونشاط الأدب فيها لايهدأ .

وأسس الفاطميون قاهرتهم المعزية العتيدة . وفى وسطها أقاموا الجامع الأزهر المجيد ، واتخذوا منه دار عبادة ، ودار دراسة ، ودار دعاية لمذهبهم الشيعى .

وقفوا على أثره ، بإنشاء جامع الحاكم بأمر الله ، وغيره من الجوامع فى مدينة القاهرة . وشهدت البلاد منذ ذلك الحين ، عددا من أبنائها النابهين ، يبرزون فى مجالات العلم والأدب ، وفى ميادين الكتابة والشعر ، وفى آفاق الصناعة والفن ، فضلا عن ذخيرتها من الكتب .

واتسع نطاق التعليم فى عهد الأيوبيين ، الذين استولوا على حكم البلاد ، بعد الفاطميين ، منذ عام ٥٦٧ هـ . فأسسوا عددا جديداً من مدارس العلم فى القاهرة وغيرها .

وقد عنوا بنشر فقه المذاهب السنية الأربعة ، وحديث الرسول عليه الصلاة

والسلام ، ومذهب الأشاعرة . وعفوا آثار المذهب الفاطمى . وقضوا على كثير من مؤلفات علمائه ودعاته .

ويعتبر العصر الأيوبى فى جملته ، امتدادا للعصر الفاطمى ، من ناحية النشاط العلمى والأدبى — فيما عدا المذهب الشيعى وفلسفته — وشهد العصر الأيوبى ، فيما شهد ، عددا جديداً من رجالات العلم والأدب ، ومن أهل الإنشاء والشعر ، من أبناء هذه البلاد ، لايقلون عن نظرائهم من أبناء الأمصار العربية والإسلامية المعاصرة لهم ، إن لم يفوقوهم ويزيدوا عليهم فى إتقان الصناعة وسعة الإنتاج .

وحسبك أن تعلم أن من بين مخضرمى الدولتين الفاطمية والأيوبية ، القاضى الفاضل عبد الرحيم البيسانى الكاتب الشاعر العظيم ، والسياسى الكبير ، وزير صلاح الدين الأيوبى ، وقد انعقد له لواء الزعامة الأدبية ، بما استن من مناهج فى الكتابة والشعر ، ظلت مرعية من بعده ، متبعة ، مئات السنين .(١)

مصر دارة العلم والأدب

ومنذ فتح العرب مصر ، انتشر فيها الإسلام ولغته العربية ، وأخذت آدابها تصطبغ بصبغة إسلامية عربية . وتبعت — فى جملتها — آداب العواصم الإسلامية الحاكمة .

وقد تكون إقليمية الآداب المصرية ، بدت فى عدة مظاهر ، ضرورة نشوئها فى هذا المصر — أعنى البلاد المصرية — وربما فى الموضوع . إلا أن الإقليمية لم تتضح فى الأسلوب ، وفى المعانى الجزئية ، وطريقة تصويرها ، وطريقة معالجة الموضوع . وظلت اللغة بما لها من تقاليد وأوضاع ، أثيرة فى التعبير . وبخاصة بسبب هذا الراسب الغائر فى أعماق النفس العربية ، الذى يحبب إليها محاكاة القدماء .

(١) راجع مقدمة ديوان القاضى الفاضل ، للمرحوم الدكتور أحمد بدوى .

وفى الحق ، كانت اللغة المشتركة ، وأساليبها الموروثة ، وآدابها القديمة ، وأساليب القرآن الكريم ، ومناهج الفكر الإسلامى فى معالجة الموضوع ، ذات آثار ضخمة ، فى تضاؤل إقليمية الآداب القومية ، فى كل مصر من الأمصار العربية المفتتحة .

ولكن مما لاريب فيه أن دولة الخلافة العباسية ، لما قيضت لها أسباب القوة والوحدة ، فى قرنيها الأولين — على وجه التقريب — كانت آدابها وآداب بغداد — العاصمة — من السعة والسمو والقوة ، بحيث كانت نموذجا وقدوة لآداب غيرها من الأمصار التابعة .

فلما انفصلت هذه الأمصار عنها ، أخذت الظاهرة تتغير وتتحول . وبدأ هذا التحول منذ العصر الفاطمى يتضح رويدا . وطرأت أفكار ومذاهب وفلسفة وحضارة ذات ألوان ، تفارق إلى حد كبير ، ما كان منها فى بغداد . بل أخذت روح المنافسة والتسابق وحب التفوق ، تبرز ، فى تناول العلوم والآداب .

ومن هنا أخذت الإقليمية تتضح فى هذه العلوم والآداب . واستمر لها هذا ، فى العصر الأيوبى ، حتى قوى ساعدها فى العصر المملوكى .

بدأت دولة سلاطين المماليك عام ٦٤٨ هـ . فشهدت المصرع الأخير لدولة الخلافة العباسية ، وشهدت سقوط عاصمتها بغداد ، على يد التتار الوثنيين ، بقيادة ملكهم هولاكو ، وذلك عام ٦٥٦ هـ .

وبسقوط بغداد ، وزوال دولة الخلافة ، ضاق ميدان العلم والأدب بها . وقد أباد التتار عددا لا يحصى من علماء بغداد وأدبائها ، وفر من وجههم آخرون . وأتلف التتار آلافا مؤلفة من ذخائر العلم والأدب ونتاج الفكر العربى الإسلامى ، مما جهد فيه أبناء هذه الدولة العظيمة ، زهاء خمسة قرون . وبذلك قضى التتار على نتائج جهاد علمى متواصل فى هذه القرون ، أو عملوا على إخفائه

أو تشويهه . وهو حلقة مجيدة فى سلسلة المعرفة الإنسانية .

وتلفت المسلمون فى مشارق الأرض ومغاربها ، يبحثون لهم عن ملجأ يلجئون إليه ، ودارة رحيبة الصدر حانية تحتضن علومهم وآدابهم . وتكون مركزاً لها ومحوراً لأمصارها المختلفة ، القاصية منها والدانية . فلم يجدوا غير مصر وسلطنتها المملوكية وشعبها البر الكريم .

ووافق ذلك هوى فى نفس هذا الشعب ، إذ التأمت هذه الرسالة مع ماهو كامن فى طواياه من زمن بعيد ، من نوايا فطرية ، ورغبات طبيعية ، وتصميم أكيد ، فى أن يكون أداة إنسانية سامية ، تتخذ العلم والأدب وأسباب الحضارة ، وسيلة فعالة للترفيه عن الناس ، وإسعاد البشرية ، وتيسير الخير لها .

هذا ، فضلا عن العامل الجديد الطارىء على الحياة المصرية ، منذ الفتح العربى والذى أصبح أهم العوامل جميعاً ، التى تدفعها للسير قدما فى طريقها القويمة ، طريق الخير . والذى تعلقت به نفوس الغالبية الكبرى من سكانها ، وأصبح حافزا أساسيا للفرد والمجتمع فى سلوكهما ، وأعنى بذلك العامل : الإسلام .

وقد أراد الله سبحانه وتعالى ، أن يقيم من دولة المماليك — فى هذه الآونة العصيبة من تاريخ المسلمين — حاجزا منيعا ، فى سبيل تدفق سيل التتار ، كما رأيت .

وكان ذلك بدافع من عصبية مصر للإسلام والمسلمين . وبدافع حماسة شعبها الدينية ، التى حفزت إلى مقاومة أعداء الاسلام أو الغرب ، من تتار وصليبيين ، أو عثمانيين وغيرهم .

وكان من حسن سياسة سلاطينها حينذاك . أن فسحوا فى مصر مكانا لخلافة عباسية جديدة . بوءوا فيها أحد سلائل خلفاء بنى العباس . فأعادوا بذلك للخلافة شيئاً من سيرتها . ووجهوا بعملهم هذا أنظار المسلمين والعرب . فى شتى أمصارهم

إلى مصر . ولفتوا قلوبهم وأرواحهم إلى القاهرة ، باعتبارها عاصمتهم الجديدة ، ومتبوأ خلافتهم المجيدة . . .

واكتسبت مصر بذلك . مكانا فى الحياة الإسلامية ، وفى المجال العربى ، جديدا . وأصبحت عاصمتها مركزا تطيف به قلوب المسلمين قاطبة . وصارت أبوابها الحصن والحصين ، والركن الركين ، الذى يلوذ بأكنافه ذوو الحاجات العليا من أبناء البلاد الإسلامية ، ملوكا وأمراء ، وعلماء وأدباء ، وغيرهم .

وعاونها على الترحيب بهم وبآمالهم ، خيرها الموفور ، وجناها الرطب ، وماؤها العذب ، وصدرها الرحب ، وكرمها الخصب . ففاء إلى حماها كثير من الناس . ويسقط الطير حيث يلتقط الحب . . .

بذلك استعدت مصر لأن تكون مركز العلوم والآداب الإسلامية والعربية. وأن ينتقل إليها النشاط فى ذلك بعد العراق . وأن تحل القاهرة محل بغداد. وأخذت من ثم ، تملك الزمام ، وتقتعد مقعد الزعامة . وهيأ لها أهلها وسلاطينها ، ماعاونها على بلوغ هذه الغاية .

ولم تكن بلاد المغرب والأندلس ، فى هذه الظروف ، بأسعد حالا من العراق الذى وقع فريسة لعبث المحتلين . فقد أخذت الفتن تتفاقم فيها ، وتتجدد بين أهلها وحكامها ، حتى فتكت بها ، وأطمعت فيها أعداءها .

أما الشام . فقد كانت — كما علمت وفى جملة أمرها — فى عداد بلاد السلطنة المصرية . وهى ، وإن ظلت مسرحا واسعاً للفتن ، وللحروب الدامية ، بين السلاطين وأعدائهم ، شاركت مصر ، إلى حد كبير ، فى حمل رسالة العلم والأدب ، وصارت دمشق وحلب وغيرهما من عواصم الشام ، مركزا لهما ، مع تأثرها بالثقافات المصرية .

ولا نغلو إذا قلنا إن هذا العصر ، عصر ازدهار الثقافة المصرية ، التى فرضت نفسها على كثير من الأمصار العربية .

شهادة ابن خلدون :

ويحسن أن نعرض عليك ماسجله العلامة ابن خلدون « ٨٠٨هـ » ، فى مقدمته تحت عنوان « فصل فى أن التعليم للعلم من جملة الصنائع » .

لقد وازن ابن خلدون فى هذا الفصل ، بين أهل المغرب ، وعلم أهل المشرق قبيل عهده ، وإلى عهده ، ونوه بانتشار العلوم والصنائع فى المشرق . وبخاصة فى القاهرة . قال :

« وقد بقيت فاس وسائر أقطار المغرب ، خلوا من حسن التعليم ، من لدن انقراض تعليم قرطبة والقيروان . ولم يتصل سند التعليم فيهم . فعسر عليهم حصول الملكة والحذق فى العلوم . وأيسر طرق هذه الملكة ، فتق اللسان بالمحاورة والمناظرة فى المسائل العلمية . فهو الذى يقرب شأنها ويحصل مرامها .

فتجد طلاب العلم منهم ، بعد ذهاب الكثير من أعمارهم ، فى ملازمة المجالس العلمية ، سكوتا لا ينطقون ولا يفاوضون . وعنايتهم بالحفظ أكثر من الحاجة . فلا يحصلون على طائل من ملكة التصرف فى العلم والتعليم .

ثم بعد تحصيل من يرى منهم أنه قد حصل ، تجد ملكته قاصرة فى علمه ، إن فارض أو ناظر أو علم . وما أتاهم القصور ، إلا من قبل التعليم وانقطاع سنده . وإلا فحفظهم أبلغ من حفظ سواهم ، لشدة عنايتهم به . وظنهم أنه المقصود من الملكة العلمية ، وليس كذلك .

ومما يشهد بذلك فى المغرب ، أن المدة المعينة لسكنى طلبة العلم بالمدارس عندهم ، ست عشر سنة وهى بتونس خمس سنين .

وهذه المدة بالمدارس ، على المتعارف ، هى أقل ما يتأتى فيها لطالب العلم ، حصول مبتغاه من الملكة العلمية ، أو اليأس من تحصيلها . فطال أمدها فى المغرب لهذه المدة ، لأجل عسرها من قلة الجودة خاصة ، لا مما سوى ذلك .

وأما أهل الأندلس ، فذهب رسم التعليم من بينهم ، وذهبت عنايتهم بالعلوم ، لتناقص عمران المسلمين بها منذ مئين من السنين .

ولم يبق من رسم العلم فيهم ، إلا فن العربية والأدب . واقتصروا عليه . وانحفظ سند تعليمه بينهم ، فانحفظ بحفظه .

وأما الفقه بينهم فرسم خلو وأثر بعد عين . وأما العقليات فلا أثر ولا عين .

وما ذاك إلا لانقطاع سند التعليم فيها ، بتناقص العمران ، وتقلب العدو على عامتها . إلا قليلا بسيف البحر ، شغلهم بمعايشهم أكثر من شغلهم بما بعدها . والله غالب على أمره .

وأما المشرق فلم ينقطع سند التعليم فيه ، بل أسواقه نافقة ، وبحوره زاخرة ، لاتصال العمران الموفور ، واتصال السند فيه . وإن كانت الأمصار العظيمة التى كانت معادن العلم ، قد خربت ، مثل بغداد والبصرة والكوفة .

إلا أن الله تعالى ، قد أدال منها بأمصار أعظم من تلك . وانتقل العلم منها إلى عراق العجم بخراسان وما وراء النهر من المشرق . ثم إلى القاهرة وما إليها من المغرب ، فلم تزل موفورة . وعمرانها متصلا ، وسند العلم بها قائماً .

فأهل المشرق ، على الجملة ، أرسخ فى صناعة تعليم العلم ، بل سائر الصنائع . حتى إنه ليظن كثير من رحالة أهل المغرب إلى المشرق ، فى طلب العلم ، أن عقولهم على الجملة . أكمل من عقول أهل المغرب ، وأنهم أشد نباهة وأعظم كيسا ، بفطرتهم من نفوس أهل المغرب ويعتقدون التفاوت بيننا وبينهم فى حقيقة الإنسانية . ويتشيعون لذلك ويولعون به . لما يرون من كيسهم فى العلوم والصنائع . وليس كذلك . وليس بين قطر المشرق والمغرب تفاوت بهذا المقدار ، الذى هو تفاوت فى الحقيقة الواحدة » . . الخ(١)

---

(١) مقدمة ابن خلدون ، تحت عنوان « فصل فى أن التعليم للعلم من جملة الصنائع » .

النشاط العلمى

أسبابه ووسائله

أشرنا فى مناسبة سابقة إلى «التعليم العسكرى» الذى اختصت به طائفة المماليك ولم يسمح لأحد من أفراد الشعب بالاندماج فيه والتخرج به .

وكان مكانه قلعة الجبل وطباقها . وتدور برامجه على تحفيظ شىء من القرآن الكريم ، وتعلم القراءة والكتابة . ثم القيام بالتدريبات الرياضية المختلفة ، التى تهدف إلى تقوية الجسم وتكوينه تكوينا يساعده على الأعمال العسكرية وحركات القتال . ثم مزاولة أعمال الفروسية والمهارة والفتوة . مثل ركوب الخيل ورمى النشاب واستعمال القسى والطعن بالرماح ، والضرب بالسيوف ، إلى غير ذلك من أدوات القتال والحرب .

أما النشاط العلمى الذى نقصده هنا ، فهو الاشتغال بالعلوم والآداب الإسلامية العربية . وقد احتضنته الدولة إلى حد كبير . وحفزت إليه همم العلماء واتخذت من الوسائل ما ييسر له أن يؤتى أكله المطلوب .

وقد دفع إلى ذلك — كما أشرنا — الاحتلال التترى للعراق . وإبادة العلماء وإتلاف النتاج العلمى والقضاء على الحضارة العباسية .

وكذلك الاحتلال الصليبى لسواحل الشام . والخوف على الدين الإسلامى الحنيف ، أن يقضى عليه وعلى تراثه ، هؤلاء الصليبيون .

كان لهذا كله ، رد فعل عظيم فى الدولة المملوكية . فجندت إمكانياتها لصد عادية هؤلاء الأعداء جميعاً . فشنت عليهم الحروب . ودارت بينها وبينهم رحى القتال .

وإلى جانب ذلك ، قاموا بحركة إحياء علمية ، دعما لدولتهم ، وبعثا لشباب الدين وقوته ، وإعادة لمجد علومه وإبقاء لسلسلتها موصولة الحلقات ، للأجيال القادمة .

واستعانت البلاد بمن فر إليها من علماء المشرق والمغرب ففسحت لهم فى كنفها ، ورحبت بهم فى ربوعها . فتولى كثير منهم التأليف أو التدريس أو الفتوى . أو غير ذلك . سواء أكان فى مناصب رسمية أوغير رسمية .

واستمر وفود هؤلاء العلماء مطردا على وجه التقريب ، إلى مصر والشام — طيلة العصر . فعاون ذلك على دفع نشاط الحركة العلمية والتأليفية .

وقد بلغت مصر بأبنائها وبالوافدين عليها ، كثيراً من أهدافها فى مجال البعث العلمى والأدبى .

ومن الوافدين — على سبيل المثال — : ابن خلكان الإربلى[١] . وابن مالك الأندلسى[٢] . وابن أبى حجلة المغربى[٣] . وابن منظور الإفريقى[٤] . وابن خلدون المغربى[٥] .

وممن فر إلى مصر : كمال الدين بن العديم ، هجر مدينة حلب ، هاربا من التتار إلى الناصر محمد بن قلاوون فأقام بمصر حتى مات .[٦]

---

(١) راجع فوات الوفيات ج ١ — وطبقات السبكى ج ٥ — والنجوم الزاهرة ج ٧ — وحسن المحاضرة ج ١ فى المؤرخين — وشذرات الذهب ج ٥ .

(٢) راجع السلوك ج ١ ص ٦١٣ — وفوات الوفيات ج ٢ — وطبقات السبكى ج ٥ — والنجوم الزاهرة ج ٧ — وشذرات الذهب ج ٥ .

(٣) راجع المنهل الصافى ج ١ — والدرر الكامنة ج ١ رقم ٨٢٦ — وحسن المحاضرة ج ١ فى باب الشعراء .

(٤) راجع الدرر الكامنة ج ٤ رقم ٧٢٥ — وحسن المحاضره ج ١ ص ٢٥٥ — وشذرات الذهب ج ٦ ص ٧٦ — وجورجى زيدان ج ٣ .

(٥) راجع الضوء اللامع ج ٤ رقم ٣٨٧ — وحياة ابن خلدون للخضر حسين — وابن خلدون لمحمد عبد الله عنان .

(٦) تاريخ اللغة العربية لجورجى زيدان ج ٣ .

وكذلك كمال الدين المعروف بابن الأستاذ — المتوفى عام ٦٦٢ هـ — رحل إلى مصر من حلب ، لما دهمها التتار ، واشتغل مدرسا بالمدرسة الشيخونية .(١)

وهاجر من حران إلى دمشق عام ٦٦٧ هـ ، والد ابن تيمية الحرانى ، ومعه ولده هذا — تقى الدين المشهور — وكان إذ ذاك ، حدثا صغيرا . فشب وتعلم ، ونما وتفقه . ثم كان بمصر والشام ، مدرسة جامعة ، ذات فكرة وذات هدف ، وذات جهاد ووسيلة فى سبيلهما .(٢)

وذكر فى كتاب « طبقات الحنابلة » لمحمد جميل شطى ، عدد من العلماء الذين هاجروا من بغداد ، فراراً من التتار حينما دهموها .

وقد كانت غيرة السلاطين والأمراء ، على الدين ، وحماستهم له ، وتمسك كثير منهم بأهدابه . فى مقدمة الأسباب التى دفعتهم إلى المعاونة لتجديد علومه .

وقد عظموا أهل العلم ، وقدموهم فى مناسبات كثيرة ، واستشاروا بعضهم مراراً فى أمور الدولة العليا ، وسمعوا لشكاياتهم ، وأجابوا ملتمساتهم . بل توجس بعضهم خيفة منهم — كما رأينا عند إشارتنا إلى الشيخين الجليلين : العز بن عبد السلام ، ومحيي الدين النووى .

وروى أن الملك الظاهر بيبرس ، حضر مرة إلى دار العدل فى قضية بينه وبين أحد الأمراء ، أمام القاضى ابن بنت الأعز ، فقام الناس تعظيما له ، إلا القاضى ، فقد أشار إليه السلطان بعدم القيام(٣) .

وروى أن الملك المنصور لاچين ، حضر إليه مرة ، الشيخ تقى الدين بن دقيق

---

(١) السلوك ج ١ ص ٥٢٣ — وحسن المحاضرة ج ١ ص١٦٣ — وطبقات السبكى ج ٥ — والنجوم الزاهرة ج ٧ .

(٢) الدرر الكامنة — فوات الوفيات ج١ — وطبقات ابن مفلح — ومختصر طبقات الشطى — وجلاء العينين للآلوسى — وجورجى زيدان ج ٣ .

(٣) حسن المحاضرة للجلال السيوطى ج ٢ ص ٧٤

العيد القشيرى ، فقام إليه السلطان ، وقبل يده . فلم يزد الشيخ عن قوله له : « أرجوها لك بين يدى الله » .[١]

وروى أن الملك الظاهر برقوقا ، لما أنشأ مسجده . وقرر فيه شيوخا يتولون التدريس ، كان من بينهم الشيخ علاء الدين السيرامى ، مدرس الحنفية وشيخ الصوفية . وقد بالغ برقوق فى تعظيمه ، حتى فرش له سجادته بيده .[٢] إلى غير ذلك .

وشعر العلماء بمسئوليتهم ، ولا سيما أن الظروف قد واتتهم . فمن شعب متعلق بهم سامع لإرشادهم ، ملتمس لنصيحتهم وملوك ورؤساء يهابونهم . وقد فسحوا له من جنابهم ، وأسسوا لهم دور التعليم وأوقفوا عليها الأوقاف ، ورتبوا لشيوخها الرواتب ولطلابها المعونات ، من مال وطعام وكسوة ومسكن فى بعض الأحيان .

فرأى العلماء فى هذه الفترة الحاسمة الخطيرة ، من تاريخ العالم الإسلامى ، أن يغذوا السير ، ويقبلوا على التدريس والتعليم ، وعلى الفتوى والتأليف . واندفعوا بحماسة بالغة ، ونفوس متوثبة ، حتى قاموا بحركة إحياء علمية جليلة ، هى مثار العجب ومحل الفخر لمصر .

واتخذوا اللغة العربية أداة للتعبير فى المخاطبة والدرس والتأليف وغير ذلك . كما اضطرت الدولة إلى اصطناعها فى دواوينها ، ورتبت أمر رسائلها العليا ، فكانت تكتب بأساليب أدبية ، يدبجها كتاب « ديوان الإنشاء » .

دور التعليم :

وإنشاء دور التعليم يعتبر وسيلة أساسية لتنشيط الحركة العلمية ، ونشر العلم ،

---

(١) المصدر نفسه ج ٢ ص ١١٣ .

(٢) المصدر نفسه ج ٢ ص ١٦٣ .

وذلك لما تضمه من المدرسين والطلاب ، ولما يقرر فيها من المناهج والدروس . وهى البيئات الطبيعية التى ينبت فيها العلم وينمو ويزدهر .

وتتمثل دور التعليم حينذاك ، فيما أنشىء من المدارس والمساجد ، وما شيد من الخوانق والأربطة والزوايا . سواء أكانت فى القاهرة أم غيرها من البلاد . لتدرس فيها علوم الدين ومذاهب فقه أهل السنة ، وما يتصل بها .

وكان إلى جوارها ، مكاتب صغيرة ملحقة ، لتعليم الصغار مبادىء القراءة والكتابة ، وشيئاً من العلوم الأولية مع تحفيظ القرآن الكريم .

وقد فتحت هذه الدور التعليمية ، ليتعلم فيها من يشاء من أبناء الشعب . وهذا التعليم هو ما نسميه « بالتعليم الشعبى » .

وكانت مدارسه بمثابة جامعات علمية عظيمة الشأن ، نعتقد أن الجامعات الحديثة تقتبس شيئاً من نظمها .

وقد كان التعليم فيها بالمجان . ولا يرهق فيها الطالب بتحديد سن معينة ، ولا يرغم على الاستماع لشيخ بذاته ، ولا يكلف حضور درس معين ، بل كان حراً إلى حد بعيد ، فى اختيار درسه وشيخه ، وفقا لميوله الشخصية .

هذا فضلا عما كان يدر عليه من ألوان البر والمعونة ، وعما هيىء له من دور الكتب المختلفة .

وقد بدا حرص كثير من الشيوخ ، على بعض طلابهم ، فمكنوا لهم من ملازمتهم . كذلك حرص بعض الطلاب على شيوخهم فدأبوا على ملازمتهم . وبهذ أخذ العلم ينتقل من جيل إلى جيل ، وأصبح الشيخ يورث علمه تلميذه ، وأضحى التلميذ يخلف شيخه ، وربما زاد عليه .

ولم يكن إنشاء دور التعليم ـ المساجد والخوانق ونحوها ـ سياسة عامة للدولة ، مرسومة

مقررة بتخطيط محدد ، كما هو الشأن فى العصر الحديث . ولكن قصاراه أنه كان رغبة فردية للسلاطين يتنافسون فى إبرازها زلفى إلى الله وصدقة على الشعب ، لا لأن ذلك حق الشعب ينبغى أن يؤدى إليه .

ومهما يكن من أمر ، فقد ملئوا القاهرة وغيرها ، بهذه الدور ، واقتدى بهم الأمراء والرؤساء . وبلغ ما أنشىء فى القاهرة وحدها ، نحوا من سبعين مدرسة . وكان هناك مدارس فى الإسكندرية ومنية بنى خصيب ومنفلوط ، وأسيوط وبوتيج وإخميم وسوهاج وقوص وإسنا وأسوان وبلبيس ، ودمياط ورشيد والمحلة وغيرها . فضلا عن خوانق الصوفية ونحوها(١). ومن مدارس القاهرة : المدرسة الظاهرية أنشأها بيبرس . والمنصورية أنشأها المنصور قلاوون . والمارستان المنصورى أنشأه قلاوون أيضاً ـ والصاحبية أنشأها بهاء الدين بن حنا ـ ومنها مدرسة برقوق ، ومدرسة المؤيد وغيرهما.

وجرت العادة بافتتاح هـذه الدور ، باحتفال يتقدم فيه المنشىء فى ركب ، ويتصدر بالدار مجلساً ، ويشرع أحد الشيوخ فى إلقاء درس ـ فقها أو حديثاً مثلا ـ ثم تمنح المنح وتمد الموائد ويسقى الشراب . وقد يلقى بعض الشعراء أبياتا مناسبة للمقام .

وقد أنشأ الملك الظاهر بيبرس مدرسته « الظاهرية » التى بخط بين القصرين . وتم بناؤها عام ٦٦٢هـ . وجعلها وأوقف عليها أوقافا طائلة ، وألحق بهـا خزانة كتب عظيمة ، وبنى بجوارها مكتبا لتعليم الصبية القرآن الكريم ، وأجرى عليهم الطعام والشراب ورتب للمدرسة دروسا فى فقه المذاهب الأربعة ، وفى القراءات .

واحتفل بافتتاحها احتفالا شائقا ، تناظر فيه العلماء ، وتبارى الشعراء ،

---

(١) راجع : « الانتصار » لابن دقاق ج ٥ ـ وخطط المقريزى ج ٤ ـ وتقويم النيل لأمين سامى ج ١ ص ٢٠٢ ـ وحسن المحاضرة للسيوطى ج ٢ ـ وغيرها من كتب التاريخ العام ـ وفيها تفصيل لأخبار المدارس .

ومدت الموائد الحافلة . وكان شعراؤها ثلاثة :

أبو الحسن الجزار ومن شعره :

ألا هكذا يبنى المدارس من بنى ومن يتعالى فى الثواب وفى الثنا

والسراج الوراق ، ومن شعره :

مليك له فى العلم حب وأهله فلله حب ليس فيـــه ملام

وجمال الدين يوسف بن الخشاب ، ومن شعره :

قصد الملوك حماك والخلفاء فافخر فإن محالك الجوزاء . .

فلما فرغوا من إنشادهم ، أفيضت عليهم الخلع(١) .

وقد بقى إلى جانب هذه المدارس الجديدة — عدد من المدارس والمساجد المنشأة من قبل ، كالجامع الأزهر ، وجامع ابن طولون ، وجامع الحاكم بأمر الله ، ظلت الدراسة فيها مزدهرة زمناً طويلا .

واهتم منشئو هذه الدور التعليمية ، بأن تبقى مفتحة الأبواب ، عامرة بطلاب العلم ورواد المعرفة ، فأوقفوا عليها أوقافا طائلة من دور ورباع وأسواق وغيرها ، وجعلوا نظرها إلى ذريتهم من بعدهم — وربما لكى تنتفع هذه الذرية(٢) .

غير أنه كثيرا ما عبثت الأيدى بهذه الأوقاف . فكان لذلك أثر فى اضطراب سير الدراسة بهذه المدارس .

وكانوا يجرون على الطلاب — أحيانا — خبزا يوميا ويهدون إليهم أردية صيفية وشتوية ، ويوزعون عليهم الكعك ونحوه فى عيد الفطر ، واللحوم فى عيد النحر ، ويعد لهم الطعام فى رمضان .

---

(١) راجع خطط المقريزى ج ٤ — وحسن المحاضرة ج ٢ ،

(٢) راجع أخبار هذه الأوقاف فى المجلد الثانى من موسوعتنا هذه .

ويجرون لرواتب على الشيوخ والمدرسين ، وعلى الطلاب المقيمين ، ويعاونونهم بألوان من البر فى المناسبات .

خزائن الكتب :

وكثيراً ما كانت تزود دور التعليم ، بمكتبات تضم ذخائر العلم والأدب ، لتعاون الشيوخ والطلاب معا على جهادهم العلمى .

وكان بعض السلاطين مولعا باقتناء الكتب ، كالناصر حسن بن الناصر ابن قلاوون .

وكذلك بعض الرؤساء . فقد روى أن القاضى نجم الدين يحيى بن حجى — وكان من أعيان الرؤساء بمصر والشام — لما مات وجد عنده أكثر من ثلاثة آلاف مجلد من الكتب النفيسة(١) .

ومن خزائن الكتب التى اشتهرت بالقاهرة حينذاك : خزانة جامع الحاكم بأمر الله ، زوده بها الأمير بيبرس الجاشنكير وخزانة جامع الخطيرى ببولاق زوده بها منشؤه الأمير عز الدين إيدمر الخطيرى . وخزانة القبة المنصورية ، وقيل إنها كانت تحتوى على عدة أحمال من الكتب النفيسة فى مختلف العلوم ، وقفها المنصور قلاوون . وخزانة جامع المؤيد شيخ ، وقد حول إليها مئات من الكتب كانت بقلعة الجبل ، وأضاف إليها نحو خمسمائة مجلد أهداها إليه كاتب سره الناصرى بن البارزى . وخزانة المدرسة المحمودية التى أنشأها الأستادار جمال الدين محمود ـ قيل إنها كان بها كتب الإسلام من كل فن . إلى غير ذلك(١) .

---

(١) بدائع الزهور ج ٢ حوادث ربيع الأول عام ٨٨٨ هـ

(١) راجع الخطط المقريزية ج ٤ ص ١٣٢ ، ٢٤٢ ، ٢٥٢ ، ٢٥٤ .

الاتجاه التعليمى :

وكان أكثر هذه الدور التعليمية مؤسسا بمدينة القاهرة ، إذ كانت مقر السلطان ومجتمع الأمراء ، وقاعدة الجند ، ومحل الدواوين . ومهوى الرؤساء ، ومثابة الطامحين ، ومراح الجاه .

وقيدت الحركة التعليمية فى هذه الدور ، بالاتجاه الذى يرسمه منشئوها . ولكن اتجاهاتهم كانت تلتقى عند هدف واحد . وهو إحياء علوم الدين الإسلامى ، وتجديد شبابها وقوتها .

ويتضح لنا هذا ، من أخبار المدارس . إذ كان يذكر بينها أن منشىء مدرسة « كذا » قرر بها درسا فى فقه الحنفية ـ مثلا ـ أو درسا فى التفسير ، أو الحديث ، وأكثرها من دروس الدين .

ولا غرابة فى ذلك . ففضلا عن الهدف الذى أشرنا إليه من هذا النشاط التعليمى ، كانت العلوم الدينية وما يتصل بها من فنون اللغة العربية ، هى وسائل الثقافة الأولى ، فى الأمم العربية والإسلامية ، فى تلك العصور .

ولم تكن علوم أخرى ، تذكر بجوارها ، وتسمو فى الأهمية إلى ما سمت هى إليه . وقد كانت هناك بجوارها علوم أخرى كالطب والهندسة والفلك . ولكنها لم تبلغ ما بلغته علوم الدين واللغة . وكان الأمر — فى تلك العصور الماضية ، مختلفا اختلافا واضحا ، عما نشهده فى عصرنا الحديث ، من الاهتمام الضخم الأصيل بهذه العلوم الكونية .

وعلى سبيل المثال ، كان يدرس بالجامع الأزهر ، علوم الدين بمذاهبه الأربعة ، والحديث والتفسير واللغة والأدب والوعظ . وانقطع لطلب العلم نحو ٧٥٠ طالبا ، من أمم شتى ما بين عجم وزيالعة ، ومن أهل ريف مصر ، ومغاربة . وذلك حتى عام ٨١٨ هـ — على ما رواه المقريزى . وقد قال أيضاً :

« فلا يزال هذا الجامع عامراً بتلاوة القرآن ودراسته وتلقينه ، والاشتغال بأنواع الفقه والحديث والتفسير والنحو ومجالس الوعظ وحلق الذكر » .

على أنه لابد من وقفة قصيرة ، إزاء مؤسسة علمية ، أقيمت فى ذلك الزمان ، وتعتبر أعجوبة من أعاجيبه ومحمدة من محامده . ونعنى بها المارستان المنصورى الذى أنشأه المنصور قلاوون عام ٦٨٢ هـ .

وهو مستشفى عظيم ، أنفق عليه قلاوون من مال مصر ، أموالا طائلة ، وأوقف عليه نحو ألف ألف درهم سنوياً .

وكان ينقسم جملة أقسام ، منها : قسم للحميات ، وآخر للرمد ، وآخر للجراحة . وآخر للأمراض النسوية ، وآخر للإسهال .

وجهز بصيدلية تطبخ فيها أنواع الأدوية . وزود بما يحتاج إليه من أدوات وأسرة وموظفين .

وقد أسست به قاعة تلقى بها دروس الطب على الطلاب . وضمت إليه خزانة كتب قيمة .

هذا . وقد كانت سياسة مصر ، خلال تلك العصور ، ترمى إلى الترحيب بأبناء العرب والمسلمين ، على تباين أوطانهم — كما رأيت — فكانوا يفدون إليها بغية العلم وغيره . وكانت لا تفرق بينهم وبين أبنائها ، بل تفسح لهم من صدرها ، وتوسع لهم فى رحابها ، وتغدق عليهم من العلم والمال ووسائل الراحة ، ما يعينهم على بلوغ إربتهم .[1]

---

(١) راجع أخبار المساجد والمدارس ، فى خطط المقريزى ج ٤ — وفى الانتصار لابن وقان ج ٤ — وفى المجلد الثالث عن موسوعتنا هذه .

مـواد التعليم :

وقد أشرنا إلى أن علوم الدين واللغة كانت فى مقدمة المواد التعليمية . وكان من بينها فقه المذاهب الأربعة وعلوم الحديث وتفسير القرآن الكريم . وأصول الفقه ، والقراءات ، وعلم الكلام ، والصرف ، ودروس الوعظ . .

ويليها فى الأهمية مـــواد اللغة العربية ، كالأدب والنحو والبلاغة ، ثم المعقولات من منطق وطب وفلك وتقويم ورياضة .

وعنوا عناية بارزة ، بفنون التاريخ ، كالتاريخ العام ، وتاريخ مصر والقاهرة ، والسيرة النبوية ، وسير الأعلام ، وتراجم الرجال والطبقات ، وتاريخ الخطط ، واتضح هذا فى مؤلفاتهم .

ونقل ابن دقماق أن جامع ابن طولون ، كان يدرس فى عهد الملك حسام الدين لاچين — عام ٦٩٦ هـ — الفقه والحديث والقرآن والطب . وأن الجامع الأزهر اتسع فيه نطاق الدراسة — عام ٦٦٥ هـ — فتناولت الحديث والعلوم العقلية والنقلية .(١)

وروى المقريزى عن عبد الرحمن بن الصائب الحنفى ، أنه أدرك بجامع عمرو بن العاص بمصر ، بضعا وأربعين حلقة ، لإقراء العلم ، لا تكاد تخلو حلقة منها من التدريس أثناء اليوم . وذلك قبل وباء عام ٧٤٩(١) .

وذكر السير وليم موير ، قال :

« إنه بنى فى عهد المماليك مدارس وكليات لتعليم الناس علوم الطب والفلسفة والفنون والعلوم الرياضية والطبيعية »(٢) .

---

(١) التعليم فى مصر ، ص ٤ ، ٥ .

(٢) تاريخ دولة المماليك للسير وليم موير ، تعريب محمود عابدين وسليم حسن ، ص ١٨٩ .

الكتب الدراسية :

وباستقراء تراجم الأعلام ، نستطيع القول إن من الكتب التى كانت موضع العناية ، حينذاك ، للحفظ والدراسة : المنهاج الأصلى للنووى . والشاطبيتان فى فى القراءات . والعمدة لحافظ الدين النسفى فى أصول الفقه ، والكافية لابن الحاجب فى العربية . ومختصر القدورى فى الفقه . والأربعون حديثاً النووية . وتلخيص المفتاح فى البلاغة . والجعبرية فى الفرائض . والخزرجية والهداية لابن الجزرى . والكنز فى فقه الحنفية . وألفية ابن مالك فى النحو . ومختصر أبى شجاع . ونظم قواعد الإعراب لابن الهائم . وإيساغوجى فى المنطق . وفصيح ثعلب فى متن اللغة . وكتب الحديث ومنها موطأ مالك وصحيح البخارى ، وصحيح مسلم .

اختيار الشيوخ :

وكانت هناك عناية عظيمة ، باختيار الشيوخ لتولى التدريس ، من بين المشهورين ، ومنهم على سبيل المثال :

بالمدرسة الصلاحية : تقى الدين بن رزين . وتقى الدين دقيق العيد القشيرى . وبرهان الدين الخضر السنجارى . وتاج الدين بن بنت الأعز . وتقى الدين بن بنت الأعز . والبهاء السبكى وبرهان الدين بن جماعة . والسراج البلقينى .

وبالمدرسة الكاملية ، وهى دار الحديث : أبو عمرو فتح الدين بن سيد الناس . وبدر الدين بن جماعة . والحافظ زين الدين العراقى ، وسراج الدين ابن الملقن .

وبالمدرسة الظاهرية القديمة : تقى الدين بن رزين لفقه الشافعية . ومحب الدين بن العديم لفقه الحنفية . والحافظ شرف الدين الدمياطى للحديث . وكمال الدين القرشى للقراءات .

وبالمدرسة الظاهرية الجديدة « مدرسة برقوق » : علاء الدين السيرامى ، وقد

ولى مشيختها وتدريس فقه الحنفية . وأوحد الدين الرومى لفقه الشافعية وشمس الدين بن مكين لفقه المالكية ، وصلاح الدين بن الأعمى لفقه الحنابلة . وأحمد زادة العجمى لتدريس الحديث . وفخر الدين الضرير لتدريس القراءات . وسراج الدين البلقينى للتفسير والوعظ .

وبالجامع المؤيدى :شهاب الدين بن حجر العسقلانى لفقه الشافعية . ويحيى بن محمد البجائى المغربى لفقه المالكية ، وعز الدين عبد العزيز البغدادى لفقه الحنابلة، وبدر الدين محمود العنتابى لتدريس الحديث . وشمس الدين محمد بن يحيى للقراءات. وشمس الدين محمد بن سعد الديرى لفقه الحنفية ، وقد ولى مشيخة الصوفية بالجامع (١) .

مراحل الدراسة وإجازاتها :

وتنقسم مراحل التعليم الشعبى - بحسب استنباطنا - ثلاثا،وكل منها غير محدود بسن معينة ولا بمدة محددة ، وهى :

الأولى : مرحلة الصغر ، وفيها يدخل التلميذ مكتباً يحفظ فيه القرآن الكريم ويعلم شيئاً من الخط والإملاء ونحوهما .

والثانية : فى بدء الشباب وفيها يكب الطالب على كتب العلم كالفقه والحديث والأصول والنحو والصرف ، ومنها المتون وبعض الكتب التى سبق لنا ذكرها. فيحفظ الطالب منها ما وسع جهده وقدرت عليه طاقته وسمت إليه همته ، وعاونه عليه استعداده . ثم يعرض محفوظاته على شيوخ من جلة عصره . فإذا اقتنع أحدهم بما عرضه عليه فاختبره ووجده حافظاً جيد الحفظ ، منحه « إجازة عراضة » وهى شهادة باجتيازه المرحلة الثانية .

---

(١) راجع أخبار المدارس فى حسن المحاضرة ج ٢ . والانتصار ج ٤ ، والخطط ج ٤ - والمجلد الثالث من موسوعتنا هذه .

وكلما جمع الطالب من هذه « الإجازات » عدداً أكبر كان ذلك أدعى إلى تقديره ، وأدل على سعة مجهوده ومبلغ إقدامه على ارتياد العلم . ويعد ما حفظه من الكتب والمتون فى فنون مختلفة رصيدا علمياً وذخيرة هامة تعينه وترشحه وتعده للمرحلة التالية ، وهم أهم المراحل .

والثالثة : فى إبان الشباب وينعه وقوته . وهى أهم المراحل كما ذكرنا . ويعكف فيها الطالب على الدراسة والبحث الواسع العميق المستوعب ، ويدخل ميدان الجدل والمناقشة معاً ، وطور الفهم والتساؤل والموازنة والحكم . حتى يستقيم لسانه ويثبت جنانه ويحصف عقله ويتفتق ذهنه وتجود قريحته ويستنير رأيه . ويستقصى فى سبيل ذلك كتباً عدة فى الفقه أو الحديث أو النحو أو القراءات أو نحوهما استقصاء ، دراسة وفهماً ، على شيخ أو أكثر من شيوخ العلم ، يختاره أو يختارهم بمحض رغبته وملء حريته . وكلما كان الطالب له شيوخ كثيرون ، ومن الشيوخ الممتازين كان ذلك أدعى إلى تقديره وأيسر إلى بلوغه أربته من العلم ، وأدل على جديته فى طلبه . — ومن الطريف أن تعلم أن الشيخ محيي الدين النووى كان وهو طالب يحضر اثنى عشر درساً فى اليوم[1] .

وإذا أتم الطالب دراسة مادة من مواد العلم كالفقه مثلا أو الحديث فى أحد كتبه اختبره فيها شيخه اختباراً موكولا إلى مشيئته وإرادته ، لا دخل لأحد غيره فيه . والشواهد العملية تدل على دقة هذا الاختبار ومراعاة الأمانة العلمية فيه . فإذا نجح الطالب فى اختبار شيخه منحه الشيخ « إجازة » بالفتوى ، أو التدريس أو رواية الحديث مثلا أو القراءات أو غير ذلك . ويحرص الطالب الممتاز عادة على أن يجمع الكثير من هذه الإجازات العلمية التى تتعدد بتعدد شيوخه عادة . وكثيراً ما ترى الطالب فيما بعد يؤلف « معجماً » لشيوخه الذين درس عليهم ويتحدث عن علاقته بهم وعن تاريخهم ومحاسنهم .

---

(١) راجع ترجمته فى طبقات الحفاظ للذهبى .

وكما اتجه كثير من الطلاب إلى إجادة فقه أحد المذاهب الأربعة والتخرج فيه، اتجه كثيرون أيضاً إلى إجادة الحديث رواية ودراية . واعتمدوا فى ذلك اعتماداً كبيراً جـــداً على مشافهة شيوخ الحديث الحفاظ الذين يحفظونه مشافهة عن شيوخهم بسند موصول ، وربما بعدة روايات وأسناد . ولهذا توالت طبقات الحفاظ والرواة فى هذا العصر وكثر عددهم فى كل طبقة .

وكانت « إجازات العراضة » و « الإجازات العلمية » بالفتوى أو التدريس أو رواية الحديث تكتب بعبارة أدبية بارعة يراعى فيها السجع والمحسنات البديعة المتبعة فى الأساليب الأدبية إذ ذاك . كانت هذه الإجازات بأسلوبها ، لا بموضوعها ، مظهراً من مظاهر الأدب فى ذلك العصر (١) .

وفيها يشهد الشيخ بأن تلميذه قد عرض عليه ، أو قرأ وفهم كتاب كذا. وأنه أجاد ما حفظه حفظاً ، أو أجاد ما فهمه فهماً ، ويضفى الشيخ على تلميذه آيات الحمد والثناء ، ويأذن له فى « الإجازة العلمية » بمزاولة التدريس أو الفتوى أو رواية الحديث مثلا ، ويوصيه بالتخلق بصفات العلماء . وتكتب الإجازة بالفتيا بخط خاص وعلى ورق خاص (٢) .

وينبغى ملاحظة شيئين :

الأول: أنه ما من متعلم مثقف فى هذا العصر إلا وقد أخذ من هذه الدراسات الدينية العربية بنصيب، بل كان لابد له من أن يتمذهب بأحد المذاهب الأربعة ، وأن تضم نسبته إلى مذهبه ، إلى اسمه ، فيقال فلان بن فلان الشافعى ، مثلا أو الحنفى .

وكل ذى علم أو فن من غير العلوم الدينية ، كالمنطق والطب والفلك ، لابد

---

(١) راجع صبح الأعشى ج ١٤ ص ٢٢٧ ، ٣٢٢ـ وديوان ابن الوردى ص ١٧٤ وبهما أنواع من الإجازات .

(٢) راجع صبح الأعشى ج ١٤ ص ٢٢ .

له أن يمر بهذا الضرب من التعليم الذى قوامه علوم الدين ثم علوم اللغة . فيأخذ منه بنصيب ، ثم يلوى عنانه إلى مايريد التخصص فيه من الطب أو الفلك أو المنطق مثلا .

ترى ذلك ماثلا بوضوح فى تراجم الأعلام الذين برزوا فى غير العلوم الدينية أو العربية ، فإن قصة حياتهم تروى فيها عادة خط سيرهم فى هذا التعليم أولا .

حتى علماء العربية الذين تخرجوا فى النحو أو البلاغة، أو أدباء العربية الذين برعوا فى الكتابة أو الإنشاء ، كان لابد لهم من اجتياز مراحل التعليم الدينى أو بعضها على الأقل . وترى هذا ماثلا أيضاً فى تراجمهم .

الثانى : أن ثمة إجازة أخرى غير ما ذكرناه وهى « الإجازة الأدبية » ، وهى إذن برواية آثار أدبية ومؤلفات نثرية أو شعرية .

وهذا الضرب ليس من الإجازات العلمية . ولكنه لون من ألوان المجاملات بين الأصدقاء وضرب من ضروب التقدير ومظهر من مظاهر الصداقة بين صديق وصديق ، أى المجيز والمجاز .

وهذا الضرب يسبقه عادة « استدعاء » أو « استجازة » أى طلب إجازة . يتقدم به الصديق طالب الإجازة إلى المجيز يسأله أن يأذن له فى رواية آثاره الأدبية ، فيكتب له الآخر هذه « الإجازة » إذنا بالرواية . فيصبح وكأنه راوية من رواة أدبه .

والاستجازة والإجازة فى هذا المجال ، رسالتان يتقارض الصديقان فيهما الثناء والتقدير ، ويتبادلان الحمد وذكر المآثر . ويكتبانهما بالأسلوب الأدبى البديعى المتبع حينذاك .

ومن أمثلتهما استجازة صلاح الدين الصفدى لابن نباتة برواية آثاره الأدبية « وإجازة » ابن نباتة له بذلك[1] .

---

(١) راجع خزانة الأدب باب التورية . والوافى بالوفيات ج ١ ـ والدرر الكامنة ج ٤ رقم ٥٨٥ .

نشعر مما سبق بيانه أن العلماء قد وجدوا أسبابا عدة ووسائل كثيرة أتيحت لهم تحفز إلى النشاط العلمى ، وهيىء لهم من فجاج العمل والدأب ما وسعه الجهد ذلك الحين ، وما يشجع على المضى قدما فى إحياء علوم الدين وما إليها من وسائل المعرفة .

ففتحت المدارس وأوقفت عليها الأوقاف الدارة ورتبت الأجور والرواتب للعلماء والطلاب وأغدقت المعونات بين الآونة والأخرى ، وزودت المدارس بدور الكتب ، ورفعت منازل العلماء . إلى غير ذلك مما رأيت وسمعت . وأدى ذلك إلى منافسة كريمة بينهم كان لها أثر عظيم فى نتاج علمى جليل .

وقد دأب العلماء على التعليم وتخريج الطلاب ـ كما رأيت وترى ـ وكذلك دأبوا على التأليف والتصنيف ، حتى أصبحت البلاد المصرية مراح العلم ومورد الأدب وميدان الفن .

وننقل إليك ما شهد به العلامة ابن خلدون « ٨٠٨ هـ » ، وما سجله فى مقدمته عن مبلغ العلوم والفنون ، ومبلغ العناية بهما فى البلاد المصرية ، لعهده ، قال :

ونحن لهذا العهد نرى أن العلم والتعليم ، إنما هو بالقاهرة من بلاد مصر ، لما أن عمرانها مستبحر ، وحضارتها مستحكمة ، منذ آلاف السنين . فاستحكمت فيها الصنائع ، وتفننت . ومن جملتها تعلم العلم . وأكد ذلك وحفظه ، ما وقع لهذه العصور بها منذ مائتين من السنين فى دولة الترك من أيام صلاح الدين بن أيوب . وهلم جرا .

وذلك أن أمراء الترك فى دولتهم يخشون عادية سلطانهم على من يتخلفونه من ذريتهم ، لماله عليهم من الرق أو الولاء ، ولما يخشى من معاطب الملك ونكباته ، فاستكثروا من بناء المدارس والزوايا والربط . ووقفوا عليها الأوقاف المغلة ، يجعلون فيها شركا لولدهم ، بنظر عليها أو نصيب منها . مع ما فيها غالباً من الجنوح إلى الخير ، والتماس الأجور فى المقاصد والأفعال . فكثرت الأوقاف لذلك .

وعظمت الغلات والفوائد وكثر طالب العلم ومعلمه ، بكثرة جرايتهم . وارتحل إليها الناس فى طلب العلم من العراق والمغرب ، ونفقت بها أسواق العلوم ، وزخرت بحورها . والله يخلق ما يشاء »[1] .

تشجيع المؤلفين :

غير أننا بالرغم مما سبق بيانه ، لم نجد من الحوادث والوقائع ما يدلنا على أن المؤلفين من العلماء وجدوا ما يشجعهم على التأليف والمضى فيه ، تشجيعاً يناسب ما بذل لهم فى النواحى الأخرى ، وما هيء لهم من الوسائل التى أشرنا إليها .

ونعنى أنهم لم يجدوا تشجيعاً مغرياً ينهض فى نفوسهم عامل الإقدام ويغريهم بالمغامرة الواسعة فى سبيـــل التأليف ووفرته وجودته : سوى الوظائف التى كانوا يلونها .

وربما صادفتنا بعض وقائع التشجيع . ولكنها فى جملتها أريحية فردية ، وهوى وقتى وهزة إلى الجود وجيزة مقتضبة ، لاتقاس على نظائرها فى العصور السابقة .

ومن هنا نشعر شعوراً قوياً بجلال هذا الإقدام العجيب من العلماء الذى اقتحموا به ميدان التأليف واضطلعوا بأعبائه . فأية قوة نفسية تلك التى كانوا يدخرونها بين ضلوعهم . وأية شجاعة قلبية تلك التى كانوا يحتازونها بين حناياهم . إن بعضهم ، بل كثيراً منهم ، يعتبر هاوياً من هواة التأليف ، فقد تعددت مؤلفاته فى شتى العلوم حتى بلغت المئات . مما لامثيل له فى عصور أخرى .

على أننا — وقد اعترفنا بضعف هذا العامل — عامل التشجيع المادى للمؤلفين — باعتباره حافزاً من حوافز الاشتغال بالتأليف ، وأنه لا يرقى فى

---

(١) راجع مقدمة ابن خلدون تحت عنوان « فصل فى أن العلوم إنما تكثر حيث يكثر العمران وتعظم الحضارة » — وتقويم النيل ج ١ ص ٣٠٢ ومصر والنيل ص ١٥ ، لأمين سامى .

جملته إلى مستوى غيره من الحوافز ، لا نرى مناصاً إنصافاً للعصر ، من أن نذكر لك بعض نماذج هذا التشجيع . فمن ذلك :

ما ذكره ابن أبى حجلة المغربى عن كتابه « ديوان الصبابة » . فقد قال فى مقدمته : إنه احتفظ لنفسه بهذا الكتاب بعد تأليفه حتى برز له مرسوم شريف من الملك الناصر حسن بطلبه فقدمه إليه .

وكذلك روى ابن أبى حجلة عن كتابه « سكردان السلطان » فإنه ألفه للسلطان الناصر حسن أيضاً .

وكلا الكتابين فى جملتهما ، من كتب الأدب . — ولم يشر المؤلف عما شجعه به السلطان من التشجيعات المادية .

وذكر السيوطى أنه ألف كتابيه « الأساس فى فضل بنى العباس » . و « رفع البأس عن بنى العباس » للخليفة المتوكل على الله أبى العز عبد العزيز «٩٠٣هـ»[1].

وألف المؤرخ أبو بكر بن أبيك كتابه « كنز الدرر وجامع الغرر » للسلطان الناصر محمد بن قلاوون[2] .

وروى أن السلطان الأشرف الغورى ألفت له كتب . ومنها كتاب « نفائس المجالس السلطانية فى حقائق الأسرار القرآنية » لحسين بن محمد الحسينى . وكتاب « الكوكب الدرى فى مسائل الغورى » . وقد نشر الكتابان ملخصين عام ١٩٤١م باسم « مجالس الغورى » .

وروى جورجى زيدان ، أن محمدا القوصوى الطبيب ألف للغورى بإشارة منه كتابه الطبى « كمال الفرحة »[3] .

وروى جورجى زيدان أيضا أن عماد الدين موسى بن محمد اليوسفى المصرى

---

(١) حسن المحاضرة ج ٢ ص ٧٢ .

(٢) تاريخ آداب اللغة العربية ج ٣ ص ١٩٢ .

(٣) جورجى زيدان ج ٣ ص ٢٥٤

«٧٥٩هـ»، ألف للسلطان الظاهر جقمق كتابه «كشف الكروب فى معرفة الحروب وهو فى الفنون العسكرية .

وروى أيضاً أن محمد بن لاجين الحسامى الطرابلسى الرماح ألف كتابه فى الفروسية وهو بغية القاصدين فى العمل بالميادين ، للأمير سيف الدين المارديني الذى كان نائب حلب.

وأن حسن بن عبد الله العباسى ألف كتابه «آثار الأول فى تدبير الدول» للسلطان المظفر بيبرس الجاشنكير المنصورى .

وأن محمود بن إسماعيل الجيزى ألف كتابه «الدرة الغراء فى نصائح الملوك والولاة والوزراء» للملك الظاهر أبى سعيد جقمق العلائى .

وأن شهاب الدين الأشرفى ألف كتابه «البرهان فى فضل السلطان» للسلطان الظاهر خشقدم(١) .

وهذه المؤلفات التى ذكرها جورجى زيدان ليست فى صميم العلوم أو الآداب الإسلامية . ومع ذلك فلم يشر المؤلف عما أعطى هؤلاء المؤلفون من المنح المادية لقاء مؤلفاتهم .

هذا ومن الكتب التى ألفت أيضاً للسلاطين أو الأمراء :

«سيرة الملك المؤيد شيخ» : كتبها شمس الدين بن ناهض الفقاعى ما بين نظم ونثر ، للملك المؤيد وقدمها إليه عام ٨١٨هـ (٢) .

«سيرة الملك الظاهر جقمق» كتبها له شهاب الدين بن عربشاه . ورأيت منها نسخة مصورة تصويرا شمسيا .

«روض المناظر» . كتبه قاضى القضاه محب الدين بن الشحنة المتوفى عام

---

(١) راجع جورجى زيدان ج ٣ ص ٢٥٤ ، ٢٥٧ ، ٢٥٩ ، ١٨٢ تباعا.

(٢) خزانة الأدب لابن حجة ص ٨٠

«٨١٥هـ» إجابة لرغبة الأمير عماد الدين محمد نائب السلطان بقلعة حلب . وبهذا الكتاب حديث عن المخلوقات والمشاهير وغير ذلك(١) .

« تذكرة الملوك إلى أحسن السلوك » ألفه أحد الفضلاء برسم السلطان الغورى . وبه سير ملوك ووزراء وقضاة (٢).

نتائج النشاط العلمى

أجيال العلماء والأدباء والمؤلفين :

وتتابعت طبقات العلماء ، وتتالت أجيال الأدباء ، على مدى العصر وتوالى أيامه. وهذه نتيجة طبيعية لحركة التعليم الدائبة ، ولوفود الطلاب إلى دور التعليم من كل حدب وصوب ، وعنايتهم بتحصيل العلم وفهمه .

وقد زخر العصر بالعدد الوافر ، من علماء المذاهب الأربعة ، والعلماء المجتهدين ذوى الآراء . وزخر بكثير من المتصوفة وأهل الكلام والمنجمين والفلكيين والمؤرخين . وغيرهم . وكذلك تتابعت طبقات المؤلفين من بينهم .

وكان أكثرهم عدداً علماء الدين ورجال المذاهب وحفاظ الحديث ، ويليهم رجال الأدب واللغة وعلومها ، ثم غيرهم .

وكتب سير الأعلام والطبقات ، خير شاهد على ما نقول . وهى وفيرة زاخرة بسيرهم ، عامرة بأخبارهم .

ومنها فوات الوفيات لابن شاكر الكتبى . والوافى بالوفيات للصفدى ، والدرر الكامنة لابن حجر العسقلانى ، والضوء اللامع للسخاوى ، وعقد الجمان للبدر العينى .

(١و٢) فهرس دار الكتب ج ٥

ومنها طبقات الشافعية للتاج السبكى ، وطبقات الحفاظ لشمس الدين الذهبى، وطبقات النحويين واللغويين للجلال السيوطى ، وطبقات الحنفية لعبد القادر القرشى ، وطبقات الحنابلة لابن رجب البغدادى الدمشقى . إلى غير ذلك .

وهذه الكتب مليئة بأنباء علماء مصر فى هذه الحقبة . ومن بينها ما ترجم لأعلام فترة من فتراتها خاصة . وذلك كالدرر الكامنة ، فهى فى تراجم أعيان المائة الثامنة ، وكالضوء اللامع . فهو فى أعيان القرن التاسع .

ومن باب التعريف بهذه الأسفار الزاخرة ، نذكر لك ـ على سبيل المثال ـ واحداً منها : وهو الضوء اللامع .

مؤلفه شمس الدين السخاوى تلميذ القاضى المؤرخ شهاب الدين بن حجر العسقلانى . ويقع الكتاب فى اثنى عشر جزءاً . وموضوعه تراجم أعلام القرن التاسع الهجرى الذين عاشوا فيه وشهدوا جزءاً منه . وهو حلقة هامة فى سلسلة كتب تراجم أعلام العصر المملوكى : وهو الحلقة التالية لكتاب ابن حجر العسقلانى المسمى « الدرر الكامنة » الذى ترجم فيه لأعيان المائة الثامنة .

ويحتوى كل جزء منه على نحو ألف ترجمة . وتبلغ جملة تراجمه نحواً من خمسة عشر ألف . وكلهم من رجال قرن واحـــد فقط وهو التاسع الهجرى . وبينهم كثيرون ممن رآهم السخاوى أو سمع بهم من معاصريه ، إذ أنه عاش فى القرن التاسع المذكور ومات عام ٩٠٢ هـ. فأدى بكتابه هذا جميلا لا ينسى لمعاصريه إذ خلد ذكرهم وسجل محامدهم . ولولاه لضاع اسم كثير منهم كما ضاع غيرهم .

وحقيقة أن السخاوى جمع فى كتابه هذا بين أصناف شتى من الأعلام فبينهم السلطان والأمير والقاضى والوزير والكاتب والشاعر والفقيه والمجتهد والشافعى والحنفى والمصرى والشامى والحجازى، وغير هؤلاء وهؤلاء من ألوان الرجال فى كل فن وكل صناعة وكل منصب وكل موطن ، ممن عاش فى القرن التاسع الهجرى فهو كتاب جامع عظيم .

ونصيب علماء مصر وأدبائها وطبقات فقهائها وأفذاذها فى كل علم وفن وصناعة هو نصيب الأسد، فقد خلد الرجل أسماء مئات منهم نبغوا وبرزوا فى قرن واحد وهو القرن التاسع.

وتحدث فى ترجمة كل منهم عن اسمه ولقبه وكنيته وموطنه ومسكنه ودراسته وشيوخه وتخرجه فى علومه أو صناعته، ووظائفه التى تقلب فيها ووقائع حياته وأخلاقه ومسراته ومساءاته، وأقاربه وأبنائه وتلاميذه ومؤلفاته ومدى أهمية هذه المؤلفات، إلى غير ذلك من مقتضيات الترجمة الفنية العاجلة.

وحقيقة أيضاً أن الرجل لم تطرد تراجمه على هذا الغرار دائماً، ولكنه اتبع هذا المنهج فى كثير من هذه التراجم، وبخاصة فى تراجم أنداده ومعاصريه الذين عاشوا معه تحت سماء القاهرة، وفيمن عاشوا وعاصروا شيخه ابن حجر أيضاً - توفى عام ٨٥٢هـ - وهذا على وجه التقريب.

وبعد فهذا كتاب من كتب، تعرضت لبيان فضل علماء مصر وأدبائها فى العصر المملوكى وبيان عددهم وطوائفهم وطبقاتهم ومآثرهم.

ومن هذه الكتب جميعاً تتضح لنا ضخامة هذه الأعداد وسعة هذه الطبقات ونفاسة هذه المآثر.

وقد نشط كثير من هؤلاء الأفذاذ إلى التأليف أو الفتوى أو التدريس أو الإمامة أو الخطابة الدينية أو الوعظ. وشغل الواعون منهم مناصب القضاء ونيابة الحكم وكتابة الإنشاء وما يناسبهم من وظائف دواوين الدولة علياها وغير علياها، كالوزارة والحسبة.

وشغف بعضهم بالمحاورات والمناظرات فى علوم الدين وعقائده ورد الشبه، ودفع الشذاذ، ومكافحة أصحاب المذاهب الخارجة كالجهمية والمعطلة ونحوهما، وما كان أكثرها حينذاك. وخف بعضهم لوضع الرسائل العاجلة فى ذلك. فكان للبلاد من وراء ذلك كله حركة فكرية عظيمة نافعة قيمة ممتعة، كما سنوضحه فى مقام آخر.

نماذج من العلماء والأدباء :

ونضع بين يديك ، ثبتا وجيزاً بأسماء بعض علماء العصر وأدبائه ، نماذج وأمثلة فحسب ، لا استقضاء فيها ولا استيعاب . وأنى لك ذلك ؟ .

فمنهم بترتيب الوفيات على وجه التقريب :

من رجال الحديث :

المنذرى المصرى ، والرشيد العطار ، والفتح بن سيد الناس ، والذهبى ، وعز الدين ابن جماعة ، وزين الدين العراقى ، وولى الدين أبو زرعة العراقى ، وابن حجر العسقلانى ، وبدر الدين محمود العينى ، وشهاب الدين القسطلانى .

ومن علماء الشافعية :

تاج الدين بن بنت الأعز ، وابنه تقى الدين ، وتقى الدين بن رزين . وزين الدين بن المرحل ، وبدر الدين بن جماعة ، وابنه عز الدين ، والعماد الإسنوى ، وأخوه جمال الدين . وابن الملقن . وابن العماد الأقفهسى ، والجلال المحلى ، وعلم الدين البلقينى . وشرف الدين المناوى .

ومن علماء المالكية :

شرف الدين السبكى ، وتاج الدين الفاكهانى ، وعبد الواحد بن شرف الدين ابن المنير . وابن الحاج العبدرى الفاسى ، صاحب كتاب المدخل ، والزواوى ، وتقى الدين بن الإخنائى ، وشمس الدين بن مكين ، وبهرام بن عبد الله . وابن خلدون صاحب المقدمة ، وشمس الدين البساطى ، وعبدة بن على الأنصارى الزرزائى .

ومن علماء الحنفية :

وجيه الدين القوصى ، وكمال الدين بن العديم ، وفخر الدين عثمان المارديني ، وفخر الدين الزيلعى ، وتاج الدين بن مكترم ، وأمير كاتب الإتقانى ، والسراج

الهندى ، وأكمل الدين البابرتى ، وبدر الدين محمود الكلستانى ، وقارىء الهداية والكمال بن الهمام ، وتقى الدين الشمنى . وأمين الدين الأقصرائى .

ومن علماء الحنابلة :

نجم الدين الحرانى ، وموفق الدين المقدسى . وناصر الدين الكنانى العسقلانى وعماد الدين الحنبلى . ونورالدين الحكرى . وجلال الدين البغدادى نزيل القاهرة ونجم الدين الباهى . وابن مغلى والذين الزركشى .

ومن علماء القراءات :

ابن وثيق ، والناشرى ، والكمال الضرير ، والرضى الشاطبى ، والراشدى ، والحرائدى ، وسحنون ، والمزراب ، والشطنوفى على بن يوسف ، وشمس الدين الواسطى ، وابن الصواف ، والزرازرى والزراتيتى .

ومن علماء نحو اللغة :

أمين الدين المحلى ، وحافى رأسه محيي الدين الإسكندرانى ، وابن مكرم الإفريقى صاحب لسان العرب ، وجمال الدين بن هشام المصرى ، والسمين شهاب الدين الحلبى نزيل القاهرة ، وبهاء الدين بن عقيل ، وبدر الدين الدمامينى .

ومن علماء المعقولات وما يتصل بها كالطب والحكمة والتنجيم :

نجم الدين الإدفوى جعفر بن مطهر ، كان طبيباً وفيلسوفا وشاعرا . وعلاء الدين بن النفيس شيخ الطب بمصر وكان مشاركا فى الفقه والأصول والحديث والمنطق والعربية وشمس الدين الأصبهانى كان بارعا فى الأصول والجدل والمنطق مشاركا فى النحو والشعر وغيرهما . وعلاء الدين الباجى كان إماما فى المنطق والأصول . والصفى الهندى كان فقيها أصوليا متكلما . وعلاء الدين بن صغير قيل إنه كان أعجوبة زمانه فى الطب . وقنبر بن عبد الله الشروانى كان ماهرا فى العلوم العقلية والعلامة محيي الدين الكافيجى كان إماما فى المعقولات .

ومن المؤرخين :

ابن خلكان، وبيبرس المنصورى، وابن المتوج، والكمال الإدفوى، والنويرى، وابن الفرات، وابن دقماق، والأوحدى، والمقريزى، والبدر العينى، وابن تغرى بردى، وابن حجر العسقلانى، والسخاوى، والجلال السيوطى، وابن إياس الحنفى .

ومن الأئمة المجتهدين :

العز بن عبد السلام، ومحيى الدين النووى، وتقى الدين بن دقيق العيد القشيرى، وتقى الدين بن تيمية الحرانى، وتلميذه شمس الدين بن القيم، وتقى الدين السبكى، وجلال الدين السيوطى، وزين الدين زكريا الأنصارى(١) .

هذا وسنشير إلى الكتاب والشعراء فى الصفحات التالية عند حديثنا عن الثقافة الأدبية .

حركة التأليف .

أما نشاط حركة التأليف، فهو فى الحق مثار العجب، فقد وضع كثير من العلماء مؤلفات عظيمة القيمة. والمؤلفات هى الثمرة الخالدة والأثر الباقى على الزمن. والوصلة الصالحة بين ماضى العلم ومستقبله .

ولمصر بهذه المؤلفات التى وضعها بنوها فى هذه الحقبة، الفخر كل الفخر . إذ ماجت ميادين العلم على اختلافها بما صنفوه وألفوه . وقد استطاعوا بحق أن تكون مؤلفاتهم حلقة ذهبية فى سلسلة العلوم الإسلامية والعربية، كان وجودها ضروريا لحياة هذه العلوم .

وتبلغ هذه المؤلفات عدة آلاف . وحسبك أن تعلم أن بعض العلماء - كابن

---

(١) راجع تراجمهم جميعاً فى كتب تراجم الأعلام، وكتب الطبقات . - وراجع أيضاً حسن المحاضرة ج ١، تحت عناوين : « فقهاء الحنفية » « فقهاء المالكية » . . الخ .

حجر وابن يتيمية والجلال السيوطى مثلا - تبلغ مؤلفاته مئات . فقد قيل إن مؤلفات ابن تيمية تربو على خمسمائة . وابن حجر على مائة وخمسين . والسيوطى على ستمائة .

وكانت هذه الكتب تملأ - بلا ريب - دور الكتب فى القاهرة . بجوار ماتقتنيه من كتب العصور السابقة . فلما فتح العثمانيون مصر عام ٩٢٣ هـ وأزالوا حكم المماليك، نهبوا هذه الذخائر العلمية فيما نهبوا وحملوها إلى القسطنطينية. ولا يزال كثير منها مغتربا عن وطنه حتى اليوم ، ومبعثرا فى عواصم أوربا .

ونحن فى أشد الحاجة إليها لنكشف على أضوائها تاريخنا وحقائقه وشخصيتنا وسماتها ومقوماتها .

وقد جدت الهمة فى أيامنا ، بفضل ثورتنا المجيدة . لإعادتها ولو مصورة . ولإخراجها فى أثواب قشيبة .

وأكثر الكتب عددا كتب العلوم الدينية كالفقه بمذاهبه والحديث بألوانه متنا ومصطلحا وشيوخا وشروحا ، وكالتصوف .والتفسير ، والقراءات، وأصول الفقه ، والكلام .

وأقل منها عددا كتب العربية ككتب النحو والصرف والبلاغة ومتن اللغة ، وكتب الأدب والنقد .

وأقل منها عددا كتب العلوم الكونية والمعقولات ، ككتب الطب والفلك والتقويم والمنطق والحكمة والتنجيم والسياسة ومعرفة الحروب أو فنون القتال ، وحياة الحيوان والنبات وسياسة التعليم . إلى غير ذلك .

وينبغى أيضاً قبل عرض هذه النماذج أن نسجل ظاهرات أربع :

الأولى : أن علم التاريخ ، على الرغم من أننا لم نجد له بروزا معدودا بين

المواد الدراسية زخر العصر بكتبه ، وامتلأ بزخائره القيمة مع اختلاف اتجاهاتها وموضوعاتها .

ولعل سبب ذلك شعور علماء العصر بما أصاب تاريخ المسلمين والعرب وكتبه ، من البوار والتلف . وكتب التاريخ هى السجل الأول والمرجع الأصيل لمحامد الأمة ووقائع حياتها ومقومات شخصيتها وأخبار أفذاذها . وهى بذلك أولى ببذل العناية والجهد . وقد كانت كتبهم نمطا من هذا ، فضلا عما اتصف به بعضها من الاتجاه إلى الضبط والنقد وإبراز المآخذ .

وقد تنوعت هـــذه المؤلفات التاريخية تنوعا دل على النضج والفهم الدقيق لمقتضيات تاريخ الأمة وما ينبغى أن يكون عليه . فمن كتب فى التاريخ العام ، إلى تراجم الأعلام إلى كتب التراجم المفردة ، إلى كتب السيرة النبوية ، إلى كتب تاريخ مصر والقاهرة ، إلى كتب الخطط والآثار ، إلى تاريخ المدن والأمصار . وغير ذلك .

وينبغى أن نقف وقفة قصيرة عند حديثنا عن كتب التاريخ ، بعدما نوهنا به . لمالها من القيمة والنفاسة البالغة فهانتذا قد رأيت مظهر العناية بهذا الفن إذ تضافرت الجهود فى هذا العصر ، وتضاعفت الهمم وتنافست العقول على إخراج هذه المؤلفات الثمينة .

ويتصف بعضها بالطول والتفصيل . ويضم كثير منها تسجيلات لوقائع تاريخية ربما تعرض استطرادا ، ولكنها عظيمة القيمة ذات أثر واضح فى رسم صورة العصر أو الشخصية أو الواقعة ، رسما فيه دقة وفن .

ومن ذلك وصف المؤلفات وأخبار المناظرات والمجادلات وما ألف بسببها من الرسائل ، وتدوين نصوص من منثور الكلام ومنظومه . وتسجيل طرف أدبية وحوادث فكاهية ، وألوان من عادات الفرد والجماعة وتقاليدهما . وأخبار الدواوين والموظفين واختصاصاتهم وتنقلاتهم ، والوقائع الجانبية التى تقع على

هامش الحدث التاريخى . وما إلى ذلك. ونقد الشخصيات ووصف صلاتهم المختلفة وجدهم أو هزلهم ، وصلابتهم أو لينهم ، وشجاعتهم أو مجبنتهم . وضبط الأعلام من الرجال والمدن والمواضع . ومن أمثلها فى هذا كله وفيات ابن خلكان والضوء للسخاوى .

ويتكون من بعض كتب تراجم الأعلام سلسة فريدة بين كتب تراجم العصور ، يكمل أحدها الآخر ، ومن أمثال ذلك كتاب الدرر الكامنة لابن حجر العسقلانى يؤرخ فيه لأعلام القرن الثامن . ثم كتاب تلميذه شمس الدين السخاوى « الضوء اللامع » يؤرخ فيه لأعلام القرن التاسع . وهكذا .

الثانية : أن محصول التأليف من كتب الحكمة والفلسفة قليل . وهذه الظاهرة نتيجة حتمية لمنطق التعليم وسياسته العامة التى سبقت إليها الإشارة . ذلك لأن النية كانت متجهة إلى إحياء علوم الدين أولا وقبل كل شىء ، بعدما أصاب المسلمين فى مشارق الأرض ومغاربها على أيدى أعداء الدين والمسلمين . فكانت علومهم أولى بالعناية وأجدر بالإحياء . فكان لذلك أثره الحتمى فى محصول التأليف .

ومما يلاحظ أن كثرة ضخمة من علماء مصر والشام استجابوا فى تعلمهم وهم طلاب إلى هذا الاتجاه. ومن ثم كانوا فى مستقبلهم رجال فقه ودين ، وأكبوا على التأليف فى ميدان علوم الدين. حتى شهدنا منهم هذا النتاج الضخم الذى سنشير إليه . ورأينا منهم هذا العدد الوفير من علماء المذاهب الأربعة الذين أشرنا إليهم. فى حين أن الذين اتجهوا منهم إلى إجادة المنطق أو الحكمة أو الفلسفة أو مايسمونها بالمعقولات ، عدد قليل . وعدد ممن برزوا من هذا الصنف لم يكونوا أصلا من أبناء هذه البلاد . بل وفدوا إليها من جهات آسيا ومما وراء بلاد العراق . وفدوا إليها وقد اكتمل علمهم - ولو إلى حد - وهناك فى تلك الأصقاع النائية كانت العناية جادة إلى إتقان علوم اللسان والفلسفة بدافع من الحكام غالباً .

ومن العلماء الوافدين : شمس الدين الأصبهانى محمد بن محمود ، برع فى الأصول والجدل والمنطق . ولد بأصبهان واشتغل ببغداد وقدم القاهرة فولى قضاء قوص واشتغل بالتدريس . ومات بالقاهرة عام ٦٨٨ هـ .

والصفى الهندى محمد بن عبد الرحمن، كان فقيها أصوليا متكلما مجادلا . ولد بالهند ودخل مصر فأقام بها أربع سنين وانتقل إلى دمشق يدرس ويفتى ويصنف. ومات بها عام ٧٥٠ هـ .

وتاج الدين التبريزى أبو الحسن على بن عبد الله . نزيل القاهرة كان عالما فى علوم كثيرة ، ومات بالقاهرة عام ٧٤٦ هـ .

وشمس الدين الأصفهانى محمود بن عبد الرحمن ، برع فى العقليات وكان عارفا بالأصليين . واشتغل بتبريز وقدم مصر فولى التـــدريس بالمدرسة المعزية ، مشيخة خانقاه قوصون . وصنف . ومات مطعونا عام ٧٤٩ هـ بالقاهرة .

وقنبر بن عبد الله الشروانى، اشتغل فى بلاده وقدم مصر فاشتغل بالتدريس بالجامع الأزهر . وكان ماهراً فى العلوم العقلية ومات عام ٨٠١ هـ .

وسيف الدين السيرامى محمد بن عيسى . وكان عالماً فاضلا نشأ بتبريز ووفد على حلب ، واستدعاه الظاهر برقوق إلى مصر ، فقرره شيخاً بمدرسته ، ثم ولى غير ذلك . ومات عام ٨٠١ هـ .

وشمس الدين الهروى بن عطاء الله . ولد بهراة واشتغل فى بلاده بالعلوم ، وفاق فى العقليات ، ثم قدم القـــاهرة فاشتغل بالقضاء وكتابة السر ، ومات فى عام ٨٢٩ هـ .

وعلاء الدين البخارى على بن محمد ، نشأ ببلاده وتعلم على أبيه وعمه وغيرهما . ورحل إلى الأقطار حتى برع فى المعقول وصار إمام عصره . وقدم القاهرة وتصدر للإقراء وأخذ عنه غالب أهلها . ومات عام ٨٤١ هـ[1] .

---

(١) حسن المحاضرة ج ١ باب ذكر من كان بمصر من أرباب المعقولات .

إلى غير هؤلاء .

ومع ما تقدم نلاحظ أن الاشتغلال بالحكمة والفلسفة وما إليها ، وإن بد على هذا النحو من الضيق والقلة ، كان ينقصه العمق أيضاً والابتكار . ولعل فى مقدمة أسباب هذه الظاهرة أن بلادنا باكتفائها نفسياً وعقلياً بصواب أوضاع دينها وتعاليمه ، لم تشعر بحاجتها إلى الفلسفة ولا التعمق فيها . كان هذا ديدنها وأغلب الظن أنه سيبقى كذلك . ولعل للطبيعة المصرية السمحة السهلة نفسها أثراً فى ذلك ، وهى ببيئتها الزراعية التى كانت غالبة عليها ، ترى أن رزقها يأتيها رغداً كل يوم بكفاح ليس وراءه مشقة ، وببساطة لا يعوقها عقادة . فكان لذلك أثره فى نزعة الفكر ومستواها واتجاهها ولونها . على أنه كان هناك عوض لهم عن الاشتغال بالفلسفة ، ذلك هو اشتغالهم بالجدل والكلام ، وبالمناظرة فى العقيدة والرد على الفرق . ففلسفوا أفكارهم وأساليبهم وإن دارت فى جملتها فى النطاق الإسلامى — وسنعود مرة أخرى إلى هذا الحديث .

الثالثة : أن محصول التأليف فى علوم اللغة العربية قليل أيضاً بالنسبه لما ألف فى علوم الدين والحديث . وهذه الظاهرة واضحة فى كتب الأدب والنقد أيضاً ، أكثر من وضوحها فى كتب النحو والصرف والبلاغة ومتن اللغة . ويبدو أن السبب فى ذلك هو أيضاً طغيان الرغبة فى نشر علوم الدين والحديث ، لما سبق بيانه . ولأن السلاطين والعامة معاً كانوا يقدرون العلماء أكثر من تقديرهم للشعراء — مثلا — ويجلون الفقيه والمحدث أكثر مما يجلون الكاتب والأديب ، ولأن كثيراً من مناصب الدولة كمناصب القضاء والتدريس والخطابة والإمامة ، كان يختار لها فقهاء الشرع .

الرابعة : أن هذا العصر يتهم بأنه عصر المتون والمختصرات، وعصر الشروح أيضا . ولا أدرى فيم الاتهام ولم ، مع أن هذه الظاهرة طور طبيعى فى تاريخ

التأليف . ولا بد أن يعقب طور التوسع والتخصص فى التأليف ، طور يقرب لطلاب العلم وناشدته تناول العلم، ويعاونهم على بلوغ إربتهم منه فى وجازة وعجلة ، وبخاصة صغار المثقفين. ويجمع لهم حقائق العلم فى متون يسهل حفظها فاستحضارها وقت الدرس ، لتكون موضع المناقشة والشرح . ومن ثم يعمد بعض المدرسين بعد إلى تناول المتون بالشرح مرة أخرى ليجلى ما قد يكون غامضا منها، ويفصل ما قد يكون مجملا . وهكذا .

والعصر الذى نحن بصدده صادفته بواعث هذه الظاهرة ، فهو عصر إحياء وبعث وتجديد ، وعصر تعليم ونشر للثقافة ، مع رغبة كامنة فى العجلة ، ولهفة مختبئة فى الوصول . وهذا من شأنه أن يدفع إلى الاختصار ووضع المتن ، ومن ثم إلى الشرح والتحشية .

ولا نشك فى أن المتون والمختصرات ، قد حفظت من العلم جوهره ولبابه ، وقامت - ولا تزال تقوم - بدورها الكريم فى مسرح التعليم ، من ذلك العصر البعيد ، إلى عصرنا الجديد .

ونذكر لك على سبيل المثال عددا من المتون والمختصرات والشروح ، فمن ذلك :

نخبة الفكر لابن حجر العسقلانى متن فى مصطلح الحديث وألفية ابن مالك الأندلسى . متن فى النحو . والشاطبية متن فى القراءات . ومختصر الروضة فى فقه الشافعية لمحيى الدين الفرضى - والروضة للنووى - ومختصر الكفاية فى فقه الشافعية أيضا لشهاب الدين بن النقيب . وكنز الدقائق متن فى فقه الحنفية لأبى البركات النسفى « ٧١٠ هـ » . وتلخيص المفتاح فى علوم البلاغة للجلال القزوينى ، خص فيه مفتاح العلوم للسكاكى .

ومن الشروح : التوضيح للقزوينى شرح فيه كتابه « تلخيص المفتاح » . ولألفية ابن مالك شروح كثيرة ومنها شرح للبابرتى ، وآخر لابن الصائغ محمد

ابن عبد الرحمن ، وآخر لابن عبد الدائم الحلبي . والمجموع لمحي الدين النووى وهو شرح كتاب مهذب الرافعى فى فقه الشافعية . وحواشى الروضة وهى تعليقات على روضة النووى ، ألفها سراج الدين البلقينى . إلى غير ذلك ، مما سترى نظيره فيما سيأتى .

والعجيب جداً فى أمر هذا العصر ـ عصر المتون والمختصرات ، ثم شروحها والتحشية عليها ـ أنه عصر الموسوعات الجامعة .

لقد برزت النزعة الموسوعية فيه بروزا دل على نهم فى جمع المعلومات وحشد الحقائق . ولو كانت معلومات يخيل إليك أنها مبعثرة لا جامع لها ، وحقائق يتمثل لك أنها متنابذة لا تلاؤم بينها . وبحنكة وكياسة وذوق يبتدعون لها المناسبات والملائمات ، فتجمع وتحشد بغير نبو ولا شذوذ ولا قلق . فما بالك بما لا بعثرة فيها ولا تنابذ بينها .

وقد ألبسوا هذه المعلومات حلة قشيبة ، فبدت زاهية لاجتماع الإلف فيها مع إلفه ، والترب إلى تربه . وهذا فى رأينا ، من أجل الأعمال فى ميدان التأليف .

ويبدو أن السبب فى ذهاب علماء العصر إلى الطرف الآخر أيضا من طرفى التأليف ـ وطرفا التأليف هنا هما الاختصار والموسوعية ـ واحد . وهو غرض تعليمى يرمى إلى عرض أكبر كمية علمية مستطاعة من معارف السابقين والمعاصرين على أنظار الناشئة ، لتزويدها بها وإنضاجها من طريقها . هذا فضلا عن السبب الرئيسى والهدف الأصيل وهو عملية الإحياء والبعث .

وقد برزت العقليات الموسوعية فى عصر المماليك وجنحت إلى التأليف الجامع ، لتكون للناس مراجع وللعلم مصادر ، سهلة المورد ميسرة المقصد .

وقد كانت الظروف مهيأة لبروزها . ذلك لأن العصر العباسى كان قد انتهى بعد أن برزت فيه نزعة التخصص ، فوفرت المؤلفات ، كل منها فى علم أو فى فن . وجاء العصر المملوكى على إثره ، وشغف الناس بحفظ التراث القديم حرصاً عليه

وإبقاء له . فجد العلماء فى جمعه وتنسيقه فى صعيد واحد ، فنتجت الموسوعات ، وظهرت فى كل علم وفى كل فن .

والجلال السيوطى مثل جيد للعقلية الموسوعية . وقد ألف نحو ستمائة كتاب ورسالة بين مطول وموجز ، وفى فنون شتى منها التاريخ ومنها الفقه والحديث وتاريخ القرآن والتفسير والنحو وطبقات النحاة وطبقات المفسرين وفى اللغة وفقهها . وغير ذلك . — وفى كل مؤلف على حدة تسيطر عليه هذه النزعة . فهو شديد الولوع بحشد الروايات والأخبار ، وسوق النصوص والأحاديث التى تجمعها جامعة .

وينظر إليه بعض الناس بسذاجة ، ويعتبرون عمله سرقة أو نقلا ، ولو عانوا ما عانى ماعتبوا ولا لاموا ، فما يعرف الشوق إلا من يكابده .

والموسوعات — على وجه الإجمال — نوعان : نوع تناول علوما شتى وفنوناً مختلفة كالتقويم والأدب والتاريخ والقصص والشعر والنثر . ومن أمثلته البارزة : نهاية الأرب للنويرى . وصبح الأعشى للقلقشندى . ومسالك الأبصار لابن فضل الله العمرى .

ونوع لم يتناول إلا علماً واحداً بذاته . ولا تكاد تطلب علما من العلوم الهامة التى اشتغل بها أبناء العصر إلا وفيه موسوعات عدة . ونضرب لك أمثلة لبعضها ، فمنها :

فى التاريخ : الوافى بالوفيات للصفدى وهو فى تراجم الأعلام ويقع فى نحو خمسين مجلداً ، والمنهل الصافى لأبى المحاسن . والضوء اللامع للسخاوى مثله ويقع فى اثنى عشر مجلدا . والنجوم الزاهرة فى أخبار مصر والقاهرة ، وبدائع الزهور لابن إياس الحنفى . وخطط المقريزى .

وفى الفقه : الكفاية لابن الرفعة فى فقه الشافعية . ويقع فى عشرين مجلدا .

والمجموع وهو فى شرح المهذب ، مؤلفه النووى فى فقه الشافعية ، والفتاوى المصرية لابن تيمية فى فقه الحنابلة .

وفى الحديث : نذكر — وحسبنا هذا — ثلاثة مؤلفات لا نظير لها فى أهميتها وسعتها فى أى عصر أدبى حتى اليوم ، وكلها فى شرح البخارى . وهى : فتح البارى لابن حجر ، وعمدة القارى للبدر العينى ، وإرشاد السارى للقسطلانى . وهى من مفاخر مصر فى عصر المماليك .

وفى النحو : مغنى اللبيب لابن هشام . والأشباه والنظائر للسيوطى .

وفى التفسير : الدر المنثور فى التفسير بالمأثور ، للسيوطى ، فى ثلاث مجلدات ضخمة ، مخطوطة بدار الكتب . — والبحر المحيط لأبى حيان .

وفى اللغة : لسان العرب لابن منظور الإفريقى فى عشرين مجلدا . ويعتبر أوسع معاجم العربية .

وفى الأدب : المستطرف للأبشيهى ، وخزانة الأدب لابن حجة الحموى ، وحياة الحيوان للدميرى .

نماذج من المؤلفات :

وبعد ذلك ، نسجل لك ثبتا موجزاً بألوان من المؤلفات — على سبيل المثال لا الحصر — تدلك على مبلغ جهد علماء مصر ، فى هذه الحقبة ، ومثابرتهم على إحياء العلوم .

فمن كتب تراجم الأعلام :

الطالع السعيد للأدفوى . وفوات الوفيات لابن شاكر الكتبى . والإصابة فى تمييز الصحابة ، ورفع الإصر عن قضاة مصر كلاهما لابن حجر العسقلانى . وطبقات الشافعية للتاج السبكى . وطبقات الحفاظ للذهبى ، وطبقات المفسرين للسيوطى .

ومن كتب السيرة النبوية :

عيون الأثر لابن سيد الناس . ومختصر السيرة للبرهان البقاعى . والزهر الباسم لأبى عبد الله مغلطاى . ومختصر السيرة لعز الدين بن جماعة . والخصائص النبوية للجلال السيوطى .

ومن كتب تاريخ مصر والقاهرة :

السلوك للمقريزى . ونزهة الأنام لابن دقماق . والنجوم الزاهرة لأبى المحاسن . وحسن المحاضرة للسيوطى وبدائع الزهور لابن إياس المصرى .

ومن كتب تاريخ المدن والأمصار الأخرى :

زبدة حلب فى تاريخ حلب لكمال الدين بن العديم . وتاريخ الإسكندرية لوجيه الدين بن العماد . ومختصر تاريخ دمشق لابن عساكر ، ومختصر تاريخ بغداد للسمعانى ، وضع المختصرين ابن منظور الإفريقى .

ومن كتب التاريخ العام :

وجيز الكلام للسخاوى . والبحر الزاخر لأبى المحاسن . وزبدة الفكرة لبيبرس المنصورى . والمختصر فى أخبار البشر لأبى الفداء . والدول الإسلامية لشمس الدين الذهبى . والبداية والنهاية لابن كثير . والعبر لابن خلدون .

ومن كتب السير ، وهو التى يؤرخ كل منها أحد الأعلام :

تشريف الأيام والعصور فى سيرة الملك المنصور ـ قلاوون ـ لمحيى الدين ابن عبد الظاهر . والألطاف الخفية ـ فى سيرة الأشرف خليل بن قلاوون ، لمحيى الدين بن عبد الظاهر أيضا . وعجائب المقدور فى أخبار تيمور لشهاب الدين ابن عربشاه . والتأليف الطاهر فى شيم الملك الظاهر ـ جقمق ـ لابن عربشاه أيضا : وتاريخ الناصر قلاوون ـ وبنيه لشمس الدين الشجاعى . والدرة المضية فى تاريخ الظاهر برقوق لمحمد بن صرصراء . والسيف المهند فى سيرة الملك

المؤيد ـ شيخ ـ للبـــدر العينى . والقول المستظرف فى تاريخ الملك الأشرف ـ قايتباى ـ لأبى البقاء بن الجيعان .

ومن كتب الخطط والآثار :

الروضة البهية فى خطط القاهرة المعزية ، لمحيى الدين بن عبد الظاهر . والانتصار بواسطة عقد الأمصار لصارم الدين بن دقماق . والمواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار لتقى الدين المقريزى :

ومن كتب التقويم :

تقويم البلدان لأبى الفداء . وفريدة العجائب اسراج الدين بن الوردى . ومسالك الأبصار لابن فضل الله العمرى . ونهاية الأرب للنويرى . ومباهج الفكر لجمال الدين بن إبراهيم الوطواط .

ومن كتب فقه الشافعية وأصوله :

الروضة للنووى . والفتاوى الموصلية لابن عبد السلام . والكفاية لابن الرفعة . والابتهاج فى شرح المنهاج ، للتقى السبكى . والمجموع فى شرح المهذب ، للنووى . وتكملة المجموع ، للتقى السبكى . والوافى فى شرح التنبيه ، للجلال السيوطى .

ومن كتب فقه الحنفية وأصوله :

شرح الهداية للبرهان الواسطى . وشرح الجامع الكبير لفخر الدين المارديني المعروف بابن التركمانى . وشرح متن الكنز لفخر الدين الزيلعى . والبناية فى شرح الهداية للبدر العينى . وفتح القدير للكمال بن الهمام .

ومن كتب فقه المالكية وأصوله :

الذخيرة للشهاب القرافى . وشرح مختصر ابن الحاجب للزواوى . وشرح المدونة له أيضاً . وشرح مختصر ابن الحاجب لخليل بن إسحق الجندى . وشرح

مختصر ابن إسحق الجندى ، لبهرام . والشامل لبهرام أيضاً . وشرح أصول ابن الحاجب لبهرام أيضاً .

ومن كتب فقه الحنابلة وأصوله :

الفتاوى المصرية لتقى الدين بن تيمية ، وتحقيق الفرقان بين الطلاق والإيمان . ورسالة فى حكم السماع والرقص ، وزيارة القبور والاستنجاد بالمقبور . كلها لابن تيمية أيضاً . وكبار الكبائر لابن القيم . وزاد المعاد فى حج خير العباد - فى الفقه والتصوف ، لابن القيم أيضاً . والفروع لشمس الدين بن مفلح . وشرح المقنع لقدامة ، وضعه شمس الدين بن مفلح فى نحو ثلاثين مجلداً .

ومن كتب تفسير القرآن الكريم وما يتصل به :

الدر النظيم لتقى الدين السبكى . والدر المنثور للجلال السيوطى . وله أيضاً : ترجمان القرآن ، والإتقان وتفسير الجلالين والأخير للسيوطى وللجلال المحلى . وتفسير القرآن لعلم الدين البلقينى . وتفسير سورة الإخلاص للتقى بن تيمية . وتفسير المعوذتين وتفسير قوله تعالى «إياك نعبد وإياك نستعين» . وهما لابن تيمية أيضاً . وأمثال القرآن لابن القيم . والبحر المحيط لأبى حيان النحوى .

ومن كتب الحديث وما يتصل به :

الاقتراح لابن دقيق العيد . وكشف المغطى فى شرح الموطا ، للسيوطى . وشرح البخارى للسراج البلقينى . وشرح الترمذى لابن سيد الناس . وشرح مسلم لعيسى الزواوى . ومختصر علوم الحديث لابن الصلاح ، وضعه فخر الدين المارديني . وشرح حديث النزول ، لابن تيمية . وجلاء الأفهام فى الصلاة والسلام على خير الأنام ، لابن القيم . والأربعون حديثاً النووية . وفتح البارى لابن حجر ، وعمدة القارى للبدر العينى ، وإرشار السارى للقسطلانى ، والثلاثة فى شرح البخارى . - كما أشرنا -

ومن كتب التصوف والعقائد :

الحكم لابن عطاء الله . وشرح عمدة النسفى ، لابن دقيق العيد . والفرقان بين أولياء الرحمن وأولياء الشيطان ، للتقى بن تيمية . ومدارج السالكين لابن القيم . واجتماع الجيوش الإسلامية لغزو المرجئة والجهمية ، لابن القيم أيضاً .

ومن كتب القراءات :

شرح الشاطبية لابن عبد الدايم . والمقدمة الجزرية وهى منظومة لشمس الدين إبى الخير الجزرى الدمشقى . والنشر فى القراءات العشر له أيضاً . وكتاب القراءات لمعين الدين النكراوى الإسكندرانى . والمقصد لزكريا الأنصارى .

هذا . أما كتب العربية فسنشير إليها .

الأسئلة والأجوبة والفتاوى والمناظرات :

وهذه بعض نتائج النشاط العلمى ، وظاهرة من ظاهراته . ونعنى بالأسئلة الاستفاءات العلمية التى توجه إلى رجال الدين فى مشكلة ما ، من مشاكل الفقه أو العقيدة أو غيرهما ، مع طلب الإجابة أو الفتوى .

والمناظرات حوار وخطابة متبادلة ، فى أحد الموضوعات أو المشاكل العلمية .

وانتشار هذه الظاهرة فى عصر المماليك ، حجة بالغة على يقظة الوعى الدينى ، ودليل على أن النشاط العلمى قد وجد صداه عند جمهور الناس ، فضلا عن المثقفين .

ويبدو أن الجمهور وجد فيها غنية عن التطلع إلى الفلسفة ومعارف الفلسفة .

ولعل فى جملة أسباب نشاطها ، كثرة المعاصرين من الفرق غير السنية ، كالخوارج والرافضة والجهمية والمعطلة والقدرية والجبرية ومبتدعة الحنابلة .

وقد ركز علماء المذاهب الأربعة اهتمامهم فى محاربة هؤلاء المتطرفين والشواذ وتزييف آرائهم ، خوفا على العامة من الفتنة .

والشيخ عز الدين بن عبد السلام ، كان فى مقدمة العلماء المناضلين . وقد تعرض له مبتدعة الحنابلة ـ قبيل العصر المملوكى ـ وأغروا به الملك الأشرف موسى بن العادل الأيوبى ، حاكم دمشق إذ ذاك . وكان الأشرف يجل الشيخ ولكنه التأم شمله ببعض هؤلاء المبتدعة الذين يقولون بالحرف والصوت ، ويقعون فى التجسيم ، وزينوا له مذهبهم ، وأفهموه أنه مذهب السلف الصالح .

وذكروا له أن الشيخ عز الدين أشعرى. يخطىء من يقول بالحرف والصوت ويقول إن الخبز لا يشبع . والماء لا يروى والنار لا تحرق ... وأنه بذلك يخالف مذهب السلف .

وكتبوا استفتاء فى هذه المسائل إلى الشيخ . فكتب فتواه واضحة وقرر فيها مذهبه وهو مذهب السلف الصحيح . وبين أنه مذهب أهل السنة والجماعة . وحمل على المبتدعة حملة شعواء .

وهنا صدق الملك الأشرف ، ما قيل فى حق الشيخ ، فحرمه الفتوى ، وحرم عليه الاجتماع بالناس ، وألزمه بيته . ثم ما زال حتى اتضحت له حقائق الأمور ، فأصلح ما بينه وبين الشيخ .

وللشيخ عز الدين كتابه المسمى « مسائل الطريقة فى علم الحقيقة » ويعرف « بالستين » . لأنه يحتوى على ستين سؤالا وأجوبتها، وهى فى العقائد والتصوف والأخلاق[1] .

والشيخ تقى الدين بن تيمية الحرانى كان من أبرز علماء مصر فى هذا الميدان ، ومن أجرئهم فى إبداء رأيه . ولقد خلق بذلك جوا علمياً حياً ، فيه المحاجة والمناظرة والمساءلة وتأليف الرسائل ، وفيه أيضا المحاكمات والسجن ...

---

(١) راجع ترجمة عز الدين بن عبد السلام فى طبقات الشافعية للتاج السبكى ج ٥ ـ وراجع رسالته « مسائل الطريقة » .

واشتهر بآرائه الجريئة على عرف زمانه ، فى الطلاق وزيارة القبور وفى الوسيلة وغير ذلك . وتكلم فى العقائد على طريقة السلف . فاعتقد الاستواء والنزول والعين واليد . إلى غير ذلك ، دون تمثيل أو تشبيه أو تكييف . وهو لايؤول فى القرآن ولايقول فيه بالمجاز : وحمل على المتصوفة المنتمين إلى ابن عربى وابن سبعين ونحوهما ممن يقولون بوحدة الوجود والاتحاد ، وحارب شواذ الطوائف الإسلامية . وألف فى ذلك مؤلفات كثيرة من بينها كتابه « الإيمان » ورسالته « العقيدة الحموية الكبرى » .

وقد تعرض ابن تيمية بسبب آرائه وحملاته ، إلى مناهضة الصوفية له ، ومكايدتهم واتهموه بالقول وبالتجسيم . وقاومه علماء السنة وقامت معارك بينه وبينهم ومناظرات ، طورا بالمناقشات والمجادلات الشفوية ، وطورا ، بوضع الرسائل . وأرسلت إليه الأسئلة والاستفتاءات فى شتى مسائل الدين والعقيدة . وقد ردعليها وأفنى ، فى دروسه ومناظراته ورسائله .

واستطاع الصوفية وغيرهم إيغار قلب السلطان عليه ، فحوكم أكثر من مرة وسجن[1] .

وشمس الدين بن القيم ، كان تلميذا لابن تيمية ونمطا منه . لقد اقتدى به فى حرية الرأى والتمسك بعقيدة السلف الصالح . واتجه إلى التصوف السليم ، وأخذ يرد الشبه ويدفع الباطل ، ويرد على السائل ويحاور المناظر . وفاضت كتبه بالحديث عن العقائد ، وتصحيح فاسدها . وابتدع فى كتابه « شفاء العليل » مناظرتين طريفتين إحداهما بين رجل من السنية ورجل من الجبرية . والثانية بين رجل من السنية ورجل من القدرية . وأدار الحوار بينهما فى لباقة وأدلة ومنطق . وتناول فيهما موضوع « عمل العبد » وما يتصل به من التوحيد والعقاب

---

(١) راجع ترجمة ابن تيمية فى المجلد الرابع من موسوعتنا هذه .

وغير ذلك (١) .

والعلماء الذين اشتهروا بالمناظرات المذهبية ورد الشبه ، وإجابة السائلين ، كثيرون .

ومنهم علاء الدين الباجى المتوفى عام ٧١٠هـ . وقد قيل : قال الشيخ الأصفونى كنا عند ابن دقيق العيد ، فقال « يافقهاء حضر شخص يهودى يطلب المناظرة » . قال : فسكتنا . فبادر الباجى فقال : « أحضروه فنحن بحمد الله ندفع الشبهة » .

وحكى الباجى عن نفسه قال : إن ابن تيمية ، لما دخل القاهرة ، حضرت فى المجلس الذى عقدوه له . فلما رآنى قال : « هذا شيخ البلاد » . فقلت : « لاتطرنى ماهنا إلا الحق » . وحاققته فى أربعة عشر موضعا . فغير ما كان كتب به خطه (٢)»

ومن العلماء المناظرين أيضاً :

برهان الدين الزرعى (٣) . وقاسم بن قطلوبغا (٤) . وزين الدين بن المرحل (٥) . وبهاء الدين السبكى محمد بن عبد البر (٦) . ونجم الدين بن الرفعة (٧) وابن قاضى شهبة . وبرهان الدين بن ظهيرة ، تناظرا بين يدى قاضى القضاة شهاب الدين بن حجر العسقلانى (٨) . وعلاء الدين بن مغلى ونظام الدين السيرامى ، كانا يتناظران

---

(١) راجع ترجمة ابن القيم فى المجلد الرابع من هذه الموسوعة .

(٢) راجع الدرر الكامنة ج ٣ رقم ٣٣٢ ـ وطبقات الشافعية للتاج السبكى ج ٦ ص ٢٢٧ . فى ترجمة العلاء الباجى .

(٣) شذرات الذهب ج ٦ .

(٤) الضوء اللامع ج ٦ رقم ٦٣٥ .

(٥) حسن المحاضرة ج ١ ص ١٩٦ .

(٦) الدرر الكامنة ج٣رقم ١٣١٦ .

(٧) الدرر ج ١ رقم ٧٣٠ .

(٨) الضوء اللامع ج ٧ ص ١٥٥ .

بين يدى الملك المؤيد شيخ [١] والبساطى والعلاء البخارى تناظرا فى فتنة ابن الفارض ، وحكم بينهما الكمال بن الهمام [٢] إلى غير ذلك .

فتنة ابن الفارض :

وقعت فتنة بين العلماء ، بسبب ابن الفارض ، عام ٨١٥هـ فى عهد الملك الأشرف قايتباى . وقد أثارها اختلاف الناس فى فهم أبيات من قصيدته التائية .

ومنهم من أخذ بظاهر لفظه ، فنسبه إلى الحلول والقول بالاتحاد ، وحكم بفسقه وكفره . وعلى رأس هذا الفريق الشيخ برهان الدين البقاعى ، ومحب الدين بن الشحنة قاضى قضاة الحنفية ، وولده القاضى عبد البر ، والشيخ نور الدين المحلى ، وقاضى القضاة عز الدين المحلى ، وتبعهم جماعة كبيرة من العلماء . .

ومنهم من أول كلامه ، ولم ينسبه إلى فسق أو كفر ، أو حلول أو اتحاد . وعلى رأس هذا الفريق العلامة محيي الدين الكافيجى ، والشيخ قاسم بن قطلوبغا ، وبدر الدين بن الغرس ، ونجم الدين بن يحيى بن حجى ، وجلال الدين السيوطى ، وزكريا الأنصارى ، وتاج الدين بن شرف .

وتناظر الفريقان ، واحتدم بينهما الأمر ، وألفت الرسائل من كلا الطرفين وكتبت استفتاءات وفتاوى . ومقالات عدة . وامتدت الفتنة حتى اشترك فيها شعراء العصر .

ولما طال الخطب وخيفت الفتنة على العامة ، أرسل استفتاء ، بأمر السلطان إلى الشيخ زكريا الأنصارى ، فى الموضوع . فكتب فتواه متضمنة أن ألفاظ ابن الفارض لا تحمل على ظاهرها ، وإنما تؤول بحسب اصطلاحات الصوفية .

---

(١) الضوء ج ٦ ص ٣٥ .

(٢) الضوء جـ٨ ص ١٣٩ فى ترجمة الكمال بن الهمام .

وقد حسم بفتواه هذه الفتنة ، التى لبثت زمنا وهى مدار حديث ومناظرة وجدل وتأليف(١) .

الثقافة الأدبية

رأيت كيف كانت المعارف الدينية والثقافة العلمية الإسلامية ، غامرة عامرة. ولهذا لم تستطع الثقافة الأدبية أن تبرز فى المقدمة وفى الطليعة .

ولكن علينا أن نضع فى الاعتبار أن اللغة العربية - والعربية الفصيحة - كانت أساس الدراسة والتعليم فى المواد العلمية كافة . فهى المضروب المشترك فيها جميعا . فلا بد من مرور الطالب على الثقافة اللغوية فيما قبل ، ليستطيع بها أن يشق طريقه فى وسط هذا الخضم الواسع الفسيح ، الذى - على الرغم من تباين موضوعاته مع موضوعات اللغة الأصلية - يحتاج من يشقه إلى رصيد من هذه الموضوعات يعينه فى اقتحامه .

ولا بد أن الطالب كان فى دور الصغر وفى مرحلته التعليمية الأولى ، ينال قسطا مناسبا من فهم اللغة ونحوها وصرفها ومطالعة نصوص أدبها . ولكن ، إن كان ، فلا بد أنه قسط يسير .

وفى المرحلة الثانية - مرحلة الحفظ - نرى كثيرا من الطلاب يعكفون - فيما يعكفون عليه - على كتب اللغة ومتون فنونها ، فيحفظون منها قدرا كبيراً فى بعض الأحيان . تلحظ هذا فى تراجم المئات منهم التى سجلتها كتب الأعلام . ومن هذه الكتب - على سبيل المثال - الكافية لابن الحاجب فى علوم العربية . وتلخيص المفتاح فى البلاغة . وألفية ابن مالك ، وملحة الأعراب . ونظم

---

(١) راجع المجلد الثانى من موسوعتنا هذه . وفيه تفصيل لهذه الفتنة .

قواعد الإعراب لابن الهائم ، وفصيح ثعلب فى اللغة .

وهذا معناه أن الطالب الذى يستعد بحفظها ، لدراستها وفهمها والتعمق فيها والتخرج بها فى المرحلة الثالثة .

وفى المرحلة الثالثة نرى مواد العربية وآدابها ، مشاركة فى الدراسة مشاركة ما .

فمما أثر مثلا فى هذا الباب عن أهل اللغة أنفسهم، أن أمين الدين المحلى أحد أئمة النحو بالقاهرة ـ قيل عنه إنه تصدر لإقرائه وانتفع به الناس .

وأن حافى رأسه « محيى الدين الإسكندرانى » كان من أئمة العربية وتصدر لإقرائها زمانا . قال عنه أبو حيان : كان شيخ أهل الإسكندرية فى النحو وتخرج بها أهلها .

وأن الرضى الشاطبى كان إمام عصره فى اللغة ، وقيل عنه إنه تصدر لإقرائها فى القاهرة ، وأخذ عنه الناس وروى عنه أبو حيان وغيره .

وأن أبا حيان أثير الدين ، كان نحوى عصره ولغويه ومقرئه . وكان قد تتلمذ بمصر على البهاء بن النحاس وأخذ عنه . وما زال حتى تقدم فى حياة شيوخه واشتهر اسمه وألف الكتب المشهورة ، وأخذ عنه أكابر عصره . ولما مات رثاه الصلاح الصفدى فكان مما قاله فيه :

شارك من ساواه فى فنه ... وكم له فن به استأثرا
دأب بنى الآداب أن يغسلوا ... بدمعهم فيه بقايا الكرى
والنحو قد سار الردى نحوه ... والصرف للتصريف قد غيرا
واللغة الفصحى غدت بعده ... يلغى الذى فى ضبطها قررا . . . الخ

وأن جمال الدين بن هشام المصرى، أتقن العربية حتى فاق الأقران بل الشيوخ وتخرج به خلق كثيرون ، وانفرد بالفوائد الغريبة والمباحث الدقيقة .

وأن بهاء الدين بن عقيل أخذ القراءات عن التقى الصائغ ، ودرس اللغة وعلومها على العلاء القونوى والجلال القزوينى وأبى حيان . وله شرح التسهيل، وشرح الألفية .

وبدر الدين بن الدماميني الإسكندرانى ، عانى الآداب ففاق فى النحو والنظم والنثر، وشارك فى الفقه وغيره . وتصدر بالجامع الأزهر لإقراء النحو، وصنف حاشيته على مغنى اللبيب وشرح التسهيل . ومات عام ٨٢٧ هـ بالهند[١] .

وأن جلال الدين السيوطى روى عن نفسه فى ترجمته ،أنه أخذ الفقه والنحو عن جماعة من الشيوخ وقال : « ولزمت فى الحديث والعربية شيخنا الإمام العلامة تقى الدين الشبلى الحنفى ، فواظبته أربع سنين ، وكتب لى تقريظا على شرح ألفية ابن مالك وعلى جمع الجوامع فى العربية تأليفى[٢] » .

على أنه فى الاستطاعة أن نعود إلى تلمس ثقافات القضاة وعلماء المذاهب أنفسهم وحفاظ الحديث ، بل كل صنف من هؤلاء الفضلاء ، فسترى أن الثقافة الأدبية أو قل التثقف بعلوم اللغة وفنونها ، أساس من أسس ثقافتهم بعامة . ولا تنس أن من بين هؤلاء الفضلاء الكاتب المنشىء البارع ، والشاعر المبدع الرقيق . فمن أين لهم هذا ؟ لابد أنهم تمرسوا من قبل ، بعلوم اللغة وأدبها .

وهذا شهاب الدين بن حجر العسقلانى فقيه الشافعية وحافظ الحديث وشارح البخارى ، مال إلى التأليف فى التاريخ وهذا نزوع أدبى بلا ريب . وقد روى أنه فى مبكر دراسته مال إلى الأدب واشتغل بطلبه ، ونظم الشعر . ثم مال إلى طلب الحديث والفقه. ولما نضج لم ينس الأدب ولا هجر الشعر . وله ديوان مخطوط فى دار الكتب .

---

(١) حسن المحاضرة ج ١ فى ذكر من كان بمصر من أئمة النحو واللغة .
(٢) حسن المحاضرة ج ١ ترجمة مؤلف الكتاب .

وتقى الدين بن رزين قاضى قضاة الشافعية ، قيل فى دراسته إنه حفظ كثيرا من كتب الفقه والأصول والنحو والكلام والقراءات - ووجيه الدين البهنسى ، كان فقيها عالما بالأصول والنحو - وتقى الدين بن دقيق العيد القشيرى ، درس الفقه والأصول والحديث والنحو ونبغ فيها وكان له باع طويل فى الشعر والكتابة والوعظ - وشمس الدين بن القيم ، درس علوما مختلفة ومن بينها علوم العربية والنحو ، حتى اشتهر بأنه نحوى - وتقى الدين السبكى قاضى قضاة الشافعية ورأسها فى زمانه ، درس علوما عدة ونبغ فيها ومنها النحو أخذه عن أبى حيان - وزكريا الأنصارى شيخ الإسلام لازم أبا حيان مدة وأخـــذ عنه علوم العربية . وشمس الدين بن عمار ، لازم محب الدين بن هشام فى دروس العربية والصرف .

وإذا ذهبت تبحث فى تاريخ أكثر المنشئين والشعراء ، تراهم أخذوا من العلوم المختلفة بنصيب وافر ، وشاركوا فى عدة فنون منها فنون العربية وآدابها . وأن منهم من لازم أحد شيوخ الأدب ليأخذ عنه ويتمرس بذوقه ومذهبه .

ونعتقد أن الأمر فى نشر الثقافة الأدبية - فضلا عما سبق بيانه - كان يرجع إلى حد ما إلى وجود ديوان الإنشاء فى هذه الدولة ، واهتمام السلاطين به واعتمادهم عليه فى عليا رسائلهم . وكانوا يتريثون فى اختيار كتابه ومنشئيه وبخاصة صاحب الديوان - أى رئيسه - أو كاتب السر ، كما لقب فيما بعد . فقد بلغ مركز كاتب السر فى بعض العهود أن كان أقرب رجال الدولة إلى سلطانها وأعرفهم بأمورها وأكثرهم توجيها لها . ولذلك وجب التريث .

وكانت مراسلات الدولة الواردة والصادرة ، من خارجها إليها وبالعكس ، ترد إلى الديوان أو تصدر عنه . وكاتب السر هو الذى يعرض الوارد على السلطان ويقرؤه له ، ويتشاور وإياه فيه ، ويتلقى أمره وإرشاده بالرد عليها ، ثم يكتب الرد ، أو يكلف أحد المنشئين فى الديوان بكتابته .

هذا فضلا عن جميع أوامر التعيين، وبخاصة عليها وكذلك ألوان المكاتبات الأخرى، كانت تصدر عن الديوان وبقلم كاتب السر أو كبير من منشئ الديوان. ومنها العهود والبيعات والتقاليد والبشارات والمناشير والمراسيم والتواقيع وما إلى ذلك.

وكانت وظائف الديوان — وبخاصة وظيفة كاتب السر — أمل الكاتب والأديب، لما تدره من مال، وترفع إليه من منزلة، وتهيئه من جاه. وكان السلاطين — كما نوهنا — يتريثون فى اختيار كاتب السر وينتقونه من ذوى الفضل وأرباب العلم والفقه، ومن أهل القلم الممتازين، فضلا عما يكون قد اشتهر به من دهاء وسعة حيلة وذكاء وكياسة.

وبهذا يندفع الناشىء الآمل المتطلع إلى المنصب والمال والجاه، إلى إجادة هذا الفن، وهو فن الأدب والكتابة، ودراسة آدابها وأحكامها ورسومها، ليذكى مقدرته ويصل إلى امتلاك زمامها. ولعل حظه فيما بعد يدفع به إلى إحدى وظائفها فى الديوان، وقد يقفز به إلى كتابة السر.

ولا شك أن إجادة فن الأدب والتمرس بالإنشاء، يحتاج إلى فسحة من الوقت وسعة من الصبر والتجربة فى دراسة فنون اللغة بشتى ألوانها وفروعها، ودراسة أدبها والاطلاع على مناهج القدماء والمعاصرين فى النثر والشعر، ليكون الكاتب خبيراً بها وعلى ذكر منها، لأنها ولا ريب تزيده فراهة وحذقا.

وقد أفاض شهاب الدين القلقشندى فى كتابه «صبح الأعشى» فى ذكر صفات الكاتب وما ينبغى له من ألوان الثقافة والمعرفة. وقد عد الكتابة أشرف الصناعات. وكذلك فعل النويرى فى نهاية الأرب.

وفى رأينا أن القلقشندى — أو النويرى — وهو يكتب كتابه هذا، ويذهب فيه هذا المذهب، يعبر فى جملته عن ذوق عصره واتجاهه وتقديره لفن الإنشاء، إذ كان معتمد الدولة ومناط تحركها ومحل نظامها وموضع أسرارها.

ولا ريب أن مناصبه أصبحت بذلك أمل الآمل كما نوهنا . فلا غرابة أن أكب على أدواته ووسائله ليجمعها لنفسه ، ويتسلح بها توسلا إلى الوصول إلى هذه المناصب . وما أدواته ووسائله إلا فنون اللغة وآدابها ، أو هى على الأقل أولى هذه الأدوات والوسائل .

ولماذا نحار فى إثبات وجود هذه الدراسات أو الثقافات الأدبية ، والأدباء أنفسهم - سواء أكتابا كانوا أم شعراء ، كفونا مئونة الحيرة ومشقة الإثبات، بما خلفوه لنا من جليل المؤلفات فى علوم العربية وآدابها . أيقتدرون عليها ويؤلفون فيها وينسقون فى أبوابها ويحلون من مشاكلها ويبتدعون الجديد فيها ، دون سابق دراسة وبحث وتمحيص ، ودون سابق تلمذة وتلق عن الشيوخ ؟ هذا محال .

وقد سبق لنا أن نوهنا ببعض هذه المؤلفات . ولا بأس من أن نعود إليها بشىء من التفصيل فنقول :

كتب النحو والصرف :

لعل النحو والصرف فى مقدمة فنون العربية ، التى حظيت من العناية بنصيب أوفر . فقد وضعت فيهما أسفار قيمة ، وعرف بهما رجال أفذاذ .

ونحن لا ننكر أن نحويى هذا العصر - فى جملتهم لا فى تفصيلهم - لم يأتوا بجديد ممتع ولا بمبتكر رائع . وقصارى جهودهم بذلت فى توضيح مسائل النحو وتوجيه قواعده والاستدلال لها ، مع عرض الآراء المتناقضة أحيانا ، والموازنة بينهما أحيانا أخرى وترجيح أحدها .

ونحا بعضهم إلى وضع المتون ثم إلى شرحها ، ثم إلى شرح هذا الشرح أو اختصاره . وذلك على نمط مما كان يفعل علماء الدين بكتب الفقه . وزادت التحشية على المؤلفات ، والاستدراك عليها ، حتى نتج من ذلك كله نتاج وفير فى هاتين المادتين : النحو والصرف .

غير أننا لا نرى مناصا من التنويه بأن بعضهم كانت له فى بحوثه شخصية وقوة ونضج ، يشعرنا بأنه كان حسن التذوق لمادته ، عميق الفهم كامل الإلمام ، دقيق الملاحظة والموازنة ، جديد التوجيه والتعليل ، وأفضل الأمثلة لذلك : جمال الدين بن هشام المصرى . ذلك العلامة الذى قال فيه ابن خلدون : « ما زلنا ونحن بالمغرب نسمع أنه ظهر بمصر عالم بالعربية يقال له ابن هشام أنحى من من سيبويه » .

ونشير فى هـــذا المقام إلى جالية علماء الأندلس بالمشرق ، وعلى رأسها جمال الدين بن مالك الأندلسى الذى وفد إلى بلاد الشام فى عهد الملك الظاهر بيبرس ، وتتلمذ له كثير من الناشئة . وانتشرت فى الشام ومصر وغيرهما كتبه ومنظوماته ، كالألفية والتسهيل ، فأصبحا محورا أساسيا من محاور البحث والتعليق والتأليف .

وكذلك أبو حيان أثير الدين الأندلسى . فقد وفد على مصر وتتلمذ لبعض رجالها ، وتتلمذ له من بعد عدد ناشئتها ، أفادوا منه ، وكانوا من بعده أعلاما فى التدريس والتأليف .

وإليك بعض المؤلفات والرسائل فى هذين الفنين :

ألفية بن مالك وهى منظومته المشهورة . وله أيضا التسهيل . والكافية الشافية ، وهى أرجوزة فى أكثر من ٢٧٥٠ بيتا لخص منها ألفيته . وسبك المنظوم وفض المختوم ، ولامية الأفعال . وإيجاز التعريف . وشواهد التوضيح .

ولجمال الدين بن هشام المصرى : مغنى اللبيب عن كتب الأعاريب . وشذور الذهب . وقطر الندى وبل الصدى . والجامع الصغير . والروضة الأدبية . وموقد الأذهان والإعراب عن قواعد الإعراب .

وللجلال السيوطى : البهجة المضية فى شرح الألفية والأشباه والنظائر فى النحو . والفريدة فى النحو والصرف والخط . والنكت على الألفية . والفتح القريب

وهو شرح على مغنى ابن هشام . والاقتراح فى أصول النحو . وجمع الجوامع وهو مختصر فى النحو . شرحه مؤلفه بكتاب آخر هو همع الهوامع . وشرح شواهد المغنى . وشرح الكافية فى التصريف . وله غير ذلك .

ولأبى حيان الأندلسى : شرح التسهيل . والارتشاف . وتجريد الأحكام لسيبويه - وكلها فى النحو . وعقد اللآلىء فى القراءات . وله فى التفسير : البحر المحيط وقد مزج مباحثه بمباحث النحو .

ومن شروح ألفية ابن مالك : شرح لشمس الدين بن الصائغ محمد بن عبدالرحمن . وشرح لابن عقيل . وشرح لبدر الدين المرادى . وشرح لأكمل الدين البابرتى . وشرح لناظر الجيش محب الدين بن عبد الدائم محمد بن يوسف . وشرح لجمال الدين عبد الرحيم الإسنوى .

ومن شروح تسهيل ابن مالك : شرح لم يتم لجلال الدين المحلى . وشرح للبدر الدمامينى . وشرح لبدر الدين المرادى . وشرح لشهاب الدين السمين أحمد بن يوسف بن عبد الدائم نزيل القاهرة . وشرح لبهاء الدين بن عقيل . وشرح لمحب الدين بن عبد الدايم .

ومن الكتب الأخرى : شرح قواعد ابن هشام ، لجلال الدين المحلى . وحاشية على مغنى اللبيب لبدر الدين بن الدمامينى . والكناش للملك إسماعيل أبى الفداء . ومفتاح الإعراب لأمين الدين المحلى . والألغاز النحوية لخالد الأزهرى . وقصيدة فى المقصور والممدود لشمس الدين الهوارى الشاعر . وبلوغ الأرب بشرح شذور الذهب لزين الدين زكريا الأنصارى . والمناهج الكافية فى شرح الشافعية . له أيضاً .

ومن كتب العروض والقوافى : كتاب العروض لابن مالك الأندلسى . وكتاب القوافى لبدر الدين الدمامينى . وجواهر البحور وهو فى العروض ،

للدماميني أيضاً . وشفاء العليل فى علم الخليل لأمين الدين المحلى . والعنوان فى معرفة الأوزان له أيضا . وجلوة الأمداح الجمالية ، فى حلتى العروض العربية ، وهى قصيدة فى العروض لشهاب الدين بن عربشاه .

ومن كتب متن اللغة وما يتصل به : لسان العرب لابن منظور . والمصباح المنير لأحمد بن على المقرى الفيومى . والمسترجل فى الكنى لشمس الدين الذهبى . والمقتنى فى الكنى له أيضاً . والمزهر للجلال السيوطى . ومختصر أساس بلاغة الزمخشرى ، لشهاب الدين بن حجر العسقلانى .(١)

وبقيت ـ لاستكمال عناصر الثقافات الأدبية ـ سطور نحدثك فيها عن كتب البلاغة والنقد ، وعن المجاميع الأدبية نثرها وشعرها .

وينبغى قبل أن نعرضها عليك ، أن نحدثك عن عاملين مهمين كان لهما أثر بارز فى توجيه الثقافة الأدبية ، وبخاصة فى فن الأسلوب ، وهما الدراسات القرآنية ، ومنهج القاضى الفاضل .

الدراسات القرآنية .

أعتقد أن عناية الأدباء والنقاد حينذاك بدراسة أساليب القرآن الكريم وطريقة نظمه ، كانت ذات أثر فى إقبالهم على اصطناع البديع . فكان عماد الفن الأسلوب عندهم . وذلك بدافع الإعجاب بنظم القرآن هذا النظم الفريد .

وقد كان القرآن وأساليبه موضعاً لدراسات كثيرة متنوعة ، منذ فجر الإسلام حتى يومنا هذا ، ومنها دراسة نظمه وطرق أدائه . غير أن هذا الضرب من الدراسة لم يخلص مرة لفن نقد الأسلوب وحده ، بل ظل ممتزجاً بالهدف الأصيل

---

(١) مرجع معرفة هذه المؤلفات : كتب تراجم الأعلام ، وفهرس دار الكتب ، وجورجى زيدان .
— راجع أيضاً حسن المحاضرة وطبقات الشافعية للسبكى ، وكتب الطبقات الأخرى ومنها بغية الوعاة .

فى بيان الإعجاز أو شرح الآيات وبيان الأحكام مثلا . أما النقدات الفنية الخالصة فكانت تعرض بين الآن والآن . غير أنها أخذت تنشط ويزيد خطرها ، وتنظر إلى نظم القرآن باعتباره أمثل نموذج للأساليب الفنية ، هذه النظرة التى صاحبتها منذ بدء أمرها .

واتضحت هذه النظرة فى كتب النقاد ، التى من متأخرها كتاب « المثل السائر » لابن الأثير — المتوفى قبل العصر المملوكى بسنوات معدودة - حيث يقول مثلا ، وهو يتحدث عن علم البيان : « وكنت قد عثرت على ضروب كثيرة منه فى غضون القرآن الكريم لم أجد أحداً ممن تقدمنى تعرض لذكر شىء منها . وهى إذا عدت كانت فى هذا العلم بمقدار شطره »(١) .

وقد تأثر بآراء ابن الأثير - ولا ريب — أدباء العصر المملوكى ونقاده .

وكلما تحدث النقاد عن أحد ألوان البديع ، استشهدوا له أولا بأمثلة من القرآن الكريم . واتضحت هذه الظاهرة فى كتب البلاغيين قبل هذا العصر . إلا أنها لدى النقاد والبلاغيين فى العصر المذكور اتضحت بشكل مطرد تقريباً . حتى إن ابن حجة الحموى استدرك على ابن المعتز عند حديثه فى كتاب « البديع » عن المذهب الكلامى حيث قال « إنه لا يعلم ذلك فى القرآن . » — فقال ابن حجة : « وليس عدم علمه مانعاً علم غيره . ولم يستشهد على المذهب الكلامى بأعظم من شواهد هذا النوع . وأبلغها قوله تعالى : « لو كان فيهما آلهة إلا الله لفسدتا » ٢) .

واعتبار النقاد والأدباء أن نظم القرآن الكريم يحتوى على كل الألوان البديعية ، وحرصهم على الاستشهاد عليها بأمثلة من القرآن ، وعثورهم فعلا على هذه الأمثلة ، دفعهم إلى تحرى أساليبه والاقتداء بها فى أساليبهم . بدا ذلك فى أساليب الكتاب المنشئين ، وفى أساليب الشعراء كذلك . ولكن كان عند الأول أوضح وأوسع .

---

(١) المثل السائر ص ٢ — فى مقدمته .

(٢) خزانة الأدب لابن حجة باب المذهب الكلامى .

وقد تكلم القلقشندى فى كتاب «صبح الأعشى» عن السجع ـ مثلا ـ فعقد له فصلا طويلا . وقد استوفى فيه الحديث عنه وعن أنواعه ونظام فقراته وعددها . واستشهد لكل نوع مما قال بآيات من القرآن الكريم ، ناقلا أكثر ما قال عن ابن الأثير والشهاب الحلبى .

وسنعود إلى الحديث عن الدراسات القرآنية فى مناسبة قادمة .

منهج القاضى الفاضل :

هذا الجو الفنى الذى عاشوا فيه ، والذى نشأ من ذوق العصر واتجاهه إلى الحلية بدافع من انتشار الحلية والزينة والألوان والأصباغ فى شتى نواحى معيشتهم وحياتهم الاجتماعية ، ومن طريقة تذوقهم للنظم القرآنى ، فسح الطريق أمام منهج القاضى الفاضل فى أساليب الكتابة والشعر ، أن يكون المنهج الأمثل الذى يحتذونه ، إذ أنه يلتئم وهذا الجو .

وقد يكون هذا المنهج نفسه عاملا من عوامل تهيئة هذا الجو . فقد كان القاضى الفاضل عبد الرحيم البيسانى من كتاب الدولة الفاطمية . ثم شهد انتقال ملك مصر إلى صلاح الدين الأيوبى ،وعاونه على أمور دولته . فكان له من علمه وأدبه وذكائه ومن منصبه ،ما عاون على فرض منهجه هذا فى زمانه وبعد زمانه ، وورث العصر المملوكى علم الأيوبيين وأدبهم ومناهجهم على وجه التقريب ، فكانت من أهم دعائم الثقافة فى زمانهم ، وكذلك الثقافة الأدبية . وهى وثيقة الصلة بأدب الفاضل ومنهجه . ولا عجب ، فقد اتخذه كتاب العصر المملوكى وشعراؤه نموذجاً وقدوة . وصار الأدباء والنقاد عندما يعرضون لذكر الفاضل يضفون عليه آيات الثناء والإطراء ،ويعترفون له بالفضل والسبق والإمامة ، حتى إنهم كانوا يشبهون به ويضربون المثل بأدبه عند المناسبات فى الشعر والنثر .

وذكر ابن حجة الحموى ، القاضى الفاضل فقال : « كان نظم القاضى الفاضل ـ

رحمه الله ـ ونثره كفرسى رهان . ولكنه نثر أكثر مما نظم . وأجمع الناس على أنه أتى مع الإكثار بالعجائب . وذكر قاضى القضاة شمس الدين بن خلكان فى تاريخه : « أن مسودات رسائله إذا جمعت ما تقصر عن مائة مجلد . وهو يجيد أكثرها » . ولعمرى إن الإنشاء الذى صدر فى الأيام الأموية والأيام العباسية نسى وألغى بإنشاء الفاضل وما اخترعه من النكت الأدبية والمعانى المخترعة والأنواع البديعية . والذى يؤيد قولى قول العماد الكاتب فى الخريدة أنه فى صناعة الإنشاء كالشريعة المحمدية نسخت الشرائع »(١) .

ونعتقد أن لنبوغ القاضى الفاضل فى استعمال التورية ، أثراً فى إعجاب أدباء عصر المماليك به وفى مشيهم تحت رايته . وذلك لأن التورية ـ فى الحق ـ عنصر أصيل من عناصر التعبير المصرى ، ومظهر بارز من مظاهر الذوق المصرى .

هذا فضلا عن نبوغه فى اصطناع أنواع أخرى ذات صلة بهذا الذوق ، كالاستخدام والاقتباس والتضمين والتوجيه والتلميح مثلا .

وقد أشاد ابن حجة بذكر الفاضل عند كلامه فى « خزانة الأدب » عن التورية ، وعده أنه هو الذى عصر سلافتها .

وقد كان لافتتانهم بأدبه أثر فى إقبالهم على معارضته فى بعض ما كتب . والمعارضة الأدبية فى الشعر أو النثر ، دليل ضمنى على الإعجاب والتقدير ، وعلى الاقتداء(٢) .

وغلب منهج الفاضل كذلك ، على أذواق النقاد ، فصاروا وقصاراهم الاهتداء بهديه وترسم خطاه ، فى أكثر ما تناولوه من مسائل النقد .

---

(١) عن ثمرات الأوراق ،

(٢) فى تذكرة الصفدى ج ١٣ رسالة للقاضى الفاضل ، وبها معارضة ابن عبد الظاهر لها . وفى خزانة الأدب ص ٤٣١ — وكذلك فى ثمرات الأوراق . رسالة للفاضل ، وأخرى لابن حجة الحموى يعارضه فيها .

والحق أنه قد شارك الفاضل فى صنع أذواق النقاد ، أدباء غيره ، عاشوا قبله ، وبعده . وبخاصة النقادمنهم والبلاغيون ، أمثال ابن المعتز وقدامة والجرجانى وابن سنان وابن أبى الأصبع ، وابن الأثير صاحب المثل السائر . ولكن على الرغم من هذا ، كان منهج الفاضل صاحب السلطان الأقوى .

واتضح ذلك فيما كتبه الشهاب الحلبى فى كتابه «حسن التوسل» ، والقلقشندى فى «صبح الأعشى» . وتقى الدين بن حجة فى «خزانة الأدب» ، من مسائل النقد والبلاغة والحديث عن الأسلوب .

ونحن نعتبر هذه الكتب وأمثالها ، عناصر هامة من عناصر الثقافة الأدبية حينذاك ، وهى أيضاً بعض نتائجها[1] .

وهناك مظاهر أخرى ، أو نتائج ، تدل فى جملتها على أن الثقافة الأدبية ، كانت على جانب من النشاط ، لا بأس به ، وأنها لم تكن تعانى من الضيق والسطحية ، كل ما رميت به .

ومن ذلك :

كتب البلاغيين :

ويبدو أن رغبتهم فى بعث القديم ونشره وإحيائه ، دفعتهم إلى أن يعيشوا فى فلكه ، ويدوروا فى مداره . فمضوا قدما فى شرح المختصرات ، واختصار الشروح .

وعلى رأسهم جلال الدين القزوينى ، الذى دار فى فلك السكاكى ـ وهو من رجال البلاغة فى العصر الأيوبى ، وواضع كتاب «مفتاح العلوم» فى البلاغة وغيرها ـ وقد لخص القزوينى القسم الخاص بالبلاغة فى «مفتاح العلوم» ،

---

(١) راجع باب النقد والنقاد ، فى المجلد السادس من هذه الموسوعة .

وسمى هذا التلخيص « تلخيص المفتاح » . ثم شرح تلخيصه هذا فى كتاب آخر، سماه « الإيضاح » .

وممن سار مسار القزوينى . أكمل الدين البابرتى ، وبهاء الدين السبكى ، وجلال الدين السيوطى ، وزكريا الأنصارى وغيرهم كثيرون . ولكل منهم شرح أو أكثر على كتاب « التلخيص » الذى وضعه القزوينى .

والموسوعات :

وقد أشرنا إليها من قبل . ومن بينها :

صبح الأعشى ، للقلقشندى : وأساسه الحديث عن صناعة الكتابة وما يتصل بها من آدابها وأطوارها فى الدول الإسلامية ، ونموها ودواوينها ورسومها ونماذجها وقد تحدث عن تاريخ هذه الدول وجغرافيتها ، وعن أنواع رسائلها ومكاتباتها داخل دواوينها وخارجها ، إلى غير ذلك .

ومسالك الأبصار ، لابن فضل العمرى : وأساسه الحديث عن تقويم البلدان ووصف أحوالها . وقد امتلأ باستطرادات أدبية طريفة ، وغيرها .

ونهاية الأرب للنويرى : وأساسه الحديث أيضا عن جغرافية العالم وتاريخ الأمم من لدن آدم ، وعن الإنسان وما يتعلق به وما له من خلق وفن وأدب ، وتحدث فيه عن الكتابة وما ينبغى لها من أدوات . وذكر الحيوان وأنواع النبات، وما يتصل بذلك كله من عجائب وحوادث وقصص وشعر ونثر .

والمجموعات الأدبية :

وهى كتب جمعت فأوعت من ألوان الشعر والنثر ، ما بين قديمها ومعاصرها . وفيها الحكم والرسائل والمكاتبات والجد والمجون والعظات والنقدات ، والقصص وغير ذلك . ومنها على سبيل المثال :

التذكرة الصفدية . لصلاح الدين الصفدى . قيل إنها ثلاثون مجلداً . ويوجد

منها عدة أجزاء مخطوطة بدار الكتب المصرية . وتحتوى على فصول أدبية ومختارات من الشعر والنثر ، وأحاديث عن الصفات والأخلاق إلى غير ذلك .

وثمرات الأوراق لابن حجة الحموى ، وقد طبع أكثر من مرة . وهو مجموعة من النكت والروايات والرسائل النثرية ، من مختلف الألوان ، وبه قصص عن الأطباء والأجواد والبخلاء ، والعلماء والحمق .

والمستطرف للأبشيهى : ويشتمل على ثمانية وأربعين بابا فى مختلف الموضوعات ، ما بين شعر ونثر . ومنها باب فى العقل . وباب فى الذكاء . وباب فى الحق . وباب فى القرآن وفضله . وباب فى الأمثال السائرة .

وحلبة الكميت لشمس الدين النواجى : وموضوع الحديث عن الكميت ـ الخمر ـ ويحتوى على خمسة وعشرين بابا وخاتمة ، ما بين شعر ونثر .

ومنها على هذا النسق :

نسيم الصبا لابن حبيب الحلبى . ومقامات السيوطى . ومقامات ابن الوردى . وسجع المطوق لابن نباتة . وتأهيل الغريب لابن حجة الحموى . وسكردان السلطان لابن أبى حجلة المغربى . والكنز المدفون للجلال السيوطى . وشروح الرسائل الأدبية أو القصائد الشعرية السائرة . ومن ذلك « سرح العيون » فى شرح رسالة ابن زيدون الهزلية لابن نباتة المصرى . و « تمام المتون » للصلاح الصفدى فى شرح رسالة ابن زيدون الجدية . ومثل شرح قصيدة « بانت سعاد » لابن هشام المصرى . وشروح البديعيات . وألحان السواجع للصفدى . وجنان الجناس له أيضاً . وكشف اللثام لابن حجة الحموى إلى غير ذلك .

هذا عدا دواوين الشعراء ، كابن نباتة ، والقيراطى ، وابن حجر ، والشاب الظريف ، والبوصيرى ، والفخر بن مكانس ، وابن الوردى ، وابن سيد الناس اليعمرى ، وابن ابى حجلة المغربى . وغيرهم كثيرون .

وبعد : هذه كلها لمحات وجيزة وسريعة ، تلقى أضواء على الثقافة فى عصر المماليك فى ناحيتيها العلمية والأدبية . وكان لذلك رجعه البعيد المدى فى شعر الشعراء ، مما سنحدثك عنه فى حينه .

الفصل الرابع

فى

وصف البيئة الاجتماعية(١)

البيئة الاجتماعية تتراءى فيها مجموعة النظم والترتيبات والقواعد ، التى تسير الدولة على مقتضاها ، وعلى رسومها ، فى داخل البلاد ، ومجموعة العادات والتقاليد التى يسير عليها الشعب ، ويتبعها فى طـــرق معيشته ، والمستوى الحضارى الذى بلغه .

وهى بذلك وثيقة الصلة بالبيئة السياسية ، لعلاقتها بنظم الدولة وإدارتها — مثلا — ووثيقة الصلة بالبيئة الثقافية ، لما للثقافة من تأثير كبير فى توجيه العقلية والنفسية الشعبية ، اللتين عليهما مدار الحياة الاجتماعية ، وبروز ما فيها من العادات والتقاليد والحضاره والفن .

بل هى ذات ارتباط لا ينكر ، بالبيئة الطبيعية ، كذلك . فإن البيئة الطبيعية — مثلا — هى التى تهيء للشعب لون معيشته ومستواها . وهى المستند الأصيل الذى يعتمد عليه فى اقتصادياته . والاقتصاد من أهم دعائم الحياة الاجتماعية .

فلا عجب ، حينئذ ، ونحن نتحدث عن البيئة الاجتماعية ، إذا تناولنا بعض عناصر السياسة أو الثقافة أو طبيعة البلاد ، لما لهذه العناصر من دخل وتأثير فى توجيه الحياة فى هذه البيئة .

ولا بأس أيضاً ، إذا نحن عاودنا الحديث فى بعض ما أوردناه فى البيئات الأخرى لمناسبة المقام .

---

(١) فصلنا الحديث عن موضوعات البيئه الاجتماعية فى المجلد الثانى من هذه الموسوعة . ولهذا أوجزنا الحديث هنا بما يناسب المقام .

الطبقة الحاكمة

ومن المناسب فى مطلع الحديث عن طبقتى الأمة ، أن نذكر ما رواه القلقشندى ، إذ قال ما ملخصه : « إن الدولة الأيوبية خالفت فى نظمها وترتيب الدولة كثيراً مما كان عليه الحال فى الدولة الفاطمية . وجرت على ترتيب دولة عماد الدين زنكى بالموصل ، ودولة ابنه نور الدين محمود بالشام . ثم جاءت الدولة التركية وقد تنقحت نظم الدولة وتهذبت . فنقلت أحسن مافيها وسلكت سبيله ، وتهذبت حتى فاقت سائر الممالك »(١)

وقد نوهنا بأن البلاد كان بها طبقتان متميزتان : حاكمة ومحكومة .

وتعتبر الطبقة الحاكمة من الجنس التركى ، فى الدولة التركية . ومن الجنس الجركسى فى الدولة الجركسية . وإن لم تخل واحدة منهما من وجود عناصر أخرى . وقد أشرنا إلى ذلك .

وكانت هذه الطبقة تتجدد — غالبا — عن طريق شراء المماليك جددا من الخارج . ثم يربى المملوك فى طباق القلعة — عادة — تربية عسكرية ، كما ذكرنا ، ثم يندمج فى عداد المماليك السلطانية ، وهم جنود الجيش . ثم قد يرفعه حظه إلى الترقى إلى الإمارة ، والصعود فى سلكها . ثم قد يدفعه حظه أيضاً إلى الوصول إلى السلطنة . . .

وتتألف هذه الطبقة ، من السلطان والأمراء والمماليك السلطانية . ويلحق بهم الخليفة وإليك وجازة عن كل قوة من هذه القوى الأربع .(٢)

---

(١) صبح الأعشى ج ٤ تحت عنوان « من أحوال ماعليه ترتيب المملكة .. الخ ».

(٢) راجع الخطط المقريزية ج ٣ ص ٣٤٨ تحت عنوان « دار النيابة » وما بعدها . — وبدائع الزهور فى حوادث عام ٩٠٨ هـ ، ٩٢٢ هـ .

ا — السلطان :

متى تمت السلطنة لأحد الأمراء ، وصار سلطانا على البلاد ، أصبح بيده الأمر والنهى ، والحل والعقد . وصار مصدر السلطات وولى الأمر الشرعى . وهو الذى يعين ويعزل ويرقى ، ويفرق الإقطاع ، ويقرر الحرب ، ويفرض الضرائب ، وينفق المال على مرافق البلاد ، ويشترى المماليك للدولة ، وينفق عليهم ويربيهم ، ويعدهم للحراسة والقتال ، ويعتقهم ، إلى غير ذلك من المهام . فهو محور الدولة ، وعليه مدارها .

وقد يكون السلطان فى أصله ، مملوكا ترقى إلى الإمارة فالسلطنة عن طريق الغلبة والقوة ، كالملك الظاهر بيبرس . — وقد يكون وارثاً لأبيه المملوك ، أو أخيه ، كالملك السعيد بن بيبرس ، فقد ولى السلطنة بعد أبيه . وكالناصر محمد بن قلاوون ، فقد ولى السلطنة بعد أخيه .

ويشتور الأمراء المقدمون — أمراء المئين — عادة فيما بينهم ، حينما يخلو كرسى السلطنة ، ليختاروا أميراً من بينهم ، أو وارثاً ، لولايتها .

وقد تكررت نصوص المؤرخين ، فى مناسبات تعيين السلاطين ، فقالوا مثلا : « فوقع الاختيار على فلان . . . ليكون سلطانا . » وهى تشعر بوجود رأى وشورى قبل ولاية السلطنة . ويقع هذا سواء أكان السلطان قد وثب إلى السلطنة بطريق الغلبة والائتمار ، أم الوراثة . وفى الحالة الأولى تكون الشورى شكلية ، وتتم بين أتباع الأمير المختار (١) . وفى الحالة الثانية . تكون —

(١) عندما خلع الأمراء الملك السعيد بن بيبرس ، عرضوا السلطنة على قلاوون فامتنع ، فولوا سلامش بن بيبرس ، وكان صغير السن . وبعد قليل جمعهم الأمير قلاوون وحدثهم فى أمر سلامش وصغر سنه ، فاستقر رأيهم على خلعه ، وتولية قلاوون . — راجع سلوك المقريزى ج ١ ص ٦٥٦ ، ٦٥٨ .
واشتور الأمراء حين تولية الغورى ، واشتوروا بعد مقتله واختاروا الأشرف طومان باى . وهكذا — راجع بدائع الزهور فى ترجمة هذين الملكين .

غالباً — إقرارا لعهد السلطان الزائل ، إلى ابنه — مثلا — بالسلطنة .

وكثيراً ما كان السلطان القائم يعهد بالسلطنة من بعده لابنه — مثلا — وتكتب له بذلك صورة عهد . وقد يقره الأمراء بعد زواله ، أو لايقرونه .

وولاية السلطان لسلطنته ، وتصرفاته وأحواله، تشكل جانباً كبيراً من عادات الدولة وتقاليدها . فمنها :

---

١ — حفلة توليته :

بعد استقرار الرأى على أن يتولى أمير معين ، أمر السلطنة ، تقام له حفلة تولية ومبايعة . يجتمع فيها الخليفة وقضاة الشرع الأربعة وسائر الأمراء . ويكتب تقليد للسلطان بالسلطنة، يتلى فى الحفل . وهو على لسان الخليفة العباسى، يوليه فيه شئون المسلمين . ويتقدم الخليفة نحو السلطان فيبايعه ويعهد إليه ، ثم يليه قضاة الشرع فالأمراء .

ويلبسونه بعد ذلك شعار السلطنة ، وهو عمامة سوداء لها عذبة مذهبة ، وجبة سوداء ، وسيف ثمين ذو حمائل .

ثم تقدم إليه فرس بسرج ذهبي مزدانة بثياب وحلى . ويسير فى موكب وسط هذا الجمع — وهم بملابسهم الرسمية ، « الشاش والقماش » — ويشقون به وسط القاهرة أحيانا ، أو يبدءون من أماكن قريبة من القلعة . ويقصدون بها القصر الكبير . حيث يجلسونه على سرير المملكة . وتنشر على رأسه ، وقت مسيره ، « القبة[1] والطير » ، وهما من شعارات المملكة ، ويحملهما أكبر الأمراء مقاماً .

ويقبل له الأمراء الأرض ، فيخلع خلعه عليهم ، ويرقى منهم من يشاء إلى

---

(١) القبة كالمظلة . والطير كان من الذهب . وقد غيرها الأشرف الغورى عام ٩٢٠ هـ ، واتخذ عوضا عنهما الجلالة والهلال الذهبي — راجع بدائع الزهور حوادث عام ٩٢٠ هـ .

المناصب الشاغرة . وينفض الحفل [١] .

ويختار له لقب كالأشرف ، وكنية كأبى النصر ، وينادى باسمه فى آفاق السلطنة .

حفلات الاستقبلال :

ويقيمها السلطان بمناسبات عدة ، منها حفاوته بضيف كبير ، أوسفير خطير . وكانت تراعى فيها تقاليد وأوضاع مقررة .

ويرسل السلطان ـ عادة ـ إلى القادم من يلقاه فى طريقه قبل دخول القاهرة . ويهيىء له منزلا مناسبا لإقامته ، ويعين له من يقوم بحراسته وخدمته ، ويعاونه بشىء من المال وغيره ، ويهدى إليه .

ويقام الاستقبال فى « الحوش » السلطانى بالقلعة . ويحضر السلطان بملابسه الرسمية ، وحوله الأمراء ورجال الدولة ، فيجلس على « الدكة [٢] السلطانية » . والبسط الثمينة من حولها مفروشة معدة .

فإذا قدم المحتفى به ـ وفى صحبته أحد رجال السلطان ـ قام له السلطان ـ عادة وسلم عليه ورحب به ، ودعاه إلى الجلوس ، وتبادلا الحديث .

ثم يخلع عليه خلعة نفيسة ، ثم ينصرف القادم بموكبه إلى مسكنه [٣] .

---

٣ ـ خروج السلطان من القاهرة وعودته إليها :

اعتاد الأمراء والرؤساء وأهل القاهرة ـ غالبا ـ أن يحتفوا بالسلطان عند

---

(١) راجع بدائع الزهور فى حفلة مبايعة بيبرس وبرقوق والغورى .

(٢) كانت « الدكة السلطانية » الموضع الرسمى لجلوس السلطان فى الاستقبالات ، وقد ألغاها الغورى وبنى عوضاً عنها « المصطبة السلطانية » . فلما سلطن الأشرف طومان باى ، أعاد « الدكة » وألغى « المصطبة » .

(٣) راجع استقبال الغورى للأمير العثمانى قرقد بيك ، فى بدائع الزهور ج ٤ حوادث عام ٩١٥ هـ .

خروجه منها فى موكبه ، أو عند عودته إليها ، وذلك بمناسبة حرب خارجية ، أو زيارة لإحدى نواحى البلاد أو الذهاب إلى الحج ، ونحو ذلك .

عندئذ تقام الزينات فى أماكن مروره ، فتنصب الأعلام وترفع الثريات الزيتية المختلفة الألوان ، وتعلق قطع المنسوجات الملونة ، إلى غير ذلك .

ويسير فى ركبه ، احتفالا به ، وتوديعاً له ـ أو استقبالا ـ عدد كبير من الرؤساء والأمراء وحولهم الجنود والحراس ، وتمتلىء الطرقات وشرفات المنازل بالمشاهدين .

وقد يكون الاحتفال به عند عودته أبلغ وأبهج . وكثيراً ماتهدى إليه الهدايا . وقد يمنح هو ويهب ويرقى ، بمناسبة هذه العودة .

واعتاد محتسب القاهرة أن ينادى فى سكانها بضرورة إقامة الزينات ، بهذه المناسبات [1] .

---

٤ — الفرح بشفائه من مرضه :

وقد يمرض السلطان ثم يشفى ، فيعلنون بفرحهم لشفائه . وقد مرض الأشرف الغورى عام ٩١٩ هـ بارتخاء جفونه حتى خيف عليه العمى ، وامتنع من النزول لمزاولة شئون الدولة . ثم شفى ، فأقيمت له زينة بالغة فى أرجاء القاهرة ، بعد أن نادى محتسبها بذلك . وكان مجتمع الزينة فى « بركة الرطلى » ، فامتلأت بالقناديل والثريات ، وعلقت على وجوه المنازل والمحال ، الأعلام وقطع المنسوجات ما بين صفراء وحمراء وغيرها . وانتشرت فرق الموسيقى فى نواحيها . وأخذت الزوارق فى البركة تنقل المرتاضين والمتفرجين من مكان إلى آخر . وترددت على شواطئها أصوات المغنين والمغنيات ، وظل الناس يسمرون طوال الليل ، ويترددون على مجالس الأنس والسماع ، ويتسلون بمشاهدة الألعاب النارية ـ « إحراقات النقط » ـ .

---

(١) راجع بدائع الزهور فى حوادث عام ٩١٨ هـ . وبينها أخبار زيارة الغورى للفيوم .

وامتدت الزينات إلى الفسطاط ، وبولاق وسوق الخانكاه وحارة زويلة وخان الخليلي وغـــيرها . وأقام الأمراء والرؤساء معالم الزينات على بيوتهم . واستمرت الزينة مقامة سبعة أيام متوالية[١] .

---

٥ - جلوسه للقضاء :

وأراد سلاطين المماليك أن يتشبهوا بالسلف فى تفقد أحوال الرعية والنظر فى المظالم. فجلسوا فى مجلس القضاء للفصل فى الشكايات والخصومات. واصطحبوا معهم قضاة الشرع .

ولم تطرد هذه العادة . بل من السلاطين من جلس للقضاء فى أيام معينة . ومنهم من لم يواظب على هذه العادة الحميدة . ومنهم من هجرها جملة ، ومنهم من أناب عنه أحيانا نائب سلطنته .

وممن جلس للقضاء : الظاهر بيبرس ، والأشرف خليل بن قلاوون ، وأخوه الناصر محمد - ومن نواب السلطنة : عز الدين إيدمر الحلى، عن الظاهر بيبرس[٢] وسلار المنصورى عن الناصر محمد بن قلاوون[٣] .

وتقدم الشكاوى والمظالم على اختلاف أنواعها إلى السلطان حينذاك . فيستشير فيها قضاة الشرع ، ويحكم بما يراه ، وهو لا يخرج عن رأيهم .

ويقول ابن فضل الله العمرى ، واصفا مجلس السلطان فى دار العدل للقضاء :

« إذا جلس السلطان للمظالم، جلس عن يمينه قضاة القضاة من المذاهب الأربعة، ثم الوكيل عن بيت المال ، ثم الناظر فى الحسبة . ويجلس عن يساره كاتب السر . وقدامه ناظر الجيش وجماعة من الموقعين ، تكملة حلقة دائرة .

---

(١) بدائع الزهور ج ٤ حوادث شعبان عام ٩١٩ هـ .

(٢) سلوك المقريزى ج ١ ص ٥٠٣ و٧٧٢ — والخطط ج ٣ ص ٣٣٣ و٣٣٨ .

(٣) السلوك ج ١ ص ٥٥٠ .

وإذا كان ثم وزير من أرباب الأقلام ، كان بينه وبين كاتب السر . وإن كان الوزير من أرباب السيوف، كان واقفاً على بعد، مع بقية أرباب الوظائف.

ويقف من وراء السلطان ، صفان عن يمينه ويساره من السلاحدارية والجمدارية والخاصكية .

ويجلس على بعد تقديره خمسة عشر ذراعاً من يمنة ويسرة ، ذوو السن من أكابر أمراء المئين ، وهم أمراء المشورة . ويليهم من دونهم من أكابر الأمراء وأرباب الوظائف وقوفا . وبقية الأمراء وقوف من وراء أمراء المشورة .

ويقف خلف هذه الحلقة المحيطة بالسلطان، الحجاب والدوادارية ، لإحضار قصص الناس ، وإحضار المساكين وتقرأ عليه . فما احتاج إلى مراجعة القضاة راجعهم فيه . وما كان متعلقاً بالعسكر ، تحدث مع ناظر الخاص وكاتب السر فيه » .

وقال أيضاً :

« وهذا الجلوس يكون يوم الاثنين ويوم الخميس . إلا أن القضاة وكاتب السر لا يحضرون يوم الخميس »[1] ..

وقد روى القلقشندى ما يفيد أن تعديلا طفيفا ، دخل على هذا النظام . وأهم ما فيه جلوس القاضى الشافعى والمالكى عن يمين السلطان ، والحنفى والحنبلى عن يساره[2] .

والذى بنى « دار العدل » الظاهر بيبرس ، وجلس فيها للفصل فى الخصومات عام ٦٦٢ هـ . ثم هجرت لما بنى المنصور قلاوون « الإيوان » بدلا منها . ثم هدمها ابنه الناصر محمد ، وأحل مكانها « الإيوان » وجمله ، وجلس فيه للقضاء والنظر

(١و٢) حسن المحاضرة ج ٢ ص ٩٢ تحت عنوان « ذكر جلوس السلطان فى دار العدل للمظالم » وخطط المقريزى ج ٣ ص ٣٣٣ تحت عنوان « ذكر خدمة الإيوان بدار العدل » — وصبح الأعشى ج ١ ص ٤٤ و ٤٥ تحت عنوان « هيئته فى جلوسه بدار العدل لخلاص المظالم — والسلاحدارية . . . الخ أنواع من هرمس السلطان وخدمه ، راجع المجلد الأول من موسوعتنا هذه .

فى المظالم يومى الاثنين والخميس . واقتدى به أبناؤه من بعده . ولما ملك برقوق استبدل به « الاصطبل السلطانى » وجلس فيه للقضاء يومى الأحد والأربعاء ، ثم استبدل بهما السبت والثلاثاء ، ثم ضم إليهما يوم الجمعة[١] .

---

٦ — جلوسه للعلم والمناظرة :

وفى أخبار المدارس والمساجد ، ترى أن المنشىء ـ سلطاناً أو أميراً ـ كان يحتفل بتمام البناء وافتتاح الدراسة . ويتصدر مجلساً علمياً يلقى فيه أحد شيوخ المدرسة درساً فى الفقه أو الحديث ـ مثلا ـ

وقد يتصدر السلطان مجلساً يتناظر فيه هو وبعض أئمته وعلمائه فى بعض المشاكل الدينية أو نحوها .

ولما افتتح الظاهر بيبرس مدرسته « الظاهرية » ، سمع حينذاك مناظرات العلماء وقصائد الشعراء .

ولما أنشأ برقوق مسجده ، عين شيوخه ، وكان من بينهم العلامة علاء الدين السيرامى مدرس الحنفية وشيخ الصوفية . وقد سمع برقوق لدرسه بل فرش له سجادته بيده[٢] .

ولما أنشأ المؤيد شيخ مسجده ، كان من بين شيوخه شهاب الدين بن حجر العسقلانى . فأقبل المؤيد عليه يستمع درسه ، وهم ابن حجر بالقيام تعظيما للمؤيد فمنعه من القيام[٣] .

واشتهر الأشرف الغورى بمجالسه العلمية . وكان إمامه وغيره من العلماء

---

(١) الخطط ج ٣ تحت عنوان « دار العدل القديمة » ، وتحت عنوان « الإيوان » وفى نهاية « ذكر النظر فى المظالم » .

(٢) حسن المحاضرة ج ٢ ص ١٦٣ .

(٣) الخطط ج ٤ ص ١٣٩ .

يتناظرون معه ، ويتحاورون فى مسائل شتى . وفى كتاب « مجالس السلطان الغورى » صور من هذه المناظرات والمحاورات .

---

٧ — زواج السلطان ـ أو الأمير ـ :

لم يكن زواج السلطان أو الأمير ، خاضعا لاعتبارات سياسية ومشيئة عامة . وكان كل منهما حراً فى اختيار زوجته . غير أن هـذه المصاهرات كانت محصورة ـ فى أغلب أمرها ـ بين أسر الطبقة الحاكمة . وندر أن امتدت إلى الأسر الشعبية .

وعلى سبيل المثال : تزوج الأمير يشبك الدوادار ، ابنة الملك المؤيد أحمد ابن إينال . ثم توفيت ، فتزوج أخت الأمير قانصوه خمسمائة .

وكان قانصوه خمسمائة متزوجا ابنة الأتابكى أزبك بن طط خ . وكان أزبك هذا متزوجا ابنة الملك الظاهر جقمق .

وقد يتزوج السلطان أكثر من واحدة ، ولا غضاضة عليه ، فقد كان العصر عصر التسرى بالجوارى .

وقد يتزوج السلطان أرملة أحد الأمراء أو مطلقته ، وقد تتزوج هى بعد وفاته بأمير أو سلطان . حتى ولو كان ابنها من المتوفى ، صار سلطان العصر مكان أبيه. بل قد تتزوج رجلا كان مملوكا لزوجها .

وعلى سبيل المثال . تزوج السلطان برسباى أرملة الظاهر خشقدم . وتزوج السلطان الناصر بن قايتباى مطلقة الأمير « كرتباى » واسمها « خوند مصر باى الجركسية » . ويبدو أنها كانت فاتنة ، فقد رغب فيها أكثر من رجل . وتزوجها بعد زوجها الناصر ، خاله قانصوه بن قانصوه ، الذى صار سلطانا من بعده .

وتزوج السلطان العـادل طومان باى « خوند فاطمة » ابنة العلائى على بن خاص بك ، وهى التى كانت زوجة الأشرف قايتباى . وتزوج الأشرف جان بلاط

قبل سلطنته ، أم الملك الناصر بن قايتباى ـ زوجة قايتباى من قبل ، وأخت قانصوه بن قانصوه ، الذى صار ملكا من بعد . . . الخ(١) .

ويغلب فى حفلاتهم عند الزواج ، حب الظهور والمفاخرة والمغالاة فى إعداد المتاع . والاجتماع للغناء والرقص والسماع ، والدق على الدف والزغردة . . الخ.

ولما تزوج الأمير قانصوه خمسمائة ، ابنة الأتابكى أزبك بن ططخ ، حفيدة الظاهر جقمق عام ٨٩٢ هـ ، عقد عقدهما بجامع القلعة بحضور القضاة الأربعة وأعيان الأمراء والناس ووزعت عليهم « زبادى » صينى بها سكر ، وأوعية فاكهة .

وحمل الجهاز نحو أربعمائة حمال . وقيل إنه أنفق فى إعداده نحو مائتى ألف دينار . وزينت الأزبكية ـ حيث دار الأب ـ بأبهى زينة ، فى ليلة الزفاف . وركب الأمير قانصوه ، من باب السلسلة وأمامه الأمراء المقدمون « بالشاش والقماش » ـ الملابس الرسمية ـ وبين يديهم الخاصكية بالشموع ، حتى بلغوا الأزبكية(٢) .

ولما تزوج الملك العادل طومان باى « خوند الخاصكية » عام ٩٠٦ هـ ، خرجت من بيتها بقنطرة سنقر ، فى محفة زركش ، وأمامها رءوس النوب والحجاب والخاصكية ، وهم « بالشاش والقماش » . وأمامها الوالى ونقيب الجيش والزمام عبد اللطيف . وأعيان الناس والمباشرين والطواشية . ومعها نحو مائتين من أعيان نساء الأمراء والعظماء .

فلما وصلت إلى باب الستارة بالقلعة ، فرشت لها الشقق الحريرية تحت حوافر بغال المحفة ، ونثر عليها خفائف الذهب والفضة . وحمل الزمام فوق رأسها القبة والطير ، حتى جلست بقاعة العواميد . وأمامها فى موكبها الصرر وطست وإبريق من البلوك ومنديل كبير من الزركش .

---

(١) راجع تراجم هؤلاء السلاطين والأمراء فى الضوء اللامع وبدائع ابن إياس ، وفى المجلد الأول من هذه الموسوعة .

(٢) بدائع الزهور ج ٢ حوادث عام ٨٩٢ هـ .

والموسيقا تصدح خلال ذلك . واستمر الابتهاج بقدومها فى القلعة ثلاثة أيام[١] .

ب — الأمراء :

والأمراء هم قادة الجند ، وهم الفئة التالية للسلطان فى الحكم ، والمنفذة لأمور الدولة . ويغلب أن يكون الأمير مملوكا فى الأصل ، تربى فى طباق القلعة تربية عسكرية فصار جندياً ثم دفعت به مهارته وجده إلى صفوف الإمارة .

ويتولى الأمراء أهم مناصب الدولة ولا سيما العسكرية منها . وهم فى الغالب أربع طبقات بحسب الألقاب : ١ ـ أمراء المائة المقدمون ، وتلك أرفع المراتب ويختار من هذا الصنف كبار الموظفين مثل نائب السلطنة والأتابكى وحاجب الحجاب . ٢ ـ أمراء الطبلخاناه ـ أو أمراء الأربعين ـ وهم أقل مرتبة . ٣ ـ أمراء العشرة . ٤ ـ أمراء الخمسة .

وأهم وظائفهم : نائب السلطنة ، ونائب إقليم أو قلعة كدمشق والإسكندرية وحلب ، ونائب غيبة ينوب عن السلطان إذا خرج فى تجريدة مثلا . والأتابكى : وهو أمير الجند ـ القائد الأول . وحاجب الحجاب : وهو قاض له أعوان ويفصل فى منازعات الأمراء والجنود وقضايا الدواوين ، وبعض القضايا المدنية . وأمير مجلس : ويشرف على الأطباء ومن إليهم وأمير سلاح : وهو رئيس رجال السلاح من مماليك السلطان ويوكل إليه الإشراف على السلاح وإعداده . وأمير آخور : وينظر فى الاصطبلات السلطانية وخيولها . ورأس نوبة : ويشرف مباشرة على لمماليك السلطانية . والأستادار : ويشرف على البيوت السلطانية وما تحتاج إليه من طعام وشراب وخدم وغير ذلك . والدوادار : يبلغ رسائل السلطان ويقدم إليه المظالم والبريد مع كاتب السر . وأمير جاندار : ويطلب توقيع السلطان على

---

(١) بدائع الزهور ج ٢ حوادث عام ٩٠٦ هـ .

المناشير والرسائل ونحوهما. وأمير جاندار: يعاون الدوادار وكاتب السر، ويستأذن للدخول على السلطان وينظم مواكبه وغير ذلك. والجاشنكير: يعاون الأستادار فى إعداد الموائد السلطانية وغيرهما والخازندار: يعاون ناظر الخاص فى الإشراف على الخزائن السلطانية. وشاد الشرابخاناه: يشرف على أشربة السلطان وفاكهته وحلواه. وأستادار الصحبة: يشرف على المطابخ السلطانية والأطعمة والموائد. ووالى القاهرة: يحفظ الأمن فى المدينة. والوزير: ينظر فى الأمور المالية من تحصيل وإنفاق وتعيين المباشرين. وناظر الخاص: يشرف على أموال السلطان. وناظر الجيش: ينظر فى الإقطاعات بمصر والشام ويكاتب عنها ويشاور السلطان فيها. والمحتسب: ينظر فى شئون القاهرة ويراقب العمال والصناع والتجار ومن إليهم والمشبوهين. وهناك وظائف أخرى.

وقد تنقلت الاختصاصات بين الوظائف المختلفة، كما أبطلت بعض الوظائف أحيانا واستجد غيرها. وقد تعاد.

وقد أجمل ابن إياس ذكر هذه الوظائف التى كانت قائمة فى الدولة عام ٩٢٢ هـ وعدد أفرادها على وجه التقريب فروى ما ملخصه: أن الأمراء المقدمين كانوا ستة وعشرين، منهم من يشغلون وظائف فعلا، ومنهم بدون وظائف فعلية والأولون تسعة أمراء ووظائفهم: أمير كبير «أتابك». أمير مجلس أمير سلاح أمير آخور. أمير رأس نوبة النوب. حاجب الحجاب. الدوادار الكبير. الأستادار. كاشف الكشاف.

وأن نواب البلاد الشامية والحلبية هم: نائب حلب طرابلس. حماة صفد القدس. الكرك. ومن النواب من كان يشغل أكثر من نيابة واحدة حينذاك - وأمراء الطبلخاناه الموظفون: شاد الشرابخاناة. الزردكاش الكبير. تاجر المماليك، أستادار الصحبة، رأس نوبة ثان، الحاجب الثانى، والى الشرطة، المهمندار، نقيب الجيش، شاد الشون، الترجمان، معلم المعلمين، أمراء رءوس

نوب كثيرون ـ قال ابن إياس : تكامل فى هذه السنة من الأمراء الطبلخاناه والعشرات فوق الثلثمائة أمير .

ومن كبار المباشرين ـ وهم من المتعممين ـ كاتم السر وناظر ديوان الإنشاء. نائبه . ناظر الجيش . مستوفيا ديوان الجيش . ناظر الخاص ناظر الأوقاف . الوزير . ناظر الدولة ، كاتب المماليك ، ناظر الإصطبل ، مستوفى ديوان الخاص، ناظر الزردخانة ، مستوفى ديوان الجيش الشامى ، المتحدثان فى الخزائن الشريفة ، المتحدث فى وظيفة الزمامية ، المتحدث فى الديوان المفرد ، البرددار ، المتحدث فى الشئون السلطانية ، ـ وغيرهم من المباشرين وأعيان الدولة .

يضاف إلى من تقدم ، أعيان الخدم الطواشية والخاصكية . وهؤلاء من الجنود ـ لا الأمراء ـ وقد قال عنهم ابن إياس : « فى هذه السنة تكاملت الخاصكية ، فبلغت نحو ألف ومائتى خاصكى من مشتريات السلطان(١) .

حـ ـ الجنود السلطانية :

وهم عصب الجيش ، وقوته العاملة . وكانوا يجلبون من خارج البلاد ، أرقاء ، يربون تربية عسكرية فى أبراج قلعة الجبل . واهتم السلاطين بجلبهم باطراد ، كما بذل بعضهم عناية خاصة بتربيتهم كالمنصور قلاوون .

وقيل إن مشتريات قلاوون منهم ، بلغت اثنى عشر ألف مملوك(٢) ، وقيل إن مشتريات ابنه الناصر محمد بلغت نحو اثنى عشر مملوك أيضا ، وبلغت جملة مماليك جيوشه نحو أربعة وعشرين ألف .

وفى الدولة الجركسية ، درج بعض السلاطين على اقتناء مجموعة من المماليك تعرف باسمه خاصة . ومن هنا تعددت طوائفهم ـ فضلا عن طائفية الجنس

---

(١) بدائع الزهور ج ٣ فى حوادث عام ٩٢٢ هـ .

(٢) تقويم النيل لأمين سامى ص ١٦١ .

الأصيل — فكان منهم الخشقدمية والبرسبايية والقايتبايية إلى غير هؤلاء وكان ذلك فى جملة أسباب تنافسهم وتنازعهم .

وفى الفصول السابقة نوهنا بمعلومات كثيرة عن هؤلاء الجنود ، فحسبنا ذلك.

د — الخلفاء :

أنهى التتار خلافة العباسيين عام ٦٥٦ هـ . وكانت سلطنة مصر قد آلت إلى أمراء المماليك . وبلغ بيبرس إلى سلطنتها . فرأى بثاقب نظره أن يعيد فى مصر سيرة الخلافة العباسية من جديد، لتكون دعامة فيها للسلطنة ويستمد منها السلطان سلطته الشرعية . فأقامها ابتداء من عام ٦٥٩ هـ . وأقر فيها أحد أعقاب العباسيين وبايعه الخلافة . ومن ثم بايع الخليفة بدوره بالسلطنة ، ووكل إليه أمور المسلمين(١) .

وتوالى خلفاء بنى العباس فى منصب الخلافة بطريق الوراثة ، حتى دهم العثمانيون البلاد وأنهوا سلطنة المماليك عام ٩٢٣هـ، فحملوا الخليفة العباسى حينذاك — وهو المتوكل على الله — إلى القسطنطينية ، حيث تنازل — على ما قيل — للسلطان سليم الأول العثمانى عن الخلافة . وبهذا تحولت عن العرب إلى الترك . وتحول مركزها من القاهرة إلى القسطنطينية(٢) .

ولم تكن تتم بيعة سلطان من سلاطين هذه الحقبة إلا إذا بايعه بها وعهد بشئونها إليه خليفة عصره وأوانه . وبهذه المبايعة ينعقد له لواء السلطنة ويصبح صاحب الأمر والنهى الشرعى فى البلاد .

وبذلك يعتبر الخليفة ـ أو طائفة الخلفاء ـ عنصرا أساسيا من عناصر الطبقة الحاكمة ، وإن لم يكونوا من الجنس التركى أو الجركسى(٣) .

ولا نشك فى أن هذا الوضع الذى ابتدعه بيبرس بشأن الخلافة كان بارعا

---

(١) سلوك المقريزى حوادث عام ٦٥٩ هـ .

(٢) بدائع ابن إياس ج ٣ حوادث عام ٩٢٣ .

(٣) راجع تاريخ الخلفاء للسيوطى . وحسن المحاضرة عند كلامه عن الخلفاء .

ونافعا ، إذ أضفى على سلطنة المماليك صفة الشرعية ، وعاون على نشر الروح الإسلامية والحماسة الدينية التى كانت البلاد العربية والإسلامية فى أشد الحاجة إليها ، لاتخاذها دعامة قوية فعالة لرد عادية التتار والصليبيين وأشباههم من أعداء العروبة والإسلام . كما أنه عاون على حفز علماء المسلمين وعلماء القاهرة على تجديد علوم الدين وآدابه ، ومن ثم صارت القاهرة ـ عاصمة السلطنة ـ محورا للنشاط العلمى والأدبى الإسلاميين ، واقتعدت مصر معقد الزعامة والتوجيه بالنسبة للعالم الإسلامى والعربى .

هذا كله لا يمنعنا القول إن الخليفة العباسى فى مصر ـ بالرغم من سلطته الكبيرة ومنزلته العظيمة ـ كان أقرب شبها بمشايخ الطرق الصوفية فى زماننا ، لا حول لهم ولا قوة . وما هذه السلطة أو المنزلة إلا ضرب من الشكليات فحسب ، ولم يعد الخليفة أن كان موظفا مأجورا يتقاضى مرتبه بأمر السلطان . وكان السلطان وحـــده صاحب الرأى فى اختيار الخليفة ، وفى إبقائه فى منصبه أو إقصائه عنه[1] .

وقد يصحب السلطان الخليفة معه إذا خرج إلى قتال ، أو ذهب إلى رحلة ، أو برز فى يوم زينة وحفل . وقد يستدعيه لشهود مجلس يبرم فيه أمر هام كتقرير حرب أو فرض ضريبة . ويكون استدعاؤه للحضور فقط لا للاشتراك فى إبداء الرأى[2] .

ولم أجد فيما قرأت من تاريخ الخلفاء من كان منهم له رأى مسموع وكلمة نافذة ، بل لقد كان لبعض رجال الصوفية جاه عند السلاطين أكثر من الخلفاء ـ كأبى السعود الجارحى مثلا ـ فقد اجتمع لديه أمراء الدولة عقب هزيمة الجيش فى مرج دابق عام ٩٢٢ هـ واتفقوا بمشورته على سلطنة طومان باى[3] .

(١، ٢) راجع تاريخ الخلفاء للسيوطى . وحسن المحاضرة عند كلامه عن الخلفاء .

(٣) بدائع ابن إياس حوادث ٩٢٢ هـ .

ولا نذكر إلا الخليفة المستعين بالله العباسى الذى اتفق الأمراء على أن يتولى السلطنة عقب مقتل فرج بن برقوق ، خوفا من احتدام النزاع بين الأميرين الكبيرين شيخ ونوروز لكن لبث هذا قليلا ثم قفز شيخ إلى السلطنة(١) .

الطبقة المحكومة

تتألف هذه الطبقة — وهى عامة الشعب وجماهيره — من أكثرية ضخمة من السلالات العربية ، يختلط بها ويمتزج بالجوار أو الصهر أو المعاملة أو نحو ذلك من وسائل الاختلاط والامتزاج ، عدد من القبط ، وهم سلالات المصريين من قبل الفتح العربى ، وعدد من اليهود والروم والكرد والمغاربة والترك والجركس والتتار ومن إلى هؤلاء وهؤلاء من رواسب الأمم الطارئة والدول الوافدة فيما سبق من العصور وفى هذا العصر . وهم قلة بالنسبة لأكثرية العرب .

ومن العسير على الباحث أن يرسم للقارىء صورة متكاملة لمجتمع هذه الطبقة على حدة ، تكون واضحة المعالم متواصلة الأطراف ، لعدم وجود المراجع المتخصصة فى هذا الموضوع . وما هناك إلا متناثرات مبعثرة — قد يساق بعضها عرضا واستطرادا فى خلال كتب التاريخ كبدائع ابن إياس وخطط المقريزى وسلوكه ، والنجوم الزاهرة لأبى المحاسن ، وحسن المحاضرة للجلال السيوطى . وكتب أخرى كالمدخل لابن الحاج ، والتعريف بابن خلدون وإغاثة الأمة بكشف الغمة للمقريزى . ونحوها من الكتب .

من هذه الكتب استقينا معلوماتنا ، ونسقنا بينها حتى استقامت . ولعل فيما نورده منها مايقنع القارىء فى تصور هذا المجتمع الذى عاش فيه أسلافنا ، وما كان لهم من أوضاع وعادات وتقاليد ، سنرى أن شيئاً منها لا يزال راسبا فى نفوسنا ، ومرعيا فى تصرفاتنا ، ومقدما فى مجتمعنا الحديث .

(١) بدائع ابن إياس ج ١ حوادث عام ٨١٥ هـ .

وروى المقريزى أن هذه الأمة التى يتألف منها المجتمع المصرى حينذاك كانت سبعة أقسام هى :

١ — أهل الدولة . وهم السلطان والأمراء وكبار الجنود .

٢ — أهل اليسار من التجار وأولى النعمة من ذوى الرفاهة .

٣ — الباعة وهم متوسطو الحال من التجار . ويقال لهم « أصحاب البز » . ويلحق بهم أصحاب المعايش وهم السوقة .

٤ — أهل الفلح وهم أهل الزراعات والحرث وسكان القرى والريف .

٥ — الفقراء وهم جل الفقها وطلاب العلم ، والكثير من أجناد الحلقة .

٦ — أرباب المصانع والأجراء وأصحاب المهن .

٧ — ذوو الحاجة والمسكنة ، وهم السؤال الذين يتكففون الناس ويعيشون منهم[1] .

ونلاحظ أن المقريزى لم يفصل بين طبقتى هذه الأمة ، وهم طبقتان متميزتان تختلف إحداهما عن الأخرى اختلافا كبيرا ، كما سبق بيانه أكثر من مرة . فطبقة حاكمة ، وطبقة محكومة . الأولى من الترك أو الجركس وبيدها زمام الحكم والسياسة والحرب والقوة والمال والجاه . الثانية أكثرها من العرب ، وتعيش أكثر ما تعيش بعيدة عن أسباب القوة والجاه . وظلت الأولى طيلة مدة حكمها تتجدد من خارج البلاد عن طريق الشراء . والثانية تتجدد من داخلها كما تتجدد سائر الشعوب . وظلت الأولى فى جملة معايشها مستبدة ومستعلية عن الاندماج فى غمار الطبقة الثانية أو الامتزاج بها إلا فيما تتطلبه ضرورة الحكم ، وإلا فى بعض حوادث فردية كمصاهرة مثلا ، لا اطراد لها .

---

(١) أغاثة الأمة بكشف الغمة ص ٧٢ للمقريزى .

كما نلاحظ أن المقريزى أضاف الكثير من أجناد الحلقة إلى القسم الخامس، وهو الفقراء وهم جل الفقهاء وطلاب العلم ـ مع أن أجناد الحلقة هم قوم من جنود الدولة تنفق عليهم وتخرج لهم الإقطاعات . وبلغ عددهم فى عهد الناصر ابن قلاوون ثمانية آلاف وتسعمائة واثنين وثلاثين فارسا[1] .

على أن كثيراً من الفقهاء كان من المستطاع أن يكونوا القسم الثانى مباشرة، عقب أهل الدولة الذين هم السلطان والأمراء وكبار الجند . ذلك لأن هذه الطائفة هى طائفة المثقفين فى الأمة ، بل ومن بينها المتخصصون فى العلم أو الأدب ، والذين تخرجوا فى الفقه والحديث مثلا ، أو فى الكتابة والإنشاء والشعر . ومن حقهم أن يكونوا القسم الثانى ، بسبب أن الدولة كانت حينذاك فى أشد الاحتياج إلى معونة كثير منهم ، فى شتى أمورها المتصلة بالقضاء وديوان الإنشاء، بل والوزارة والحسبة فى بعض الأحيان ، ومناصب الدواوين التى تحتاج إلى كتاب لضبط الأمور والتسجيل والحساب وما إلى ذلك ـ هذا إلى أنه أغفل منها المنشئين والشعراء فلم يبرزهم بوضوح .

بهذا كله تعتبر هذه الطائفة « الشعبية » من رجال الدولة ومن الحكام . بل كان أهل الدولة مثلا كالسلطان منطوياً أحيانا أو منقمعا أحيانا تحت كلمة أحد رجال هذه الطائفة ممن برز فى علم أو تقوى وخلق وحسن رأى ـ وقد سبق لنا التنويه بما كان من ذلك عند حديثنا عن الظاهر بيبرس وسلطان العلماء العز ابن عبد السلام .

ونلاحظ أيضا أن المقريزى جعل السؤال الذين يتكففون الناس ويعيشون عالة عليهم ، قسما . فهل كان هذا الوضع ضروريا فى تقسيمه ؟ وهل كان هناك من الأسباب القوية ما دفعه إلى جعلهم قسما قائما برأسه ، وطائفة متميزة بنفسها.

---

(١) راجع خطط المقريزى ج ٣ ص ٣٥٠ تحت عنوان « ذكر جيوش الدولة التركية وزيها وعوائدها » .

أفكانت من الكثرة ومن المذلة والمسكنة ، ومن فداحة ما ترهق به الطوائف الأخرى ، بحيث تلفت نظر مؤرخ كبير دقيق كالمقريزى ، فيضطر إلى جعلها قسما مستقلا ؟ قد يكون .

وعلى كل ، فالأقسام الستة الأخيرة هى التى تتكون منها الطبقة المحكومة - باستثناء أجناد الحلقة - وهم أكثر الشعب وأغلب الأمة ، وهم اليد العاملة فيها وفى ميادين حياتها كافة - باستثناء ميدان السياسة والحرب - وهم موضوع نظر الدولة وتصرفها . فعليها يقع عبء العمل فى الحقل وفى الصناعة والتجارة ، وعلى كاهلها تحمل الضرائب الدائمة والمؤقتة ، وهم الذين يكابدون مشقة الكدح فى سبيل العيش ويقاسون مرارة الحياة إن وقع جدب أو غرق أو نزل طاعون أو نحو ذلك من الكوارث العامة المجتاحة . وهم - غالبا - موضع المحاكمة والمؤاخذة والمصادرة والغرم ، وما يتصل بذلك من سجن أو تعذيب أو نحوه .

وفى السطور التالية نحدثك عن بعض صور حياة هذه الطبقة وما مر بها من ألوانها الحلوة والمرة . مع العلم بأننا أشرنا عند حديثنا عن البيئة السياسية عن نصيب هذه الطبقة من الحياة السياسية وحقوقها فيها .

التعليم والجيش .

رأينا مما مر ، أن البلاد كان بها نوعان من التعليم :

التعليم العسكرى : وكان مقره طباق قلعة الجبل ، وكان مقصورا على طائفة المماليك ، كما أشرنا ، ولم يسمح لأحد من أبناء الشعب بالاندماج فيه . كأن أبناءه لا يصلحون للحرب والقتال والدفاع عن الوطن . مع أن حروب مصر قديمها وجديدها برهنت على عكس ذلك . والمتبادر إلى الذهن أن هذه السياسة اتبعت لكى تبقى أسباب القوة والفروسية بيد الأتراك ، وبها يستبقون ملكهم ويظلون فى البلاد سادة دون أن يتفلت أحد من أبنائها إلى الحكم .

والتعليم الشعبي : وكان مقره فى المساجد والمدارس وقد أوقفت عليه الأوقاف ، ويسرت به سبل العلم لطلابه من أبناء الشعب والوافدين عليه . غير أنه لم يكن يعنى به، لأنه حق الشعب ، ولكن زلفى إلى الله وقربى - وقد تحدثنا عن ذلك كله فى شيء من التفصيل فى الفصل السابق .

ملكية الأرض الزراعية :

شهدت الأرض الزراعية فى هذا العصر ، دورا من أدوار الإقطاع . ويقول المقريزى :

« واعلم أنه لم يكن فى الدولة الفاطمية بديار مصر ، ولا فيما مضى قبلها من دول أمراء مصر ، لعساكر البلاد إقطاعات ، بمعنى ماعليه الحال اليوم فى أجناد الدولة التركية . وإنما كانت البلاد تضمن بقبالات معروفة لمن شاء من الأمراء والأجناد والوجوه وأهل النواحى من العرب والقبط وغيرهم . لايعرف هذه الأبذة التى يقال لها اليوم « الفلاحة » ، ويسمى المزارع المقيم بالبلد « فلاحا» قرارا فيصير عبداً قنا لمن أقطع تلك الناحية . إلا أنه لايرجو قط أن يباع ولاأن يعتق، بل هو قن مابقى ، ومن ولد له كذلك »(١) .

ويبدو أن استئثار المماليك بالحكم دفعهم إلى الزعم أن «الفلاحين» لايصلحون للجندية ولا للحكم والرياسة .

وقد انساق المؤرخ ابن إياس ، بتأثير هذه النزعة السائدة فى زمانه إلى قوله عن « شمس الدين بن عوض » أحد رؤساء زمانه هذا ، إنه « لما صار فى جملة الرؤساء ، لم يخرج عن طبع الفلاحين الذى ربى عليه . فكانت عمامته عمامة

---

(١) الخطط ج ١ ص ١٣٨ - والأبذة : يبدو أنها تعبير عامى حينذاك ومعناها الآفة أو التقليد السيىء ويبدو أنها باقية حتى اليوم بالمعنى المذكور .

الفلاحين ، وكلامه كلام الفلاحين . كأنه فلاح قحف ، كما جاء من وراء المحراث ، ولم ينطل فى رياسته . فكان كما قيل :

فقـــيه ريف يقول إنى برعت فى العلم والرواية .
فقلت لاشك أنت عندى تصلح للدرس والدراية .(١)

ونظام الإقطاع أن تقسم الأراضى الزراعية قطعا ذات مساحات مختلفة يختص السلطان نفسه بنسبة منها معينة ، ويفرق البقية على الأمراء والجنود ، بحسب مراتبهم وبحسب مشيئته . أما عامة الشعب فقد حرمت ملكيتها وإيجارها .

واشتهر فى عصر المماليك نظامان أو « روكان » . « الروك الحسامى » وهو التقسيم الذى أجراه الملك المنصور لاجين . « والروك الناصرى » وهو التقسيم الذى أجراه الناصر محمد بن قلاوون ، عام ٧١٥ هـ . وهو الذى استمر العمل به طول العصر على وجه التقريب بتعديلات طفيفة . ويقضى بأن يختص السلطان بعشرة قراريط من أربعة وعشرين . والباقى وهو أربعة عشر قيراطا توزع على الأمراء والجنود .

وصاحب الإقطاع يستغله بحسب مشيئته . ويستخدم الزراع المقيمين فيه . ولا يورثه لذريته ، بل يرد إلى السلطان عند موته أو إذا غضب السلطان عليه فنزعه منه .

وكان هذا عاملا أساسيا ومباشراً فى تقسيم الأمة طبقتين : الطبقة الحاكمة ـ السلطان والأمراء والجنود ـ وهى منغمسة فى الترف والنعيم وحب الظهور ـ والطبقة المحكومة ـ وهى فى جملتها ، مغمورة فى شظف العيش وشقاء الحياة . وسترى صدى لهذا فى شعر الشعراء .

---

(١) بدائع الزهور ج ٤ حوادث عام ٩٢٠ هـ .

الوظائف العامة :

وكانت الوظائف العسكرية مقصورة على الأمراء والجنود ، ومنها نيابة السلطنة والأتابكية والأستادارية وغيرها .

أما مناصب القضاء والكتابة وما إليهما ، فكانت توكل إلى النابهين من « المتعممين » وهم أبناء الشعب المتخرجون فى المساجد ، ممن عرف نبوغهم فى الفقه أو الإنشاء . واشتهروا بالعلم والأدب — وقد نعم كثير من هؤلاء ، بسبب الوظائف ، بألوان من الجاه والنعيم وبالقرب من الهيئة الحاكمة ، فكان لبعضهم شىء من الأمر والنهى . والكلمة المسموعة .

ومنهم من رجال الشرع : العز بن عبد السلام فى عهد بيبرس . وسراج الدين عمر البلقينى فى عهد برقوق ، وأمين الدين يحيى الأقصرائى فى عهد قايتباى ، وزين الدين زكريا الأنصارى فى عهد الأشرف الغورى .

ومنهم من رجال العلم والأدب : محيى الدين بن عبد الظاهر فى عهد بيبرس وابنه فتح الدين فى عهد قلاوون . وشهاب الدين بن فضل الله العمرى وأخوه علاء الدين ، فى عهد الناصر بن قلاوون . وناصر الدين بن البارزى والتقى بن حجة الحموى فى أيام المؤيد شيخ .

التقاضى :

كان القضاء فى العصر الأيوبى فى يد رجال الشافعية . وجرى المماليك على هذا فى بدء دولتهم . وفى عام ٦٦٠ هـ وكان قاضى القضاة فى البلاد هو تاج الدين عبد الوهاب بن بنت الأعز ، وكان متشددا فى أحكامه . فرسم له السلطان الظاهر بيبرس أن يستنيب عنه فى الأحكام مدرسى المدرسة الصلاحية ، وهم ثلاثة من مذاهب أخرى : صدر الدين سليمان الحنفى ، وشرف الدين عمر السبكى المالكى ، وشمس الدين محمد بن إبراهيم الحنبلى ، فاستنابهم عنه ، وحكم كل منهم بمذهبه ،

فيما يعرض عليه من الخصومات[١] فكان ذلك خطوة فى سبيل تعدد القضاة .

ورأى بيبرس بمشورة بعض أمرائه ، أن ييسر على المتخاصمين سبيل التقاضى وذلك بأن يقيم من كل مذهب قاضى قضاة ، وقد تم ذلك فى عام ٦٦٣ هـ [٢]

وأمام قضاة الشرع كان المتخاصمون من أفراد الشعب ، بل من كلتا الطبقتين ويقفون للإدلاء بأقوالهم وللتقاضى ، فيما عدا ما كان يختص به حاجب الحجاب من أنواع القضايا .

أعمال البر :

وترجحت تصرفات السلاطين والأمراء والرؤساء ، بين الحسنات والسيئات. وكان من حسناتهم القيام بأعمال البر والإحسان ، زلفى إلى الله سبحانه وتعالى ، أو صدقة على الشعب ورحمة بالناس ، أو حبا فى الظهور والمباهاة ، وكسبا للصيت والحمد . أو توسلا إلى حفظ شىء من الإقطاع تنتفع منه الذرية ، وذلك بطريق الوقف ، أو غير ذلك .

ومن أعمال البر ، إنشاء المدارس والمساجد . وإجراء الرواتب والمعونات على شيوخها وطلابها ، ورصد الأوقاف عليها . وقد كان لذلك أثره المباشر فى قيام الحركة التعليمية ونشاط التأليف ، كما أشرنا .

ومما يذكر ـ فى هـــذا المقام ـ أن الملك المنصور قلاوون رتب للمستشفى المنصورى الذى أنشأه ، ألف دينار فى كل يوم . فضلا عما أوقفه عليه من الضياع

---

(١) سلوك المقريزى جـ ١ ص ٤٧٢ ، وتروى هذه الحادثة بروايات مختلفة لا تختلف فى جوهرها.

(٢) السلوك جـ ١ ص ٥٠١ ، ٥٣٩ ـ وحسن المحاضرة جـ ٢ ص ١١١ ، جـ ٢ ص ١١٢ ـ وطبقات السبكى جـ ٥ ص ١٣٥ ـ وصبح الأعشى جـ ٤ ص ٣٤ نقلا عن النويرى فى نهاية الأرب ـ وبدائع الزهور جـ ١ ص ١٠٣ ، وفيه أن التعدد وقع عام ٦٦٠ هـ . وراجع أيضاً المجلد الثانى من موسوعاتنا هذه .

والأملاك والبساتين[١] .

ولما وقعت زلزلة عام ٧٠٢ هـ بالبلاد المصرية وتهدمت بسببها جملة من المبانى والمساجد ، ومنها جامع الحاكم بأمر الله ، والمدرسة المنصورية ، وجامع عمرو وغيرها ، قام فريق من الأمراء بترميمها على نفقتهم الخاصة[٢] .

وروى عن الظاهر برقوق ، أنه أوقف بلدا بالجيزة ، ينفق إيراده على الحجاج المنقطعين بالحجاز . وأنه خصص فى كل يوم من رمضان بقرة تذبح وتطبخ وتفرق على الفقراء ومعها ألف رغيف . وأنه يفرق كل عام سبعة آلاف إردب قمح فى الزوايا والمزارات ، وأنه تصدق فى مرضه آخر حياته بمائتين وخمسين ألف دينار على العلماء والفقراء[٣] .

وأمثال هذا كثيرة . وقد كانت من العادات الحسنة المطرودة .

الضرائب :

فرض الضرائب على سكان البلاد ، ضرورة من ضرورات الدولة ، إذ هى مصدر من مصادر إيراداتها ، ومعتمد من معتمدات إنفاقها على مرافقها المختلفة .

وقد كانت الأراضى الزراعية فى عصر المماليك ، إقطاعات ، كما بينا ـ فكان المقطعون يؤدون عنها الخراج ، وإلى جانب ذلك كانت تفرض الضرائب على الملاك والتجار والسوقة وأهل الحرف ونحوهم . ولا شك فى أن بعض هذه الضرائب كان مرهقا وظالما ، وكان يجبى أيضاً بطريقة قاسية مهينة أحيانا ، الأمر الذى كان مثار الألم والشكوى .

وكان بعض السلاطين يتنهز فرصة استعداده للخروج إلى حرب ، أو إرسال

---

(١) بدائع الزهور ج ١ ص١١٦ ط بولاق .
(٢) المرجع نفسه ص١٤٦ .
(٣) المرجع نفسه ص٣١٤ ، ٣١٥ .

حملة تأديبية ، أو نحو ذلك ، لكى يسوغ فرض الضريبة . وربما فرضها ليسد بها فم عدد من جنوده الثائرين عليه .

ومن الحق أن نذكر أن بعض السلاطين ـ كالناصر بن قلاوون ـ كان يلغى شيئاً من الضرائب المقررة ، أو يخفف منها ، فيكون ذلك سبباً فى لهج الناس بالثناء عليه والدعاء له . وقد أبطل الناصر المذكور « مكس ساحل الغلة » وكان درهمين على الأردب للسلطان ، ويلحق به نصف درهم .

ومن الضرائب ـ على سبيل المثال ـ :

١ — نصف السمسرة : وكان البائع يدفع عما يبيعه بمائة درهم ، درهمين تقريباً للدلال . فقرر على الدلال دفع درهم من الدرهمين . وهو « نصف سمسرته » . فأخذ الدلال يحتال على البائع لاستيفاء هذا الدرهم منه . فكان هذا مثارا لشكوى الباعة .

٢ — مقرر الحوائص والبغال : وهو ضريبة تجبى من أهل المدن . ومقدارها ثلثمائة درهم عن الحياصة ، وخمسمائة عن البغل[1] .

٣ — مقرر السجون : وكان كل مسجون يدخل السجن ـ بريئاً أو مظلوماً ـ يدفع للسجان ستة دراهم ، ولو لم يقم بالسجن غير لحظة .

٤ — مقرر الفرسان : ضريبة يجبيها ولاة النواحى فوق كل ضريبة . فمن يدفع درهما ضريبة أصلية . يدفع مثله ضريبة إضافية .

٥ — حماية المراكب : ضريبة تجبى من كل راكب فى مركب ، زيادة عن أجر المركب .

٦ — حقوق القينات : ضريبة تجبى من أهل الدعارة ومرتكبى المنكرات .

---

(١) الحياصة سير يشد به حزام السرج .

٧ — مقرر المشاعلية : ضريبة يدفعها أصحاب المنازل ، نظير كسح الأفنية ومحال القذارة . وكان لهذه الحرفة عمال مخصوصون ولكل جهة ضامن ـ مقاول أو محتكر ـ لا يقوم بالعمل فيها غيره . ولذلك كان يشتط فى فرض الأجر[١] .

٨ — وفى عام ٦٥٨ هـ فرض المظفر قطز ـ بمناسبة حروبه ـ على أهل مصر والقاهرة ، دينارا على كل ذكر أو أنثى . وأجرة شهر من إيجار الأملاك والأوقاف . وطلب من أغنياء الناس والتجار زكاة أموالهم معجلة . ومن ضرائب الأراضى الأهلية ، ثلث ما فرض عليها معجلا . ومن الغيطان والسواقى أجرة شهر . وغير ذلك[٢] .

٩ — وفى عام ٨٠٣ هـ ، فرض السلطان فرج بن برقوق ـ بمناسبة حروبه ـ أجرة شهر على بلاد المقطعين وأملاك القاهرة وضواحيها . وعشرة دراهم عن كل فدان من البساتين مائة درهم .

وأخذ الجباة يفتحون المتاجر قوة واقتداراً باحثين وراء المال ، زاعمين أن السلطان يريد الاقتراض من مال التجار . فمن وجدوه من التجار وقت البحث ، أخذوا نصف ماله . ومن لم يجدوه جردوا متجره مما فيه من مال ومنسوجات .

وأخذ من أوقاف الجوامع والمساجد والمارستان المنصورى ، أجرة شهر واحد .

وقد أوذى الناس فى هذه الضرائب وفى جمعها أذى كثيراً ، وصودرت أموال وسجن رجال . وقام الأمير « يلبغا السالمى » الأستادار بجبايتها . وقيل إنه

---

(١) راجع هذه الضريبة وغيرها فى خطط المقريزى ج ١ عند حديثه عن الروك الناصرى :

(٢،٣) بدائع الزهور ج ١ ص ٩٦ ، ٣٣٠ .

أخذ لنفسه منها أضعاف ما أورده إلى السلطان . فعلم السلطان بذلك . فقبض عليه وسجنه وعزله من منصبه [١] .

١٠ — وفى عام ٨٧٢ هـ ، أراد الأشرف قايتباى — بمناسبة حروبه — أن يستولى على أموال الأوقاف . فجمع مجلساً من الأمراء والخليفة المستنجد بالله العباسى وقضاة الشرع الأربعة ، وشيخ الإسلام أمين الدين يحيى الأقصرائى ، فتجادلوا فى الأمر ، وأغلظ له الأقصرائى القول ، وأنذره بسوء عاقبة العمل وخوفه من الله تعالى ، ونصحه بالاكتفاء بما فى بيت المسلمين من المال أولا ، ثم يأخذ من أموال الأمراء والجندوحلى نسائهم ، ثم أخيراً من مال الأوقاف . على أن يأخذ ما يحتاج إليه فقط . فرضى السلطان مرغما . ولكنه عاد بعد سنين فأخذ من مال الأوقاف .

إلى غير ذلك من الضرائب .

العقوبات :

وكانت هناك عقوبات متنوعة تنتظر المتهمين والمغضوب عليهم . ومن ذلك :

السجن : وقد تعددت السجون وشهدت عدداً كبيراً — مع تتابع الأيام — من أمراء الدولة وقادتها وعظمائها ومن أعيان الناس ومن هذه السجون :

الجب : وكان بالقلعة ويحبس فيه الأمراء . وقيل إنه كان مخيفاً مزعجاً مظلماً كريه الرائحة ، فيه كثير من الخفافيش . وقد أنشأه المنصور قلاوون عام ٦٩١ هـ ، وما زال حتى ردم بأمر ابنه الناصر محمد [٢] .

وحبس المعونة . وكان بالقاهرة منذ العصر الفاطمى . ثم هدم فى عهد الناصر بن قلاوون أيضاً [٣] .

---

(١) بدائع الزهور ج ٢ ص ٩٧ ، ٢٦٨ ، ٢٦٩ ، ٢٩٥ .

(٢) الخطط ج ٢ ص ٣٠٦ ، ٣٤٦ — والسلوك ج ١ ص ٣١ — وبدائع الزهور ج ٤ حوادث عام ٩١٩ هـ .

(٣) الخطط ج ٣ ص ٣٠٥

وخزانة شمايل : نسبة إلى الأمير «علم الدين شمايل» والى القاهرة فى العصر الأيوبى. وهو الذى سعى فى بنائها . قيل إن هذا السجن كان بشعا متعبا . وقد سجن فيه الملك المؤيد شيخ المحمودى — قبل سلطنته ـ فنذر لله إذا أبلغه إلى السلطنة أن يهدم هذا السجن ويحوله إلى مسجد . فلما صار سلطانا هدمه وبنى مكانه مسجده المشهور بجوار باب زويلة[1] .

ومن السجون أيضاً المقشرة بجوار باب الفتوح . والعرقانة . والحجرة وهى خاصة بالنساء .

وكانت هناك فى المـــدن الأخرى ـ عدا القاهرة ـ كالإسكندرية ودمياط والكرك ـ وكانت هناك سجون فى بيت الوالى وبعض بيوت الأمراء وهذه الأخيرة يسجن فيها ـ عادة ـ كبار الرجال من السياسيين ونحوهم[2] .

الإعدام والتعذيب :

ولذلك طرق منها حز الرأس وإشهار الجثة . وقد ينادى عليها : « هذا جزاء من خالف السلطان . هذا جزاء من صنع كذا.. » والمنادون ـ وهم المشاعلية ـ قد يوقدون المشاعل إذا كان الوقت ليلا .

ومنها التوسيط، وهو طرح المحكوم عليه أرضا ، ثم ضرب وسطه بالسيف . ومنها. استعمال الخازوق، وهو عمود طويل مخروط الرأس يغرز فى الأرض ويثبت المحكوم عليه فوقه ، ثم يجذب إلى أسفل ـ ومنها : الشنق بالحبال ـ

ومن طرق التعذيب : التسمير فى الأخشاب ، والإشهار مع هذا فوق الدواب والقيد بالحديد والضرب بالمقارع ، وقيد الأرجل والضغط عليها بمعاصير وكسارات

---

(١) بدائع الزهور ج ١ ص ٣١٣ ـ و ج ٢ حوادث عام ٨٢٢ هـ

(٢) راجع فى أخبار السجون . خطط المقريزى ج ٢ تحت عنوان « ذكر السجون » ـ وبدائع الزهور ج ١ ص ١٨٤، ١٨٧ ـ و ج ٤ فى حوادث عام ٩١٦ إلى ٩٢

وعصر الأصداغ والأيدى . وإحراق الأصابع بالنار . ووضع خوذة محماة فوق الرأس . وغير ذلك .

الزلازل والطواعين :

ونزلت بالبلاد جملة زلازل وطواعين ، كان لها أثر كبير فى مضاعفة شقائها ، إذ تهدمت أبنية وقتلت نفوس ـ وقد بذلت عناية محمودة فى كثير من الأحايين . فرمت الأبنية ، وأقيمت المستشفيات ، وعولج المرضى . ووريت الجثث ، وأقيمت لها المغاسل العامة . ووزعت على المصابين الأموال والأطعمة والأكسية .

ومن الزلازل الفاجعة زلزال عام ٧٥٢ هـ ، فى عهد الناصر بن قلاوون . وقد شعر الناس به فى أماكن متعددة ، ولا سيما فى الإسكندرية ، إذ هدم أسوارها وعـــدداً من أبراجها ، وجزءا من مناراتها ومآذنها . وفاض البحر فطغى على بساتينها . وفى القاهرة هدم أكثر الجامع الحاكمى ، وجملة من المآذن ، وجدران جامع عمرو بن العاص ، وتشققت أجزاء من جبل المقطم ، وتهدم كثير من الدور ، وامتد الزلزال إلى دمشق والكرك والشوبك وصفد وكثير من بلاد الشام .

وعاودتهم الزلازل مرات فى مدى عشرين يوما ، حتى ظن الناس أنها القيامة . فروعوا وملك الخوف قلوبهم ، وخرجوا إلى العراء وأقاموا فى الصحراء حتى هدأت الاهتزازات ، وهبت فى عقبها رياح سوداء لافحة لم يطقها كثير من الناس .

وقد قام الأمراء بترميم ماتهدم وما سقط من مساجد ومآذن وأبراج وأبنية ، ومنهم الأميران « سلار » و « سنقر الأعسر »[1]

---

(١) بدائع بن إياس ج ١ ص ١٤٦ ـ سلوك المقريزى ج ١ ص ٩٤٢ .

ومن الزلازل ما حدث عام ٨٨١هـ وعام ٨٨٦هـ، وعام ٩١٦ هـ (١).

وأما الطواعين والأوبئة العامة فكانت أكثر وقوعا من الزلازل وأعم شراً منها وأمعن أثرا فى نفوس الناس، حتى سجلها كثير من الشعراء ونظموا فيها القصائد والمقطوعات.

ومن أروعها ذلك الطاعون الجارف الذى وقع عام ٧٤٩هـ فى عهد الملك الناصر حسن حفيد قلاوون لقد قيل إنه مات به فى شهرى شعبان ورمضان نحو تسعمائة ألف إنسان. وقيل كان يخرج من القاهرة فى اليوم الواحد أكثر من عشرين ألف جنازة. وظل فى البلاد زمنا طويلا حتى هلك بسببه عدد لا يحصى من الفلاحين، فبارت الأرض وأقفرت وكثر الجـــدب وعم الخراب. وأصيبت الحيوانات وهلكت الكلاب والقطط والوحوش. وارتفعت أسعار السلع وزاد الغلاء، وخرج الناس للدعاء كما يفعلون فى الاستسقاء(٢).

وفى عام ٧٦٩هـ وقع وباء جارف جديد وفشا فى القاهرة فشوا ذريعا حتى قيل كان يخرج منها فى كل يوم اثنا عشر ألف جنازة(٣).

وقد وقع فى عهد الأشرف قايتباى أكثر من طاعون من الطواعين العامة المهلكة، ومنها طاعون عام ٨٩٧هـ. والطريف أن ابن إياس المؤرخ يتحدث عن هذا الطاعون ويعجب من بطء مجيئه إذ كان قد مضى على سابقه نحو ستة عشر عاما! فكأن الناس لكثرة ما وقع بهم من الطواعين اعتادوا حلولها بين فترة وأخرى، فلما عوق هذا الطاعون فى هذه المرة ثار عجبهم من بطئه..

ويعلل ابن إياس مجيء الطاعون بقوله: «وكان فى مدة انقطاعه عن مصر،

---

(١) راجع البدائع حـ ٢ حوادث الأعوام المذكورة وسلوك المقريزى جـ ١ ص ٩٤٢.
(٢) بدائع جـ ١ ص ١٩١، ١٩٢
(٣) بدائع جـ ١ ص ٢٢٢

كثر بها الزنا واللواط وشرب الخمر وأكل الربا وجور المماليك فى حق الناس» . فكأنما يجعل هذه الأمور من أسباب وقوع الطاعون . ولذلك قال بعد : « وقد روى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال : « ما من قوم يظهر فيهم الزنا إلا أخذوا بالفناء» .

وقيل: أحصى عدد من مات بسببه فكان نحو مائتى ألف إنسان . ونظم الشيخ بدر الدين الزيتونى زجلية جيدة سجل فيها هذا الحادث(١) .

وفى أوائل عام ٩١٩ هـ ظهر طاعون لحق بالأطفال والعبيد والجوارى ! ثم فتك بالناس فتكا ذريعاً ، وزاد خطره حتى ألقى الرعب فى القلوب ، وفر بسببه كثير من الناس بأولاده وأهله إلى جبل الطور ، لأنه ـ كما قيل ـ لا يقربه الطاعون!.

قال ابن إياس : إن بعض الأطباء أشار على السلطان ـ الغورى ـ بأن يلبس فى أصابعه خواتم من الياقوت الأحمر . فإنه يمنع الطاعون . فأخرج من الذخيرة فصين منه ثمينين صاغهما على قطع من الذهب خاتمين . وكان يلبسهما فى المواكب .

قال ابن إياس : فعد ذلك غريباً وخصوصا من سلطان تركى(٢) .

وعلى هذا النمط أو قريب منه وقعت طواعين مختلفة فى أعوام متعددة منها عام ٦٧١ هـ ، ٧٩١ وعام ٨٠٧ هـ ، ٨١٣ هـ ، ٨١٩ هـ ، ٨٢١ هـ ، ٨٣٣ هـ ، ٨٤١ هـ ، ٨٤٩ هـ ، ٨٥٣ هـ ، ٨٦٤ هـ ، ٨٧٣ هـ ، ٨٨١ هـ ، ٩٠٢ هـ ، ٩١٠ هـ ، ٩١٢ هـ وغير هذه الأعوام (٣) .

الجدب والغلاء :

وكثيراً ما عم الجدب وانتشر القحط فى البلاد بسبب نقص الفيضان أو زيادته

---

(١) بدائع ج ٤ حوادث عام ٩١٩ .

(٢) راجع بدائع الزهور فى حوادث الأعوام المذكورة .

أو أى سبب آخر . وينجم عن ذلك عادة انتشار الغلاء وزيادة الأسعار . وعانى الناس بسبب ذلك كله من قسوة الزمن وضيق العيش ، الشىء الكثير . فلننظر إلى بعض حوادث الجدب والغلاء ولننظر وقع ذلك فى النفوس وأثره فى تصرفات الناس . وكثيراً ما وجدوا من السلطان والأمراء معاونة فى هذه المحنة ومساعدة على دفعها أو تخفيفها .

ومن شر هذه الحوادث ما وقع عام ٦٩٥ هـ فى عهد كتبغا المنصورى . فقد شح النيل فأجدبت الأرض وقل الثمر، فارتفعت أثمان الحاجات ، وبلغ سعر أردب القمح مائة وسبعين درهما . وكذلك الفول ، وبيع رطل اللحم بسبعة دراهم ، والبيضة بأربعة دراهم . والتفاحة والرمانة والسفرجلة كل واحدة بثلاثين درهما . والدجاجة بخمسة عشر درهما .

واشتد الأمر على الناس وشق الغلاء وأعجزهم الشراء ، وضجوا بالشكاية ، واختلطت عليهم الأمور ، فأكلوا الكلاب والحمير والبغال والخيل . وقيل بيع الكلب السمين بخمسة دراهم ، والقط بثلاثة دراهم . ثم أرسل الله عليهم الجراد بوفرة عظيمة ، فأقبلوا على تناوله . وبيع منه كل أربعة أرطال بدرهمين .

وامتد الغلاء إلى البلاد الشامية والحجازية وكل ممتلكات السلطنة المصرية . وأعقب ذلك فناء عظيم ومات الناس جماعات وفى الطرقات . وقيل إن الملك العادل كتبغا كفن على نفقته فى مدة يسيرة نحو مائتين وسبعين ألف إنسان .

ثم كشف الله عن الناس هـــذه الغمة ، وأزال الكرب ، بعد انقضاء هذا العام (١) .

وفى عام ٧٣٦ هـ فى أيام السلطنة الثالثة للناصر محمد بن قلاوون اشتد بالناس الغلاء وعدم الخبز من الأسواق . وبيع الأردب من القمح بسبعين درهما . فأمر السلطان بفتح مخازن غلاله ففتحت، وبيع منها للناس بثمن رخيص، فصلح الأمر

---

(١) بدائع ج ١ ص ١٣٣ .

وانخفضت الأسعار وبلغ ثمن أردب القمح ثلاثين درهما وزالت الشدة.(١) .

وفى عام ٨٥٢هـ فى عهد السلطان جقمق انتشر الغلاء وارتفع سعر القمح والفول والشعير ، وبلغ ثمن أردب القمح خمسة دنانير أشرفية ، ثم بلغ سبعة . وغلت الأسعار حتى أسعار روايا الماء ، وشرقت البساتين لعدم وفاء النيل ، وذبلت الأشجار وماتت الدواب : واضطرب بسبب ذلك حبل الأمن فى البلاد ، وخرج العامة عن شعورهم حتى اعتدوا على بعض الرؤساء . واستمر الغلاء نحو عامين ورثى بعض الشعراء الخبز رثاء فكاهيا(٢) .

وعلى هذا الغرار ترى حوادث القحط والجدب والغلاء ومضاعفاتها وآثارها فى أعوام كثيرة منها أعوام : ٦٦١هـ ، ٧٠٦هـ ، ٧٧٥هـ ، ٨٧٥هـ ، ٨٩٢هـ ، ٩١٤هـ ٩١٦هـ ، ٩١٧هـ ، ٩١٨هـ وغيرها .

ومما يذكر أنه فى غلاء عام ٨٩٢هـ كان السبب الاضطراب فى أسعار النقد . وقد اختفى الخبز من الأسواق . وأخذ المحتسب يضرب باعة الخبز لعدم إعدادهم له وإظهاره للناس وعرضه للبيع . وهكذا ترى ملامح من المجتمع القديم لاتزال ماثلة حتى اليوم فى مجتمعنا الحديث .

مظاهر البذخ والمنشآت :

الحق أن هذا العصر شهد فى جملة ما شهد ، تقدما فى فن العمارة ومنافسة شديدة فى بناء المساجد والخوانق والسبل والزوايا والأربطة . وتشييدها على نسق عظيم من فخامة البناء عادة ، وسعته وتجميله بالزخارف وتزيينه بالأدوات ذات الصناعة الفنية الدقيقة ، وذلك كالمنابر والزجاج والثريات . إلى غير ذلك .

وهو دليل على ما كانت البلاد تنعم به من خيرات وفيرة وثروة طائلة سواء منها ماجبى من داخلها وما جبى من خارجها بسبب المرور فى أرضها .

---

(١) بدائع الزهور ج ١ ص ١٦٨ ، ١٦٩ (٢) بدائع ج ٢ ص ٣١ ، ٣٢ .

على أن هذه الثروة الواسعة كان ينعم بها السلطان والأمراء ومن فى حكمهم من رجال الدولة وأعيان الناس ، بينما حرمتها الطوائف الكادحة العاملة ، التى عاشت أغلب زمانها فى ضيق وضنك

ويدلك على هذه الثروة ووفورها وسعتها، هذه المواكب والاحتفالات وما إليها، مما كانت تقام للسلاطين أثناء تحركاتهم ورحلاتهم وأثناء استقبالاتهم وأفراحهم. وكذلك الأمراء والرؤساء .

ويدلك أيضاً عليها هذه المقتنيات النفيسة والمشتريات الغالية التى كانت تعج بها دور هؤلاء الكبار . فضلا عن المنشآت التى أشرنا إليها . ومن بينها - بلا ريب - منشآت عامة نافعة .

وإليك مثلا :

أنشأ الناصر محمد بن قلاوون ، فيما أنشأه : ترعة المحمودية الممتدة من فوة إلى الإسكندرية لتنشيط التجارة والنقل بين النيل والبحر المتوسط .

ويبلغ عدد ما شيده الناصر من المساجد نحو ثلاثين مسجدا . عدا عدة مدارس أخرى .

وقد أنفقت زوجته فى سفرها إلى الحج نحو مائة ألف دينار . وأنفق هو على زواج ابنه مالا كثيرا لا يحصى . وأوقد فى القصر ثلاثة آلاف مصباح . وقد مر أمامه الأشراف ومعهم مماليكهم يحملون المصابيح بأيمانهم فاستغرق ذلك جزءا كبيرا من الليل . واجتمع نساء الأمراء فى القاعة الكبيرة ومرت كل واحدة منهن أمام العروس حانية رأسها ومقدمة بيدها هدية العرس . ثم وقفن صفوفا وأخذن يرقصن وينقرن بالدف ويغنين .

ويقال إنه استهلك فى هذا الزواج ١٨ ألف رأس من السكر ، وذبح ٢٠ ألف رأس من الماشية .

هذا وكان الناصر يغدق على مماليكه ويكثر عطاءهم حتى أصبح مقام المملوك

عنده مما يرغب فيه ويسعى عليه ، وحتى حيكت بسبب هذه العطايا القصص والحكايات الطريفة .[١] وصار لديه من المماليك نحو ٢٥ ألف مملوك كما أشرنا .

العادات والتقاليد:

نسجل فيما يلى ألواناً من عادات هذا المجتمع وتقاليد الناس فيه بما يضفى عليه أضواء تكشف لك عن سلوكهم فى الحياة وطرقهم فى المعيشة ومستواهم من الفهم والحضارة .

ولا نزعم أننا بكل ماكتبنا وما نكتب نكون قد وفينا الحديث فى هذا الموضوع ، ونكون قد كشفنا لك كل ما يتعلق بهذا المجتمع وأهله والعائشين فيه ، حتى نستطيع أن تتصوره ماثلا أمامك بجميع معالمه وملامحه وأطرافه وتفاصيله وظلاله . كلا لا نزعم ذلك ، وإنما هى محاولة لتوضيح صورة تقريبية لهذا المجتمع تستطيع من ورائها تصوره تصوراً مريحاً مقبولا تطمئن إليه ، ومناسباً لهذا البحث الطويل .

فمن هذه العادات والتقاليد ، سوى ما مر :

فى الخطبة والزواج :

ليس لدينا مرجع واف مفصل يوضح عاداتهم فى هذا الموضوع ، مع حيويته وتكراره وضرورته للحياة . ولكننا اعتمدنا على تمثيلية كتبها شمس الدين بن دانيال الموصلى فى كتابه « طيف الخيال » فى فهم هذا الموضوع وتصوره . والتمثيلية ، وإن لم ترق إلى مستوى التاريخ المحقق ، تلقى أضواء كاشفة تتبين من ورائها حقائق لا بأس بها ؛ يستطاع الاعتماد عليها والوثوق بها ، عندما نفتقد الوثائق التاريخية . بل لعل فى التمثيلية من مظاهر الدقة والصدق ما يدعو إلى الوثوق بها والطمأنينة إليها فيما تؤرخه .

---

(١) تاريخ دولة المماليك للسير وليم موير ص ٨٧ ، ٨٨ ، ٨٩ ، ٩٠ ، ٩١ .

ولا يبعد ما تصوره التمثيلية فى هذا الباب ، عما كان يجرى به العرف فى بلادنا إلى وقت قريب ولا يزال يجرى به حتى اليوم فى بعض الأوساط والبيئات .

ذلك هو أن يكلف الخاطب المتقدم للزواج ، « خاطبة » ، وهى امرأة عجوز عادة لها صلة بالناس ومعرفة بالأسر ، ولها حيل كثيرة ومنافذ متعددة تسلك منها للوصول إلى غايتها . ولها مقدرة فى ربط الأمور بعضها ببعض ، وجلب أخبار العذارى والسيدات المتعرضات للزواج ، ووصف مالهن من ملاحة وأخلاق وما يملكن من أموال ...

يكلفها المتقدم للزواج بأن تختار له واحدة من هؤلاء . ويشترط عليها شروطا كثيرة فى الطول والعرض واللون والحسن والخلق والمال والمعرفة والخبرة وما إلى ذلك من شروط .

وما عليها إلا أن تنطلق ساعية باحثة تتلمس له طلبته بين الأسر ، وتتحسس له غايته بين العذارى ، حتى يقع خاطرها الكريم وذوقها السليم على واحدة أو أكثر تتحقق فيها الشروط ، وتكتمل فيها الأوصاف ، فتنطلق بأخبارها إليه وتقص قصتها عليه ، دون أن يراها أو يشاهدها . وتؤكد له هى أنها كاملة الأوصاف .

وربما صدقها ووقع كلامها فى نفسه موقع القبول ، فيقدم على طلب يدها من ذويها ...

فإذا تم الاتفاق بين الطرفين حدد موعد لعقد الزفاف والدخول ، وأخذت العروس أو أهلها فى إعداد العدة وتجهيز الأثاث وما إلى ذلك .

وفى الموعد المحدد يجتمع الناس ، ويحضر العاقد والشهود ، فيخطب العاقد خطبته التقليدية ويثنى على العروسين ويذكر المهر معجلة ومؤجله . ـ ويبدو أن المغالاة فى المهور كانت من تقاليد الزمان وعرفه . إذ أن المهر كان فى هذه التمثيلية : « مائة معجلة وأربعة وأربعين مؤجلة » ...

وعند تمام العقد يطلق البخور ويرش ماء الورد على الحضور . ثم ينفح الزوج الخاطبة بعض المال لتشترى الشمع وتؤجر الماشطة وتحضر المغانى وتتم الجلاء...

وفى موعد محدد يفد الزوج فى وسط جلبة وتدوية. ويدخل إلى العروس وسط الجمع ، ويكشف عن وجهها النقاب . فإما تبدى له قمر السماء وشمس الضحا ، فاستراح واطمأن ، ودعا للخاطبة وشكر لها حسن سعيها ولطيف وعيها ، ويستبشر بحياة موفقة سعيدة ، وأيام طيبة فريدة . وإما يتبدى له شيطان له مشافر الجمل ، وأجفان مكحولة بالعمش وخدود مضرجة بالنمش . . . . الخ فيثور ويسخط ويتشاءم . . الخ .

ولاتخلو حفلات الزواج - كما لاتخلو اليوم - من حمق من الرجال أو النساء أو الأطفال يثيرون الشغب ويحدثون الضجيج ، وبسببهم ينشأ سوء التفاهم بين الأطراف ، فيعكرون بذلك جو الزفاف .(١)

أوقات السمر والمغنون والمغنيات :

وكانوا يسمرون فى مناسبات كثيرة ، سواء منهم الحاكم والمحكوم . ومن المناسبات حفلات الزواج والختان ، وكذلك نزول السلطان إلى إحدى المنازه خارج القاهرة كالمطرية والأزبكية أو المقياس أو الأهرام . وكذلك تمام إنشاء إحدى المؤسسات النافعة كمسجد أو قصر وحديقة . أو ختام موسم فصل لعب الكرة .

ومن المعتاد إعداد أحواض كبيرة تملأ بشراب السكر والليمون ، ويسقى منها الناس ، أو توزيع لون من ألوان اللبن . أو مد موائد الأطعمة الشهية .

---

(١) راجع طيف الخيال لابن دانيال الموصلى مخطوط بالمكتبة التيمورية .

وكان لبعض السلاطين مضحكون يضحكونهم فى مثل هذه المناسبات . وقد روى ابن إياس أن الغورى كان له نديم يضحكه يدعى « الشنقجى العجمى » يلعب بالصحون النحاسية والجريد . (١)

وروى المقريزى أن الناصر محمد بن قلاوون كان له مضحك يسليه فى مجالسه (٢)

وكانوا يستعينون فى حفلاتهم وسمرهم بالطبل والزمر والرقص وبالمغنين وبالمغنيات وضاربى آلات العزف ، ويطلقون على المغنى لفظ « الريس » وعلى المغنية « الريسة » ، وعلى المضحك واللاعب المسلى لفظ « الريس » أيضاً . (٣) ، كما كانوا يتلهون أحياناً بإحراقة النفط أو بمشاهدة خيال الظل أو سماع فرق التنكيت.

وينصبون للمغنى « دكة » يجلس عليها وحوله المستمعون . — وقد يصحب هذا كله تناول الشراب .

وقد حظى العصر بعدد من المغنين والمغنيات ، يبدو لنا مما قاله عنهم المؤرخون استطراداً أن كثيراً منهم كان ذا مقدرة فائقة فى فنه وذا صوت جميل ، كما كان قديراً على تأليف الأغانى وتلحينها فى آن واحد ، فاجتمع فيه الهبات الثلاث . مثل نور الدين على بن رحاب ، والصلاح الثعلبى القوصى وابن القرداح .

ومما يسر اللهو والسمر كثرة المقتنى من الغلمان والجوارى الأرقاء ، وانتشار هذه الظاهرة فى بيوت كثيرة من بيوت الحكام والرؤساء والمتشبهين بهم .

وقد روى ابن إياس أن السلطان المنصور محمد بن المظفر حاجى ، لما خلعه الأتابكى يلبغا العمرى من السلطنة ، أدخله دور الحريم بالقلعة ، فاستمر مقيما فى غبوق وصبوح لا يفيق من السكر ساعة . وعنده جوقة جوار مغنيات نحو عشر يدققن بالطارات عند الصباح والمساء .

وروى أن هذه كانت عادة رؤساء مصر تغنيهم المغنيات . وآخر من فعل ذلك

---

(١) البدائع ج ٤ حوادث عام ٩٢١ هـ (٢) الخطط ج ١ ص ١٤٦

(٣) راجع طيف الخيال لابن دانيال الموصلى .

من أعيانها هو الأمير جمال الدين محمود الأستادار . ثم بطل ذلك مع جملة مابطل من محاسن عيشة الأكابر بالديار المصرية(١) .

وممن اشتهر من المغنين : ناصر الدين محمد المازونى القاهرى ، ولما مات رثاه الشهاب المنصورى . وابن رحاب وهو نور الدين على ، وكان ذا شهرة فائقه ، وكان يستدعى كثيرا لإحياء ليالى الملوك والأمراء وإبراهيم بن الجندى . وشمس الدين محمد بن حلة . وعلى بن غانم . والناصرى محمد بن قجق . والصلاح الثعلبى القوصى . والتقى بن الثقة الإسنائى . وابراهيم بن بابى « بفتح الباءين » . وابن القرداح أحمد ابن محمد بن على . وغيرهم .

وممن اشتهر من المغنيات : خديجة الرحابية . وعزيزة بنت السطحى . والريسة إنعام الخاصكية ، والريسة خديجة أم خوخة . وبدرية بنت جريعة ، وهيفة اللذيذة ، وأصيل القلعية .

ومن أرباب الآلات : محمد بن عونية العواد . وجلال السنطيرى والبوالقة وابن الليمونى .

ومن المحبظين: محمد الريس فتات العنبر . كان رئيس المحبظين فى زمانه . وأستاذاً فى صنعة الخيال .

قال ابن إياس : « وفاق فى ذلك « بربوه »(٢) . وسنتحدث عن لعبة الخيال فى سطور قادمة .

---

(١) ابن إياس ج ١ ص ٢١٢

(٢) راجع فى أخبارهم ابن إياس ج ٢ حوادث عام ٨٦٢هـ، ٨٧٥ هـ ، ٩٠٤ هـ ٩٠٥ هـ، ص ٧٦ ، ١٥٦، ١٦٣، ٢٠٨ ، ٢١٣، ٢٤٢، ٢٥٧، ٢٨١ ، ٣٤٧ ، ٣٥٢، ٣٦٨ ، ج ٤ حوادث عام ٩٠٦ هـ، ٩١٣، ٩١٧هـ ، ٩١٨هـ ، ٩٢٠هـ ، ٩٢٢هـ، ٩٢٦ هـ ، ٩٢٨ ، والطالع السعيد رقم ٥٩، ١٩١ وبدائع ابن إياس ج ٣ ص ٣١٢ — والضوء اللامع ج ١ رقم ٣٢ — وج ٢ رقم ٥٧ ، ٢١٣

فى الختان :

وكانوا يعنون بالختان عناية كبيرة ولا سيما ختان الذكور ، ويقيمون من أجله الحفلات. وكلما عظمت مكانة أهل الحفل عظم اهتمام الناس به : فتزين وجوه المنازل والحوانيت المجاورة لمنزل الأسرة المحتفلة . وتوقد الشموع ويقبل الناس للتهنئة وتقدم الهدايا ويغنى المغنون والمغنيات وتمد موائد الأطعمة والحلوى وقد تعرض بين الألعاب المسلية .

وروى ابن إياس قصة ختان أولاد القاضى كاتب السر ابن مزهر . وكانت عام ٨٨٦ هـ بمنزله فى بركة الرطلى . فأم المنزل كثير من الأمراء المقدمين والعشرات . وزاره الأمير جمجمة العثمانى ـ وكان إذ ذاك ضيفاً فى مصر ـ وقضى الليلة هناك .

وأوقد الناس منازلهم وجملوها بالقناديل حتى انقلب الليل نهاراً لشدة الضوء . وانتشرت الزينات هنا وهناك حتى جذبت إليها الأنظار فتوافد الناس نحوها زمرا للتفرج بمشاهدتها . وامتلأت بركة الرطلى بالمراكب وركابها . وجلس المغنى « ابن رحاب » وغيره من المغنين والمغنيات يطربون الحضور . بأصواتهم الشجية وربح بائعو الحلوى أرباحاً وفيرة فى تلك الليلة . وبعث القاضى ابن مزهر إلى كل بيت فى البركة عشرة أرطال من الزيت ، ومائدة فيها مالذ وطاب من الطعام . وقد عنى القاضى ابن مزهر بهذه الليلة عناية كبيرة ، بناء على أمر السلطان قايتباى ، إذ كانت له عناية بالأمير العثمانى جمجمة . فأحب أن يبهجه بالمبالغة فى هذه الحفلة(١) . . .

ومن أمتع ليالى الختان كذلك ، ليلة ختان ابن الملك الأشرف قايتباى نفسه ، وكان ذلك عام ٨٩٤ هـ وفى شهر رجب . وقد استمر الحفل به سبعة أيام متصلة . وزينت طرقات القاهرة وأسواقها ، واجتمع سائر المغنين لإطراب

---

(١) بدائع ابن اياس ج ٢ ص ٢٠٨ .

الناس . وقد ابتهجوا فى هذه الأيام ابتهاجاً عظيماً . وقدمت الهدايا الثمينة إلى السلطان ، من المال والخيل والقماش والسكر والأغنام والأبقار وغيرها . وقومت هذه الهدايا بأكثر من خمسين ألف دينار . وفى جملها طست وإبريق من الذهب قدمها الشهابى أحمد بن العينى . واختتن مع ابن السلطان عدة من أبناء الأعيان والأمراء والخاصكية . وأقيم لابن السلطان موكب شائق ركب فيه فرساً ، وسار من قاعة البحرة إلى باب الستارة . والسلطان ينظر إليه من معقد خاص . وسارت الأمراء والخاصكية أمامه . وكذلك أعيان المباشرين وكثير من كبار الخدم . وأمسك لجام الفرس الأمير « أقبردى الدوادار » والشهابى « أحمد بن العينى » « وجميعهم بالشاش والقماش » . وفرشت قطع الحرير تحت حوافر الفرس ، ونثرت على رأس ابن السلطان خفائف الذهب والفضة . وتلقته المغنيات بأناشيدهن .

وأدخل إلى قاعة البيسرية حيث جرى ختانه بوساطة أحد المزينين . ودفعت للمزين « نقطة » قيل بلغت خمسة آلاف دينار أو تزيد . فأخذ منها ألفاً ، وفرق الباقى على رؤساء المزينين .

ورسم السلطان بأن تصنع كسوة لكل طفل ممن يشتركون بختانهم فى ليالى ختان ابنه . وكانوا نحو أربعين من أبناء الأعيان[٢] .

فى الجنازات :

فإذا هلك هالك ، أكثروا عليه من العويل . وقد تسير النسوة ليلا يصحن عليه . ويؤجر مؤذن ليؤذن فوق مئذنة أو باب مسجد ، بما يشعر بالوفاة . ويكفن الميت فى « أثواب بعلبكية » . ويسيرون بجنازته ، يتقدمها شخص يقال له « المدير » ينادى مثنيا على الفقيد . وعند بروز الجنازة يضج النسوة

---

(١) البدائع ج ٢ ص ٢٦٣ ، ٢٦٤

بالصياح كأنها صيحة الوداع . ويختلطان بالرجال حافيات. ويصحب الجنازة أحيانا «كفارة» ، وهى خبز ونحوه ، يوزع على العامة تصد الصدقة أو الظهور وقد يذبحون خرافا على القبر يوزعون لحومها .

وفى طريق الجنازة تفرش الحصر أو البسط ، يجلس عليها القراء يقرءون القرآن الكريم أو الأوراد أو نحو ذلك . ويتقدمها طوائف من محترفى القراءات يسمونهم «الفقراء» ويصلى على الميت فى مسجد حيث يكون بعض الناس جلوسا فى انتظاره . ثم يسعى به إلى قبره فيقبر ، وينادى «المدير» بالتقدم للعزاء .

وتقام فى دار الفقيد — عادة — ثلاث ليال تقرأ فيها آيات الذكر الحكيم ، ويسعى الناس إليها لتقديم العزاء . وكثيراً ما يعنون باليوم الثالث للوفاة . وأيام الخميس الثلاثة الأولى ، ويوم الأربعين . فيتبادر النساء لتقديم العزاء ثانيا ، ويصحن ويولولن ويلطمن الخدود ، وهن لابسات الملابس السوداء أو الزرقاء . ويسمعن النادبات وهن يندبن الفقيد ويلطمن الخدود عليه ، ويسودن الوجوه ويحثون التراب فوق الرؤوس ويدققن الدفوف ، وفى رقابهن غلالات سود .

ومن المعتاد تقديم الطعام المعزين والمعزيات ، وتجميل القبور ، وبناء الدور بجوارها للإقامة والمبيت أحيانا ، حيث يطعمون ويشربون ويوقدون الشموع والقناديل ، ويختلط الرجال بالنساء .

وحاول بعض السلاطين — مثل بيبرس والغورى — وضع حد لهذه المفاسد، فلم يوفق(١) .

فى الموالد والمواسم :

واطرد حب المصريين لإقامة الموالد والاحتفال بالمواسم الدينية ، من لدن العصر الفاطمى ، للنفع والتسلية وإشباع النزعة الدينية . ومنها مولد الرسول عليه

(١) راجع المدخل لابن الحاج ج ١ ص ٢٥٠ ، ج ٣ ص ٢٣٣ — وبدائع الزهور ج ٤ حوادث عام ٩١٠ هـ ، ٩١٧ هـ — ج ٢ ص ٢٩٥ .

الصلاة والسلام كل عام . ويهتم السلطان بإحيائه ، ويجتمع فى ليلته الكبيرة مع القضاة الأربعة وأعيان الأمراء والمباشرين فى حوش القلعة . وقد تنصب لهم خيمة كبيرة مزدانة ، وتمد موائد الطعام ، ويمنح السلطان بعض الخلع أو الوظائف ، بهذه المناسبة .

ويحيون مولد الإنبابى فى المحرم أو صفر أو ربيع الأول من كل عام . وتضرب من أجله نحو خمسمائة خيمة فى الجزيرة تجاه بولاق . وتقام بها سوق تجارية مؤقتة للبيع والشراء .

وفى عيد رأس السنة الهجرية ، ينزل السلطان — عادة — إلى ميدان القلعة ، ويتقدم إليه القضاة والأمراء بالتهنئة ، وكثيرا ما تمد الموائد بالأطعمة الشهية فى ذلك اليوم للمهنئين[1] .

فى شهر رمضان :

وكان رمضان من أجل المواسم الدينية التى يحتفلون بها . وإذا اقترب أطلق السلطان سراح بعض المسجونين ، وقضى ديون بعضهم وقد يجمع بين المتخاصمين فيصلح بينهم . واشتهر الغورى بكثير من هذه الصنائع .

ويعد ناظر الحسبة أو محتسب القاهرة ، كميات من اللحم والغنم والدقيق والسكر وغيرها ، لتفريقه على الفقراء والمحتاجين . وثبتت هذه العادة ، حتى أصبحت بمثابة ضريبة تقليدية يدفعونها . ومن هرب من دفعها ، تكلم الناس عنه ولهجوا بهروبه .

ويتبرك السلطان بقراءة صحيح البخارى . فيأمر القراء بقراءته فى قصره ، ثم يختم فى القصر الكبير بالقلعة بحفل مشهود يجتمع فيه الأمراء والقضاة والعلماء والأعيان . ويوزع الهبات ونحوها .

---

(١) راجع المدخل ج ٢ ص ٢٢١ ـ والبدائع ج ٤ حوادث عام ٩١٣ هـ إلى ٩١٦ هـ .

وقد يقرأ البخارى فى الأزهر أو جامع القلعة ، بدلا من قصر السلطان . كما أنه قد يختم بفنائها .

وتهيأ خلع العيد . وهى أثواب يوزعها السلطان على من يختاره من الناس . وتزف هذه الخلع فى أواخر رمضان فى موكب حافل ، يتقدمه ناظر الخاص .

ويستعين الناس على الإشعار بدخول وقت السحور بالأذان فى المساجد ويقولون عبارات متعارفة حينذاك ومنها : « تسحروا . كلوا واشربوا » . وآيات من القرآن الكريم كقوله تعالى : « يأيها الذين آمنوا كتب عليكم الصيام كما كتب على الذين من قبلكم » وقوله تعالى : « إن الأبرار يشربون من كأس كان مزاجها كافورا » . ويتبعون ذلك بالتغنى وإنشاد القصائد . ويستعينون مع الأذان المذكور ، بالدق على الطبول ، والمناداة فى الطرقات ، وبقرع الدور على سكانها ، وبإضاءة المصابيح ، حتى ينتهى وقت السحور ، فتطفأ ، فيعلم الناس دخول وقت الفجر (١) .

فى عيدى الفطر والأضحى :

ويخرج السلطان بموكبه فيهما فيصلى بجامعه الذى أنشأه ، أو بغيره ، وفى صحبته الخليفة والقضاة والأمراء وأعيان الناس . وبعد عودته يصعدون لتهنئته . ويهب خلعه لمن يشاء منهم .

وكان من عاداتهم أن ينزل الوزير من القلعة فى يوم عيد الفطر ، إلى داره ، فى موكب حافل . فيركب بغلته ، ويضع على رأسه « طرحة » بيضاء ، وتحت عمامته « عرقية » مذهبة ، تسمى « الطاسة » ، ويتقلد سبحة بأكر من العنبر . وتسير أمامه « الأوجاقية » بثياب حريرية صفراء تعرف « بالتتريات » ، ويقودون

---

(١) المدخل ج ٢ - والبدائع ج ٤ حوادث عام ٩١١ هـ ، ٩١٣ هـ ، ٩١٨ هـ .

جنائب الوزير ، وأمامه « مبخرة السلطان » وبها البخور . ـ وقد استمرت هذه العادة زمنا ثم أبطلت . وآخر من فعلها من الوزراء ، الصاحب علاء الدين على ابن الأهناسى المتوفى عام ٨٧٠ هـ . ثم اضمحل أمرها وانقضى . حتى أصبح الوزير « تغرى برمش » فى عهد الغورى إذا نزل من القلعة ، لا يشعر به أحد .

ويغلو الناس فى العيدين ، فى الخروج إلى المقابر رجالا ونساء ، ويقع هناك مفاسد . ويغالون فى عيد الفطر فى إعداد الكعك والخشكنان ـ البسكويت ـ والبسندود والسمك المشقوق — لعله البكالاه — ويحشى الكعك بالعجوة ويرش عليه ماء الورد . ويشترى النقل . وكثيراً ما تعانى الأسر المشاق بسبب ذلك ويحتدم بينها النزاع .

وفى عيد الأضحى يتبارون فى ذبح الأضاحى . وقد يخالفون السنة فيذبحون قبل الميعاد الشرعى .

وتطوف جماعات من العذارى يسمين « بنات العيد » ، فى الطرقات والأسواق على التجار والعلماء وعلى المنازل ، يجمعن ما جادت به المكارم ، ومعهن الدفوف يدققن عليها ويغنين [1] .

فى عيد النوروز :

وفى أول السنة القبطية ـ وأول شهر توت ـ كان من أهم المواسم فى مصر . وفيه كان يحمل إلى أكابر أقباطها هدايا كثيرة من أصناف الفاكهة ، كالرمان والموز والسفرجل والتفاح الشامى والبلح والعنب والتمر القوصى والبطيخ الصغير والرطب والخوخ المشعر ، وقدور « الهريسة » المحشوة بلحوم الدجاج ، وغير ذلك من الحلوى .

---

(١) المدخل لابن الحاج ج ١ — وبدائع الزهور ج ٤ حوادث عام ٩١٢ هـ ، وكل عام فى حوادث رمضان — وج ١ ص ٢٦٠ .

ويتعرض فيه طوائف من الرعاع لأعيان الناس ليبتزوا منهم ضريبة خاصة ، بهذه المناسبة ، ومن يمتنع يؤذونه برش الماء السخن عليه ، أو قذفه بالبيض النىء ، أو صفعه بالنعال والأخفاف .

وقد شدد السلطان برقوق على مرتكبى هذه العادة ، حتى أبطلها عام ٧٨٧ هـ .

وكان بعض الناس ينتهز فرصة هذا العيد للهو المحرم بشرب الخمر أو الزنا ، وربما بالقتل(١) .

فى عيد وفاء النيل وكسر الخليج:

وإذا بلغ النيل حد الوفاء ، احتفلوا ثانى يوم وفائه ، احتفالا شائقا ، وكسروا سد الخليج الكبير . ويقوم السلطان برياسة هذا الاحتفال وبكسر السد ، وكثيرا ما يقوم مقامه نائب السلطنة أو الأتابكى أو غيرهما من كبار الأمراء .

ويركب سفينة كبيرة - تسمى « الحراقة » وسميت أحيانا « الذهبية » - تتبعها سفينة أخرى برجال الدولة ، والناس متجمهرون للرؤية والتفرج - إلى جهة مقياس النيل ، فيطلونه بالخلوق — وهو نوع من العطر — ثم يكسرون السد ، فيجرى ماء النيل أمامهم فى الخليج ، ثم يعودون فيلهون ويطعمون ويشربون .

وقد يأمر السلطان بقراءة القرآن بجوار المقياس قبيل الوفاء . وقد يبيت هناك قضاة الشرع . وقد تمد الموائد وتخلع الخلع ، وتعرض الألعاب المختلفة بهذه المناسبة .

فى موسم الحج وخروج المحمل :

إذا اقترب موسم الحج فى كل عام ، أخذ الناس والدولة فى الاستعداد له ،

---

(١) راجع بدائع الزهور ج ١ ص ٢٦٣ — وخطط المقريزى ج ٥ ص ٣٨٩ تحت عنوان « ذكر النوروز » — والسلوك ج ١ هامش ص ١٣٦ .

ولخروج الحجاج . وكان من أهم مظاهره ، إعداد المحمل والخروج به إلى الأقطار الحجازية ، ومعه هدايا مصر وكسوة الكعبة المكرمة(١) .

وقد قال ابن فضل الله : « يخرج الركب من مصر بالمحمل السلطانى والسبيل المسبل للفقراء والضعفاء والمنقطعين ، بالماء والزاد والأشربة والأدوية والعقاقير والأطباء والكحالين ، والمجبرين والأدلاء ، والأئمة والمؤذنين ، والأمراء والجند والقاضى والشهود ، والدواوين والأمناء ، ومغسل الموتى ، فى أكمل زى وأتم أبهة .

وإذا نزلوا منزلا أو رحلوا مرحلا ، تدق الكئوسات وينفر النفير ، ليؤذن بالرحيل والنزول » (٢) .

وللحج ركبان : الركب الأول ، وركب المحمل . ويعين السلطان لكل منهما أميراً ويصحبه عدد من الجنود ، ويخرج فى صحبته من يشاء من الحجاج . ويخرج الركب الأول مبكراً عن ركب المحمل .

ويعرض ركب المحمل على السلطان مرتين . الأولى فى رجب والثانية فى شوال غالبا . وبهذه المناسبة يقوم « الرماحة » ـ طائفة من الجنود ـ بألعابهم العسكرية التى تنم عن فروسية ومهارة ، وهم فى ملابس حمراء .

ويحتفى الناس بعرض المحمل حفاوة بالغة ، فيزينون منازلهم ومتاجرهم بالمنسوجات الملونة والقناديل والشموع وغير ذلك . وينشدون الأناشيد ويغنون الأغانى ويبذلون المعروف (٣).

---

(١) تقويم النيل ؛ فى ترجمة الظاهر بيبرس .

(٢) حسن المحاضرة ج ٢ ص ١٨٤ .

(٣) راجع ما كتبناه عن المحمل والحج فى المجلد الثانى من هذه الموسوعة ، وراجع أنباءهما فى حسن المحاضرة وتقويم النيل وبدائع الزهور ونحوه ، عند الحديث عن حوادث رجب وشوال فى كل عام .

فى الألعاب :

وانتشرت جملة من الألعاب للتسلية أو إظهار المهارة ، أو الكدية والاستجداء ومن ذلك :

ألعاب الرماحة : « وهى ألعاب عسكرية تنم عن فروسية ، يقوم بها فريق « الرماحة » بملابسهم الحمراء أثناء عرض المحمل . وممن اهتموا بها الظاهر برقوق والأشرف الغورى .

لعب الكرة . واهتم بها السلاطين والأمراء وزاولوها بأنفسهم فى مواسم معينة . على ظهور الخيل .

تعليم الحيوانات : واهتموا بتربية الحيوانات لتعليمها ألوانا من الأصوات والحركات . ويقول ابن خلدون : « ولقد بلغنا فى تعليم الصنائع عن أهل مصر . غايات لا تدرك . مثل أنهم يعلمون الحمر الإنسية والحيوانات العجم من الماشى والطائر ، مفردات من الكلام والأفعال يستغرب بدورها ، ويعجز أهل المغرب عن فهمها » (١) .

طيف الخيال : وانتشرت عندهم لعبة « طيف الخيال » أو نسميه نحن « خيال الظل » . وهى شخوص تحرك على شاشة فيظهر ظلها عليها بوساطة الضوء . وتمثل قصصا وحكايات . ويحركها وينطق عنها أشخاص ذوو معرفة بهذا الفن . — ومن أروع أمثلة قصص هذه اللعبة ، تمثيليات « طيف الخيال » لابن دانيال الموصلى .

ومن بينها تمثيلية يعرض فيها ملعبو الحيوانات — الدببة والأسود والفيلة والقردة ... الخ — فضلا عن أصحاب الحرف — كالخاطبة ، والمضحك واللاعب على الحبل ... الخ (٢) .

---

(١) المقدمة ص ٣٠٤ (٢) راجع طيف الخيال مخطوط بالخزانة التيمورية فهرس الألعاب .

فى المجون والتبذل واللهو :

لم يبرأ هذا العصر ـ كغيره ـ من النزوع إلى المجون والتبذل ، ومن تناول أسباب اللهو والتسلية . وقد رأينا فيما مر ، ألوانا من ذلك . ومنها أيضا .

الخروج إلى المنازه . كالسير فى النيل بالزوارق . والرياضة على شاطئيه ؛ والذهاب إلى البساتين ، فى جزر النيل وغيرها . والارتياض فى البرك وعلى شاطئها وفى حيها .

ومن أحب المنازه إليهم جزيرة الروضة ، والأزبكية وبركة الرطلى . وكانت كل منها مليئة بأسباب اللهو وأدوات المجون . وفيها الأطعمة والأشربة ، والظلال والمستكنات والمناظر الجميلة .

ويبدو أن تعاطى الخمر والحشيشة كان شائعا فى العصر المملوكى شيوعا كبيرا . وكان لتعاطيهما أماكن مقصودة ومحال منتشرة معهودة . تلتمس غالبا فى الليل . وشاركت بعض ديارات النصارى فى ذلك بمقدار(١) . كما كان بعضهم يهيىء لذلك مجلسا فى داره أو حديقته ، ويدعو إليه من يشاء من أحبابه . ويزود بما يلذ من الطعام ويروق من الحلوى ويستحسن من الندمان .

ولا ريب أن انتشار الرق حينذاك ، وسهولة اقتناء الرقيق ـ غلاما أو جارية ـ عاون على فشو هذه المفاسد ونشر جو من الإباحة والتحرر من قواعد الخلق والدين . ولقد فاضت بذلك بيوت كثير من الشعراء .

ولعل حياة الكبت السياسى الذى كان يعانيه الشعب ، والذى ولد فيه اتجاها إلى الشكوى والأنين ، وحياة الحرمان من خير بلاده وبرها وثمراتها ، التى دعته إلى التألم المكتوم من ضنكه وشظفه ، لعل ذلك كله هو الذى دعاه أيضاً إلى أن

---

(١) راجع مسالك الأبصار ج ١ ص ٣٥٨ ، ٣٦٦ فى دير بلوزان ودير شعران وغيرها من الديارات .

يتنفس ويتفرج عن طريق اللهو والمجون والتبذل ، تعويضاً عن كبته وحرمانه. وكثيرا مايمحو الإغراق فى المجون آثار الشجون - وامتزج ذلك فى حياته وفى أدبه بضروب من النكت والفكاهات والسخريات .

وقوى هذا التلهى ، بروز النساء إلى الطرقات متبرجات بزينة . وقصدهن أحيانا إلى الأســـواق والحمامات العامة ، وإلى المنازه ، ونزولهن إلى البرك والاغتسال فيها ، فيثير ذلك كله فى الرجال ما يثير ، ويدعوهم إلى الغزل والإغراء .

وحاول الظاهر بيبرس وغيره ، إبطال كثير من مفاسد العصر ومباذله ، فلم يصب إلا نجاحا مؤقتا . ويقول المقريزى :

« وكتب السلطان - يعنى الظاهر بيبرس - بإزالة الخمور وإبطال الفساد والخواطىء من القاهرة ومصر وجميع أعمال مصر . فطهرت كلها من المنكر . ونهبت الحانات التى جرت عادة أهل الفساد الإقامة بها . وسلبت جميع أحوال المفسدات وحبسن حتى يتزوجن . ونفى كثير من المفسدين . وكتب السلطان إلى جميع البلاد بمثل ذلك[1] » .

النزاع بين الطوائف والأجناس :

نقصد بالطوائف والأجناس ، الأتراك والجراكسة الحكام، والعرب المسلمين الذين يكونون الأكثرية الشعبية ، والقلة القبطية وأوشاب اليهود والروم ومن إليهم من رواسب الأمم قبل الفتح العربى وبعده . ويضاف إليهم بعض المتعممين من القضاة وأشباه القضاة من الذين بلغوا مرتبة الرياسة والحكم .

نستطيع القول إن النزاع بين هذه الطوائف والأجناس كان على أشده ،

---

(١) السلوك ج ١ ص ٥٧٨ حوادث عام ٦٦٧ هـ .

أو قل إن العداوة والبغضاء كانت على أحرها . ولا سبيل إلى الالتقاء أو التفاهم أو المهادنة .

وليس من الضرورى أن يتخذ النزاع طريقا عمليا أو يسلك مسلكا فعليا ، فيحتدم ويشتد الصدام فى حوادث ووقائع معينة، حتى نستدل بذلك على وجوده. وليس من الضرورى أن تقفز العداوة والبغضاء من الصدور والنفوس إلى الأيدى فتتشابك ، وإلى الألسنة فتتلاحى ، حتى نستدل بتشابكها وتلاحيها على وجود العداوة والبغضاء .

وإنما مما لاريب فيه أنه كان هناك نزاع ، وكانت هناك بغيضة . فالأتراك والجراكسة حكام مسلطون ورؤساء غاشمون، احتازوا السلطة قوة وقهرا ، وملكوا لأنفسهم أسباب القوة والقهر . واحتازوا المال والجاه والثراء الضخم وهيئوا لأنفسهم أسباب احتيازها . وعاشوا فى ترف ونعيم ولذة واستعلاء ، وحرصوا دائما على أن يعيشوا كذلك وعصموا حياتهم من أن يعتريها هوان أو ذلة ، أو يلحقها شظف أو حرمان .

وبينما هم كذلك إذ نرى الأغلبية الشعبية تعيش فى حرمان وشظف ، بل وفى هوان وذلة . ولا تستطيع أن تجلب لنفسها الخير ، أو تهيء لعيشها الرخاء ، أو تجنب حياتها أسباب الشقاء . فلا ريبة حينذاك فى حقدها على هؤلاء الحكام ، وكراهيتها لهم . تكبت هذا حينا وتبديه حينا ، وتترفق فى كبته وتخدع نفسها ، وتتلطف فى إبدائه وتفكه أملها . فالنزاع إذن قائم ، ولكن مجاله النفوس وميدانه الصدور ، لم يتخذ قط مظهرا له عمليا إيجابيا هادفا إلى تغيير أو تحوير أو تحويل . وسترى مصداق ذلك فى بعض ماهجست به خواطر الشعراء ، وقد أمنوا مكر الحاكمين واطمأنوا إلى أن مايهجون به لن يرقى إلى أسماعهم ولن يطرق آذانهم .

ولم يكن الأقباط يستخدمون فى دواوين، فاستخدموا، وأصبح لهم حظ واضح فى هذه الدواوين . وبخاصة فى ضبط حسابها وإيرادها ومصروفها وصرف رواتب

موظفيها . ويبدو أنه لم يكن ثمة رقابة قوية من الأتراك على هـــذه الدواوين ومحاسبة كتابها وموظفيها على ما يأخذون وما يدعون ، وعلى ما يخطئون فيه أو يصيبون . فكان ذلك أدعى لعبثهم وأدنى لفسادهم فأهملوا وسرقوا وحرموا وغشوا . وتداعى أفراد كل طائفة بعضهم إلى بعض . فتعاونوا وتآمروا . فكان من وراء ذلك طوائف وأجناس ، منهم المستأثر ومنهم المحروم . ومن بينهم الغاصب ، ومن بينهم المغضوب . وبسبب ذلك كله ثارت العداوات واحتدمت الخلافات . وصارت الدواوين مراحا لفوضى ناشبة وقلق مستقر .

تلحظ ذلك كله فيما سنعرضه عليك من شعر البوصيرى ، عند حديثنا عن أثر هذه البيئة الاجتماعية فى شعر شعرائها . فقد قدم إلينا وثيقة لا تكذب ، ونصاً لا يريب .

عصائب النساء وعمائم اليهود والنصارى :

وما دمنا استطردنا إلى ذكر مفاسد النساء ، وإلى ذكر اليهود والنصارى ، وبلغنا بذلك خاتمة هذا الفصل ، فلنفكهك بحديث وجيز عن عصائب النساء ، وعن عمائم اليهود والنصارى . وفى الحديث بعض ملامح المجتمع .

أما عصائب النساء : فقد كان النساء إلى عهد الأشرف قايتباى يلبسن على رءوسهن عصابات ذات قنازع وسراقوسات حريرية ، ويخرجن بذلك إلى الأسواق . فرسم قايتباى للأمير « يشبك الجمالى » المحتسب فى رجب عام ٨٧٦ هـ بأن ينادى فى القاهرة بمنع ذلك ، وألا تلبس المرأة إلا عصابة طولها ثلث ذراع مختومة من جانبها بختم السلطان ! ! وشدد فى ذلك على بائعى العصائب ، وشدد النكير على كل امرأة تخرج من بيتها بعصائبها المقنزعة أو سراقوسها الحريرى ، وإن لا تضرب وتشهر فى الأسواق .

فاضطر النسوة إلى لبس العصابة الطويلة عند خروجهن ، ولكن كارهات .

أو عدم لبس العصائب مطلقا . ولبسن المقنزعة داخل المنازل . وقال فى ذلك الأديب زين الدين بن النحاس .

أمر الإمام مليكنا بعصائب فى لبسها عسر على النسوان
فقلقن ثم أطعنه ولبسنها ودخلن تحت عصائب السلطان

واستمر الحال كذلك مدة ، ثم عاد النسوة إلى ما كن عليه من قبل[1] .

أما عمائم اليهود والنصارى : فقد اتجهت نية بعض السلاطين إلى جعل عمائمهم من ألوان خاصة تمييزاً لها عن عمائم المسلمين .

ومن السلاطين الناصر محمد بن قلاوون ، رسم فى عام ٧٠٠ هـ لليهود أن يلبسوا عمائم صفراء ، وللنصارى أن يلبسوا عمائم زرقاء ، وللسامرية أن يلبسوا عمائم حمراء . وأعلنهم بذلك نداء فى مدينة القاهرة ، وكان النصارى ـ أى القبط ـ من قبل ، يلبسون عمائم بيضاء كعمائم المسلمين .

قيل : وكان سبب ذلك أن بعض المغاربة كان جالسا بباب القلعة . فدخل بعض الكتاب الأقباط بالديوان ، وهم بعمائمهم البيض فبالغ فى تعظيمهم على اعتبار أنهم مسلمون . ثم تبين أنهم أقباط . فشكا ذلك إلى السلطان الناصر فرسم بما سبق بيانه .

وفى عام ٧٥٤ هـ رسم السلطان الصالح صلاح الدين بأن تكون عمائم النصارى عشرة أذرع لا غير .

ونذكر بهذه المناسبة أن السلطان المذكور ، رسم أيضاً بألا يستعان بهم فى ديوان ، ولا يركبوا دابة مكارى مسلم . وإذا مروا بالمسلمين ترجلوا ، ولا يدخلوا الحمام إلا والصليب معلق فى أعناقهم[2] .

---

(١) بدائع بن إياس ٢ ج ص ١٣٢

(٢) بدائع الزهور ج ١ ص ١٤٣ ، ٢٠١

ويذكر السير وليم موير : « أن القوانين التى أصدرها الناصر محمد بن قلاوون بشأن النصارى ، ترجع إلى أن حكومة أرجون أرسلت وفداً إليه تطلب أن يسمح بفتح بعض كنائس خاصة ، وبفك أسير مسيحى . فأجاب السلطان هذا الملتمس . وعاد الوفد ، ومعه الأسير . ثم رأى السلطان أن يأخذ عن الأسير فدية ، فبعث فى أثر الوفد — وكان عائداً إلى الإسكندرية ليبحر منها — فرفض الأسبان دفع الفدية وأسروا رسل السلطان معهم وفروا بهم . فأوغر ذلك صدر السلطان . وأصدر ما أصدر من القوانين .

وكان حتما على اليهودى أن يلبس عمامة صفراء ، والنصرانى زرقاء ، ونساؤهم غطاء خاصا على صدورهن يميزن به . وحرم عليهم حمل السلاح . وأذن لهم بركوب البغال ، بشرط أن تكون أرجلهم من ناحية واحدة ، وأمرهم بتعظيم المسلمين فى مناسبات عدة . . إلى غير ذلك .

ثم إنه بعد مدة عمل على إنصافهم وطمأنينتهم . وقد حدث أن استعار بعض المسيحيين بسطا ومصابيح من أحد المساجد للاحتفال فى يوم عيد لهم ، فاندفع بعض المتعصبين وخربوا كنائسهم . فعاقبهم الناصر .

وهناك حوادث مشابهة غير هذه الحوادث »[1] .

وبمناسبة عصر الناصر ، نذكر ما روى من أن أخلاق النساء فسدت فى زمانه وصرن يخرجن متبرجات . ففرض ضريبة فادحة على كل متبرجة من نساء الطبقة العليا ، وعين امرأة للإشراف على تنفيذ هذا الأمر[2] .

وبعد فحسبنا ما مر ببيانه من ملامح البيئة الاجتماعية ، ومعالم المجتمع المصرى

(١و٢) تاريخ دولة المماليك للسير وليم موير ص ٧٤ ، ٧٥ ، ٨٤ ، ٩١

فى العصر المملوكى . وقد تناولناها من زوايا متعددة ، تتضافر على رسم صورة واضحة . ولم نذهب مبعدين إلى آخر أطراف كل زاوية ، إذ أوجزنا رعاية للمقام ، ولما سبق لنا تفصيله فى مجلداتنا السابقة .

فلنسر قدما إلى الباب الثانى من هذا البحث ـ أثر البيئة المصرية فى الشعر ـ لننظر فى شعر العصر وصلته ببيئاته ومدى استجابته لوحيها .

الباب الثانى

فى

بيان أثر البيئات المصرية فى الشعر

وفيه خمسة فصول

الفصل الأول

فى

بيان أثر البيئة الطبيعية فى الشعر

أشرنا فيما سبق إلى أهمية البيئة الطبيعية فى حياة الأديب والشاعر ، ورأينا أنها ذات صلة وثيقة بأدبه وشعره . كما درسنا طبيعة مصر ، وما يتصل بها من موقع ومناخ ونسيم ، ومن سماء وأرض . ومن نيل وجداول ومقياس وبساتين ومنازه ، وغيرها ، فى الحقبة التى نؤرخ شعرها . فماذا كان أثرها فى شعرائها ، وما مبلغ استجابتهم لها .

ومن المناسب أن نذكر لك هنا ما تحدث به الدكتور الفاضل عبد اللطيف حمزه فى مقدمة كتابه « الحركة الفكرية[1] عن « الشخصية المصرية » ، وهو يؤرخ حركة الفكر فى مصر فى الدولة الأيوبية ودولة المماليك البحرية .

وقد أرجع عوامل تكوين هذه الشخصية إلى جملة مؤثرات أهمها البيئة والموقع . ورأى أن من أهم عناصر هذه الشخصية الميل إلى السهولة والوضوح والاستقامة والاستقرار والذوق . ولهذه العناصر آثار كثيرة فى الأدب المصرى . وله فى أدب مصر العربية شواهد لا تحصى .

وسترى فى الفصل الخامس الذى نعقده للحديث عن النواحى الفنية لهذا الشعر المملوكى نماذج منه وأمثالا لا حصر لها تؤكد ذلك .

ولا يمنعنا هذا من أن نضيف إلى ما تقدم أن المناخ — وإن كان من لوازم البيئة والموقع — له أثر ممتاز فى صفاء القرائح المصرية واعتدال مزاجها ، وفى لطافة حسن المصريين ورقة ذوقهم وخفة نقدهم وسماحهم .

---

(١) الحركة الفكرية فى دولة الأيوبيين و لمماليك البحرية ، للدكتور عبد اللطيف حمزة — المقدمة .

على أن الذوق الرقيق ، وإن كان من نتائج الموقع والمناخ ، ربما كان أيضا قد تولد فى مصر بسبب عوامل ترتبت عليهما إذ أن مصر بلاد متوسطة بين أمم العالم القديم وبين شعوبه المتحضرة ، وشواطئها ممتدة على طول بحرين عظيمين ، كانا وما يزالان أهم — أو من أهم — معابر التجارة والرحلة . لهذا كانت مصر ممرا للمسافرين بين الشرق والغرب .

وفضلا عما اكتسبه سكان مصر ، وبخاصة سكان شواطئها وثغورها وحواضرها ، من أرباح مادية ، ومن ثقافات علمية وأدبية ، ومن تقاليد وعادات وافدة ، اكتسبوا إلى جانب ذلك ، الذوق واعتدال المزاج . ولم يكن ذلك لأن الهابطين إليها والمارين بها ، قوم أولو ذوق ومزاج معتدل . وإنما لأن المصريين بلوا منهم ألوانا كثيرة من الأذواق والأمزجة . فوازنوا بينها ، وعرفوا متعدلها من متطرفها ، وسليمها من سقيمها ، وسهلها من معقدها . فاكتسبوا خبرة فى فهم الأذواق والتمييز بينها ، وهذا هو الذوق الأصيل . فلا غرابة أن جروا فى حياتهم — أو على الأقل فى جوانب منها — على نهج من الذوق والفهم ، وعلى نسق من اعتدال المزاج والتسامح .

والتمييز بين الأذواق ، والحكم عليها ، هو النقد . وتعدد النماذج أمام الناقد يعينه على الوصول إلى حكم أكثر صحة وصدقا وصوابا . وهكذا توطن حب النقد ومقارنة شيء بشيء ، وموازنة صناعة بصناعة ، فى أذواق المصريين . ولعل ذلك ذو صلة بتولعهم بالبديع وصناعته ، وتنافسهم فى إجادة أنواعه . كما أنه — بلا ريب — ذو وصلة ببروز روح النقد فى شعرهم ، فبدا — كما سترى فى الفصول القادمة — لاذعا مرا . وإن كان سطحيا عابرا عبور المسافرين إلى مصر والهابطين إليها . وأضاف إليه اعتدال المزاج والتسامح ، صوبا من تهكم وفكاهة .

وعلى الرغم من أن البيئة الطبيعية فى مصر ، دعت أهلها إلى شيء من الكدح والكفاح والدأب ، لم تعلمهم — إذ ذاك — بجانب هذا إلا الرضا بالقضاء والقدر ،

والاستسلام لمشيئتهما. مع الأمل المطرد المتجدد ، دون اليأس القاتل. ومع العمل، ولو الوئيد ، والاعتقاد بالمجهول دون شق حجبه وأستاره ومعاناة الوصول إليه والتحكم فيه .

ولعل ذلك كان ، لأن التربة الزراعية هكذا كان دأبها فى العصور الماضية ـ قبل أن تنتشر فى ربوعها عوامل اليقظة ـ تنبت لهم كثيرا مما يحتاجون إليه من الغذاء ، ولو لم يبذلوا فى سبيله كفاءه من العمل والتعب . وهذا هو جود التربة وكرم الخصب ، اللذان يغريان بالكسل والاتكال . . .

كان هذا فى الزمن القديم ، لا الحديث ، فكانت النفوس تعيش أبدا آملة ، لا يعتريها اليأس ولو فى أشد الأوقات حرجا وشدة . وإنما تفيض عندها بالشكاية الوديعة المسالمة . وتنسب أسبابها إلى الزمان وصروفه .

ولعل ذلك له دخل فى استسلام هذا الشعب للدول الفاتحة المتعاقبة عليه ، ولحكم الفرد فيها . وقد عاون على هذا الاستسلام الفهم الخاطىء لمقتضيات الدين.

والبيئة الطبيعية فى مصر ، أجمل ما فيها نيلها وجداوله ، والأرض الطيبة الخصبة على شاطئيه ، حيث ينمو الزرع والشجر ، وينبت لأهلها الغذاء والثمر . فى صعيدها أو فى دلتا النهر . وكذلك شواطئها . وما عدا ذلك هضبة عالية فى غرب النيل مسطحة تقريبا، تتخللها الرمال والواحات، على نحو ما وصفنا فى مطالع هذا البحث كله، وهضبة مثلها فى شرقه جبلية ذات مرتفعات ، تضرب إلى سواحل البحر الأحمر . . هذا إلى مناخ معتدل دافىء .

ولا ننكر أن يد الإنشاء والإصلاح والتجميل ، كانت تتناول أجزاء هذه البيئة من آن إلى آن ، فتسوى أرضها أو تحفر غدرانها ، أو تنشىء خلجانها ، أو تهيىء بساتينها ، أو تنوع نباتها ، أو تنمى أشجاها ، أو تفتح أزهارها ونوارها ، أو تتعهد حيوانها وطيورها ، أو تجرى دولاباتها ، أو تدير سواقيها ونواعيرها .

كما لا ننكر أنها كانت تنشىء الدور وتعلى القصور ، وتشيد الأبنية الفارهة ، والعمائر الضخمة ، والمساجد الجامعة ، وتزود هذا وذاك بالجميل من الزخرف والجديد من الصنع والفن .

ويمثل هذا كله على جانبيها ويعيش ، حتى يتحول بمضى الزمان وتتابع الأيام ، واطراد وقوع العين عليه ، وندرة التغيير فيه ، إلى جزء من أجزاء الطبيعة المصرية ، — كما تحولت الأهرام — ، وإن كان مظهرا فى الأصل من مظاهر الحضارة .

وبالرغم من هذا كله ، ينبغى أن نذكر مرة أخرى أن مناظر الطبيعة المصرية ، فى جملتها ، قليلة ، وهى مع قلتها كثيرة التشابه ، تتشابه أجزاؤها على جانبى النيل وفى دلتاه ، حيث تطرد الزراعة ويتجانس النبات ويتشابه الشجر والزهور والثمر . كما يتشابه الحيوان والطير .

وتعدد المناظر واختلافها وتغايرها فى أجزاء البيئة الواحدة ، له أثره — بلاريب — فى خيال الشعراء . فهو يعينهم على تعدد المشاعر وتوليد الأحاسيس المتغايرة ، وكثرة التصورات الذهنية والنفسية ، وحسن الموازنة والمفاضلة . وكل ذلك له دخل كبير فى ثراء الصور الشعرية وتنوع الأخيلة .

لنأخذ هذا فى الاعتبار ، ونحن بصدد محاسبة شعراء البيئة المصرية فى ذلك الزمان البعيد . ولندخل فى حسابنا أيضا ما نشاهده فى بيئتنا حتى اليوم ، من رتابة ونظام مطرد ، أو يكاد يكون مطردا ، فى مناخها وفصولها ، وما يتصل بهما من مشاهد الطبيعة . فإن مناخ مصر — كما علمنا — لا يكاد فى جملته يختلف فى فصل عن فصل ، ولا فى يوم عن يوم ، وإذا اختلف فليس ثمة اختلاف جوهرى جذرى ، كالذى بين طرفين متناقضين .

حتى النيل نفسه — وهو مظهر النعمة ومصدر الخير ، ومحرك الطبيعة فى أجمل مرائيها ، فضلا عن أنه الجزء الأهم والأساسى بين أجزاء الطبيعة المصرية — يكاد يسير فى حياته رتيبا منظما ، لا تكاد تختل فيه هذه الرتابة ، ولا يتأخر فيه هذا النظام .

أقول : فلنضع هذا كله فى الاعتبار ، ونحن بصدد محاسبة الشعر فى إحدى حقب مصر الطويلة ، على ما كان لديهم من إحساس بطبيعة بلادهم ، وعن مدى تأثير هذه الطبيعة فى نتاجهم الشعرى .

وسنرى أنهم كانوا لها قلوبا والهة ، ونفوسا محبة ، ومشاعر مرهفة ، وألسنة معبرة واصفة .

لقد كان للبيئة الطبيعية فى مصر أثر بالغ فى شعر شعرائها فى العصر المملوكى.

برز هذا فى الوصف . وكان الوصف لديهم معرضا حافلا . تناولوا فيه كل ما تراءى لهم ، ووقع تحت بصرهم ، من أجزائها . لقد وصفوا حدائقها وما دار حولها من جداول ودواليب ونواعير ، وما عاش من حيوانات وطيور ، وما نما من أفنان ، وازدهر من أغصان ، وتفتح من أزهار ، ونضج من ثمار .

لقد عشقوا النيل وقدسوه ، ووصفوا ماءه وتياره ولونه . لقد خاطبوه وتغزلوا فيه ، وأبدعوا فى ذكر فيضانه ووفائه وخلجانه ومقياسه ، واحتفوا بكسر الخليج وحفلات الوفاء ولعب الزوارق ولهو الأمواج . وشببوا بما نما على حفافيه من البساتين والمنازه ، وما مال على شاطئيه من السرح والشجر . وتشوقوا إليه إذا اغتربوا ، وحنوا إلى أرضه ورياضه إذا نأوا وابتعدوا . بل لقد داروا مع سواقيه إذا دارت ، وأنوا مع دواليبه إذا أنت . . .

لقد عشقوا محاسن هذه الطبيعة المصرية ، وأشادوا بمصر وما شب فى أحضانها من ألوان الجمال .

لقد امتزجوا بأجزاء هذه البيئة . حتى انتزع بعضهم منها تشبيهاته وتورياته ، وانتفعوا فى ذلك بمرائيها ومشاهدها . لقد ساروا مع رياحها إذا سارت . ومالوا مع أنسامها إذا مالت ، وضحكوا مع ورودها ، إذا ضحكت وقصوا وحكوا مع طيورها إذا قصت أو حكت .

لقد اندمجوا فيها ، وشخصوها أحياء موحية ومستجيبة ، وبادلوها عاطفة

بعاطفة ، ومسرة بمسرة . ونصبوا منها أشخاصا شاعرة محسة . فمصر أم لولدان . وداعية لبنين ، ومدافعة عن أبناء . وصوروا نيلها واهبا للخصب ، ومانحا للغنى ، وملكا يذود جيوش المحل عن أرضها ، ويدفع كتائب الغلاء عن أهلها ، وهو يتصرف بلب وفهم وبإرادة وعلم ، وهو ذو شيم كريمة لا تنافسه فيها الأنهار ، وحسبك من هذه الشيم الوفاء . . . .

وخاطبوا برقها وأنسامها وحملوها أمانة التحية ورسالة الشوق ، وداعبوا رياضها حتى اغتبقت غصونها وضحكت أزاهيرها . إلى غير ذلك مما سنفصله .

ومن ذلك ترى إلى أى حد تأثرت نفوسهم ومشاعرهم وحواسهم معا بها . وإلى أى حد عبروا عما شعروا به من ذلك ، سواء فى قرارة نفوسهم أم من متناول حواسهم ، فكانوا مستجيبين لها ملبين لإلهامها .

ولعلنا فيما سنقصه عليك من ذلك ، نستطيع أن نقضى على الأسطورة الممجوجة أو الفرية المدعاة ، من أنهم إزاء طبيعة بلادهم كانوا يعانون ضيقا فى النفس ، وبلادة فى الحس ، ونقصا فى الشعور ، وسذاجة أو قصورا فى التعبير ، وندرة فى الاستجابة وتلكؤا فى التلبية . وبخاصة فيما يتعلق بنهرهم المبارك ، نهر النيل .

وسنقصر حديثنا فى هذا الفصل على الوقوف لدى « الموضوعات » التى تتصل بالبيئة الطبيعية أكثر من اتصالها ببيئة غيرها . تاركين غيرها من الموضوعات لما هو ألصق بها وأنسب لها من البيئات الأخرى .

حب مصر وذكراها

ومصر ، منذ الذى لا يعشقها ، وهى البلد الحنون ، والموطن المئلاف ، والمراح الخصب والسكن السمح ، والمكان الخصيب والمربع الرحيب ، الرخى الأنسام ،

الرضى الأيام . محل النيل ومجراه ، به ماؤه وشاطئاه . .

بلغ حبها من قلب صلاح الدين الصفدى ، وحبه لأهلها ، أن رأى أن من طاف حول الدنيا بأمصارها ، وجال فى الأرض وأقطارها ، ولقى فى طوافه وتجواله ألوانا من الناس ، وأجناسا من الخلق ، ولكنه لم ير مصر ، ولم ينعم بالنزول إليها . ومشاهدة ربوعها ، وبقرب أهلها ، فكأنه لم ير الدنيا ولم ير الناس . يقول :

من شاهد الأرض وأقطارها والناس أنواعاً وأجناسا
ولا رأى مصر ولا أهلها فما رأى الدنيا ولا الناسا[1]

ولعله يعبر عن هذا الشعور نفسه ، ولكن بتصوير آخر ، وبشكل مغاير ، وبتكرار — لعمرى — يدل على صدق شعور . وذلك أنه شاهد فى مصر عجائب ، ما رآها غيره من الناس . وهى أن الدنيا تسود فى عينيه فى كل ناحية منها يرحل إليها ولا تبيض إلا إذا ما كان فى أرض النيل ، مصر الرحبة الكريمة السمحة .

وأعتقد أن الشاعر يرمز بالسود والبياض فى بيتيه التاليين ، إلى الجدب والخصب ، أو إلى ضيق العيش وسعته ، أو إلى عبوسة اللقاء والفرحة به .

يقول الشاعر :

رأيت فى أرض مصر مذ حللت بها عجائبا ما رآها الناس فى جيل
تسود فى عينى الدنيا فلم أرها تبيض إلا إذا ما كنت فى النيل[2]

والمعنى — كما ترى — ذو صلة بمعنى بيتيه السابقين ، ينبع من الشعور نفسه . الذى ينبعان منه ولا تحس فيهما بتكلف فى سوق الطباق بين تسود وتبيض .

---

(١) بهجة الناظر للسيوطى ،
(٢) المصدر نفسه .

وزين الدين بن الوردى ينهج فى شعوره وإحساسه نهجا مماثلا ، يفارق فى التصور والخيال فمصر عنده هى الدنيا وساكنوها لديه هم الأنام . فإذا كان الصفدى قد اعترف بأن هناك أرضا غير أرضها ، وأناسا غير أناسها ، ولكن أرضها هى أحرى بأن تكون الدنيا ، وناسها أجدر أن يكونوا وحدهم هم الناس، فإن ابن الوردى اعتبر مصر هى الدنيا وأهلها هم الأنام . يقول :

ديار مصر هى الدنيا وساكنها هم الأنام فقابلها بتقبيل
يامن يباهى ببغداد ودجلتها مصر مقدمة والشرح للنيل(١)

وقد أخذ صلاح الدين الصفدى هذا المعنى وبعض اللفظ ، فقال :

ركبت فى النيل يوما مع أخى أدب فقال دعنى من قال ومن قيل
شرحت يا نيل صدرى اليوم قلت له لا تنكر الشرح يا نحوى للنيل(٢)

ويقسم ناصر الدين أبو بكر بن عمر بن سلار — المتوفى عام ٧١٦ هـ — أن مصر هى الجنة العليا ، وأن أبناءها هم الولدان ، وأن روضها هو الفردوس ، وأن نيلها هو الكوثر ، وذلك فى بيته :

لعمرك ما مصر بمصر وإنما هى الجنة العليا لمن يتفكر
فأولادها الولدان من نسل آدم وروضتها الفردوس والنيل كوثر (٣)

أما علاء الدين الوداعى فيتشوق إلى مصر وسكانها وإلى عهدها الخالى . ويستروى الأحاديث عن نيلها ريا لشوقه وسقيا لوجده وذلك فى قوله :

رو بمصر وبسكانهـا شوقى وجدد عهدى الخالى
وصف لى القرط وشنف به سمعى وما العاطل كالحالى

---

(١) تأهيل الغريب فصل الأنهار — وبهجة الناظر للسيوطى ورقة ٨٣ — وديوان ابن الوردى ص ٢٥٢

(٢) المصدر نفسه .

(٣) الدرر الكامنة ج ١ رقم ١٢١٠ .

وارو لنا يا سعد عن نيلها حديث صفوان بن عسال (١)

ويدنو الشاعر إبراهيم المعمار من الواقع ولا يهيم فى دنيا الخيال . ويقول فى بساطة ، إن مصر منزل مستحسن سواء منه شرقه أو غربه . ويأسره حب الاقتباس فيذكر الصعيد الطيب ، عن طريق آى القرآن الكريم . فيقول :

ما مصر إلا منزل مستحسن فاستوطنوه مشرقا أو مغربا
هذا وإن كنتم على سفر به فتيمموا منه صعيداً طيبا (٢)

ويبدو أن جهة المقياس كانت تستأثر بالكثير من الزوار ، وتجذب إليها العدد الجم من المحبين . ويورى الشاعر الأديب شهاب الدين المنصورى بالمقياس تورية لطيفة ، ويدعو الزوار والمحبين أن يقضوا أوقاتهم بمصر ، فهى أوقات سرور لا تمل . وأوقات السرور قصار . فلينتهزها المرء ولا يعجل عنها بالمسير .

وعلى لسان مصر يقول الشاعر ما جال بخاطره :

تقول لنا مصر أنا خير موطن ولا ناس فى الأمصار أظرف من ناسى
فإن تك أوقات السرور قصيرة فلا تقطعوها فى بالمقياس (٣)

ولشاعر مصر الكبير جمال الدين بن نباتة ، أشواق حارة ، وحنين لا يهدأ ، إلى مصر وملاعبها وذكرياتها ، وإلى النيل ورياضه . لقد طوحت به النوى ونزحت الدار ، فعاش بعيداً عن وطنه المحبوب وبلاده الأثيرة ، يعانى لوعة البعد وألم الفراق .

---

(١) تأهيل الغريب باب الأنهار — وبهجة الناظر للسيوطى ورقة ٧٣ — وحلبة الكميت للنواجى ص٢٩٧ .

(٢) بهجة الناظر ونزهة الخاطر للسيوطى ورقة ٨٣ .

(٣) بهجة للناظر للسيوطى ورقة ٨٤ .

لقد فارق مصر إلى ربوع الشام . فانتهب الشوق إليها نفسه ، وصار يتغنى بها وبنيلها مخصب الثرى ومغنى الورى وقاتل المحل . يقول :

وإنى لمشتاق إلى ظـــل روضة ... على النيل أروى العيش منها عن النضر
لئن حثنى باب البريد إلى مصر ... لقد حثنى باب الزيادة فى النذر
إلى مصر يحلو نيلها مخصب الثرى ... فيغنى الورى فى الحالتين عن القطر
وتقبيل حلو الغزو للمحل قاتل ... حلاوته سكب وجنديه يجرى (١)

وتذكر بعض أهله الذين تركهم فى مصر ، فتأوه لهم ولمصر ولذكرياته بها . فقال:

بأبى الخدود العاريات من البكاء ... اللابسات من الحرير جلابيا
النابتات بأرض مصر أزاهرا ... والزاهرات بأرض مصر كواكبا
آها لمصر وأين مصر وكيف لى ... بديار مصر مراتعا وملاعبا
حيث الشبيبة والحبيبة والوفا ... فى الأقربين مشاربا وأصاحبا
والطرف يركع فى مشاهد أوجه ... عقدت به طرر الشعور محاربا
والطرف سلم كيفما حاولته ... لا مثل دهرى فى دمشق محاربا (٢)

وها هو ذا يتجه إلى البرق السارى إلى آفاق مصر ، فقد ذكره ما عذب من زمان النيل . ويضرع إليه أن يحدثها عن أدمعه وعن نار قلبه ، ويندب إليها عمره وصباه ، وتلك لعمرى ومضة نفسية ملتاعة .

يقول الشاعر :

يا سارى البرق فى آفاق مصر لقد ... أذكرتنى من زمان النيل ما عذبا
حدث عن البحر أو دمعى ولا حرج ... وانقل عن النار أو قلبى ولا كذبا
واندب على الهرم الغربى لى عمرا ... فحبذا هرم فارقته وصبا (٣)

وفى لوعة المشتاق وأنة الباكى ولهفة العاشق ، يهب ابن نباتة هذه الأبيات

---

(١) ديوانه ص ١٩٦.
(٢) ديوان ص ٢٦ .
(٣) ديوان ص ٣١ .

التالية لمصر ، يودعها كثيراً من آلامه وأحلامه ، وذكرياته وأمنياته ، وما هى إلا طاقة نفس وإفاقة حس .

يصرح الشاعر بأن الشوق دعاه إلى ذكر حماه ويدعو لمصر بسقى الغوادى ، ويذكر إليها زمان وصاله فيها ، وصباه الطيب فى ربوعها ، وما كان حوله من وجوه بيض تجتلى ، وشعور سود تسحب ، وما جد عليه من أمر النوى ، وما لاعه من البعد ، وما أمله من الخير فى العودة . . . .

يقول الشاعر فى عبارة جزلة فى رقة ، وفخلة فى عذوبة :

دعاه لذكر الحمى مذهب وشوق أقام فما يذهب
أمصر سقتك غوادى السرور وجادك من أفقها صيب
ذكرت زمانك حيث الوصال وحيث الصبا طيب طيب
وبيض الوجوه بها تجتلى وسود الشعور بها تسحب
وكم قمر فيك سافرت عنه وعقرب أصداغه غيهب
فما كان بالسفر المستجاد وقد أطلع القمر العقرب
وإن حف بى للنوى مهلك فكم صح لى باللقا مطلب
وإن طمعت فى ليالى الحمى منای فكم قد فشا أشعب
وقد يحسب المرء ما فاته فيأتيه أضعاف ما يحسب
لعمرك ما الصبح بالمستنير وقد فاتنى ذلك المغرب . . . الخ[1]

وهام الأديب البارع شهاب الدين بن فضل الله العمرى هياماً شديداً بمصر ونيلها ورياضها ، وعشق مغانيها ومجانيها ، ومفاتنها ومحاسنها .

لقد كتب عنها فى سياق رسالة له منثورة ، بعث بها إلى الأمير الجاى الدوادار ، أبياتا تنم عن حب أصيل ، وشعور بقدسيتها جميل نبيل ، بلغ به حد الفخر والتيه . وإن خلطه بمدح لممدوحه . فقد قال له :

---

(١) ديوانه ص ٥١ .

بلد أنت ساكن فى رباها بلد تحسد الثريا ثراها
قد تعالت إلى السماء بكنا ك فألقت على البطاح رداها
جمد الطل فى الزهور فخلنا أنه عقد جوهر لرباها
وجرى النيل فى الرياض فقلنا كسرت فوقه المغانى جلاها
مثلما أنت فى معانيك فرد هى فرد البلاد فى معناها (١)

وشبيه بذلك مانظمه أيضا وأطال فيه وأبدع ، وأجاد فيه وأمتع . وهو قوله يصف مسك أرض مصر ، وريا الروض وعطر الريح واغتباق الأغصان ، واهتزاز صفاح النيل . ويذكر سفائنه التى كالجبال ، وصهواتها الساكنة بينما الأفق حديقة خضراء مزهوة ، والمجرة نهر يتدفق ، والليل زنجية فى وشاحها تقوده الجوزاء ... إلى غير ذلك من المشاهد الطبيعية الفاتنة الجميلة ، التى يدل وصفه لها على امتزاج مشاعره وامتلاء نفسه بطبيعة بلاده ومحاسنها ، وعلى مدى تأثير هذه الطبيعة والمحاسن فيه .

يقول :

ما بين أكناف البطاح مسك يذر على الرياح
من حيث يلقى الروض فى أزهارها ريان ضاحى
والريح فى السحر البهيم يطير مسكى الجناح
يسرى فتغتبق الغصو ن به على عين الصباح
والنيل فى تياره الـ منصب مهتز الصفاح
وبه السفائن كالجبا ل تجول أمثال القداح
فركبت من صهواتها دهماء ساكنة الجماح
حراقة تجرى على اسم الله فى الماء القراح
والأفق مثل حديقة خضراء مزهرة النواحى

(١) حسن المحاضرة ج ٢ باب ذكر ما قيل فى الأنهار والأشجار .

تحكى المجرة بينهـا نهـرا تدفق فى أقاحى
واقتادت الجوزاء للـيل البهيم إلى الرواح
فـكأنه زنجيـة حذفت بأطراف الوشاح[1]

والعجيب من أمر شهاب الدين بن حجر العسقلانى - وهو الفقيه الحافظ وقاضى القضاة - أن يسافر إلى حج بيت الله الحرام ، فيأبى إلا أن يملكه الشوق إلى مصر ، غب رحيله عنها ومفارقته لها ، فيذكرها ويذكر أهلها ويذكر معاهدها ومراتعها ، ويستحث الزمان ليعيده إليها ، لكى يهتز نشوان من فرح اللقيا ، والطمأنينة بالرؤية والأنس بالأمن . وهو فى ذكرى أيامها ينشق نسيمات الشمال معطرة بأرج أرضها ، ويودع هذه المشاعر فى قصيدة عصماء .

وها هوذا الأديب البارع يتساءل فيهما عن مصر تساؤل الملهوف المشوق المغرم ، وعن موعد اللقاء بها ، فيقول :

متى تنجلى يا أفق مصر بأقمار وأروى عن اللقيا أحاديث بشار
وأقرأ آى الوصل من صحف أوجه مواضع ختم اللثم فيها كأعشار[2]
وأهتز كالنشوان من فرح اللقاء ولا منة عندى لكاسات خمار
إلى مصر واشوقاً لمصر وأهلها تشوق صب للنوى غير مختار
ويا وحشتى يا مصر منك لبلدة لداخلها بالأمن بشرى من البارى
تهب نسيمات الشمال بأرضها فينشق منها الأنف جونة عطار
محسدة لا قدح فيهـا لعائب على أن زند الفضل من أهلها وارى
إذا فاخروها قام صارم نيلها بمقياس صدق كاسرا كل فخار

---

(١) حسن المحاضرة ج ٢ باب ما قيل فى الأنهار والأشجار . — والصفاح : الجوانب — وحذفه بالعصا : رماه بها .

(٢) الأعشار : جمع عشر ، يريد بها هنا الكثرة .

مراتع لذاتى وملهى شبيبتى ومبدأ أوطانى وغاية أوطارى
ومنزل أحبـــابى ومنزه مقلتى ومطلع أقمارى ومغرب أفكارى
لبست ثياب اللو فيهـا خلاعة وقامت على خلعى عذارى أعذارى

وينساق الشاعر إلى وصف رحلته التى فارق بها مصر إلى الحجاز ، ويثور به الوجد بمصر وبأحبابه فيها ، حتى يذكر أن النوى رمته ، وأنه امتطى مطية — يعنى السفينة — فيها غرائب وأسمار . وأنها تبطىء إذا ركد الموج ، وتسرع إذا أسرع . وأنها وهى « جارية » استرقت من فيها من العبيد والأحرار وأنه يديم عليها منادمة القرآن وقراءة الأذكار . . . ومن لطيف تصوره فى وصفها أنه وهو مسافر ، مقيم بها ، وأنها وهى منزل ، تسير أبداً . .

يقول ابن حجر :

رمتنى النوى حتى ركبت مطية أحاديثها فيهـا غرائب أسمـار
إذا السهل أوفى أبطأت فى مسيرها وتسرع فى الأمواج سيراً بأوعار
وجارية لـكنها تسترق من تبطن فيها من عبيد وأحرار
إذا رحلت فى البطن تمشى سريعة على ظهرها فاسمع عجائب أخبار
ولا خير فيها غير أن نزبلها نديم لقرآن مديم لأذكار
وأعجب ما أحـكيه أنى مسافر مقيم ولـكن منزلى أبدا مسارى ..الخ

وما لبث الشاعر بعد سروح خياله وانسيابه بانسياب الموج والسفينة ، فعاش بينهما بمصورته مدة ، أن عاد إلى حنينه الأول ، وإلى وصف أشواقه إلى بلاده وإلى أهلها وإلى أحبابه فيها ، الذين تتمناهم روحه وتهتدى بهم بصيرته ويتنور بضيائهم بصره ، ويتيسر على يديهم عسره . فهم بذلك سعادته فى الدنيا والآخرة معا . لذلك نزلوا بقلبه فعمر بحبهم ، فـا بالهم يشعلون به — وهو دارهم — نار الأشواق . . .

يقول الشاعر :

وأنتم منى روحى وهدى بصيرتى وتنوير أبصارى وتيسير إعسارى
نزلتم بقلبي وهو عمـــار حبكم فأحرقتم دار الضيافة بالنـــار

ويقول - ولعله يقصد زوجته أو أحد أبنائه - مخاطباً نسمات الريح ، أن تبلغ إليها سلامه ، فهى « روحه المقيمة فى داره ». ويضرع إليها أن تسمح لمقلته بنوم يحظى فيه بوصل من طيفها . . .

يقول :

فيـانسمات الريح بالله بلغى سلامى على روحى المقيمة فى دارى
سليها تسامح مقلتى بمنامها لتحظى بطيب الوصل من طيفها السارى . . الخ

إلى آخر هذه القصيدة الممتعة فى بابها(١) .

ومن طرائف الشاعر العذب المبدع . برهان الدين القيراطى ، هذه الأبيات التى وصف فيها مدينة الإسكندرية وصف المحب المغرم . فما يوافى معهدها حتى يطاق فى أرجائها عينه فتسبح وتطوف لتنتهب مافيها من جمال ومحاسن . وكل ناحية من نواحيها ، وكل مظهر من مظاهرها ، فيه غنم ومتعة ، وفيه حسن وفتنة ، وفيه رزق ويسر . .

والحق أن الشاعر لم يطف فى شوارعها بقدميه ، ولكن بروحه . ولم يسمع بها إلا هزار الوصل ، ولم ير إلا خدودا كأمثال الرياض ، ووجوها كالمصابيح ،

يقول الشاعر :

إســـكندرية إن وافيت معهدها فقـــل لعينيك فى ساحاتها سيحى
فثغرها الأشنب الصبحى ذوشنب حالى به حال مغبوق ومصبوح
ياصاحبى لبـاب السدرة ارتقيا لمنتهى باب رزق ثم مفـــتوح

---

(١) ديوان ابن حجر العسقلانى : مخطوط - والجونة : سلبلة مغشاة أدما ، تكون مع العطارين .

تمشت الروح منا فى شوارعها ذات ارتياح فكل شارع الروح
ياصاح صاح هزار الوصل فابتغ لى راحا بها راحة للجسم والروح
حيث الخدود كأمثال الرياض زهت وأزهرت بوجوه كالمصابيح[1]

ومصر للمصرى ، وطنه المحبوب ومحل ميلاده ومجمع أوطار فؤاده . بها أهله وأحبابه ، وأبناؤه وأقرباؤه . وفيها ملاعب صباه ، ومسارح مرحه وملهاه . قضى بها أطيب أوقاته ، وسجل جميل ذكرياته وربط الود فيها بين قلبه وقلوب لداته . وذاق طعم الوفاء ، وإن تقلب بين السعادة والشقاء . فهى لذلك قطعة من نفسه ، ومتجه عاطفته وحسه .

وهو يشتاق إليها ، وهو بين يديها . فما بالك إذا غاب عنها وقضى عليه قاضى البين بفراقها ، رحلة إلى علم أو سعيا إلى رزق ، أو رياضة إلى منزه ، أو قصدا لأداء فريضة . أو غير ذلك . فكيفما كان من حاله ، تنازعه إليها الأشواق ، ويتطلع إليها فى الآفاق ، فيخاطب البرق ، ويحمل الريح ، ويستجوب النسيم ، ويظمأ إلى النيل . .

ويقول ابن نباتة مضمنا تضمينا تصرف فيه ، يخاطب البرق :

يا بارقا من نواحى مصر مبتسما بلغ تحية هامى الدمع منهمل
واذكر إذا هب معتل الصبا جسدى فربما صحت الأجساد بالعلل[1]

ويخاطب النسيم فيقول :

وأعد يانسيم أخبار مصر ربما طارح العليل العليلا

---

(١) ديوان البرهان القيراطى ورقة رقم ١٤٠ ـ مخطوط ـ والأشنب . ذو الشنب وهو الرقيق العذب الريق الكثير الماء .
(٢) ديوان ابن نباته ص ٣٨٣ ،

أنت لاشك من صبا أرض مصر فلهـذا أرى عليك قبـولا (١)

ويستشفع بدموع شوقه إلى العودة ليروى ظمأه من ماء النيل ، فيقول :

وهل إلى أرض مصر زورة لشجٍ بسائل من دموع الشوق ملحاح

وهل أباكر بحر النيل منشرحا فأشرب الحلو من أكواب ملاح (٢)

الولوع بالنيل

ولقد رأيت فى بعض ما مر من الأبيات ، مظاهر ولوعهم بنهر النيل . والنيل منذ الزمن القديم ، نهر مصر المبارك الذى تنبثق فيها الحياة بسببه ، لأهلها وأرضها ونباتها وحيوانها .

وقد بلغ حبه عند قدماء المصريين حد العبادة والتقديس . وما زال حبه متوارثا بين بنى مصر ، جيلا بعد جيل ، يظهرونه بمظاهر مختلفة .

لذا كان ، وما زال ، مصدر وحى وإلهام لشعرائها ، يعبرون بشعرهم له عن مكنون حبهم وتقديسهم ، ويسطرون ما يقع فى خيالهم عنه من بديع الصور ، ويدلون بذلك على امتزاج نفوسهم به ، وهم فى ذلك مرآة الشعب الذى يعيش سنته يراقب فيضان النيل ونقصانه ، ويترقب أيام الفيضان ترقب الظمآن ... فإذا وفى النهر ونبه مقياسه على بلوغه حد الوفاء ، سرت بين صفوفه وجموعه معالم البشرى والفرح . وتوافدوا يحتفلون به ، وعلى رأسهم حكامهم ، متمشين مع إرادتهم . والشعراء بين هذا وذاك يسطرون ويسجلون ويصفون ، ويعبرون عن هذه المشاعر .

---

(١) ديوان ابن نباتة ص ٥٥١ .

(٢) ديوان ابن نباته ص ١٠٦ .

وقد جرى الحال على هذا المنوال فى العصر المملوكى ـ كما رأينا من قبل. وكان نهر النيل موضع الحب ومكان القداسة ومحل الحفاوة المستمرة، من الشعب وحكامه وشعرائه وأدبائه. وإذا وافى كتبت بأنباء وفائه البشارات النثرية، بقلم فنى بديع، يعبر عن أجمل المشاعر والأحاسيس وأنبل العواطف، نحو هذا النيل العظيم، وتقرأ فى الآفاق. وتصدر هذه البشارات من كتاب ديوان الإنشاء عادة. ونسج غيرهم من الكتاب على منوالهم.

وإذا لم يبلغ النيل حد الوفاء ـ فى ميعاد الوفاء المعتاد ـ ضجوا بالشكاية وأعلنوا بالخوف وخرجوا للاستسقاء..

وإذا زاد عن حد الوفاء وخشى الغرق وخيف التلف، فزعوا وارتاعوا ورجوا الله أن يهدىء من فورته ويطامن من ثورته..

هذه ظاهرة معتادة فى كل عام إما فيضان ووفاء وشكر، وإما نقص وجدب وغلاء وشكوى. وإما غرق وخوف. ولكل هذا صدى فى الشعر فى كل عام.

وهكذا ترى لديهم الشغل الشاغل عن النيل. ولم يقصر الشعراء، كما يقول بعض الأدباء [1]، فى إبداء شعورهم نحو النيل، والتعبير له عن مشاعر المصريين نحوه أو تصوير حبهم له. وكيف وهو مصدر اليمن والبركة لهم، ومنبع الخير والرزق. وعليه فى جملة الأمر مدار حياتهم وقوام معيشتهم.

ثم كيف وقد رأينا مظاهر الولوع فيما مر من الأبيات، مما نظمه الوداعى وابن نباته وابن فضل الله وغيرهم..

إنه لمن التعسف فى الحكم أن نستقرىء قليلا من النصوص الشعرية، فى موضوع خطير كهذا، ولا نستوعب. ثم نصدر الحكم بناء عليها فجا قاسيا لا إنصاف فيه ولا عدالة.

---

(١) راجع كتاب « النيل فى الأدب المصرى » لكاتبته الفاضلة الدكتورة نعمات أحمد فؤاد ص ١٤٨ وما بعدها.

كما أنه من التعسف فى الحكم أن نقف أمام نص من النصوص الشعرية ، فى الموضوع نفسه ، قد يكون حب الصناعة أملاه ، بل قل ، حب العبث فى الصناعة ، فنبرز ما فيه من العبث ، ونحكم بناء على هذا حكما نعطيه صفة العموم والشمول .

ونقول : « عبث وصناعة وافتعال » . ولا نلتفت بالا إلى ما وراء اللفظ ، وإلى ما يهدف إليه الشاعر .

لقد قال صلاح الدين الصفدى :

قالوا علا نيل مصر فى زيادته حتى لقد بلغ الأهرام حين طما
فقلت هذا عجيب فى بلادكم أن ابن ستة عشر يبلغ الهرما[1]

وكان النيل إذ ذاك . قد بلغ فيضانه حد الوفاء وهو ستة عشر ذراعاً . وقيل أنه فى ذلك الوقت ارتفع إلى الأهرام . فسجل الشاعر هـــذا الحادث ، وساق خلال تسجيله تعجبه من أن يصل الماء الأهرام ، وهو فى علو ستة عشر ذراعا فقط . إنه إذا زاد بعدها ، يخشى الغرق على البلاد حقاً ، وتعم الشكوى ويزيد الخوف . أما قبل ذلك فهذا حد الوفاء . فإذا كان قد وصل إلى الأهرام ، كان الأمر جديراً بالتعجب .

هذا هو الذى سجله الشاعر . وصب الشاعر حديثه بطريق التورية والمداعبة ، ولا ينكر ما فى ذلك من النزعة الأدبية . فإن الشعر ليس ديواناً للحقائق العلمية بمقدار أنه ديوان للتصورات الأدبية والأخيلة الجميلة المثيرة .

ومن الظلم أن نحاسب الشاعر هنا على توريته وما فيها من صناعة ، ونغفل ماعدا ذلك . ونتهمه بأنه أسير صناعته لا أسير النيل . وأنه فكر فى توفيتها حقها ، ولم يوف النيل حقه من الحديث عنه وإظهار الحب له .

إن الشاعر لم يشغله شاغل فى بيتيه غير النيل . والتورية زائدة فوق ما شغله .

---

(٢) حسن المحاضرة ج ٢ باب ذكر ما قيل فى النيل من الأشعار . ـ وبهجة الناظر ونزهة الخاطر للسيوطى ورقة ٨٣ .

لقد أراد أن يسجل زيادة النيل وبلوغه وهو فى ستة عشر ذراعا ، إلى الهرم ، وتعجبه من ذلك . فسجله عن طريق التورية . ويدهى أنه لم يرد أن يصوغ تورية، فرفع من أجلها النيل إلى الهرم . .

وغنى عن البيان أن اتجاه الشاعر إلى تسجيل هذه الظاهرة النيلية ، إنما هو مظهر لحبه للنيل وعنايته به واهتمامه بظواهره ، ويشعر هذا بارتباطه به عاطفيا .

وليس من الضرورى أن أصارح محبوبى فى كل لحظة وفى كل حديث ، بأننى « أحبه وأقدسه وأوثره . . الخ » فإنه ليكفيه منى فى هذا المجال أحياناً أن أسأل عن غيابه أو إيابه ، ورحيله أو وصوله ، أو صنف طعامه وشرابه ، أولون ردائه وثيابه . . وفى هذا مافيه من عاطفة جميلة ومشاعر نبيلة . يستشعرها المحبوب ، تنم عن حب أكيد وشوق جديد .

وعلى هذا نستطيع أن نتقبل بيتى مجير الدين بن تميم .

ما زالت أنذره عيونا حوله خوفا عليه أن يصاب فيعثرا
فأبى وزاد تماديا فى جريه حتى هوى من شاهق فتكسرا[1]

فقد رأى النهر متدافع التيار متمادى الجرى . فملأه الخوف عليه أن يعثر — والخوف أحد مظاهر الحب — ولكن النهر قد زاد تماديا . فلقيته العيون فى طريقه فأصابته فتكسر .

وهو وصف تصويرى عاطفى معا ، كانت الاستعارة والتورية بعض أدواته . ويبدو أن النهر كانت تعترضه حينذاك بعض العيون المقامة . ولعلها كانت على خلجانه . . ونستبعد أن يكون هذا فى نهر النيل . .

وتلحظ فى البيتين اتجاه الشاعر إلى التشخيص . وإلى تعقيل النهر وحسبانه حيا يخاطب ويحس ويفهم ويأبى ويتمادى ويصاب . — وسنعرض لبيتى ابن تميم فى سطور قريبة مرة أخرى .

---

(١) حسن المحاضرة ج ٢ باب ذكر الأنهار — وراجع النيل فى الأدب المصرى ص ١٨٩

ويذهب الخيال بأديب مصر الكبير، محيي الدين بن عبد الظاهر، فيسرح به فى مسارح الفتنة، ويثير فى نفسه ثائرة العجب، ويمضى به من معنى حسن إلى معنى حسن، حيث يتصل المعنيان ويتعاكسان. ويقلبان الشاعر بين الإحساس بالإعجاز وبالإعجاب، فيقول:

نيل مصر لمن تأمل مرأى ... حسنه معجز وبالحسن معجب
كم به شاب فودها وعجيب ... كيف شابت بالنيل والنيل يخضب(١)

والبيت الثانى غاية فى الدقة تصوراً وتصويراً، مع سهولة ألفاظه ووضوحها. لقد ذهب خيال الشاعر مع النيل. وهو يروى الأرض فيسقى الزرع وينمى النبات ويفتح الزهر، فيبدو أبيض مشرقا يملأ فود مصر بياضه. والنيل بمائه وبطينه ويكسو الأرض خضابا. وهكذا اجتمع اللونان فى خيال الشاعر: البياض والاحمرار. وهما معا من صنع النيل وفعل يديه، وهما مظهراً إخصابه. وذهب الخيال إلى اعتبار البياض شيباً، والاحمرار خضابا. واجتمع الاثنان. وصانعهما معا النيل، وهذا مثار العجب ومحل الإعجاب.. ولعل الشاعر فى قوله «والنيل يخضب» يورى بلفظ «النيل» ويقصد الصبغ. وفى البيتين يبدو الارتباط الوثيق بين حياة مصر وبين النيل، بهذا التأثير والتأثر.

ورأى الشاعر شمس الدين بن دانيال الموصلى إقبال النيل راويا فى تدفقه حديثا عذبا مسلسلا. فعلل ذلك تعليلا لطيفا، هو سنحة من سنحات الخيال ورقيق التصور. مزج فيه مزجا جميلا بين معانى الرى والكرم، كما مزج بين معانى الرى والرواية.

لقد رأى النيل فى أرضه شقيقه، فأكرمه بأن ضمخها له بمائه المصندل. والمناسبة واضحة بين التضميخ ولون الشقيق، والشقيق يسقى من هذا الماء.

---

(١) حسن المحاضرة ج ٢ باب ذكر ما قيل فى النيل من الأشعار.

فى كل ذلك أوصاف وصناعة ، ولا ريب . ولكنها متجهة إلى إبراز محاسن النهر وكشف مفاتنه ووجوه إبداعه وجمال صنعه .

يقول الشاعر :

كأنما النيل الخضم إذ بدا يروى حديثا وهو ذو تسلسل
لما رأى الأرض بها شقيقه ضمخها بمائه المصندل(١)

ويتحدث ناصر الدين بن النقيب عن النيل . وكأنما هو إنسان ذو دراية وإرادة . وله عناية بضبط أوقاته وله رأيه فى ذهابه وإيابه . وفى فهمه وتقديره لمواعيد حاجة الناس إليه .

ويقول :

كأن النيل ذو فهم ولب لما يبدو لعين الناس منه
فيأتى عند حاجتهم إليه ويمضى حين يستغنون عنه(٢)

ولا أدرى بالضبط ، متى كان الناس يستغنون عن ماء النيل ، فى ذلك الزمان. لعل ناصر الدين بن النقيب - وهو لاريب شاعر فطن - يرى أن ذلك وقت التحاريق . وهو وقت ، فى زمانه ، لم يكن الناس يزرعون الأرض فيه . أو لم يكن الزراع فى حاجة ماسة إلى مائه لسقيها ، إذ كان الرى رى حياض .

وبدهى أن الشاعر يقصد بمجىء النيل ومضيه ، فيضانه وتحاريقه .

وأعتقد أن لو عاش ابن النقيب إلى زماننا ، لغير رأيه . بعد أن انتشر الرى المستديم ، وأقيمت على النيل مشروعات خزن المياه ، وتقسيم السنة إلى دورات زراعية بحيث لاتخلو أرض من زرعة أو من تمهيد لها ، وأصبحت الأرض لاتستغنى عن الماء طول العام .

---

(١) حسن المحاضر ج ٢ باب ماقيل فى النيل من الأشعار .
(٢) المصدر نفسه .

ويتحدث إيدمر التركى عن سحر النيل وكيمياءه ، ويبين كيف استطاع أن يحيل لجين تربته ذهباً . ثم وقف راقصاً مبتهجاً بما أشاع من حسن ، وما نشر من جمال . وطفق يغنى ومغانى مصر تسمعه ، ونسمة الريح ترقص الأغصان على أنغامه وأناشيده .

يقول الشاعر :

كيمياء النيل خالصة قد أتتنا منه بالعجب
كان من ذوب اللجين فقد عاد بالتدبير من ذهب
راقص بالحسن مبتهج فهو فى عجب وفى طرب
ومغانى مصر تسمعه نغمة الشادى بلا صخب
ونسيم الريح لاعبه فى خلال الروض بالقضب(١)

وهكذا ألف الشاعر فى أبياته الثلاثة الأخيرة حفلا بهيجا فيه الراقص والمغنى والسامع اللاعب بالقضب . .

ويتناول الشاعر نفسه ، منظر النيل وجداوله المنسابة منه ، وهو مقبل سعيد ، وماؤه يتدفق فى جداوله رقراقاً مثل السلسل ، فيأتلق الحسن بذلك ويشرق . وتكثر ألوان الجمال ما بين مورد ومصندل . وينطلق ماؤه فى قيد الرياح . فياله من مطلق مسلسل . . .

ويتجه الشاعر إلى زوارق النيل ، فيراها جميلة المرأى وهى تتحرك على رقاب الأمواج تسعى بها كما تسعى حيات لينة لدنة ركبتها عقارب . . والأسماك من تحتها فضة مما جمد من ذائب مائه .

يقول الشاعر :

انظر إلى النيل السعيد المقبل والماء فى أنهاره كالسلسل
أضحى يريك الحسن بين مورد من لونه حينا وبين مصندل

(١) حسن المحاضرة ج٢ باب ما قيل فى النيل من الأشعار — وكوكب الروضة ص ١٤٨ .

ويمر فى قيـــد الرياح مسلسلا يا حسنه من مطلق ومسلسل
وترى زوارقه على أمواجـه منسوبة للنـــاظر المتأمل
مثل العقارب فوق حيات غدت يسعى بهـا فى عدوها ما يأتلى
وكأنمـا أسمـاكه من فضة من جمد ذائب مائه من أول(١)

وبين سعادة النيل وإقباله ، ومائه المسلسل المورد المصندل . والزوارق الجميلة ، التى هى موضع النظر والتأمل ، والأسماك الفضية . شذ الشاعر بذكر العقارب والحيات(٢) ، وإن كان التشبيه بهما محبوكا .

وبرهان الدين القيراطى تحلوله موارد النيل ومصادره ، ويدعو ألا يبعد عنه شاطئه ، ويفضله على أنهار الشام ، ويرى له شيما وأخلاقاً حسنة محمودة لاتفاضله فيها الأنهار الأخرى .

ويشبب الشاعر بمن حول النيل من الملاح الحسان ، وما ينبت حوله من غصون بان . . .

يقول الشاعر :

خليلى بحر النيل لا شط شطه مواردە تحلو لنـــا والمصادر
فدع عنك أنهار الشآم ولا تكن لكوثره بالنزر منها تكاثر
له شيم فى الحسن ظاهرة علت تدور على الأنهار منها الدوائر
بجانبه تمسى الملاح كأنها بساتين فيهـــا للعيون مناظر
فكم غصن بان فيه للعين نرجس وللخد ورد عاطر الزهر ناضر(٣)

وإذا زاد بحر النيل ، رأى فيـه البرهان القيراطى عجائب وحسنا وفضلا لا يخفى عن ذوى الفضل ، إذ يصبح ماؤه سكر المذاق وتلعب أمواجه وتتراقص ،

---

(١) حسن المحاضرة ج ٢ باب ما قيل فى النيل .
(٢) كما تقول الدكتورة نعمات أحمد فؤاد ـ راجع كتابها «النيل فى الأدب المصرى» ص ١٨١ .
(٣) ديوان القيراطى ورقة رقم ١١٦ .

وتدور من فوقها الجوارى . . وتجبر القلوب بكسر سد خليجه . .

يقول القيراطى :

إذا زاد بحر النيل زاد عجائبا ... وحسنا وفضلا ما اختفى عن ذوى الفضل
حلا منه ماء سكرى مذاقه ... بإجماع أهل الذوق والعقد والحل
يروق لإخوان الصفاء مكرراً ... فأكداره عين الصفاء لمستحلى
وكم لعبت أمواجه وتراقصت ... ودارت به تلك الجوارى على رجل
وجبر قلوب الناس فى كسره كما ... بمقياسه قد جاز مقياس ذى العقل (١)

وجبر قلوب الناس فى يوم كسر السد ، حقيقة لا مجاز ، وواقع لا صنعة فيه ، وإن بدا طباقا ، وطباق ذاكرة — كما يسميه الدكتور شوقى ضيف(٢) — وذلك لأن فى يوم كسر السد تقام الحفلات وتوزع الصدقات ، وتروج الأسواق للبيع والشراء . هذا فضلا عن أنه يرمز إلى وفاء النيل ، وبوفاء النيل يستحق الخراج . وهو إيذان بسقى الأرض وتسجيل لإنجابها بالحصاد والثمر . وفى كل هذا جبر لقلوب الناس . . .

وحقيقة استغل الشعراء لفظى «الجبر والكسر» فى كثير من الأبيات التى تحدثوا فيها عن خليج النيل وسده . وساقوا المطابقة بينهما فيها . . وتلك بركة من بركات النيل ، وجانب من الثراء الذى يهبه . وليس الثراء اللفظى أو المعنوى ، وإعطاء القدرة على التصرف فيه ، شيئا قليلا . . على رغم المكابرين . .

وكما استغلوا هذين اللفظين ، استغلوا ألفاظ: «الوفاء . والزيادة . والماء الحلو . والماء السكرى . والكمال . » وغيرها من ملابسات النيل .

والبرهان القيراطى أحد هؤلاء الشعراء . وفى جملة شعره عذوبة ورقة ، ومعنى وجمال تصوير وعمق شعور معا .

---

(١) ديوان القيراطى ورقة رقم ٩٩ .

(٢) راجع الفن ومذهبه فى الشعر العربى عند كلامه عن أبى تمام .

وقد زاد النيل فى عام ، فعبر عن الزيادة «بالسمو» . واعتبر جرى مائه فوق الحصباء والجنادل مددا لفخارها على النجوم والشهب . ويقول فى ذلك :

سما نيل مصر كل بحر وجدول فأبحرها تعنو له والجداول
جرى فوق حصباء الجنادل فاعتلت وفاخرت الشهب الحصى والجنادل(١)

ولعب بلفظى « الوفاء والكسر » فقال :

جفنى وجفن الحب قد أحرزا وصفين من نيلك يا مصر
جفنى له يوم الوداع الوفا وجفنه الساجى له الكسر(٢)

واستعمل « الكمال والزيادة » فنسبهما إليه مع «الفضل» . كما نسب إلى تياره الأوصاف والشيم الطاهرة . . قال :

لنيل مصر كمال فى زيادته وفضله غير مخفى ومكتتم
إذا بدت لك من تياره شيم رأيته طاهر الأوصاف والشيم(٣)

و « حلا » نيل مصر فى ذوقه فكان « سكراً » أغنى النديم عن « السكر » . لذلك يطلب إليك « تكراره » . هكذا بلغ ماء النيل لدى البرهان القيراطى ، فى حلاوته ، مبلغ الخمر ، بل فاقها لأنه يغنى عنها ، ولا يشعر النديم معه بحاجة إليها . يقول القيراطى :

حلا نيل مصر فهو فى الذوق سكر وأمداحه فى كثرة عدد القطر
فكرر على سمعى أحاديث وصفه فسكرها يغنى النديم عن السكر(٤)

وتبارى الشعراء وتسابقوا ، فى وصف كسر الخليج وبيان فضله وذكر ميعاده ، وما يتصل بذلك أيام فيضان النيل .

---

(١) ديوان القيراطى ورقه رقم ١٠٩ .

(٢ ، ٣ ، ٤) ديوان القيراطى ورقة رقم ١١٨ .

وذكروا المقياس وورروا بأذرعه وأصابعه ، وشيبوا به وبمنازهه ، وسجلوا له أياما من أيامه ولياليه .

ويقول إياس بن عبد الله الذهبي — المولود عام ٦٨٧ هـ ، فى كسر الخليج :

كسر الخليج وكان ذلك نعمة سرت قلوب المسلمين بسره
ومن العجائب والغرائب أنه جبرت قلوب المسلمين بكسره[١]

ومثله قول الشاعر شمس الدين بن المشد :

لله در الخليج إن له تفضلا لا نزال نشكره
حسبك منه بأن عادته يجبر من لا يزال يكسره[٢]

ويذكر ابن إياس الحنفى المؤرخ ، وفاء النيل وكسر خليجه وجبر القلوب به ، ويورى فيها وفى غيرها ما شاءت له صناعته ، قال :

يا نيل مصر كم يد لك بالوفا أوليتنا بالكسر جبرا دائماً
قد زدت قبل الكسر خمس أصابع كرما فكانت للوفاء خواتما[٣]

وينتزع تقى الدين بن حجة الحموى توريته من ملابسات النيل . فيقول وهو يمدح الملك المؤيد شيخا يوم كسر الخليج — وكان قد بلغه أن الأمير نوروز الحافظى ثار فى وجهه ببلاد الشام ، ووصل إلى غزة محاربا — ويتنبأ ابن حجة بهزيمة نوروز ، فتتحقق نبوءته :

أيا ملكا بالله صار مؤيدا ومنتصبا فى ملكه نصب تميز
كسرت بمسرى نيل مصر وتنقضى وحقك بعد الكسر أيام نيروز[٤]

والنيروز عيد يعقب يوم الكسر . وقد قتل نوروز الحافظى بعد قليل .

---

(١) الدرر الكامنة ج ١ رقم ١٠٩٦ .
(٢) الدرر الكامنة ج ٣ رقم ١١٦٨ .
(٣) بدائع الزهور ج ٤ حوادث عام ٩١٥ هـ
(٤) تأهيل الغريب باب بقية المدائح .

وللشهاب المنصورى دفقة شعورية عميقة ترجمها شعرا ، طاف به وبأبياته حول النيل فى عيد وفائه ، حتى أودعها مرائيه ومشاهده .

لقد حمد الله فى أول أبياته على وفاء النيل ، واعتبر ذلك وفاء من محبوب ، ووفاء المحبوب مأمول . ونعى فى آخر أبياته على من يرغب عن نيل مصر ، واعتبره غافلا ، وعالنه بأن قلبه مجبول على حب هذا النيل .

وما بين البيتين صور وأخيلة ، من صور النيل ومشاهده الجميلة ذات الحسن وذات النعمة . وبذلك كله صارت أبيات هـذا الشاعر تسبيحا نبيلا ودعاء لله وصلاة ، فى يوم الوفاء .

ولقد تابعت عين هذا الشاعر الوصاف ، جواد النيل فى جريه ورأى زبد الأمواج يحجل سيقانه . والنيل لا يسعى إلا إلى الخير ونشر الخصب . ورأى حبيبه طافيا ينثره ، فكأنه منهل للراح . ونسيم الصبا يباكره فى الصباح فيجعد صفحته فتبدو كاللأمة . والريح تسل أمواج النهر صوارم تقتل محل الأرض . والسفن على سطحه جوار غادية مزدانة ، تزورك وتصلك وتهب لك ما تشتهى دون عسر ولا ممانعة ، فإزارها قبل أن تلقاك محلول . ! فما أطوعها . !

ويأبى خيال الشاعر البارع وإحساسه العميق إلا أن يقيم من الأمواج والشط وخرير الماء والروضة والأغصان والزهر وأوراق الدوح وعناقيدها وغيرها ، حفلا ، أو قل عرسا مكتملا تغشيه الفرحة ويحدوه السرور .

فالشط دف والأمواج تلعب به ، والخرير يغنى باطراد ، وجزيرة الروضة غانية حسناء شغل النيل قلبها ، والأغصان تميس وترقص وتشرب من الماء فيحلو ريقها . وقد لبست من حلل الزهر الخضر ما لبست ، ووضعت على سورها الأكاليل ، وامتدت أوراق الدوح خياما مظللة ، ولاحت العناقيد كالقناديل . وتدلت العثاكيل قلائد من الياقوت تحلى بها النخيل . . إلى آخر ما صور .

إن هذا الفرح الشامل ، والحفل الملتئم ، إنما شمل نفس الشاعر والتأم معها . جال فى خاطره ونما فى خياله ، واتسعت له نفسه . ثم فاض على لسانه معبرا عما وعاه فى حسه الباطن من فرح بالنيل واحتفال بوفائه .

قال الشهاب المنصورى :

الحمد لله أوفى وعـــده النيل ... إن الوفاء من المحبوب مأمول
جرى جـوادا فمن داراته غرر ... له ومن زبد الأمواج تحجيل
ينظم الحبب الطـافى وينـثره ... كأنه منهل بالراح معلول « معلول » « مع لولو »
كأنه والصبـا صبحـا تجعـده ... من نسج داود فى الهيجا سراويل
كأن أمواجه والريح تنشرهـا ... صوارم بظباهـا المحـل مقتول
كأنمـا السفن غادات جـرين به ... لهـا المراسى شنوف أو مراسيل
من كل جارية كالخـود زائرة ... إزارها قبـل أن تلقاك محـلول
كـأنمـا الشط والأمواج تلطمه ... دف لها وخرير المـاء موصول
كـأنمـا الروضـة الغناء غانيـة ... بحسنها قلب هـذا النيـل مشغول
أغصانها من غصون الدوح مائسة ... وريقها من زلال المـاء معسول
من سندس الزهر الزاهى لها حلل ... خضر ومن سورها العالى أكاليل
ومدت الدوح من أوراقها خيما ... ومن عنا قيدها لاحت قنـاديل
وللنخيل إذا ماست قلائد من ... حمر اليواقيت حاكتهـا العثاكيل
لا غرو أن سحرت عينى وخيل لى ... بأنهـــا ذهب وهى المشاتيل
يا من له رغبة عن نيل مصر أفق ... قلبى على حب هذا النيل مجبول[1]

وبدر الدين البشتكى يذهب هذا المذهب فى حب مصر وعشق نيلها ، واحتفال

---

(١) كوكب الروضة للسيوطى ورقة رقم ١٤ ـ والشنف : بفتح الشين القرط الأعلى ، أو معلاق فى قوف الأذن ، والقوف أعلى الأذن أو مستدار سمها .

نفسه بوفائه ، وابتهاج خاطره بما يصاحب الوفاء من مظاهر الحياة والنشاط .

وهو على حبه لمصر وكرامتها عنده إلى درجة يهون معها على نفسه أن تهون دونها ، وتبقى لها هى قداستها وكرامتها ، يتأبى قليلا على هواها ، ويتردد دون الإقامة فيها . . . فلعل هناك من أمور الحياة ما كان يشق عليه ، ويدفعه حينذاك إلى هذا التأبى والتردد . ولقد ذكر أنه « رأى ربيع العيش فيها محرما » ، وأن النيل « إذا ماطمى ازداد الفتى ظمأ » . . أعتقد أن هذه رموز إلى ما كان يشق عليه حينذاك ويشقيه ، من ضيق عيش أو تنكر حياة ، أو جحود صديق ، أو نحو ذلك من أكدار الحياة .

على أن الشاعر ما لبث أن عاد الصفاء إلى نفسه ، وعاد الحب طاغيا على إحساسه ، وشاع الفرح والرضا على مشاعره ، فنضح هذا كله على أبياته هذه التى تضمنتها إحدى مدائحه للقاضى برهان الدين بن جماعة يقول :

خليلى من مصر أشيرا على فتى ... يهون عليه أن يهون وتكرما
أأرحل عنها أم أقيم فإننى ... رأيت ربيع العيش فيها محرما
نعم وأنال النيل فى مصر إنه ... إذا ماطمى يزداد فيها الفتى ظما
على أننى أهوى هواه وناظرى ... إذا ما جفاها أنجم الدمع أنجما
فذلك أيام الوفاء بروضة ... وشملى على منثورها قد تنظما
إذا المشتهى المعشوق جاد بمنتهى ... مرامى وبالمقياس همى تقسما
وكم من حسود سره سوء حالتى ... فلما رآنى فى البريم تبرما
كأن الغصون المائسات رواقص ... شربن مداما حل ثم محرما(١)

والشاعر يتحدث فى أبياته عن جزيرة الروضة وعن بعض منازه مصر بها ، وهى المشتهى والمعشوق . كما سنشير إليه بعد .

---

(١) كوكب الروضة للجلال السيوطى ص ١٦ .

وعلى نمط من هذا الشاعر ، يمدح شهاب الدين بن حجلة المغربى الأمير يلبغا العمرى يوم كسره الخليج . وما يلبث وهو فى غمرة المدح ، حتى ينساب إلى النيل، فيعمر بذكره و بأوصافه ونعت مشاهده ، عددا من أبياته .

وهى من قصيدته التى مطلعها يذكر فيه حبيبه ويقول :

أتانى من نحو الحبيب بشير فكدت إليه بالسرور أطير
حييت إذا ما لاح دينار خده فإنى إليه ما حييت فقير

وهو مستهل بارع ، كما ترى ، لمناسبته لموضوع القصيدة ، ولأنه يحدث بوضوح عن نوع العاطفة التى دفعت الشاعر إلى النظم ، وهى العاطفة التى صاحبته فى جميع أبياته . وتلك دليل صدق شعوره .

فالشاعر أتاه بشير من قبل حبيبه . ولا بد أنه بشره بوصوله أو بوصاله ، فكاد من أجل ذلك يطير سرورا . وبين المعانى ، وبين وفاء النيل ، مناسبة واضحة .

وبعد أبيات من هذا النمط . انتقل الشاعر إلى ذكر النيل والتشبيب به . واندفع به شغفه إلى التحليق بخياله والطواف بمصورته ، ليجمع من زوايا خاطره ما استطاع من محاسن النيل ومفاتنه .

لقد رأى قلاع الزوارق البيضاء رايات عليه معلنة بالوفاء . ورآه حصنا لمصر حصنها فى علا سعدها ، وبه دارت سواقى مصر فى كل روضة تفتل الجدب وتثير الخصب . وطير الماء يبشر فتعم الفرحة ، وحباب مائه كأنه كواكب تضيء. وكأن ماءه يزحف بكتائب وعسكر جرار . وشقيق الروض حول إقاحه خدود وثغور ، وقدود الغيد فى روضه غصون فوقها بدور . . الخ

بهذا النغم المشحون بالمحبة ، الملىء بالتقدير ، يسوق ابن أبى حجلة أبياته . فيقول :

أرى الراية البيضا على النيل بالوفاء إذا لاح لى قلع عليه كبير

وحصن مصرا فى على السعد عندما غدا وله حول المنازل سور
وبات به محل البلاد مفرقا وبات لميت القلع فيه نشور
ودارت سواقى مصر فى كل روضة على مثلها كان الخصيب يدور
وبشرطير الماء فيه غرابه فكاد بأرياش القلاع يطير
نعم طار فوق الماء وهو محلق وعم البرايا فرحة وسرور

ومنها :

كأن حباب الماء فيه كواكب تضىء فتبدو تارة وتغور
كأن لزحف الماء فيه كتائب لعسكرها الجرار فيه عبور
كأن شقيق الروض حول أقاحه خدود على وجه الربا وثغور
كأن قدود الغيد فى الروض حوله غصون ومن فوق الغصون بدور[1]

ومدح ابن أبى حجلة أيضا خليفة عصره أمير المؤمنين المعتضد بالله أبا الفتح أبا بكر ، عام ٧٦٢ هـ ، فانساب أيضا الانسيابة نفسها ، إلى النيل ، ووثب بخياله إلى صوره الجميلة ، الوثبة نفسها .

فيراه إذا ما بدا الخليفة وماؤه كدر . صفا به عين البرية وشنف سمع الأرض بالقرط ، وحلى جيد الروض بالزهر ، فباح نمامه بطيبه . وجلا خد الشقيق بحمرته . ويرى له تكرما ، وهو فى أرض الكرم ، فيسقى أشجارها ويواليها ... الخ .

يقول ابن أبى حجلة عن النيل ومصر ، ويورى ببعض ألفاظه :

إذا ما بدا والماء فيها مكدر رأينا به عيش البرية صافيا
يشنف سمع الأرض بالقرط دائما ويترك جيد الروض بالزهر حاليا
يذكرنى رشف الثغور أقاحها ولم أك ناسيها ولا متناسيا
فكم روضة نمامها عرف طيبه إذا ما أمنا عدله بات واشيا

---

(١) كوكب الروضة ص ٨٧ .

بفم على خد الشقيق إذا غدا بروضته الفيحاء بالحال جاليا
فللنيل فى أرض الكروم تكرم يروى بها أشجارها والدواليا .. الخ[١]

.....

ومما يدلك على أن النيل كان شغلا شاغلا لشعراء مصر - وإذا نحن لم نستثن منهم واحد فى هذا المقام لا نكون مبالغين - أن أحدهم وهو الأديب بدر الدين ابن الحاجب نظم فيه مجموعة من الأشعار مستقلة ، سماها « مقطعات النيل » .

قال الجلال السيوطى : « إن بدر الدين هذا ، نظم مقطعات النيل وأفردها فى ديوانه فى جزء منه سماه بهذا الاسم . » . وهى مقطعات كثيرة العدد تدور حول وصف النهر وبيان محاسنه ووصف مائه ورياضه ومقياسه ووفائه ، إلى غير ذلك . وقد سجلها السيوطى — أوسجل بعضها — فى كتابه « كوكب الروضة » .

ومن هذه المقطعات قوله :

قد فاح للرياض نشر عطر أطيب من روائح الشباب
وكيف لا والنيل يسقى دوحه من مائه المصندل المذاب[٢]

ومنها قوله :

فى النيل طين ومسك ثناؤه خير عطر
فاعجب له حين وافى ممسكا وهو يجرى[٣]

ومنها :

محاسن بحر النيل لم تحص عدة فقد طاب مسموع لهن ومنظور

---

(١) المصدر نفسه ص ١٦١ ، ١٦٢ — وقوله . بدا ، يريد الخليفة المعتضد بالله العباسى ، إذ أن الأبيات قيل فى مدحه . ورأينا به أى بالنيل . — ويشنف : يضع الشنف أى القرط — أو يسمع الألحان .

(٢) (٣) كوكب الروضة ص ١٥٤ .

تخلق بالوصف الجميل على المدى وزاد على حسن الوفا وهو مكسور[١]

ويضج الناس ويحأرون بالشكاية كما نوهنا ـ إذا لم يصل ماء الفيضان إلى حد الوفاء — وهو ستة عشر ذراعا ـ إذ أنهم فى عامهم ، يتوقعون الجدب فالقحط فالغلاء فالجوع والخوف ، فالأدواء والأوباء والمنية .

وكان الشعراء لسانهم فى إعلان هذه الشكاية ، وفى وصف ما يعانونه من مضاعفات عدم الوفاء .

وشكوى الشعراء فى هذا الباب أوثق صلة بالفصل الرابع الآتى الذى نحدثك فيه عن أثر البيئة الاجتماعية ، فلنرجئها إلى حينها .

على أن نشير فى وجازة إلى شىء منها لمناسبة حديثنا عن نهر النيل . فلقد بلغ ارتفاع فيضانه فى عام ٦٩٣ هـ إلى خمسة عشر ذراعا وثلث . فغلت الأسعار وتضاعفت نتائج هذا الغلاء .

وقد قال شهاب الدين البزاغى فى ذلك قصيدة طويلة سنشير إليها فى الفصل الرابع المذكور . وهى التى قال فى أوائلها :

ولما غاض بحر النيل فاضت دموع من محاجرهم سجام
ومد به من الأموات سيل لنقص عبابه من تمام . . الخ[٢]

وفى عام ٧٠٩ هـ توقف النيل عن الوفاء أيضا وارتفعت أصوات الشكاية . وقد نظم الشهاب محمود الحلبى الأديب الكاتب الشاعر أبياتا طلية تمثل وجهة من وجهات الشعب ، ووصف فيها بعض أحواله حينذاك وما يعانيه ، ونعود إلى ذكرها أيضا فى الفصل الرابع .

وننوه هنا بالوجهة التى اتجهها الشاعر ، وهى مخاطبة النيل وسؤاله عن جريانه

---

(١) المصدر نفسه ص ١٥٥ .
(٢) كوكب الروضة للسيوطى ١١٣ .

ووفائه . أبأمر من ربه يجرى و بنى ، أم بأمر من عند نفسه . فإذا كانت الأولى فليجر وليف . وإذا كانت الثانية فلا داعى للجرى ولا للوفاء ، والله كفيل بأن يبسط بره فى البلاد . كما بسطه فى بلاد غيرها ، لا يجرى النيل فيها .

يقول الشاعر :

يأيها النيل المبارك إن تكن من عند ربك تجر فاجر بأمره
أو إن تكن من عند نفسك آتيا فالله يبسط بره فى بره
كم من بلاد لست تعرف أرضها ملأ الإله بيوتها من بره .. الخ (١)

وهذه عقيدة إسلامية سليمة . وقد وضع دستورها العالى أمير المؤمنين عمر ابن الخطاب ، فى كتاب كتبه إلى النيل — على ماروى — فى حالة مماثلة ، وقال له هذا القول .

وفى عام ٨٥٤ هـ لم يف النيل ، فشرقت الأرض ووقع الغلاء . وقد نظم فى ذلك الأديب الشاعر شمس الدين النواجى ، أكثر من مقطوعة أو قصيدة .

ومن ذلك قصيدته التى أولها :

لرب العلى نشكو أذى القحط والغلا وما مسنا فيه من الضر والبلا(٢)

وسنعود إلى هذه القصيدة فى الفصل الرابع أيضا .

تسبيحة النو جى أو تغريدته :

وفى العام التالى وهو عام ٨٥٥ هـ وفى النيل كعادته ، فامتلأت القلوب بشرا ، والنفوس مسرة ، ورتلت المشاعر لشكر لله والحمد على آلائه وأنعمه .

وقد بدا ذلك على لسان الأديب الشاعر شمس الدين النواجى نفسه . فنظم

---

(١) كوكب الروضة للسيوطى ص ١١٩ ونسب الأبيات إلى الشيخ نور على سبط عمر بن الفارض . والأبيات مثبتة أيضا فى الدر الفاخر « للدوادارى ونسبها إلى الشهاب محمود الحلبى وهو مانرجحه . وفى البيت الأول جزم الفعل بلا جازم .

(١) كوكب الروضة ١٥٣ ص .

قصيدة فريدة فى مشاعرها مليئة بالعاطفة جياشه بالشكر والثناء، مزوحمة بمختلف الأوصاف للنيل . مما يحدونا إلى تسميتها بتسبيحة النواجى أو تغريدته أو ترنيمته، وهى خالصة لوجه النيل ، فى أكثر من خمسين بيتا .

لقد بدأ فحمد الله سبحانه وتعالى . وبين سبب ذلك هو أن الله تأذن للنيل فوافى ووفى . لأن فى وفائه الخير والبر والبركة ، وفيه الخصب والنماء ، وفيه الرخص والرخاء . — ومما يضاعف الحمد ويدعو إلى كثرة الثناء على الله تعالى أن هذا الوفاء جاء عقب انقضاء العام المنصرم ، عام ٨٥٤ هـ ، الذى عانت البلاد من جرائه ما عانت. فأذهب الله عنها العناء وبل غلة قلبها بهذاء الوفاء . يقول .

الحمد لله وافى نيلنا ووفى وبل غلة قلب كان قد نشفا

وها هو ذا ماء الحياة يعود منهمرا إلى الزرع ، جاريا فى مجاريه ، فياضا بأياديه. وهو بها كلف وإليها دنف ، فيحيي موات الزرع على جانبيها ، ويعيد الحياة على ضفتيها ، ويجتث المحل ويقطع الجدب ويزيل السقام وينشر البرء والشفاء . . يقول :

وعاد ماء حياة الزرع منهمرا إلى مجاريه فياضا بها كلفا
نعم جرى الماء فى عود الحياة ودب البرء فى السقم ممزوجا بكل شفا

هذا النهر الكريم الطيب عنصره ، الرضى خبره ومخبره ، اللذيذ ريه ومرتشفه، إنما يهمى ينبوع كوثره من الجنان ، وما أولى من الجنان أن يكون مصدره ، وجوهرها يحدث عنه جوهره . يقول :

من الجنان هما ينبوع كوثره يا طيب عنصره ريا ومرتشفا
جرى على أجمل العادات منبسطا ولا توقف يوما لا ولا وقفا

وفى البيت الثانى يقظة عاطفية فذة نبيلة . لقد سجل الشاعر أن النيل جرى على أجمل عاداته ، وأنه لم يتوقف . والعبارة فى قوله: «ولا توقف يوما» تحتمل العموم . وهو الاحتمال الذى نفسرها به . والمعنى أن النيل لم يتوقف قط لا فى هذا العام ولا أى

عام آخر . لقد تناسى الشاعر ـ أو نسى نفسه ـ فى نشوة الوفاء ، أن النيل لم يف فى العام الماضى ، وأنه قال فى ذلك شعرا . وهكذا غفرت المحبة الذنب للمحبوب ونسيت ماله من ذنوب . . . (١)

ويمثل النيل فى خيال الشاعر ، ملكا ، إنما جاء ووافى لينظر فى أمر رعيته ، وليكشف عنها الضر ، ويدبر لها الخير .

كأنه ملك وافى لينظر فى أمر الرعية إن ضرا رأى كشفا

وقد استعد لمقاتلة الجدب ودفع الضر كفلاح الغلاء . فلبس جوشنا مزردا حاكته له كف الصبا ، وساق من خلفه جيشا عظيما لجبا من أمواجه ، زحف به على جيش الغلاء . وطاف به البلاد وجاب الأرض وهو يقتفى أثر الغلاء فى كل مكان ، لكى يمحوه ولكى يصلح ما أتلفه . وكأنما هو يتحرى المواقع التى تحتاج إلى سقى فيسقيها ، والمعاهد التى تشرئب إلى الرى فيرويها . يقول :

حاكت لجوشنه كف الصبا زردا بجيش موج على جيش الغلا زحفا
طاف البلاد وجاب الأرض مقتفيا آثاره يتلافى منه ما تلفا
كأنما يتحرى فى تعهده مواقع السقى أنى سار أو عكفا

والأدلة على تحريه مواقع السقى ، ما تراه بصعيد مصر ، فكم به من منية يممها ، وما تراه به من فلك جوار عليه فى أسنى مطالعها . وما تراه من بحر يوسف الذى أبدى أحسن منظر ، وما تراه بحلوان لما أهدى إليها حلاوته ، فجذبت إليها أهل الشوق إلى اللقاء ، والمدنفين . يقول :

كم منية من صعيد الأرض يممها بالمسح من وجهها القبلى ما انكشفا
باهى بها الفلك فى أسنى مطالعها جواريا ذات ألواح تلت صحفا
وبحر يوسف أبدى حسن منظره بالصب فى ألف يوم قد صفا وصفا
ومنذ أهدى بحلوان حلاوته راقت ببال مشوق للقا دنفا

(١) لشمس الدين النواجى قصيدة لامية فى شكوى الجدب والغلاء بسبب نقصان النيل عام ٨٥٤ هـ ، راجع كوكب الروضة للسيوطى ص ١٣٥ — وأشرنا إليها قبل سطور .

واستمر الشاعر واستمرت عاطفته وخياله فى إبراز هذه المحاسن والصفات التى اتسم بها هذا النيل الوافى الجرىء الذى ماشاب مفرقه هرم ، ولا رجف قلبه من هول . وجاء ركضا وسيم الوجه رئيفا شافيا منحدرا من أعلى الصعيد ، يقذف إلى الورى أرزاقها، حتى ضرب الفسطاط وانعطف حول المقياس ، فدقت البشائر فى مصر بقدومه ، وأشير إليه بالأصابع بل بفيض فضل أياديه . . . يقول الشاعر :

ما شاب مفرقه الميمون من هرم ولا أبو الهول منه قلبه رجفا
بل جاء ركضا وسيم الوجه يسبح فى تياره وعلى التكرور كم رأفا
قد زيد فى حرثه فانساب منطلقا فدانه وسقى ماء الحيا وشفا
وافى بمفرده من قوص منحدرا فى كلة وبأرزاق الورى قذفا
مخلقا لعمود الصبح قد ضرب الفسطاط حين رأى المقياس وانعطفا
دقت بشائره فى مصر وانتشرت راياته بقلوع آذنت بوفا
وافى يشار إليه بالأصابع بل بفيض فضل أياد عهدها سلفا
أرخى على الناس ستر العدل فانتشروا فى روضة من شذاها أصبحت أنفا(١)

وامتدت مياه النيل ودارت حول سوق الأشجار ، فطوقتها خلاخيل ، وغذتها فبدا عليها من طلعها تحف من القلائد . والنبت كان فى وحشة إليه ، والأرض تحلت بحلل من أياديه ، ولبست شنفا من قرطه . وأصبحت الأرض بسعة مياهه فيها وانتشارها على سطحها تحكى السماء . بينما أصبحت السماء نفسها تحكيه ـ تحكى ماءه بانتشاره فوق سطح الأرض ـ بما بها من أنجم وبروج . . . فكلاهما جرت فيه الأفلاك . وكأنما النيل مرآة مصقولة جليت بالصقل وصفت كما صفا . يقول الشاعر :

---

(١) الفدان الثور أو الثوران يقرن بينهما للحرث . ـ والكلة بكسر أوله ، الكلال والإعياء . والستر الرقيق ، وغطاء رقيق يتوقى به من البعوض .

صيغت خلاخيل الأشجار منه ومن قلائد الطلع حلى جيدها تحفا
واستوحش النبت حتى الأرض فى حلل تجلى ومن قرطه قد ألبست شنفا
تحكى السماء وتحكيه حلى وغلى وأنجما وبروجا كم حوت شرفا
كلاهما جرت الأفلاك فيه وقد حفت بحافته الأملاك فائتلفا
كأنما هو مرآة لها جليت بالصقل أوهى مرآة صفت وصفا

واستمر الشاعر فى تغريدته أو ترنيمته يحدث عن النيل وفضله ، وعن مائه وكرمه ، وعن جماله ومشاهده . فى أبيات على نمط مما أوردناه من هذه القصيدة الفريدة : حتى رآه قد رق طبعا حتى إنه ليؤثر فى الحجر :

قد رق طبعا فما أحلى زوائده فى الذوق لو مر فى قلب الصفا لطفا

ولا يقيس به ابن ماء السماء ولا ابن زائدة ، ولا أبا دلف ، أولئك الذين عرفوا بالجود واشتهروا بالسماح ، بل هم قطرة منه :

فما ابن ماء سماء وابن زائدة وقاتل المحل جودا أو أبو دلفا
إلا كقطرة ماء منه قد قطرت بل كلهم من ندى راحاته اغترفا

وتأسر الشاعر عقيدته الإسلامية مرة أخرى ، فيرى أنه لو لم يكن للنيل من مفخرة إلا أنه جرى ليروى آثار النبي لكفاه بذلك فخراً . . . وهكذا تتدخل العقيدة فتوجه الشاعر نحو مايريده من التورية اللطيفة المداعبة فى لفظ « آثار النبي » فإن الشاعر — ولا ريب — يقصد به المكان المعروف جهة الفسطاط . . وإلا فما هى آثار النبي التى يرويها النيل ؟

يقول الشاعر :

لو لم يكن فى سراه من أقاصى أسوان وقوص إلى أن عاد وانصرفا
إلا ليروى آثار النبي ومن روى الورى بغوادى كفه لكفى

واستمر الشاعر فى ملابسات لفظه هذا ، فقال مرفها عن عاطفته الدينية ومشبعا لها :

محمد صاحب الحوض الروى إذا ما جاءه الوارد الظمآن ملتهفا
من نال منه شرابا فى القيامة لم يظمأ وصادف ريا فيه كل شفا
من نيـــل منهله كم راح مغترفا ظـام وبالفضل منه جاء معترفا

وتلمس ظرف الشاعر ولطف حسه ودقة تخيره لألفاظه فى هذه الأبيات الثلاثة ، بخاصة ، وهو يتحدث عن رسول الله صلى الله عليه وسلم . فقد تخيرها من « وادى المياه » لمناسبة الحديث عن النيل . فالحوض والروى والوراد والظمآن والشراب والرى والمنهل والمغترف والظامى . كلها من هذا الوادى . . وهذا ذوق شعرى جميل لا ينكر . .

واستمر الشاعر فى روحانيته هذه حتى اتجه بجمع نفسه إلى الله سبحانه وتعالى « منزل الغيث » ، يدعوه ويجأر إليه بالدعوة أن يرفع عن مصر الغلاء ، ويقيها ناره التى عفت ربع الرخاء ، وأن يدرك أمته الضعيفة بمغفرته وحنانه ورحمته . ويختم تسبيحه هذا بالصلاة على رسول الله . يقول الشاعر :

يا منزل الغيث فضلا بعد ماقنطوا وناشر الرحمة العظمى بحسن وفا
ارفع بحقك عن مصر الغلا وقنا صعيـــد نار بها ربع الرخاء عفا
لبيك لبيك داركنا بمغفـــرة وجد حنانيك وارحم أمة ضعفا
وصل أزكى صلاة والسلام على نبيـك المصطفى الراقى الذراشرفا
ما انهل فى الجدب غيث قد طغا فجنى أيانع الزهر كف الخصب واقتطفا[1]

وهكذا اختتم الشاعر تسبيحته بلفظ « أنهل والجدب ، والغيث ، وجنى ، وأيانع الزهر ، والخصب . والاقتطاف » .

وبعد فلعل هذه القصيدة تقنع الكثيرين ممن يتهمون شعراء العصر ،

---

(١) كوكب الروضة للسيوطى ص ١٣٥ ، ١٣٦ .

بانصراف نفوسهم عن وعى ما ينبغى من عواطف ومشاعر نحو هذا النيل المبارك، وبضيق تعبيرهم عنها، وبتلهيهم دون وصفه، إذا عرضوا له، بالصناعة اللفظية . . .

وأود أن أضيف إلى ما عرضته من مظاهر عواطفهم ومشاعرهم نحو النيل، أحد اتجاهاتهم بها . لقد اتخذوا من النيل موضوعا للإلغاز، وهى وسيلة من وسائل وصفه وبيان محاسنه .

ومن ذلك ما نظمه بهاء الدين أبو حامد السبكى إلى صديقه صلاح الدين الصفدى ملغزا فى النيل، وذلك فى قصيدة طويلة . وقد رد عليه صلاح الدين الصفدى حالا هذا اللغز، بقصيدة أخرى من بحره ورويه . (١)

ونظم الشهاب المنصورى لغزا فى النيل كذلك، فكان من أبياته :

حلو اللمى أحببت من إدباره ... مثل الذى أحببت من إقباله
حسن الشمائل لا يمل وصاله ... أبدا ومن لحبه بوصاله
طلق المحيا إن بدا متبسما ... قرت عيون نسائه ورجاله
فى كل وقت يشتهى لا سيما ... فى حال بكرته وفى آصاله
قطع الطريق أقل ما يعزى له ... والناس تشكره على أفعاله
ومن العجيب العجز عن إمساكه ... مع لين جانبه وقرب منـاله (٢)

وحسبنا ما بينا دليلا على ما نعتقده، من أن النيل حل من الشعراء محل القداسة والمحبة، ونزل منزل الإجلال والتقدير . وأنهم ذهبوا فى التعبير عن عواطفهم نحوه كل مذهب، وراحوا خلف وصف مفاتنه كل مراح، وانهم

---

(١) كوكب الروضة ص ١٤٢، ١٤٣ وفيهما نص اللغز والرد عليه .
(٢) كوكب الروضة للسيوطى ص ١٤٣

عرفوا فضله وكرمه ، وشكروا له جوده وسماحه ، والتمسوا منه بره وخيره .

وسنرى فيما يلى ، صفحات لهم أخرى ، فى حب النيل وطبيعة مصر ، ووصف مشاهدهما .(١)

الروضة والمقياس

وجزيرة الروضة القائمة فى مجرى النيل بين الفسطاط والجيزة ، ـ وكذلك مقياسها ـ كانت إلى ذلك العصر من أهم منازه مصر . وكانت مجلى من مجالى الطبيعة ، لما فيها من حدائق يانعة وبساتين رائعة ، ولما فيها من نخيل وأزهار وأثمار . فضلا عن منازهها المتعددة فى جوانبها ، كالمشتهى وغيره . وفضلا عن منظر النيل الجميل . وقد أحاط بها وسورها بمائه . والسفن والزوارق تغدو وتروح من حولها ، تحمل المرتاضين واللاهين والمتفرجين بها ، مابين إخوان وخلان ، وعشاق ورفاق . يأنسون بارتيادها ويطمئنون إلى أحضانها ، وينعمون بنعمة الهدوء والأمن فيها ، ويتفرجون برؤية مقياسها ، ويذكرون فضل الله عليهم ونعمته بنيلها . وينالون من ثمارها اللطيفة وتحت ظلالها الوريفة ، ما يلتذون به ويبتهجون ويسعدون .

والشعراء كانوا فى هذا المألف النضير ، مشاعر حساسة وعواطف جياشة ، وأخيلة مصورة ، وألسنة معبرة . بل كانوا أنغاما حالية وأناشيد حادية .

قيل كان يسكن الروضة كثيرا ، الشاعر المتصوف سيدى محمد بن وفا ، فأضفى على الروضة من شعره أبياتا روحانية صافية ، أسكنها صورا من صورها جميلة وعدها

---

(١) من الطرائف ما نقله السيوطى فى كوكب الروضة ص١٤٤ ، من خط الشهاب الحجازى ، ونسبه إليه ظنا — مفاخرة طويلة فى ٩٩ بيتا ، على لسان النيل والبحر المالح ، يزهو كل منهما بنفسه ، ويفخر على الآخر ، فى شكل حوار متتابع ، كل مرة فى بيتين . والمفاخرة بالموال العامى .

نعمة من النعم الجليلة ، التى يشكر الله سبحانه وتعالى عليها . قال منها :

رأيت رياض القدس فى روضة الرضا ... على نيل مصر بين تلك المناظر
مناظرها للناظرين مشارق ... وفيها وجوه كالبدور البوادر

ومنها قوله :

وتحكى طيورا عاليات رءوسها ... على النيل فيها سابحات الشخاتر
ويشبه سيب الماء فيها صوارما ... بأيدى الهناسلت لسلب النواظر
عليها جلال الله جل جلاله ... وفيها سرير السر بين السرائر(١)

ويدعو صلاح الدين الصفدى بالسقى لمصر وماحوت من الأنس والأناس ، ومن المحاسن والمفاتن فى المقياس ، قال :

سقيا لمصر وما حوت ... من أنسها وأناسها
ومحاسن فى مقسها ... تبدو وفى مقياسها
ومسرة كاساتها ... تجلى على أكياسها
وسطور قرط خطها البـ ... ـارى على قرطاسها
ولطافة بجلالة ... تبدو على جلاسها
ونواسم كل المنى ... للنفس فى أنفاسها
ومراكب لعبت بها م الأمواج فى وسواسها (٢)

ويتشوق ابن نباتة المصرى إلى منازل المقياس ، وتجرى من أجلها مدامعه ، وهو مغترب بالشام يشتى بالحنين إلى وطنه ، فيقول مع التورية النباتية الطريفة :

أرق له بالشام نيل مدامعى ... يجريه ذكر منازل المقياس

---

(١) كوكب الروضة للسيوطى ص ١٦ (٢) كوكب الروضة ص ٧٦

سقيا لمصر منازلا معمورة بنجوم أفق أو ظباء كناس
وطنى سهرت له وشابت لمتى ونعم على عينى هواه وراسى
من لى به والحال ليس بآسن كدر وعطف الدهر ليس بقاسى(١)

ويتجول ابن أبى حجلة فى الروضة ، فيرى سماءها وغيمها ندا ، ونداها كاسيا خمائل السندس ، وسفنها من حولها عرائس مقبلة كالجوارى الكنس فيقول :

أو ما ترى غيم السماء كأنه ند يلوح لنا بأفق المجلس
والروضة الفيحاء باكرها الندى وكسا خمائلها رياض السندس
والسفن تبدو كالعرائس حولها قد أقبلت مثل الجوارى الكنس(٢)

ويأخذ ابن أبى حجلة فى تأليف مهرجان راقص مزوان ، من ألاف روضة المقياس وهو بذلك يعكس عليها مشاعره وخواطر نفسه .

فهذه ورقاؤها تغنى على عيدانها وتشدو بألحانها . والطل كالدر قد تناثر عقده ، والتأم من حبائه تيجان رصعت رءوس الزهر . بينما برز البحر — النيل — فى برده وقد رقت حواشيه وصقلته الريح ... الخ .

يقول :

وكأننا فى روضة المقياس والورقاء قد غنت على العيدان
وشدت بلحن معرب فاعجب لها أرأيت أعجم معرب الألحان
فالطل در قد تناثر عقده والزهر منه مرصع التيجان
والبحر قد رقت حواشى برده والريح تصقله بغير توان (٣)

ويمتد نظر الشاعر الوصاف مجير الدين بن تميم ، إلى روضة المقياس ، فيلتقط منها صورها الجميلة ومشاهدها البديعة ، ذخيرة لشعره التصويرى المبين ، الذى

---

(١) ديوان ابن نباتة ص ٢٦٤ (٢) كوكب الروضة السيوطى ورقة ١٣
(٣) المصدر نفسه .

لا يقنع بالصورة الجامدة أو الحائلة ، بل يبث فيها من معالم الحركة المنظورة والمسموعة ، ومن الألوان والظلال ، مايجعلها حية نابضة متكلمة مثيرة .

يقول مجير الدين :

نظم الهـواء بلؤلؤ الأنداء عقدا لجيـد الروضة الغناء
شق الشقيق هناك منه جيوبه وتسلسلت فيـه جوارى المـاء
وبدا الأقاح وثغره متبسم لما تباكت أعـين الأنواء
وتناشـدت أطيارها ما بينها بلغاتها كتناشد الشعراء
وأتوا بما نشدوه فى أشعارهم بغرائب دقـت على البلغاء
ألقى الهزار عليهم من درسه فتـجادلوا كتجادل الفقهاء

والحركة المنظورة واضحة فى « نظم الهواء لؤلؤ الأنداء عقدا »، وفى « شق الشقيق الجيوب » ، وفى « تسلسل جوارى المـاء » . وفى « الثغر المبتسم » ، وفى تباكى أعين الأنواء » .

والحركة المسموعة واضحة فى صوت شق الجيوب ، وصوت الماء لتسلسل الجوارى ، وفى تناشد الأطيار ، وفى إلقاء الهزار درسه .

والظلال والألوان واضحة فى لون لؤلؤ الأنداء ، والشقيق ، وثغر الأقاح .

وعلى نمط مما تقدم جرى الشاعر الأديب بدر الدين البشتكى ، فى الابتهاج بروضة المقياس ، وفى وصفها ووصف مرائيها ومشاهدها الجميلة . فقال وذكر « المعشوق » وهو أحد منازهها :

انظر إلى مقيـاس مصر وغن لى من روضة المعشوق فى عشاق
وافخر بمصر على البـلاد فنيلهـا يقضى على الأوصاف باستغراق

وتخلخلت منه الغصون ومذ علا دارت دوائره على الأســـواق
لله فى أفق الجزيرة ملعـــب كانت نجوم السعد فيـــه رفاقى
حيث الصبا تصبى اللبيب لأنهـــا تملى عليـــه مصارع العشاق
تتعانق الأغصان مع إصغائها لسماع نوح الورق فى الأوراق
فترى بأذن العارفين تجاهلا أمقام وصـل أم مقام فراق (١)

مفترجات مصر

وما دام النيل قد أسلمنا إلى روضته ومقياسه ، حيث المنازه العامرة والحدائق الناضرة ، لابد أن نعرج على بعض منازه مصر ، مما تجلت فيه الطبيعة بأعراسها ، وتحلت بزينتها ، فاجتذبت إليها نفوس الشعراء فتغنوا بها ولفتت خواطر الأدباء فشدوا بها .

وقد سماها جلال الدين السيوطى فى كتابه « بهجة الناظر ونزهة الخاطر » : « مفترجات مصر » فالتزمنا هذه التسمية لدقتها وطرافتها .

ومنها « المرصد » . وفيه يقول علاء الدين الوداعى مع التورية :

وليـلة عاش ســـرورى بهـا ومات من يحسدنا بالـكمد
بت مع المحبوب فى روضة وبات من يرقبنا بالمرصـــد (٢)

ومنها « المشتهى » بجزيرة الروضة . وفيه يقول شهاب الدين المنصورى موريابه وبالروضة أيضا ، فى غزل :

أسـفر وجهـــا ورنا مقلة ياخجلة البـدر وظبى الصريم

(١) كوكب الروضة للسيوطى ورقة رقم ١٦ (٢) بهجة الناظر للسيوطى ورقة رقم ٨٣ .

فى مشتهى وجنتـــه روضـة تنزهوا بوجـه قمرى وسيم (١)

ومنهـا « حليمة » . وهى جزيرة كانت قد ظهرت قبالة المقياس . قال فيها إبراهيم المعمار موريا :

جزيرة البـــحر هامت بهـــا عقول ســـليمة
لمـا حوت حسن معنى وبســـطة مستقيمة
فـكم يخوضـــون فيهـا وكم مشـــوا بنميمـة
ولم تزل ذا احـتمال ماتلك إلا حليمة (٢)

ومنها « قناطر أم الخمس » بالجيزة . وفيها يقول برهان الدين القيراطى متماجنا موريا بمجونه :

قناطر الجـــيزة كم قادم عليك يلقى فيك أقصى مناه
أتاك قـــوم لاطة فانحنى ظهرك للوطء وصب المياه (٣)

ومنها « قنطرة التكة وخليج الذكر » . وقد قال فيهما المعمار مع التورية الماجنة :

ياطالب التـكة نلت المنى وفزت منهـا ببلوغ الوطر
قنطرة من فوقهـــا تـكة وتحتهـا تلقى خليج الذكر (٤)

قال السيوطى عنهما كانا مكان الأزبكية .

ومن المفترجات العظيمة بركة الأزبكية التى أنشأها الأمير أزبك بن ططخ الأتابكى عام ٨٨١ هـ . وقد سبق لنا عنها حديث . وفيها يقول الشاعر شمس الدين القادرى مشيداً بمحاسنها ومجالى الجمال فيها :

يا حسنها بركة بالحسن ما برحت تزهو على سائر الخلجان والبرك
تجمع الحسن فيهـا من معادنه فأصبح الحسن فيهـا غير مشترك
جفت بداراتها الأقمار فهى لهم تضىء فى حندس الديجور والحلك

---

(١) المرجع نفسه ورقة رقم ٨٥ . (٢) المرجع نفسه ورقة ٨٥ ـ وقال: ذا ؛ وصوابها ذات.
(٣) المرجع نفسه ورقة ٨٦ ـ وديوان القيراطى ورقة ١١٧ . (٤) المرجع نفسه ورقة ٨٦ .

مرآة حسن فربات الجمال بهـا ... مثل الشموس ترى فى دارة الفلك
وعندما نصبت أشراك بهجتها ... صادت طيور قلوب الناس بالشرك

ومنها « بركة الرطلى » وقد سبق لنا عنها حديث أيضاً . وكانت تعرف قديماً بأرض الطبالة .. (١)

وقد قال فيها شمس الدين بن الصائغ :

انظر إلى بركة الرطلى مبتهجاً ... واشرح محاسنها يا أيها الحاكى
الماء والنبت والحور الحسان بها ... كأنها جنـة حفت بأملاك (٢)

وقال الشهاب المنصورى :

دعوتك فانهض مسرعاً يا أخا الفضل ... لتشرب أرطالا على بركة الرطلى
فقد سل كف الخصب سيف خليجه ... ليضرب عنق الجدب أو هامة المحل
وقد مدت الأدواح أيدى غصونها ... إلى النيل يستحلى لماه ويستحلى (٣)

وقال أيضاً فى الجسر الذى بهذه البركة :

وفى ليلة بالجسر فيها تجاسرت ... يداى على شرب المدامة بالرطل
وقد نسج الآرام فى ضوء بدرها ... فإن خفن من واش تسترن بالظل
فقم نجتليها من غزال مسلط ... بكسرة أجفان على صحة العقل (٤)

ومنها « بركة النيلوفر » التى بالأميرية . وقد قال فيها صفى الدين الحلى يصف نيلوفرها قبل غروب الشمس وبعده .

رأيت فى البركة نيلوفرا ... نسيمه يشبه نشر الحبيب
مفتح الأجفان من نومه ... حتى إذا الشمس دنت للمغيب
أطبق جفنيه على عينه ... وغاص فى البركة خوف الرقيب (٥)

من (١) إلى (٥) — بهجة الناظر للسيوطى ورقة رقم ٨٧ . (٢، ٣) — المصدر نفسه ، (٤) المصدر نفسه ورقة ٨٨ . (٥) المصدر نفسه ورقة ٨٨ .

نكتفى بذكر هذه المفترجات أو المنازه نموذجاً لغيرها ولنحث الخطا إلى الربيعيات وما يتصل بها .

الربيعيات وما يتصل بها

وتحدث الشعراء — فضلا عما تحدثوا — عن الرياض بعامة ، فوصفوا الربيع إذا أقبل إليها . والمياه والجداول إذا انسابت نحوها . وأدواحها إذا نمت . وأغصانها إذا تدلت ، وهاماتها إذا تتوجت ، وبسطها إذا اخضرت . وأرضها إذا ضحكت ، وأزهارها إذا أشرقت وابتسمت ، وثمارها إذ نضجت ودنت ، وألوانها إذا تنوعت فأعجبت ، وفروعها إذا رقصت ونثنت ، ورياحينها إذا دارت وتعطرت . ودرر الطل إذ عقدت وكللت ، وظلالها إذا امتدت ، وطيورها إذا تغنت .

إلى غير ذلك من مذاهب الشعراء ومسارح خيالهم ، مما صوروه فأبدعوا ، وافتنوا فيه وأمتعوا ، حتى صار لهم فى هذا الباب نتاج مقبول وجهد محمود . وشارك شعراء الشام فيه بنصيب عظيم لما لبيئتهم من غنى وثراء بمشاهدها الجميلة ومناظرها المتنوعة . فلا بأس إذا نسوق إليك أثارة مما نظموا ، من باب الموازنة .

ومحي الدين بن عبد الظاهر أديب مصر الكبير ، الذى له نتاجه الضخم فى باب النثر وفى ميدان العلم ، والذى استأثر به ديوان الإنشاء زمناً طويلا ، فكان كاتب رسائله ، ومدبج المدائح الشعرية للملوك ، مما سنفصله لك تفصيلا فى الفصل القادم ، أدلى بدلوه فى الدلاء ، ونظم فى الربيعيات والرياضيات .

ومن أولى منه بذلك ، وقد ملك زمام القلم وتصريفه نثراً أو شعراً . ومن أولى منه بأن تبهره مناظر الطبيعة وتسحره محاسنها . فينعت بطحاءها ويصف

روضها ، ويذكر غيثها المبكر ، ويجرى مع عيونها الدامعة فى محاجرها ، وينساب مع نهرها اللجينى ، ويدق مع حصاه الأبيض والأحمر ، ويمتد مع برد ظلالها المسهم ، ويتموج مع طرس صفحة مائها المجعد ، ويلحظ عذار نباتها إذا بقل ، ومسارقة شعاع الغزالة لأغصانها إذا تحول وانتقل ... الخ .

يقول محيى الدين بن عبد الظاهر يصف بطحاء :

وبطحاء فى واد يروقك روضها ... ولاسيما إن جاد غيث مبكر
تلاحظها عين تفيض بأدمع ... يرقرقها منه هنالك محجر
بها فاض نهر من لجين كأنه ... صفائح أضحت بالنجوم تسمر
كأن حصاه إذ بدا منه أبيض ... وأحمر دمع فى خدود تنثر
وإن لا فبرد بالظلال مسهم ... وإن لا فطرس بالتجعد يسطر
وما لاح فى جنبيه نبت وإنما ... تبدى عذار منه فى الخد أخضر
وكم غازلته للغزالة مقلة ... تسارق أوراق الغصون فتنظر
ويشرق منه كل حسن فينبرى ... حياء لديه وجهها وهو أصفر
إذا فاخرته الريح ولت عليلة ... بأذيال كثبان الربا تتعثر
به الفضل يبدو والربيع وكم غدا ... به الروض يحياوهو لاشك جعفر (١)

وزار الشاعر المبدع صفى الدين الحلى البلاد المصرية فى نحو عام ٧٢٣ هـ ، وكان ملك العصر هو الناصر محمد بن قلاوون ، وكاتب سره علاء الدين بن الأثير . فقربا إليهما الشاعر الكبير ، واحتفلا بمقدمه .

وقد مدح صفى الدين الملك الناصر حينذاك بثلاث قصائد عذبة جيدة . ومنها مدحته المشهورة التى شبب فى صدرها بربيع مصر ، وما خلعه على رياضها من حلل جميلة ، وما لونها به من ألوان زاهية ، وما بعثه فى أرجائها من فتنة .

---

(١) مطالع البدور فى منازل السرور للعلامة الغزولى — ج ١ مخطوط بالمكتبة الأزهرية .

وهكذا أثرت فى نفسه طبيعة هذه البيئة المصرية ، حتى أطلقت اللسان بضروب البيان .

يقول صفى الدين :

خلع الربيع على غصون البان ... حللا فواضلها على الكثبان
ونمت فروع الدوح حتى صافحت ... كفل الكثيب ذوائب الأغصان
وتتوجت هام الغصون وضرجت ... خد الرياض شقائق النعمان
وتنوعت بسط الرياض فزهرها ... متباين الأشكال والألوان
من أبيض يقق وأصفر فاقع ... أو أزرق صاف وأحمر قان
والطل يسرق فى الخمائل خطوه ... والغصن يخطر خطرة النشوان
وكأنما الأغصان سوق رواقص ... قد قيدت بسلاسل الريحان
والشمس تنظر من خلال فروعها ... نحو الحدائق نظرة الغيران
والطلع فى خلل الكمام كأنه ... حلل تفتق عن نحور غوانى .
والأرض تعجب كيف تضحك والحيا ... يبكى بدمع دائم الهملان . . .(١)

ويعتبر الشاعر الفحل مجير الدين بن تميم من أبرع الوصافين لمظاهر الطبيعة ، والمعنيين بها ، المستجيبين لسحرها ، ومن أكثرهم إنتاجاً فى بابها ، ومن أرقهم فى وصف الورود والجداول والدواليب . وهو من شعراء الشام وحماة

قال ابن حجة الحموى :

« ومن التشابيه البديعة قول بعضهم :

كم وردة تحكى بسبق الورد ... طليعة تسرعت من جند
قد ضمها فى الغصن قرص البرد ... ضم فم لقبلة من بعد

قلت : دخل مجير الدين بن تميم إلى حديقة هذه الوردة ، فزادها تقوية بقوله :

---

(١) ديوان الحلى باب الناصريات .

سبقت إليك من الحدائق وردة وأتتك قبل أوانها تطفيلا
طمعت بلثمك إذ رأتك فجمعت فمها إليك كطالب تقبيلا »(١)

واهتز خاطر الأديب شهاب الدين أحمد بن منصور الدمياطى — ويعرف بابن الجباس — إذ رأى رمانة مشقوقة يتساقط منها الحب . فشق عليه ما كانت تكتمه فى حشاها من اللظى ، ثم تشققت عنه عقائق ، هى دموعها ... فقال :

كتمت هوى قد لج فى أشجانها وحشت حشاها من لظى نيرانها
فتشققت من حُبها عن حَبها وجداً وقد أبدت خفا كتمانها
رمانة ترمى بها أيدى النوى من بعد مارمت على أغصانها
فاعجب وقد بكت الدموع عقائقا لا من مآقيها ولا جفانها(٢)

وهذه تحفة شعرية فريدة ، يجود بها قلم هذا الشاعر الثبت — ابن الجباس — حشدت لها نفسه الجياشة خاطرها النفاذ وخيالها الوثاب ، وبيانها المصور ، وفنها البديع. فتتبعت — والمشاعر تصحبها ، والعواطف تمثل لها — شجر الموز فى حديقته ، وقد كتبت كتائبه ، وجمعت حشوده ، وينعت عراجينه ، وشققت كمامه عن زهره ، وانتظمت أمشاطه ، وقامت سوقه ، ونشرت ظلاله .. فجنى منه الثمر وقطع ، فاصفر ورقه ، وحالت حالته ، كالمتيم الذى أذابه الكمد من طول وجده ....

ويرسم لك الشاعر بمقدرته ، صورة حضارية بديعة ، تدلك على إحدى جوانب المدنية حينذاك . فقد شبه الموز ، وهو فى عراجينه يانعا على شجره ، بفروع شعر غانية عقصتها بعد ضم ما انتشر منها ، وتركت منه شرابة مرسلة من خلفه :

---

(١) تأهيل الغريب باب الربيعيات .
(٢) نهاية الأرب للنويرى ج ١١ ص ٤ ١ ط دار الكتب .

ويصور لك أمشاطه مكاحل من زمرد منظمة . وسوقه عمداً حانية أواوينها على جدره . وأشجاره حاملة لها طفلا على يدها تقيه الحر ، وهو فى خمره . وساقها صقيل كساق العروس، أميط مئزرها فبان وشى خضابها . . إلى غير ذلك من الصور الماثلة فى أبياته .

يقول الشاعر :

كأنما الموز فى عراجنه ... وقد بدا يانعا على شجره
فروع شعر برأس غانية ... عقص من بعد ضم منتشره
كأن من ضمه وعقصه ... أرسل شرابة على أثره
كأن أمشاطه مكاحل من ... زمرد نظمت على قدره
كأنما زهره الأنيق وقد ... شقق عنه كمام مستتره
نظام ثغر يزينه شنب ... ممتزج شهده بمعتصره
كأن قامات سوقه عمد ... حنت أواوينها على جدره
كأن أشجاره وقد نشرت ... ظلال أوراقها على ثمره
حاملة طفلها على يدها ... تقيه حر الهجير فى خمره
كأنما ساقه الصقيل وقد ... بدت عليه رقوم معتبره
ساق عروس أميط مئزرها ... فبان وشى الخضاب فى حبره
تصاغ من جوهر خلاخلها ... فتنجلى والنثار من زهره
حدائق خففت سناجقها ... كأنها الجيش أم فى زمره (١)

---

(١) الشرابة : خيوط أو شعر مجتمع للتخفيف . وقد تتخذ الشرابة من الحرير للزينة . وأمشاطه : عراجينه تبدو منها أصابعه . — والأواوين : جمع إيوان وهو الصفة العظيمة — بتشديد الفاء فى الصفة وهى موضع للاصطفاف . وصفة مسجد الرسول عليه السلام موضع فيه مظلل ، كان يبيت به « أهل الصفة » وهم أضياف الإسلام . =

وكل آياته فباهـــرة تبين فى ورده وفى صدره
كأنما عمره القصير حكى زمان وصل الحبيب فى قصره
كأن عرجونه المشيب أتى يخبر أن حانه انقضا عمره
كأنه البدر فى الكمال وقد أصيب بالخسف فى سناقمره
كأنه بعد قطعه وقد اصـ ـفر لما نال من أذى حجره
متيم قد أذابه كمد يبيت من وجد على خطره
معلق بالرجاء ظـــاهره يخبر عما أجن من خبره
يطيب ريحا ويستلذ جنى على أذى زاد فوق مصطبره
كأنه الحـــر حال محنته يزيد صبرا على أذى ضرره

وصور مجير الدين بن تميم ، قصة حب وغرام بين النهر ودوحه . ويتخلل القصة هيام ووجد ، وغدو ورواح وطلب ووصال ، وبعاد وصد ، وشكوى وأنين ، ويأس وأمل وقنوع ، وتلك كلها مشاعر الشاعر وخواطره .

يقول مجير الدين :

ونهر بحب الدوح أصبح مغرما يروح ويغدو هائما بوصالها
إذا بعدت عنه شكا بخريره جفاها وأمسى قانعا بخيالها(١)

والتشخيص باد فى البيتين ، كما بدا فيهما التعليل الأدبى . والبيتان مليئان بالحركة :

= والخمر : بضمتين ، جمع خمار بكسر أوله ، وهو النصيف يغطى به الرأس أو يستر الوجه . والحبر : جمع حبرة مثل عنب وعنبة ، نوع من الثياب ، وضرب من برود اليمن — والسناجق : الأعلام — وحانه : حان له ، عدى الفعل بنفسه — وأجن : أخفى . راجع نهاية الأرب للنويرى ج ١١ — ص ١٠٩

(١) تأهيل القريب باب الأنهار .

حركة النهر وحركة الدوح . ويرمى الشاعر بقوله : « قانعا بخيالها » إلى صورة الدوح فى صفحة الماء . فالصفحة مرآة . والصورة مستقرة فى قلبها . وهكذا شأن العشاق . . .

وكرر مجير الدين بن تميم ، هذه المعانى والصور ، مرة أخرى ، بعد أن بدل بعض مشاهدها . فجعل الأغصان تطيل فى صدودها وجفاها ، وجعل النهر — للوعته وطول وجده — يجرى لاثما أقدامها . والشاعر ما بين هذا وذاك ، يسوق تعليلاته الأدبية الطريفة .

يقول مجير الدين :

والنهر مذ علق الغصون محبة أضحت تطيل صدوده وجفاه
فتراه يجرى لاثما أقدامهـــا وخريره يشكو الذى يلقاه

وقد اتصل حبل المودة والإلف بين النهر والأهواء . كما اتصل — فى خيال مجير الدين بن تميم — بين النهر والأغصان . ولكن الأهواء فى هذه المرة هى التى تستجيب للنهر ، وإن شق عليها الأمر ، وهو وقد خالفها ، طاعت له وتوسلت إليه بأزهار الأغصان تسرقها منها وتلقيها بين يديه مغازلة مداعبة منادية ، فيلوى بها عنان سيره ويجرى . .

يقول مجير الدين :

ونهر خالف الأهواء حتى غدت طوعا له فى كل أمر
إذا سرقت حلى الأغصان ألقت إليه بها فيأخذها ويجرى (١)

وأخذ ابن تميم بجمال الجدول وسحره ، وخشى عليه مغبة العيون من حوله ، إن هو ظل فى تدفقه أن تنفد العيون حسنه . فأنذره فأبى وتمادى . وكانت عاقبة

---

(١) حسن المحاضرة ج ٢ باب الأنهار .

أمره أن هوى من شاهق فتكسر . . . ولعل عيونا مقامة فى جسر ، كانت على طريق النهر .

وهكذا أجاد ابن تميم حبك هذه الحادثة الجانبية فى حياة النهر . وأجرى فيها من ألوان العاطفة والانفعال ما أضفى عليها حركة وحرارة . وذهب فى التعليل . على عادته ، إلى الطريف مما يفطن إليه خياله الأدبى الخصب .

قال مجير الدين .

يا حسنه من جدول متدفق يلهى برونق حسنه من أبصرا
مازلت أنذره عيونا حوله خوفا عليه أن يصاب فيعثرا
فأبى وزاد تماديا فى جريه حتى هوى من شاهق فتكسرا[1]

ولم يقل ابن تميم هذه الأبيات فى نهر النيل بالذات[2] . على ما نعتقد - إذ أن مجراه خال من المنظر الذى رسمه الشاعر ، وهو تكسره من شاهق . وهذا لا يرى إلا فى مجراه الأعلى الاستوائى . . أما فى مصر فلا تعترضه إلا جنادل وصخور يعلوها أو ينفلت من بين فرجها .

هذا . ويبدو أن مجير الدين بن تميم درس حياة النهر كلها ، من لدن شبابه إلى هرمه وقسمها أدوارا وقصصا ، فى كل قصة منها نزعة وعاطفة . فبعد أن هام بالأغصان وخالفته ، اتجه إلى الأهواء فخالفته أو خالفته وسدر فى غيه وجرى فى مجراه على هواه ، ولم يبال بالعيون الواقفة له فى طريقه بالمرصاد . فكانت عاقبته أن هوى من شاهق وتكسر .

وما إن تكسر ماؤه ، حتى أقام أحبابه وألافه عليه مآتما ! فهذا دولاب يبكيه ، وغصن بأوراقه يلطم حزنا عليه ، وورق فوق دوحه ترثيه . . . وتلك عاقبة الغى والهوى . .

---

(١) حسن المحاضرة ج٢ باب الأنهار — (٢) راجع «النيل فى الأدب المصرى» ص١٨١

يقول مجير الدين :

تكسر الماء لما أن جرى فغدا الدولاب يندبه شجوا ويبكيه
وأصبح الغصن بالأوراق ملتطما والورق فوق كراسى الدوح تؤثيه(١)

ويكمل صلاح الدين الصفدى قصة النهر . وذلك بإيضاح أحد جوانبها ، أيام كان النهر فى سيادته وحوله النسيم يخدمه . ويعلل لذلك .

يقول صلاح الدين :

النهر مولى والنسيم خديمه هذا كلام لست فيه أشكك
لو لم يكن فى خدمة النهر انبرى ما كان يصقل ثوبه ويفرك(٢)

وهذا التشخيص الذى تراه فى الأبيات أو كثير منها ، باد فى أساليب الشعراء فى هذا الباب . إذ يأبون إلا أن ينسبوا للروضة أو البستان أو النهر ، حياة حافلة بشتى العواطف والأحاسيس ، حياة فيها إرادة وعزيمة ، وفيها تفكير ورأى وتدبير . ومن هنا يقفز خيالهم إلى التعليل الأدبى الجميل الممتع .

ولعلك تجد مصداق ذلك فى قول محيى الدين بن عبد الظاهر :

روض به أشياء ليست فى سواه تؤلف
فمن الهزار تهازر ومن القضيب تقصف
ومن النسيم تلطف ومن الغدير تعطف (٣)

(١،٢) حسن المحاضرة ج ٢ باب ذكر الأنهار .

(٣) حسن المحاضرة ج ٢ باب ذكر ما قيل فى الأنهار — والتقاصف : التكسر والاجتماع، كالتقاصف ، واللهو واللعب على الطعام — وهزره بالعصا : ضربه بها على جنبه ، وغمز وطرد وضحك .. ولعل المراد بالتهازر هنا : التضارب والتضاحك —

ويطوف عز الدين الموصلى بالروضة طواف العاشق . فتبهره مجاليها وتأسره مرائيها . فيرى فى صفحاتها آيات الجمال . لقد نقشت أرضها إبر الحيا وطرزتها . ودارت أشجار السرو من حولها كالسوار ، أو كالخلخال . وغياضها مدبجة بادية الألوان . وأغصانها الند ، وأوراقها السندس . وأزهارها الياقوت والبلور ، والدراهم بين الدنانير . وظلها ثوب يجمعه النسيم تارة ، وتارة يفرقه . ونهرها كالسيف الصارم . . .

يقول الموصلى :

وروضة نقشتها للحيا إبر ... فأصبحت بين تطريز وتزهير
مثل السوار لها سرو أحاط بها ... من سلسل هى منه ذات تسوير
أو كالخلاخيل للأدواح دار على ... سوق لها مطلقا فى زى مأسور
تحت الرياض غياض دبجت فبدت ... ألوانها ذات تشهير وتشذير
أغصانها الند والأوراق سندسه ... والزهر عرق ياقوتا ببلور
والزهر بين شعاع الشمس تحسبه ... دراهما نثرت بين الدنانير
والظل ثوب إذا مر النسيم به ... فالروض ما بين مهتوك ومستور
ونهرها زائر بالخصب يؤذننا ... كصارم فى سبيل الله مشهور (١)

وجال الموصلى بالروض جولة أخرى . فماذا رأى فيه ، وماذا أحس منه ، وما هى انطباعاته عنه ؟ لقد رآه معجبا بنجم زهره الذى تحسده الأنجم الزهر . ورأى غدره قد زردت أثوابها من خوف النسيم ، ودبجته ألوان زهره . وكست أغصانه حلل ورقه . وأعربت له ورقه عن ألحانها فى الدوح قيانا دونها الستر ...

وهكذا ترى فى روضه هذا ، العجب والحسد وزرد الأثواب ، والخوف ،

---

(١) مطالع البدور فى منازل السرور للعلامة الغزولى ج ١ — مخطوط بالمكتبة الأزهرية . — والتشذير : التفريق — والتشهير : الإعلان .

والتدبيج والكسوة ، والإعراب والألحان والقيان المتسترة . . الخ . وهذه لعمرى حياة نابضة حافلة . . .

يقول الموصلى :

وروض بنجم الزهر أصبح معجبا فتحسده من جنسه الأنجم الزهر
ومذ أرجف الماء النسيم تدرعت مزردة الأثواب من خوفها الغدر
فللروض تدبيج بألوان زهره وللغصن من أوراقه الحلل الخضر
فراع نظيرا من جنان جناسه فحلى الضحى زهر وحلى الدجى زهر
وأعربت الألحان فى الدوح ورقه فكن قيانا دونها أسبل الستر
وأسفر للإصباح خد مورد ومن قبله حيا بريحانه الفجر (١)

ومن وصاف شجر السرو ، الأديب الكبير شهاب الدين محمود الحلبى . وقد جلاها عرائس لفت عليهن الملاء ، وشمرن الأزر فبدت سوقهن . . قال :

والسرو مثل عرائس لفت عليهن الملاء
شمرن فضل الأزر عن سوق خلاخلهن ماء
والنهر كالمرآة تبصر وجهها فيه السماء (٢)

ودخل الشاعر بدر الدين البشتكى إلى روضة ، فراعه بها حيا يجرر ذيله ، وورد كالخد المحمر يرشه الندى بدمعه ، ونرجس عاشق لم تغمض له عين . . ، فقال :

وروضة جرر فيها الحيا ذيلا فلم يعطش ولم ينزع
كأنما الورد وقطر الندى محمر خد رش بالأدمع
يعشقه النرجس من أجل ذا لم يغمض العين ولم يهجع (٣)

والشهاب المنصورى يعده محبوبه بلقاء فى روضة . فيعجل الشهاب إلى زيارتها

---

(١) مطالع البدور للغزولى . (٢) حسن المحاضرة ج ٢ باب ذكر ما قيل فى الأنهار .
(٣) كوكب الروضة للسيوطى ص ١٦ .

مترقبا ، وخواطره بالوصال وآماله بالقرب ، وثقته بالتمتع القريب بمحبوبه ، منظارات وضعت أمام عينيه . فرأى من ورائها ما فى الروضة ، فإذا كل ما فيها وصال وقرب ، وبوح بالسر وإفشاء للحب ، وسكر وميل ، وولوع وجنون ، واستشفاء وغذاء ، وميل أعطاف ، وحياء فى رغبة ، وعوذة من حاسد ، ورياضة لنافر ، واستمتاع بطيب شذى ، ونزهة طرف ، ونيل آمال . . . .

عواطف لعمرى وأحاسيس متجانسة متوافقة ، ترجع إلى حالة نفسية واحدة ، وتدل على شعور صادق ، وانفعال لازيف فيه .

يقول الشهاب المنصورى :

نم صبا روضتنا بالشذى ... ونهرها باح بسر القذى
والغصن الذى فيه أثماره ... قد مال سكرا قبل أن ينبذا
فى روضة زاد ولوع الصبا ... بها فإن هب عليها هذى
إن صدحت ورق بأوراقها ... تغرى اللذاذات بطرد الأذى
نسيمها رطب لداء شفا ... وعرفها مسك لروح غذا
قد وعد المحبوب فيها بأن ... يزور إن صح فيا حبذا
غصن إذا ميل أعطافه ... فيا حياء الغصن منه إذا
عوذته بالله من حاسد ... وليته يرثى لمن عوذا
قد سلبت ألحاظه مهجتى ... ولم أجد لى منه مستنقذا
وروضة راضت رشا نافرا ... عليه شيطان القلى استحوذا
بت بها من دوحها ناعما ... بين شذى الطيب وطيب الشذى
نزهت طرفى فى جنى هذه ... ونلت آمالى من وصل ذا (١)

وللبرهان القيراطى فى الرياض ، جولات وجولات . وقد دخل مرة روضا

---

(١) كوكب الروضة ص ١٤ .

منها ، فإذا به يملؤه الزخرف ، والظلال تشنف أغصانه ، والحمائم تساكن أفنانه ، والنسيم يسعى رسولا ، وإذا بمجلسه فيه يلتئم بأنسه ...

فيقول :

الروض يا صاح زخرف ... والغصن بالظل شنف
وبين أوراق دوح ... ورق الحمام ترفرف
تصيح تصدح سجعا ... تشدو تغرد تهتف
وللنسيم رسول ... أتى لنا بملطف
وتم مجلس أنسى ... فلم يكن فيه مرجف
وما تخلف عنه . . . ... إلا امرؤ متخلف . .[1]

ولعل القيراطى يريدمن لفظ «متخلف» هنا ، مايراد منهافى العصر الحاضر . . وهو « غير متحضر » .

على أن الملاحظ أن القيراطى يمزج ـ غالبا ـ ربيعياته بخمرياته . فترى منهما مزاجا سائغا شرابه . وفى تائيته البارعة التى مدح بها تاج الدين السبكى ، ـ وكأنه يعارض بها تائية ابن نباتة فى مدح كمال الدين بن الزملكانى ـ طاف وهو يتنقل فى أبياتهامن بيت إلى بيت ، بهذه الربيعيات الخمرية ، أو الخمريات الربيعية الغزلة . .

يقول القيراطى من تائيته هذه الجزلة .

تشوقنى ألفات الروض مائلة ... من النسيم سكارى وهى دالات
ولى من الورق فى أوراقها طرب ... كأنهن على العيدان قينات
وللرياض أزاهير مدبجة ... وللجنان ثياب سندسيات
روض تمسكت فيه بالصبا وله ... مع الصبا نفحات عنبريات
ما قارنت فيه أقمارى شموس طلا ... إلا قضت بالمنى تلك القرانات
يطوف بالشمس فيما بيننا قمر ... نيران خديه للعشاق جنات
جلا الحميا عروساً فى الكئوس لها ... من الحباب عقود لؤلؤيات الخ[2]

---

(١) ديوان القيراطى ورقة ٩٦ .

(٢) ديوان القيراطى ورقة ٤٣ .

وقريب من هذه الأبيات قوله :

جـــدد العيش بالشراب العتيق ثم واصـــل صبوحنا بالغبوق
وأدرها على العيون كئوساً صفوها فى غنى عن الراووق
واسقنيهـــا على رياض شـقيق بنت كرم تحـكى رياض شقيق
صـــاغ ياقوتها شباكاً من الدر م عليها تصـــيد عقل المفيق
يا خليـلى وصـــاحبى ورفيقى ونـــديمى وناصحى وصـــديقى
إن ورد الكئوس فى روض ورد فيـــه يعصى الخليع كل شفيق[1]

والتفت الشعراء إلى الدواليب والنواعير وما دار مدارها . ومنهم مجير الدين ابن تميم ، الذى قرن فى بيتيه التاليين بين النهر ودولابه ، إذ رأى أنهما تجمعهما معاً جامعة البكاء وجرى الدمع وسيل العيون . فتساءل علام هذا النحيب ؟ ثم علم أن النسيم قد «ضاع» بينهما، فجرى النهر باحثاً عنه ، ودار الدولاب يتفقده . . .

يقول مجير الدين :

تأمل إلى الدولاب والنهر إذ جرى ودمعهما بين الرياض غـــدير
كأن نسيم الروض قد ضاع معهما فأصبح ذا يجرى وذاك يدور[2]

ولعب شـــعراء كثيرون — فى باب الدواليب — بلفظ « ضاع » . وقد مهد به ابن نباتة لذكر دوران ناعورته وبكائها على « الضائع » وهو نشر الربا . يقول :

وناعورة قسمت حسنها على واصف وعلى سامع
وقد ضاع نشر الربا فاغتدت تدور وتبـكى على الضائع[3]

---

(١) ديوان القيراطى ورقة رقم ١٤٢ — وفى البيت الخامس تكرر لفظ رفيق فى كل من الضرب والعروض . فغيرنا العروض بلفظ صديق .

(٢) تأهيل الغريب فصل الدواليب . (٣) المرجع نفسه .

والآن آن لنا ، وقد أشبعنا القارىء من الحديث عن مشاعر شعراء مصر وعواطفهم نحوها ونحو نيلها وما يتصل به من رياض ومنازه وحدائق وربيعيات، حتى رأى القارىء مدى استجابتهم لوحى هذه البيئة الطبيعية ، آن لنا أن نزيده إشباعاً بذكر « سرحة النيل » و « مصائد الشوارد » .

سرحة النيل :

وإذا ذكرت ربيعيات مصر وروضيات نيلها ، ذكرت فى مقدمتها « سرحة النيل » . ونعنى بها تلك السرحة التى خلدها الشاعر الفحل فخر الدين بن مكانس فى شعره .

روى جلال الدين السيوطى ، قال :

« قال الصاحب فخر الدين بن مكانس : كان على شاطىء النيل سرحة كأنها قبة زمرد ، أو فسطاط زبرجد . فاقترحت جماعة للأصحاب وبنو الآداب . أن تنظم صورة الحال ، بشرط الارتجال . على أسلوب الأرجانى فى وصف الشمعة :

نمت بأسرار ليل كاد يخفيها وأطلقت قلبها للناس من فيها

والمنازى فى فضل الوادى :

وقانا لفحة الرمضاء واد سقاه مضاعف الغيث العميم

وحمدة بنت تقى الأندلسية فى وصفه :

أباح الدمع أسرارى بواد له فى الحسن آثار بوادى

فقلت : لا تركض خيول الارتجال فى هذا المجال . ولا تستبق بداية الأذهان فى هذا الميدان . لأن تسمحوا فى الانتظار بليلة ، ربما تنجح فى اختياركم الحيلة .

فأذعن كلانا إلى ما شاء صاحبه من الاقتراح . فقلت عند تنفس الصباح :

يا سرحة الشاطىء المنساب كوثره على اليواقيت فى أشباه حصباء » .. الخ[1]

---

(١) كوكب الروضة للسيوطى ص ١٥٧ ـ

وسجل ابن مكانس بعد ذلك قصيدته فى وصف السرحة وتخليدها .

هذه القصيدة فورة من فورات الشاعرية ، وسنحة من سنحات الفن . وكم جلس ابن مكانس فى ظلال سرحته هذه وتقلب فى أفيائها ، فرآها قد كرم منبتها ، وطاب فى كنف النيل غرسها ، ورسا أصلها على شاطئه ، ونما فرعها على صفحة كوثره . وحلالها المقام معه ، لأنها وليدته أو حبيبته . فصفا لها ماؤه ، ووفى حباؤه . فضحكت له بنورها الألاق ، وزهرها البراق . وانثنت عليه بأغصان لدان ، وأفنان حسان .

لقد أثارت هذه السرحة بمفاتنها فى نفس ابن مكانس ، وساوس الشياطين ، وهواتف أبالسة الشعر . فناجاها بهذه القصيدة الفريدة التى خلدتها بين لداتها ، وأبرزتها دون أخواتها .

ولقد راعه جمالها وجلالها ، وأعجبه منها سموقها إلى السماء فى أنفة وكبرياء . وامتداد أفنانها على صفحة الماء . فنظر إليها نظر العاشق المشغوف والمحب الواله . وامتزجت نفسه بنفسها ، وحلق بخياله فى أجوائها . فأخذت هى تملى على خاطره بديع الوصف ، وترسم له روائع الصور .

فطفق ينعت قوامها من الأخمص إلى الذؤابة . كأنها وهى العجوز الشمطاء كاعب حسناء . ولم لا ؟ وهذا نورها يبسم من الفرح ، فيغاديه من الغيم كل بكاء . وتداعبها الأنواء ، وتفاكهها السحب بالماء . وإذا توهج القيظ فاستشرى داؤه وأعجز دواؤه ، طبته عن علم وخبرة ، وشفته من رمضائه فى لطف وقدرة . وهى لذلك مقيل ندمان ، ومغنى حمائم . لا بل مرتع ظباء ، وفناء درماء . . . .

وإذا صفق الموج من تحتها طربا ، نقطته بأزاهيرها ، ما بين صفراء فاقعة ، وبيضاء ناصعة . وإذا جاش النهر بخريره ، مالت إليه ، كأنها أذن مصغية يلقى إليها بسره . فيريها جزاء لذلك ، محاسنها فى مرآته ، ومفاتنها على صفحاته . .

وقد خلع عليها القدم قدسية ، فأصبحت كدير راهب . إذا اعتلى بلبلها ذرا

أغصانها ، ملأ سواد الليل بترتيله ، فتخاله مسبحا داعيا ، وعابدا مصليا ومناديا..

على هذا الضرب من الخيال الفريد والوصف الجديد ، نظم ابن مكانس سرحيته العصماء . وقد بدأ مطلعها بهذه المناجاة ، قال :

يا سرحة الشاطىء المنساب كوثره ... على اليواقيت فى أشكال حصباء
حلت عليك عزاليها السحاب إذا ... نوء الثريا استهلت ذات أنواء
وإن تبسم فيك النور من جذل ... سقاك من كل غيم كل بكاء

وقال :

يا طيبة بدواء القيظ عالمة ... أنت الشفاء لدى الرمضا من الداء
لاصوح الدهر منك الزهر وانبجست ... عليك كل هتون الودق سوداء

وقال :

خمائل الروض منشاها ومرضعها ... ضرع النميرين من نيل وأنواء
فاستمهدت دوحها المخضل وافترشت ... نجم الربا ورمت عرشا على الماء
قريرة العين بالأضواء باردة ... القلب الذى لم تنله غير سراء
مقيل ندمان بل مغنى حمائم بل ... كناس آرام بل أفناء درماء
قديمة العهد هزتها الصبا فصبت ... فهى العجوز تهادى هدى مرهاء
لا يدرك الطرف أقصاها على كلل ... حتى تعود له لحظا لحولاء
وصوت بلبلها الراقى ذرا غصن ... فى حلة من دمقس الريش دكناء
يقرع ناقوس ديرى على شرف ... مسبح فى سواد الليل دعاء(١)

---

(١) العزالى : جمع عزلاء ، وهى مصب الماء من الراوية — والودق : المطر — والنوء : النجم مال إلى الغروب ، وسقوط النجم فى المغرب مع الفجر وطلوع نجم آخر . قال فى المصباح : وكانت العرب تضيف الأمطار والرياح والحر والبرد إلى الساقط من النجوم وقيل إلى الطالع ودرم الكعب : بكسر الراء ، واراه اللحم فلم يبن له حجم ـ وهى درماء كاسية ـ ومرهت عينه : بكسر الراء ، خلت من الكحل أو فسدت لتركه ، أو ابيضت حماليقها — والدمقس : الإبريسم أو الخز أو الديباج أو الكتان ـ والإبريسم هو الحرير .

والقصيدة — وتقع فى أكثر من ستين بيتا على هذا النسق — وصفية عاطفية ، خالصة لوجه السرحة . ولم يقتصر الوصف فيها على الناحية الحسية ، كما رأيت ، بل خلع الشاعر على سرحته ضروبا من الإحساسات النفسية والانفعالات العاطفية . فكما وصف ارتفاعها وكلال البصر دونه ، ونشأتها بين خمائل الروض ، ورضاعها من النميرين : النيل والأنواء . وأغصانها وما فيها من لين ، وأزهارها وما بها من وضاءة ، وظلها وماله من وروف ، وتصفيق الموج من تحتها وترقرقه ، وخرير النهر إليها وجيشه ، وصفحة مائه وصفاءها . . . إلى غير ذلك . . .

نقول كما وصف ذلك ، نسب إليها أيضا ألوانا من الأوصاف المعنوية : فنورها يبسم . وظلها يطب من القيظ ، ويشفى من داء الهجير . وقلبها لم تنل منه غير السراء . وعينها قريرة . وأنها صبت ، وأنها تتهادى .. إلى غير ذلك .

وقد وصفها بمعنويين متناقضين ، اقتضى كل منهما المقام : أحدهما أنها تصبو كما تصبو العجوز ! فقال : « قديمة العهد هزتها الصبا فصبت. فهى العجوز . . » الخ . وشأن الصابية امتلاء القلب بالشجو ، وترنح العطف من الهوى . . .

ثم عاد الشاعر فنفى عنها الصبوة وامتلاء القلب . وذلك حينما راح يوازن بين ما فى نفسها وما فى نفسه . وبين ما تحتمله فى ضلوعها ، وما يثوده فى حناياه . فبدت له حسناء خالية الفؤاد من الهوى ! والحسناء إذا وثقت بجمالها واطمأنت إليه ، ولم يعبث الحب بقلبها ، استطاعت أن تعبث بالقلوب ..

وهكذا استطاعت سرحة ابن مكانس أن تعبث بقلبه وتبعث فيه الغيرة ، وتتهكم به وتميل إلى سواه . . . قال :

خلية حين أحنيت الضلوع على ... نار لشجوى بها لاحب لمياء
تهكمت بى فما أحنت أضالعها ... على الهواء وأحنتها على الماء

ويمتاز ابن مكانس فى سرحيته ، بأنه عنى - بجوار وصف السرحة وصفا حسيا ومعنويا — بوصف مالابسها من الحوادث اللصيقة بها ، والمرائى الدائرة حولها .

وقد يجنح بعض الشعراء فى قصائده الوصفية ، عن وصف موضوعها إلى ملابسانه البعيدة . أما ابن مكانس فقد نظم فى صميم موضوعه ، ولم يخرج عنه إلا نادراً . ولم يخرج عنه إلا إلى مايتصل به ، ولم يخرج عنه إلا ليعود إليه .

ونستطيع أن نعدد الموضوعات الجزئية التى طرقها بوصفه . فمنها : المناجاة والتذكر ، وذكر الظل ونعت المنبت ومافيه من خمائل ، وما يجوده من ماء . ولين الغصون واهتزاز قوامها وارتفاع الفروع . وتغريد البلابل ، وتصفيق الموج . وتساقط الزهر ، وتغضن اللحاء . إلى غير ذلك مما يتصل بالسرحة اتصالا مباشراً .

وقد أبدع ابن مكانس بعد ذلك ، فى وصف النهر بعدة أوصاف ، منها أنه مرآة بدا فيها الحسن واللألاء . وبأنه يزرى بنهر الأبلة ، وبأنه عند تحريك النسيم له يبدو كفرند السيف . إلى غير ذلك . .

ومن هذه الأبيات قوله :

مالت على النهر إذ جاش الخرير بها ... كأنها أذن مالت لإصغاء
كأنما النهر مرآة وقد عكفت ... عليه تدهش فى حسن ولألاء
ذو شاطىء راق غب القطر فهو على ... نهر الأبلة يزرى أى إزراء
كأنه عند تحريك النسيم له ... فرند سيف نضته كف جلاء

ومنها :

كأنه حين بدا زرقه وصفا ... راووق عين بوجه الأرض شهلاء

ومما يذكر أن تقى الدين بن حجة الحموى روى — عندما ذكر أبيات ابن مكانس هذه — البيتين التاليين للأرجانى وهما :

كم طعنة نجلاء تعرض بالحمى من دون نظرة مقلة نجلاء
فتحدثا سرا فحول قبابها سمر الرماح يملن للإصغاء

ثم رجح أن يكون ابن مكانس قد ولد منهما بيته :

مالت على النهر إذ جاش الخرير به كأنها أذن مالت لإصغاء[1]

.....

وانتقل ابن مكانس بعد وصف النهر ، إلى ذكر الحمامات الشادية على أراك السرحة ، بين هذه الحدائق الفيح حتى أطربت عيدانها ، وأرقصت أغصانها . فقال :

من كل ورقاء فى الأفنان صادحة بين الحدائق فى فيحاء زهراء
ورق تغنت بتحنان رقين على عيدانها فاله فى مغنى وغناء

ثم عاد إلى السرحة يذكر خطاب ظلها وأحباب ناديها . وقد برئت قلوبهم فى رحابها من الحقد ، وخلصت من الشحناء ، فلم يعد لهم رابطة إلا الوداد . ولا جامع إلا اللهو ، الذى لا مكر فيه ، والمجون الذى لا ندم بعده. قال :

باكرتها فى سراة من أصاحبها لاينطوون على حقد وشحناء
يداعبون بمعنى شعرهم فأروا ود الأحبة فى ألفاظ أعداء
من كل شيخ مجون فى شباب فنى يقرى المجون بقلب غير نساء
يسعى إليها على جرداء جارية من آلها كهلال الأمن حدباء

انتقل الشاعر فى البيت الأخير — كما ترى — انتقالا لطيفا إلى وصف السفينة ، يركبها الأحباب المرتاضون فى أمانة النهر وحراسة تياره . وشبهها بهلال الأمن ، لا بهلال الشك . فقد استسلم فوقها اللاهون للمجون استسلام المؤمن لقدره ، فى وداعة ورضا واطمئنان .

وهذه السفينة « نوحية الصنع » . فلعل الشاعر كنى بذلك عن قدمها ، إذ هى

---

(١) خزانة الأدب لابن حجة .

معودة — من زمن بعيد — أن تحمل العشاق والمحبين وتوصلهم إلى غاياتهم ، وتحفظ الخفى من مكنوناتهم وأسرارهم : وكم أثقلوا ظهرها وآدوا منكبيها ، وما اشتكت منهم عناء ولا بكت إعياء ....

أو لعل الشاعر يرمز إلى دقة صنعها ، وإلى أنها مباركة طيبة ، فيها الأمن والأمان والنجاة .

لذلك كله تزهو السفينة بنفسها ، وتفخر على الجياد الغر والعتاق الضامرة . وقد بدت كالعروس تتهادى فى زينتها ، وكالرود تتبختر فى مشيتها . فتزيد بذلك جو العشاق أنسا وبهجة ، وتسحر عيونهم بما زها عليها من ألوان فاتنة . قال ابن مكانس :

نوحية الصنع والإحكام منشأة ... تسير ما سيرت من غير إعياء
سوداء تحكى على الماء المصندل شا ... مة على شفة كالشهد لعساء
ساجية ألبستها الصانعون لها ... من التدابيج مايزهو بصنعاء
غريبة ذات ألوان وأجنحة ... لم أدر تعزى لروض أو لعنقاء
لم يستطع شأوها أو سيرها عنق ... غر الجياد على كد وإنضاء

وكما تخلص الشاعر إلى وصف السفينة فى رفق ، تخلص من وصفها إلى أبيات خمرية منتشية ، فأبدع ماشاء له قلمه وإلهامه ، فجمع فى وصف الخمر بين الشمطاء والعذراء . الشمطاء لنفاستها وقدم عهدها ، والعذراء لأنها مختومة لم تفض ، وبكر لم تقرب . وأجاد فى وصف إبريقها الذى إذا انحنى فركوع دعّاء ، وإذا صوت فتسبيح فأفاء . .

وبتناولها ينتظم شمل نادى السرحة ، ويلتئم مجلس رواده . . . يقول ابن مكانس :

كم قد نعمنا بها عيشا بساقية ... شمطاء تجلى على الجلاس عذراء
مما تخيرها كسرى وأودعها ... رب الخورنق فى قوراء جوفاء

حمراء صرفا وصفرا إن مزجت لها ... كم من يد فى سواد الليل بيضاء
راحا إذا ركع الإبريق يمزجها ... سمعت من صوته تسبيح فأفاء
أم السرور التى أبقى الزمان بها ... جزء الحياة وقد ألوى بأجزاء
فعاطينها على طل الندى سحراً ... فإن تريا قها موتى وإحيائى

اختتم ابن مكانس سرحيته الفريدة بأبيات ذكر فيها شيئاً من لهوه ، وطرفا من مجونه ، وتقلبه بين الشادى والشادية ، وبين العود والناى ، وبين الحدائق ذات البنفسج الفياح والزهر النفاح ، منوها أن من دأبه أن يأخذ من اللهو بنصيب . وأنه لاينوح — كغيره — على طلل ، ولا يندب خليطا ، ولا يبكى على أحياء . يقول :

أما أنا لست نواحا على طلل ... ولا خليط ولا نداب أحياء
تركته لأناس كالتيوس غنوا ... عن المدام بدر الإبل والشاء
يعزون للشعر لكن من جهالتهم ... لم يعرفوا بين إيطاء وإقواء
من كل ألكن عند البحث منقطع ... كأنه واصل والشعر كالراء . .[1]

مصائد الشوارد :

وما دمنا بصدد الحديث عن الربيعيات والروضيات ، لانرى بدا من الإشارة العابرة الوجيزة إلى هذه المزدوجة البارعة التى نظمتها يراعة الشاعر الكبير جمال الدين بن نباتة المصرى ، وهى قصيدته «مصائد الشوارد» :

وقد كان ابن نباتة أمير شعراء مصر فى زمانه بلا منازع ، بل أمير شعراء

---

(١) القصيدة فى ديوان فخر الدين بن مكانس — مخطوط بدار الكتب المصرية — ومطالع البدور فى منازل السرور للعلامة الغزولى ج ١ مخطوط بمكتبة الأزهر — وروض الآداب للشهاب الحجازى مخطوط بمكتبة الأزهر ٠ — وكوكب الروضة للسيوطى مخطوط بدار الكتب المصرية ص ١٥٧ . وواصل هو واصل بن عطاء ، وكان لايحسن نطق الراء .

المشرق . ولد فى مصر ونشأ بين ربوعها ، وتثقف بثقاف أدبائهما ، وتفتحت عينه أول ما تفتحت على ملاعبها ومرابعها ولها فى مراحاتها . وثملت نفسه بمفاتن طبيعتها ومحاسنها .

ولكن عاجله الفراق . فنزح عنها لضيق عيشه بها ، متكسباً بشعره فى دمشق وحماة . وهناك احتفل الملك المؤيد إسماعيل صاحب حماة بمقدمه ، وأكرمه ، فمدحه وأطال فى مديحه وأجاد . ثم اتصل من بعده بابنه الملك الأفضل فحظى عنده كما كان من قبل عند أبيه .

ورافق ابن نباتة مرة ، ركاب الملك الأفضل . وكان قد خرج إلى رحلة صيد ، ومعه رجاله وغلمانه وحرسه وخدمه وطهاته وأدوات صيده من رماح وقسى وسهام وبزاة وصقور وكلاب ، وأدوات لهوه وأنسه .

فسجل ابن نباتة هذه الرحلة الممتعة فى مزدوجته البارعة . ووصف فيها كل ما ذكرناه لك . وكل مامر عليه ورآه من طبيعة أحراج حماة وما يعيش فى زواياها من صيد سمين . ووصف الشجر والزهر والثمر ، والطير والأرض والسماء ، ووصف الغلمان والبزاة والصقور إلى غير ذلك . فكانت قصيدة جامعة رائعة ، استغرقت نحو ١٧٠ بيتا من جيد الشعر .

وهكذا ظفرت حماة وبيئة حماة الطبيعية ، من ابن نباتة ، بما لم تظفر به منه مصر ، وهو وليدها وناشئها وشاعرها ولكن هذه عاقبة حرمانها له ، وتفريطها فيه .

وإليك بعض أبيات هذه الفريدة . قال فى أولها :

أثنى شذى الروض على فضل السحب ... واشتملت بالوشى أرداف الكثب

ما بين نور مسفر اللثام ... وزهر يضحك فى الأكمام

إن كانت الأرض لها ذخائر ... فهى لعمرى هذه الأزاهر

قد بسطتها راحة الغمائم ... بسط الدنانير على الدراهم

أحسن بوجه الزمن الوسيم تعرف فيـــه نضرة النعيم
وحبـذا وادى حمـاة الرحب حيث زها العيش به والعشب . الخ[١]

ويقول صاحب كتاب « شعر الطبيعة » إن بائية ذى الرمة التى تبلغ مائة وثلاثين بيتا لم تظفر العربية بمثلها طولا ، فى شعر الطبيعة (٢) . ونقول إن « مصائد الشوارد » لابن نباته أطول منها ....

رحلة صيد للملك الأشرف خليل :

وذكرتنى « مصائد الشوارد » ورحلة الملك الأفضل ، برحلة قبلها للصيد ، قام الملك الأشرف خليل بن قلاوون عام ٦٩٠ هـ . لقد خرج مع أمرائه ورجاله وبين جنده وحرسه ، ومعه أدوات صيده ورماته ، إلى رحلة صيد اتجه فيها نحو قرى البحيرة ومنها دخل مدينة الإسكندرية .

وضربت خيامه جهة الأهرام . وأخذ رماة الصيد يرمون . وعرضوا عليه أن يرمى معهم فيصيد الطير بالبندق . فأبى واستنكف ، وترفع وتعفف ، أن ينزل إلى مستوى الرماة ، وأن يقتل الطير على طريقتهم فى صيده وقتله . . .

ونظم الشاعر الكبير محيى الدين بن عبد الظاهر فى هذا قصيدة . . لم يذكر فيها شيئا مما رآه من مجالى الطبيعة إبان الرحلة ، ولا وصف مزاولة الصيد . وحبس اهتمامه فيما كان من أمر الملك الأشرف ، وتعففه عن الصيد ، كأنما لم يعجبه من الرحلة إلا هذا التعفف . وكال له المديح كيلا . .

لو اتجه فى قصيدته كما اتجه ابن نباته من بعد فى أرجوزته ، لكان للأدب منه ثراء ، ولشعر الطبيعة منه غنى .

---

(١) ديوان ابن نباتة ـ فى آخر الديوان .
(٢) كتاب شعر الطبيعة فى الأدب العربى للدكتور سيد نوفل ص ١٤٧ .

ولعله — والله أعلم — وصف الرحلة فى مفتتح القصيدة . ولكن لم يسجل منها المؤرخون إلا أبيات المديح

وقد قال فى أول الأبيات المسجلة ، وفيها مبالغة غير مستساغة :

ما يدعى السلطان إلا لمن ... يكون أعلى منه مقدارا
والأشرف السلطان من دونه ... قد خلق العالم أطوارا
لأجل هذا ما رمى بندقا ... ونال بالجارح أوطارا
وليس بالواجب ذاك الذى ... يسميه بالواجب من مارى
حاشاه من تبديل أقواسه ... أو يبدل الأوتار أوتارا . . (١)

الأهرام :

والأهرام — وإن كانت من صنع الإنسان ، ومما أقامه على سطح الأرض ، وتدل على حياة مصرية قديمة اجتماعية ، حافلة ، اشترك فى بنيانها الدين والعقيدة من ناحية ، والحكم المستبد والمستوى الاقتصادى والصناعى من ناحية أخرى ، — رسخت على ظهر هذه الأرض ، ولم يعترها من التغيير والتبديل ما يعترى سائر ما يبنى الإنسان ، واعتادت العين رؤيتها جزءا لا ينفصل من طبيعة صحراء مصر الغربية . حتى صارت امتدادا لها ، وأعجوبة باقية من أعاجيب مصر الخالدة ، التى يسعى إليها الناس من كل حدب ، سائحين حاجين ، ليروا فيها ما يملأ العين جلالا والنفس روعة .

وقد توثب خيال بعض شعراء مصر ، فدار حول الأهرام ، واستوحى منها ما استوحى من عو صوربر .

---

(١) قصة الرحلة والقصيدة ص ٢٨ ، ٢٩ ، ٣٠ من « الألطاف الخفية من السيرة الشريفة السلطانية الملكية الأشرفية » — خليل بدار الكتب ط أوربا .

وقد طار الأديب القاضى فخر الدين عبد الوهاب المصرى ، بخياله حولها وحلق فى جوها ، فرآها من عظات الدهر . وتذكر ما قاله فيها الأدباء ، وما نظمه الشعراء . ونظر إليها فإذا هى فى رأى عينه ، جبال شامخة تكاد أن تمتد فوق الأفق . وكأن كسرى جالس على قمتها ، وسفحها إيوانه . فأخذ يمجد خلودها على الزمان ، وثباتها على حره وبرده ، وعلى غيره وصروفه ، دون أن تتأثر بإحراق الشمس أو عصف الرياح ، أو جريان السيل .

ويتساءل الشاعر — وهو فى تساؤله متعجب معظم — هل هى أوثان عابد ، أو مثوى لروح قائد ، أو مأوى له من طوفان ، أو مرصد لراصد . أو هل اختارها القائد ملجأ يعود إليه لأنه يؤمن برجعة روحه بعد موته . لذلك يحشد فيها كنوزه ، ويحفظ جسمه ، ليأمن عليهما من بوائق الدهر . . . إلى غير ذلك من المشاعر والأفكار التى أثارها منظر الأهرام فى نفس الشاعر .

وإليك هذه الأبيات ، قال :

أمبانى الأهرام كم من واعظ ... صدع القلوب ولم يفه بلسانه
أذكرتنى قولا تقادم عهده ... أين الذى الهرمان من بنيانه
هن الجبال الشامخات تكاد أن ... تمتد فوق الأرض عن كيوانه
وكأن كسرى جالس فى سفحها ... لأجل مجلسه على إيوانه
ثبتت على حر الزمان وبرده ... مددا ولم تأسف على حدثانه
والشمس فى إحراقها والريح عن ... د هبوبها والسيل فى جريانه
هل عابد قد خصها بعبادة ... فمبانى الأهرام من أوثانه
أو قائد يقضى برجعة نفسه ... من بعد فرقته إلى جثمانه
فاختارها لكنوزه ولجسمه ... قبرا ليأمن من أذى طوفانه
أو أنها للسائرات مراصد ... يختار راصدها أعز مكانه
أو أنها وضعت بيوت كواكب ... أحكام فرس الدهر أو يونانه

أو أنهم نقشوا على حيطانها علما يحار الفكر فى بنيانه
فى قلب رائيها ليعلم نقشها فكر يعض عليه طرف بنانه (١)

وجاز الشهاب المنصورى بالهرمين ، فوقف أمام جلالهما مشدوها معجبا ، مأخوذا بروعة بنائهما وجمال تشييدهما ، وطيب إخائهما ، وإقامتهما هكذا متجاورين فى هذه الصحراء الشاسعة ، واقفين على أبوابها فى ثبات وترقب . فأخذ يستوحى منهما العبر بعقله ، ويستلهم من وقفتهما الصور بخياله . وخالهما مسافرين عرفا المحل ، أو عاشقين تواصلا بالرغم من رقيبهما أبى الهول ، أو حائرين تطلعا إلى السماء يستهديان نجمها ، أو ظامئين استسقيا صوت الحيا . ويقول الشاعر :

إن جزت بالهرمين قل كم فيهما من عبرة للعاقل المتأمل
شبهت كلا منهما بمسافر عرف المحل فبات دون المنزل
أو عاشقين وشى بوصلهما أبو الـ ـهول الرقيب فخلفاه بمعزل
أو حائرين استهديا نجم السما فهداهما بضيائه المتهلل
أو ظامئين استسقيا صوب الحيا فسقاهما عذبا روى المنهل
يغنى الزمان وفى حشاه منهما غيظ الحسود وضجرة المستثقل (٢)

الهلال :

والهلال من مجالى الطبيعة الفاتنة . وقد وثب إليه خيال الشاعر شرف الدين الطائى ، فوجده سوارا جميلا تزدان به حسناء . ووجد الزهرة قريبة منه ، فهى جوهرة ركبت على قفله . . وهذا لعمرى خيال رجل متحضر . .

---

(١) خطط المقريزى ج ١ ص ١٩٦ فى حديثه عن الأهرام ، وروى أنه وجدها مكتوبة بخط شهاب الدين بن أبى حجلة الذى قال إن الناظم أنشدها له عام ٧٥٥ هـ . راجع أيضا : الذيل الأول لثمرات الأوراق لابن حجة . ص ١٦٩ ط المطبعة الوهبية عام ١٣٠٠هـ .

(٢) حسن المحاضرة ج ١ باب ذكر الهرمين .

قال الشاعر :

كأن الهلال بجو السماء وقد قارب الزهرة النيرة
سوار لحسناء من عسجد على قفله ركبت جوهرة[1]

وسما إليه الشاعر المبدع ابن نباتة المصرى فجمع فى وصفه اثنى عشر تشبيها . صاغها بعبارته الجزلة . ويبدو أن جوهر هذه التشابيه مألوف فى وصف الهلال . غير أن للشاعر هنا - ولا ريب - تصرفا فى تخريج وجوه الشبه أو بعضها .

وقد رآه قوسا موتورا على مهج الأعداء . ومخلبا مده نسر السماء يخيف الطير ، ومنجلا انعطف للحصاد ، وخنجراً مرهفاً . ونعلا من تبر مهدى إلى جواد ملك أو أمير ، وراكعاً يشكر الله على فضـــله ، وحاجباً أشمط يفضح عمر صاحبه . وزورقا انحدر فى بحر الظلام ، وشفة مائلة إلى كأس . ونصف سوار طرحه كف الدجى . وقطعة قيد لمأسور ، ونون رمضان سقطت لما مضى الشهر .

قال ابن نباتة :

كأن شكل هلال العيد فى يده قوس على مهج الأعداء موتور
أو مخلب مده نسر السماء لهم فكل طائر قلب منه مذعور
أو منجل بحصاد القوم منعطف أو خنجر مرهف النصلين مطرور
أو نعل تبر أجادت فى هديته إلى جواد ابن أيوب المقادير
أو راكع الظهر شكراً فى الظلام على من فضله فى السما والأرض مشكور
أو حاجب أشمط ينبى بأن له عمراً له فى ظلال الملك تعبير
أو زورق جاء فيه العيد منحدراً حيث الدجى كعباب البحر مسجور
أو لافقل شفة للكأس مائلة تذكر العيش إن العيش مذكور
أولا فنصف سوار قام يطرحه كف الدجى حين عمته التباشير

---

(١) حسن المحاضرة ج ١ باب ذكر الهرمين .

أولا فقطعة قيد فك من بشر أخنى الصيام عليه فهو مأسور
أولا فمن رمضان النون قد سقطت لما مضى وهو من شوال محصور[1]

والأبيات من قصيدة رائية لابن نباتة ، مدح بها الملك المؤيد صاحب حماة ، وإليه يشير فى بعض الأبيات بقوله : ابن أيوب .

وقد ذكر ابن حجة فى ديوان شعره « الثمرات الشهية » — وكان هو قد عارض رائية ابن نباتة برائية على نمطها — « أن ابن نباتة شبه الهلال هذه التشبيهات ، وهى من السبعين تشبيها . التى ذكرها الشيخ صلاح الدين فى شرح اللامية »[2] .

ويعنى ابن حجة بشرح اللامية ، شرح الصفدى للامية الطغرائى المعروفة بلامية العجم . واسم الشرح « الغيث الذى انسجم » .

ولم يشر ابن حجة إلى أى الشاعرين أخذ من الآخر . ونرجح أن الصفدى هو الذى أخذ من ابن بنانه ، أو اقتدى به لأن هذا كان ديدنه — ثم زاد عليه ما زاد .

وقد نظم الصفدى — حقا — عدة مقطوعات فى وصف الهلال بخاصة ، سماها « رصف اللآل فى وصف الهلال » . وقد ضم الجلال السيوطى إليها مجموعة أخرى من نظم الشعراء فى وصف الهلال ، وسمى الجميع « رشف الزلال فى وصف الهلال »[3] .

وفى مقطوعات الصفدى تراه قد اعتمد كثيرا فى تشبيهاته على تشبيهات غيره ، ومنها ماهو مألوف ، ومنها غير المألوف . ويبلغ عدد هذه المقطوعات نحو ٤٣

---

(١) ديوان ابن نباتة ص ١٨٦ — ورصف اللآل فى وصف الهلال ص ٧٤ ، ضمن مجموعة رقم ١١٧١ بالمكتبة الأزهرية ط الجوائب عام ١٣٠٢هـ .

(٢) راجع ديوان ابن حجة الحموى « الثمرات الشهية » مخطوط بدار الكتب المصرية .

(٣) رشف الزلال يوجد ضمن المجموعة رقم ١١٧١ بالمكتبة الأزهرية ط الجوائب .

مقطوعة . لم يبلغ بها مستوى ابن نباتة ، من الجزالة ودقة الصنع وحسن الخيال .

ومن تشبيهات الصفدى فى هـذه المقطوعات : تشبيهه بمقص فتح لقص ذيل السماء . وبالمحجبة التى رآها خليلها فبدا له منها حاجب، واختفى الآخر . وبالحاجب المقلوب من رجل أسود أشيب . وبالوتد الذى جره الطنب فاعوج . وبالقرص من مرآة صدئة طوق بعضها بالذهب . وبالمتعب الذى انحنى ظهره . وبالمنحنى الذى يفتش عن شبابه فى التراب ، وبالصدع فى زجاجة . وببقايا الطحين فى جانب الرحى . وبشارب ظامىء شرب لبنا لم يمسحه . وبالنون وبالنوى وبالقوس دون الوتر . وبالفخ . وبالزريدة من الفضة لاح بعضها فى سابغة من حديد . وبالنعل الملتاث بالطين . وبذباب حسام فتق بحده الغمد ، وبالسر فى الضمير . وبالشعرة البيضاء فى وجه الغـــدير . وبالسوار وبالدملج ، وبالطوق وبالصدغ وبالحاجب وبالعذار . وبمرآة الخد ، وبالفتر الممتد . وبأثر الظفر فى تفاحة . وبفم بئر غطى إلا جزءا منه . وبالمحراب المنعكس ، وبالقنديل ، وباللبب الأبيض فى صدر الفرس الأدهم . وبالماء يبقى فى أسفل الحوض . وبعطفة الجدول فى الروض . وبالزورق . وبعقصة العجوز . وبالراكع ، وبطالب المجد المتعب . وبالشعرة البيضاء فى حاشية الرداء الأزرق . وبتجويف القاف . وبطية الأعكان من ناهد . وبغبب مستحسن فى حنك . وبالمنجل . وبناب الفيل . وبمخلب الرئبال . وبنون رمضان . وبالغار تدخله ظباء الثريا . وبمنطقة خصر . وباللثام . وبخشكنانجة فى صحن صينى[1] . وبكرة من عنبر . وبعوذة من لجين . وبالخلخال ، وبحق الحلى بعض مافيه قرط الثريا . . الخ .

ومهما يكن من شىء فلا نملك للصفدى إلا الإعجاب به وبمجهوده ، فى جمع هذه التشبيهات أو تصورها ، وصبها فى قالب شعرى ، باق حتى اليوم . وفى مجهوده دلالة قوية على أن الهلال شغل من نفسه جانباً كبيرا . . وإن كانت تشبيهاته له

---

(١) الخشكنانجة ، يبدو أنها نوع من الكعك أو « البسكويت » .

حسية لم يجنح بها إلى عاطفة ، أو يتحول إلى مناجاة نفسية .

وإليك بعض أبيات مقطوعاته :

قال يشبهه بمن يفتش عن شبابه فى التراب :

يقول هـــلالنا فى كل شهر مقالة ذى عناء واكتئاب
مضى زمن ولى وجه مليح أفوق به على الخود الكعاب
وقد أصبحت منحنيا كأنى أفتش فى التراب على شبابى(١)

وقال يشبهه بالمحجبة :

كأن هلال الأفق لما بدا لنا ولاحظه كل بعين مراقب
محجبة لمـــا تراءت لصبها بدا حاجب منها وضنت بحاجب(٢)

وقال يشبهه بمرآة خد :

حكى هلال الأمس لما مضت له ثلاث واعتـــلى واستنار
مرآة خد بعضها ظاهر والبعض منها فى غلاف العذار (٣)

وقال يشبهه بالشعرة البيضاء فى الرداء الأزرق :

وبدا هلال الأفق والأقوام بين مكذب فى أمره ومصـــدق
فكأنما هو شعرة بيضاء قد علقت بحاشية الرداء الأزرق(٤)

وقد أتى خيال ناصر الدين بن النقيب فى تشبيهه الهلال ، بصورة خيالية بعيدة ، وإن كانت حسية ، إذ قال :

أغملت فكرى فى السماء وقد بدا فيها هلال جسمه منهوك
فكأنما هى شقة ممدودة وكأنه من فوقها مكوك (٥)

(١ و ٢ و ٣ و ٤) رصف اللآل للصفدى ضمن مجموعة بالمكتبة الأزهرية رقم ١٧٧١ ط الجوانب عام ١٣١٢ هـ
(٥) رشف الزلال فى رصف الهلال للسيوطى ، ضمن المجموعة السابقة .

وشبهه البرهان القيراطى بالزورق ، ولكن بعد تصور لطيف ، إذ رأى شهب السماء غارقة فى ماء النيل، وفى جملتها الهلال ، فقال :

وتمثلت فى النيل شهب سمائنا فكأنها فيه قلوب تخفق
ولقد عجبت لها نجوما كلما سحبت على الأفلاك فيه تفرق
لا تنكروا غرق الهلال بمائه إن الهلال كما علمتم زورق (١)

ونكتفى فى هذا الفصل بالدراسة التى أسلفناها . وقد تبين منها ـ ولاريب ـ مبلغ تأثير بيئتنا الطبيعية فى شعرائنا إبان عصر المماليك ، وشهدنا مبلغ استجابتهم لها وتلبيتهم لندائها ، وتسجيل مشاعرهم نحوها ، ووصف معالمها من زواياها المتعددة. ولا حاجة بنا إلى أن ننبه ـ بعدما بيناه ـ على مدى يقظتهم النفسية والفكرية معا وعمق تأثرهم بهذه البيئة عمقا بدت معالمه فيما نظموه . لقد استطاعوا بتمكن هذا التأثر من نفوسهم ، أن يمدوا صناعتهم الفنية بأدواتها ووسائلها الضرورية ، التى أمكنهم بها أن يحسنوا هذه الصناعة . فجمعوا بذلك بين صدق التجربة وإجادة الصناعة .

ونحن ـ بعد ذلك نتابع خطانا إلى ميدان آخر . وهو ميدان البيئة السياسية ، لنطلع على مجهودهم فيه ، وانطباعاتهم عنه وتجاوبهم معه .

---

(١) كوكب الروضة للسيوطى من ١٥٢

الحمـــد لله

تم طبع المجلد السابع من كتاب عصر سلاطين المماليك

ونتاجه العلمى والأدبى

وذلك فى ربيع الثانى سنة ١٣٨٥ هـ — وأغسطس سنة ١٩٦٥ م

ويليـــه المجلد الثامن

وأوله الفصل الثانى من البـاب الأول

فى

بيـان أثر البيئة السياسية فى الشعر

مراجع المجلد السابع

مرتبة بحسب حروف الهجاء

١ ـ ابن نباتة أمير شعراء المشرق للأستاذ عمر موسى باشا ـ نشر دار المعارف .
٢ ـ الأدب الجاهلى للدكتور طه حسين .
٣ ـ الأدب العربى وتاريخه للأستاذ الشيخ محمد عبد المطلب .
٤ ـ الأدب العربى المعاصر للدكتور شوقى ضيف .
٥ ـ الأدب المقارن لفان تيجم ، معرب ، طبع ونشر دار الفكر العربى .
٦ ـ اتجاهات الشعر العربى فى القرن الثانى الهجرى . للدكتور محمد مصطفى هدارة . . طبع دار المعارف .
٧ ـ أخبار أبى تمام لأبى بكر الصولى .
٨ ـ الأخطل شاعر بنى أمية ، للدكتور السيد مصطفى غازى . نشر دار الثقافة بالإسكندرية .
٩ ـ الأشباه والنظائر لجلال الدين السيوطى .
١٠ ـ الأصول الفنية للأدب للأستاذ عبد الحميد حسن .
١١ ـ إغاثة الأمة بكشف الغمة لتقى الدين المقريزى .
١٢ ـ الأغانى لأبى الفرج الأصفهانى .
١٣ ـ أغانى الطبيعة للدكتور أحمد الحوفى .
١٤ ـ أمراء غسان لنولدكة ، تعريب الدكتور بيدلى وآخرين .
١٥ ـ ألحان السواجع لصلاح الدين الصفدى ـ خط بدار الكتب المصرية .
١٦ ـ بدائع الزهور لابن إياس الحنفى .

١٧ ـ بهجة الناظر ونزهة الخـــاطر للجلال السيوطى ـــ خط بدار الكتب المصرية .

١٨ ـ تاريخ آداب اللغة العربية لجورجى زيدان .
١٩ ـ تاريخ الخلفاء للجلال السيوطى .
٢٠ ـ تاريخ دولة المماليك للسير وليم موير ، تعريب محمود عابدين وسليم حسن .
٢١ ـ تاريخ الفلسفة فى الإسلام للأستاذ ت . ج . دى بور ، تعريب الأستاذ أبو ريدة .

٢٢ ـ تاريخ مصر فى العصور الوسطى للدكتور على إبراهيم حسن .
٢٣ ـ تأهيل الغريب لتقى الدين بن حجة الحموى ـ خط بدار الكتب المصرية ، ومعهد الإسكندرية الدينى .

٢٤ ـ تشريف الأيام والعصور فى سيرة الملك المنصور لمحيى الدين بن عبد الظاهر طبع وزارة الثقافة والإرشاد القومى .

٢٥ ـ التطور والتجديد فى الشعر الأموى للدكتور شوقى ضيف ـ طبع دار المعارف .

٢٦ ـ التعليم فى مصر لأمين سامى .
٢٧ ـ تقويم البلدان لأبى الفداء إسماعيل .
٢٨ ـ تقويم النيل لأمين سامى .
٢٩ ـ ثورة الأدب للدكتور محمد حسين هيكل .
٣٠ ـ جمهرة أشعار العرب لأبى زيد القرشى .
٣١ ـ جلاء العينين للآلوسى .
٣٢ ـ الحركة الفكرية للدكتور عبد اللطيف حمزة .
٣٣ ـ حسن المحاضرة للجلال السيوطى .

٣٤ ـ حلبة الكميت لشمس الدين النواجى .
٣٥ ـ الحياة العربية من الشعر الجاهلى للدكتور أحمد الحوفى . نشر مكتبة نهضة مصر .
٣٦ ـ خزانة الأدب لتقى الدين بن حجة الحموى .
٣٧ ـ خزانة الأدب للبغدادى . نشر عيسى الباب الحلبى .
٣٨ ـ الخطط لتقى الدين المقريزى . طبع مطبعة النيل بمصر عام ١٣٢٤ هـ .
٣٩ ـ دراسات فى الشعر المعاصر للدكتور شوقى ضيف — طبع دار المعارف .
٤٠ ـ الدرر الكامنة لابن حجر العسقلانى .
٤١ ـ الدر الفاخر فى سيرة الملك الناصر « ابن قلاوون » لأبى بكر الدوادارى تحقيق هانس روبرت رويمر .
٤٢ ـ ديوان ابن أبى حجلة المغربى — خط بمكتبة الأزهر .
٤٣ ـ ديوان ابن حجر العسقلانى — خط بمكتبة الأزهر ، ودار الكتب المصرية .
٤٤ ـ ديوان ابن حجة الحموى « جنى الجنتين » — خط بدار الكتب المصرية .
٤٥ ـ ديوان ابن خفاجة الأندلسى .
٤٦ ـ ديوان ابن الرومى — اختيار الكيلانى — طبع مطبعة حجازى .
٤٧ ـ ديوان ابن زيدون .
٤٨ ـ ديوان ابن المعتز .
٤٩ ـ ديوان ابن نباتة — نشر القلقيلى .
٥٠ ـ ديوان ابن الوردى — طبع الجوائب .
٥١ ـ ديوان أبى تمام — نشر دار المعارف .
٥٢ ـ ديوان أبى نواس .
٥٣ ـ ديوان الأخطل .

٥٤ ـ ديوان إسماعيل صبرى ـ طبع لجنة التأليف والترجمة والنشر .
٥٥ ـ ديوان الأعشى الكبير ، تحقيق الدكتور محمد محمد حسين ـ نشر مكتبة الآداب بالجماميز .
٥٦ ديوان البارودى بتحقيق الجارم ، وأيضا بشرح الشيخ شريف
٥٧ ـ ديوان البحترى .
٥٨ ـ ديوان بشار .
٥٩ ـ ديوان البوصيرى .
٦٠ ـ ديوان جميل ـ تحقيق الدكتور حسين نصار .
٦١ ـ ديوان حافظ إبراهيم ـ طبع دار الكتب .
٦٢ ـ ديوان حسان بن ثابت .
٦٣ ـ ديوان الشباب الظريف .
٦٤ ـ ديوان الصبابة لابن أبى حجلة المغربى
٦٥ ـ ديوان صفى الدين الحلى ـ طبع النجف الأشرف .
٦٦ ـ ديوان عمر بن أبى ربيعة ـ طبع المطبعة اليمنية .
٦٧ ـ ديوان فخر الدين بن مكانس ـ خط بدار الكتب المصرية .
٦٨ ـ ديوان الفرزدق .
٦٩ ـ ديوان برهان الدين القيراطى ـ خط بمكتبة الأزهر .
٧٠ ـ ديوان المتنبى .
٧١ ـ ديوان محمد عبد المطلب ـ طبع ونشر مطبعة الاعتماد .
٧٢ ـ الذخيرة لابن بسام .
٧٣ ـ رشف الزلال فى وصف الهلال للصلاح الصفدى .
٧٤ ـ رصف اللآل لجلال الدين السيوطى .
٧٥ ـ روض الآداب لشهاب الدين الحجازى .
٧٦ ـ رياض الألباب لشمس الدين النواجى . خط بمكتبة الأزهر .

٧٧ ـ زبدة الفكرة من تاريخ الهجرة لبيبرس الدوادارى — مصور بمكتبة جامعة القاهرة .

٧٨ ـ سلوك المقريزى — تحقيق الدكتور محمد مصطفى زيادة .

٧٩ ـ السيف المهند فى تاريخ الملك المؤيد « شيخ » لبدر الدين العينى - مصور بدار الكتب المصرية .

٨٠ ـ شذرات الذهب لابن العماد الحنبلى .

٨١ ـ شعراء مصر وبيئاتهم فى الجيل الماضى للمرحوم عباس محمود العقاد .

٨٢ ـ شعراء النصرانية .

٨٣ ـ شعر الحرب فى أدب العرب فى العصرين الأموى والعباسى إلى عهد سيف الدولة . للدكتور محمد زكى المحاسنى — نشر دار المعارف .

٨٤ ـ الشعر السياسى فى عصر بن أمية للأستاذ أحمد الشايب ـ نشر مكتبة النهضة المصرية .

٨٥ ـ شعر الطبيعة للدكتور سيد نوفل ـ نشر مكتبة الخانجى بمصر عام ١٩٤٥ .

٨٦ ـ الشعر الغنائى فى الأمصار الإسلامية للدكتور شوقى ضيف .

٨٧ ـ الشعر والشعراء لابن قتيبة .

٨٨ ـ الشوقيات ـ لأحمد شوقى ـ طبع مطبعة مصر .

٨٩ ـ صبح الأعشى للشهاب القلقشندى ـ طبع دار الكتب .

٩٠ ـ الضوء اللامع لشمس الدين السخاوى .

٩١ ـ الطالع السعيد لكمال الدين الأدفوى .

٩٢ ـ طبقات ابن سلام ـ لابن سلام الجمحى .

٩٣ ـ طبقات الحفاظ لشمس الدين الذهبى .

٩٤ ـ طبقات الحنابلة لمحمد جميل الشطى .

٩٥ ـ طبقات الشافعية لتاج الدين السبكى .

٩٦ ـ طيف الخيال لابن دانيال الموصلى .

٩٧ ـ العبر و ديوان المبتدأ والخبر ، لولى الدين بن خلدون .
٩٨ ـ عجائب المقدور فى نوائب تيمور ، لشهاب الدين بن عربشاه .
٩٩ ـ عصر سلاطين المماليك لمحمود رزق سليم ـ نشر مكتبة الآداب بالجماميز ، ووزارة الثقافة والإشاد القومى . مجلد ١ ، ٢ ، ٣ ، ٤ ، ٥ ، ٦
١٠٠ ـ عقد الجمان لبدر الدين العينى — مصور بدار الكتب المصرية .
١٠١ ـ العقد الفريد لابن عبدربه.
١٠٢ ـ العمدة لابن رشيق القيروانى — نشر المكتبة التجارية — طبع مطبعة حجازى بمصر .
١٠٣ ـ عمر بن أبى ربيعة — حياته وشعره للأستاذ جبرائيل جبور .
١٠٤ ـ الفاروق عمر للدكتور محمد حسين هيكل .
١٠٥ ـ فى الأدب الحديث للأستاذ عمر الدسوقى — نشر دار الكتب .
١٠٦ ـ فى الأدب المصرى للأستاذ أمين الخولى .
١٠٧ ـ فتح العرب لمصر لألفرد بتلر ، تعريب الأستاذ محمد فريد أبو حديد .
١٠٨ ـ الفتوة عند العرب للأستاذ عمر الدسوقى .
١٠٩ ـ الفن ومذاهبه فى الشعر العربى للدكتور شوقى ضيف .
١١٠ ـ فوات الوفيات لابن شاكر الكتبى — طبع بولاق .
١١١ ـ كتاب مؤتمر النيل للدكتور سليمان حزين وآخرين .
١١٢ ـ كوكب الروضة لجلال السيوطى — خط بدار الكتب المصرية .
١١٣ ـ كيف يعمل العقل للسير سيرل برت — تعريب الأستاذ محمد خلف الله — طبع لجنة التأليف والترجمة والنشر .
١١٤ ـ الألطاف الخفية من السيرة الشريفة السلطانية — سيرة الأشرف خليل ابن قلاوون . تأليف محيى الدين بن عبد الظاهر — طبع أوربا .
١١٥ ـ المدخل لابن الحاج العبدرى الفاسى .
١١٦ ـ مسالك الأبصار لشهاب الدين بن فضل الله العمرى .

١١٧ ـ مطالع البدور فى منازل السرور ، للعلامة الغزولى — خط بمكتبة الأزهر
١١٨ ـ معلقات العرب للدكتور بدوى طبانة .
١١٩ ـ مقدمة ابن خلدون .
١٢٠ ـ مناهج الدراسة الأدبية فى الأدب العربى للدكتور شكرى فيصل — نشر الخانجى بمصر .
١٢١ ـ المنهل الصافى والمستوفى بعد الوافى ، لأبى المحاسن بن تغرى بردى — خط بمكتبة الأزهر .
١٢٢ ـ النابغة الذبيانى للأستاذ عمر الدسوقى .
١٢٣ ـ النجوم الزاهرة فى أخبار مصر والقاهرة لأبى المحاسن بن تغرى بردى — طبع دار الكتب المصرية .
١٢٤ ـ نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب ، للمقرى .
١٢٥ ـ نهاية الأرب لشهاب الدين النويرى — طبع دار الكتب ـ ومخطوط بها وبمكتبة جامعة القاهرة .
١٢٦ ـ النيل فى الأدب المصرى للدكتورة نعمات أحمد فؤاد — طبع دار المعارف .
١٢٧ ـ هاشميات الكميت طبع مطبعة الموسوعات بباب الخلق بمصر .
١٢٨ ـ هبة الأيام بأخبار أبى تمام ، للبديعى الموصلى — إخراج محمود مصطفى .
١٢٩ ـ الوساطة للجرجانى .
١٣٠ ـ وفيات الأعيان لشمس الدين بن خلكان .

فهرس الموضوعات

الصفحة	الموضوع
٥	مقدمة
٩	معنى البيئة
١١	البيئة الطبيعية
١٥	البيئة السياسية
١٧	البيئة الثقافية
٢٠	البيئة الاجتماعية
٢٣	خلاصة
٣٨	تمهيد فى بيان أثر بيئات مختلفة فى نتاجها الشعرى
٣٨	أولا : فى البيئة الطبيعية
٦٣	ثانيا : فى البيئة السياسية
٨٦	ثالثا : فى البيئة الثقافية
١٠٥	رابعا : فى البيئة الاجتماعية
١٢٥	الباب الأول فى وصف البيئات المصرية . وفيه أربعة فصول
١٢٧	الفصل الأول : فى وصف البيئة الطبيعية
١٢٧	طبيعة مصر
١٣٧	نهر النيل
١٤٢	فيضانه ومقياسه
١٤٨	الاحتفال بوفائه .

الصفحة	الموضوع
١٥٠	خلجانه وقناطره
١٥٤	منازه مصر والقاهرة
١٥٩	بحار مصر
١٦٠	بحر الروم — بحر القلزم
١٦٣	مدن مصر : القاهرة . الإسكندرية تنيس . بلبيس . دمياط . رشيد المحلة . أسيوط . أسوان .
١٦٩	جبال مصر — جبل المقطم
١٧٠	الجبل الأحمر
١٧١	جبل يشكر
١٧١	آثار مصر
١٧٢	الأهرام
١٧٤	أبو الهول
١٧٧	الفصل الثانى : فى وصف البيئة السياسية
١٧٧	قيام الدولة
١٨١	أجناس المماليك
١٨٣	طبقتا الأمة
١٨٥	موقف الدولة بين مسلمى العالم
١٨٦	معالم السياسة الخارجية
١٨٧	التتار
١٩٣	الصليبيون

الصفحة	الموضوع
١٩٧	العثمانيون
١٩٨	استقلال البلاد وبسط نفوذها
٢٠٠	الاهتمام بالوطن العربي والإسلامي
٢٠٣	موقف الشعب من السياسة الخارجية
٢٠٧	معالم السياسة الداخلية
٢٠٨	الفتن الداخلية
٢١	ثورات العربان
٢١٢	موقف الشعب من السياسة الداخلية
٢٢١	الفصل الثالث : في وصف البيئة الثقافية
٢٢١	تمهيد
٢٢٣	مصر دارة العلم والأدب
٢٢٧	شهادة ابن خلدون
٢٢٩	النشاط العلمي : أسبابه ووسائله
٢٣٠	هجرة العلماء
٢٣٢	دور التعليم
٢٣٦	خزائن الكتب
٢٣٧	الاتجاه التعليمي
٢٣٩	مواد التعليم
٢٤٠	الكتب الدراسية
٢٤٠	اختيار الشيوخ
٢٤١	مراحل الدراسة وإجازاتها
٢٤٦	تشجيع المؤلفين
٢٤٩	نتائج النشاط العلمي
٢٤٩	أجيال العلماء والأدباء والمؤلفين

الصفحة	الموضوع
٢٥٢	نماذج من العلماء والأدباء
٢٥٤	حركة التأليف
٢٥٥	ظاهرات أربع
٢٦٣	نماذج من المؤلفات
٢٦٧	الأسئلة والأجوبة والفتاوى والمناظرات
٢٦٨	نضال العز بن عبد السلام
٢٦٨	كفاح ابن تيمية الحراني
٢٧١	فتنة ابن الفارض
٢٧٢	الثقافة الأدبية
٢٨٠	الدراسات القرآنية
٢٨٢	منهج القاضي الفاضل
٢٨٤	كتب البلاغيين
٢٨٥	الموسوعات
٣٥٨	المجموعات الأدبية
٢٨٧	الفصل الرابع : في وصف البيئة الاجتماعية
٢٨٨	الطبقة الحاكمة
٢٨٩	السلطان
٢٩٠	حفلة توليته
٢٩١	حفلات الاستقبال
٢٩١	خروج السلطان من القاهرة وعودته إليها
٢٩٢	الفرح بشفائه من مرضه
٢٩٣	جلوسه للقضاء

الصفحة	الموضوع
٢٩٥	جلوسه للعلم والمناظرة
٢٩٦	زواج السلطان أو الأمير
٢٩٨	الأمراء
٣٠٠	الجنود السلطانية
٣٠١	الخلفاء
٣٠٣	الطبقة المحكومة
٣٠٦	التعليم والجيش
٣٠٧	ملكية الأرض الزراعية
٣٠٩	الوظائف العامة
٣٠٩	التقاضى
٣١٠	أعمال البر
٣١١	الضرائب
٣١٤	العقوبات
٣١٤	السجن والسجون
٣١٥	الإعدام والتعذيب
٣١٦	الزلازل والطواعين
٣١٨	الجدب والغلاء
٣٢٠	مظاهر البذخ والمنشآت
٣٢٢	العادات والتقاليد
٣٢٢	فى الخطبة والزواج
٣٢٤	أوقات السمر والمغنون والمغنيات
٣٢٧	فى الختان
٣٢٨	فى الجنازات
٣٢٩	فى الموالد والمواسم
٣٣٠	فى شهر رمضان
٣٣١	فى عيدى الفطر والأضحى
٣٣٢	فى عيد النيروز
٣٣٣	فى عيد وفاء النيل وكسر الخليج
٣٣٣	فى موسم الحج وخروج المحمل
٣٣٦	فى المجون والتبذل واللهو
٣٣٧	النزاع بين الطوائف والأجناس
٣٣٩	عصائب النساء وعمائم اليهود والنصارى
٣٤٣	الباب الثانى فى بيان أثر البيئات المصرية فى الشعر وفيه خمسة فصول
٣٤٥	الفصل الأول : فى بيان أثر البيئة الطبيعية فى الشعر
٣٤٥	أثر البيئة الطبيعية فى الأخلاق والعادات
٣٤٧	أجمل مافى البيئة الطبيعية المصرية
٣٤٩	أثر ذلك فى شعر شعرائها
٣٥٠	حب مصر وذكراها ومظهر ذلك فى الشعر
٣٥١	أبيات للصلاح الصفدى
٣٥٢	أبيات لابن الوردى وابن سلار والوداعى
٣٥٣	أبيات للمعمار والشهاب المنصورى
٣٥٤	أبيات لابن نباتة المصرى
٣٥٥	أبيات لشهاب الدين بن فضل الله

الصفحة	الموضوع
	العمرى
٣٥٧	قصيدة عصماء لشهاب الدين بن حجر العسقلانى
٣٥٩	من طرائف شعر القيراطى
٣٦٠	ابن نباتة يخاطب البرق والنسيم
٣٦١	الولوع بالنيل ومظهر ذلك
٣٦٣	بيتان للصلاح الصفدى
٣٦٤	بيتان لمجير النيل بن تميم
٣٦٥	أبيات لمحيى الدين بن عبد الظاهر ، وابن دانيال الموصلى
٣٦٦	بيتان لابن النقيب
٣٦٧	سحر النيل وكيمياؤه فى شعر إيدمر التركى
٣٦٨	القيراطى يفضل النيل على أنهار الشام
٣٦٩	القيراطى يحصى عجائب النيل
٣٧٠	لعب الشعراء بألفاظ الوفاء والكسر ونحوهما من ملابسات النيل .
٣٧٣	النيل يفى بوعده ، فيغنى بوفائه الشهاب المنصورى .
٣٧٤	البدر البشتكى ووفاؤه لمصر ونيلها .
٣٧٥	ابن أبى حجلة يصدر أفراحه بغزليات نيلية .
٣٧٧	مقطعات النيل لبدر الدين بن الحاجب .

الصفحة	الموضوع
٣٧٨	الشهاب الحلبى يسائل النيل عن جريانه .
٣٧٩	تسبيحة النواجى أو تغريدته .
٣٨٥	لغز فى النيل للشهاب المنصورى
٣٨٦	الروضة والمقياس
٣٨٧	رياض القدس لسيدى محمد بن وفا
٣٨٧	الدعاء لمصر بالسقى للصلاح الصفدى
٣٨٧	من اشتياقات ابن نباتة
٣٧٨	روضة المقياس فى شعر ابن أبى حجلة المغربى
٣٨٩	مجير الدين بن تميم يصف مشاهد الروضة
٣٨٩	بدر الدين البشتكى ينعت مرأى الروضة
٣٩٠	مفترجات مصر
٣٩٠	العلاء الوداعى والمرصد
٣٩٠	الشهاب المنصورى والمشتهى
٣٩١	ابراهيم المعمار وجزيرة حليمة .
٣٩١	القيراطى وقناطر ام الخمس
٣٩١	المعمار وقنطرة التكة وخليج الذكر
٣٩١	بركة الأزبكية وشمس الدين القادرى
٣٩٢	بركة الرطلى وشمس الدين بن

الصفحة	الموضوع
	الصانع والشهاب المنصورى
٣٩٢	بركة النيلوفر وصفى الدين الحلى
٣٩٣	الربيعيات وما يتصل بها
٣٩٤	محيي الدين بن عبد الظاهر يصف بطحاء
٣٩٤	ربيع مصر فى شعر صفى الدين الحلى
٣٩٥	مجير الدين بن تميم وأوائل الورد
٣٩٦	الشاعر ابن الجباس يصف الموز
٣٩٨	مجير الدين بن تميم وقصة النهر
٤٠١	صلاح الدين الصفدى يكمل القصة .
٤٠١	من خيال ابن عبد الظاهر فى وصف روض
٤٠٢	مجالى روضة فى شعر عز الدين الموصلى
٤٠٣	شجر السرو فى شعر الشهاب الحلبى
٤٠٣	بدر الدين البشتكى يدخل بشعره إلى روضة
٤٠٣	لقاء فى روضة للشهاب المنصورى
٤٠٤	جولة فى روض للبرهان القيراطى
٤٠٥	ربيعية خمرية للبرهان القيراطى
٤٠٦	الدواليب والنواعير فى شعر مجير الدين بن تميم وابن نباتة .
٤٠٧	سرحة النيل لفخر الدين بن مكانس
٤١٤	مصائد الشوارد لابن نباتة المصرى
٤١٦	رحلة صيد للملك الأشرف خليل
٤١٧	الأهرام
٤١٨	وصف الأهرام لفخر الدين عبد الوهاب المصرى
٤١٩	وصف الأهرام لشهاب الدين المنصورى
٤١٩	الهلال
٤١٩	شرف الدين الطائى والهلال
٤٢٠	وصف الهلال لابن نباته المصرى
٤٢١	مقطوعات الصفدى فى وصف الهلال
٤٢٣	وصف الهلال لناصر الدين ابن النقيب
٤٢٤	وصف الهلال للبرهان القيراطى

فهرس أعلام المجلد السابع

ا

الآلوسى : ٢٣١
الآمر بأحكام الله الفاطمى : ١٥٧، ١٥٨
أبان بن عبد الحميد اللاحقى : ٩١
إبراهيم بن بانى المغنى : ٣٢٦
إبراهيم بن الجندى المغنى : ٣٢٦
إبراهيم عبد القادر المازنى : ١٠٤
إبراهيم المعمار : ٣٥٣ ، ٣٩٠
إبراهيم الهلباوى : ٨٥
الأبشيهى : ٢٦٣ ، ٢٨٦
أبغا التترى : ١٨٨ ، ١٨٩
ابن أبى الأصبع : ٢٨٤
ابن أبى حجلة المغربى « شهاب الدين » : ٢٣٠ ، ٢٤٧ ، ٢٨٦ ، ٣٧٥ ، ٣٧٦ ، ٣٨٨ ، ٤١٩
ابن أبى الرداد : ١٤٨
ابن الأثير : ٢٨١ ، ٢٨٢ ، ٢٨٤
ابن الأحدب : ٢١١
ابن الأستاذ كمال الدين بن الهمام : ٢٣١
ابن إياس الحنفى المؤرخ : ٢٤ ، ١٤٩ ، ١٥٦ ، ١٨١ ، ١٨٧ ، ١٩٥ ، ٢٠٠ ، ٢٠١ ، ٢٠٢ ، ٢٠٨ ، ٢٥٤ ، ٢٦٢ ، ٢٦٤ ، ٣٢٥ ، ٣٢٦ ، ٣٢٧ ، ٣٤٠
ابن تغرى بردى « ابو المحاسن » : ٢٤ ، ١٤٥ ، ١٤٩ ، ١٨١ ، ٢٠٨ ، ٢٥٤ ، ٢٦٢ ، ٢٦٤ ، ٣٠٣
ابن الجزرى : ٢٤٠
ابن الحاجب : ٢٤٠ ، ٢٦٥ ، ٢٧٢
ابن الحاجب « بدر الدين الشاعر » : ٣٧٧
ابن الحاج العبدرى : ٢٥٢ ، ٣٠٣ ، ٣٢٩
ابن حبيب الحلبى : ٢٨٦
ابن حجر العسقلانى « شهاب الدين » : ٢٤ ، ٣٠ ، ٣١ ، ١٦٢ ، ١٨٣ ، ٢٤١ ، ٢٤٤ ، ٢٤٩ ، إلى ٢٥٧ ، ٢٦٠ ، ٢٦٣ ، ٢٦٦ ، ٢٧٠ ، ٢٧٤ ، ٢٨٠ ، ٢٨٦ ، ٢٩٥ ، ٣٥٧ ، ٣٥٨ ، ٣٥٩
ابن حجة الحموى « تقى الدين » : ٢٤ ، ٢٥ ، ٣١ ، ٣٤ ، ٢٤٤ ، ٢٦٣ ، ٢٨١ إلى ٢٨٦ ، ٣٠٩ ، ٣٧١ ، ٣٩٥ ، ٤١١ ، ٤١٢ ، ٤١٩ ، ٤٢١
ابن خفاجة الأندلسى : ٥٥ ، ٥٦ ، ٥٧
ابن خلدون : ١٩٠ ، ١٩٤ ، ١٩٥ ،

٢٢٧، ٢٢٨، ٢٣٠، ٢٤٥، ٢٤٦،
٢٦٤، ٢٧٨، ٣٠٣، ٣٣٥
ابن خلكان الإربلى : ٢٣٠، ٢٥٤،
٢٨٣
ابن دانيال الموصلى «شمس الدين»:
٣٣، ٣٥، ٣٢٢ ٣٢٤ ٣٢٥، ٣٦٥
ابن دقماق «صارم الدين» : ٢٣٤،
٢٣٩ ٢٥٤، ٢٦٤، ٢٦٥، ٣٣٥
ابن دقيق العيد القشيرى «تقى الدين»:
٣٤، ٢٣١، ٢٤٠ ٢٥٤، ٢٦٦،
٢٦٧ ٢٧٠، ٢٧٥
ابن رجب البغدادى الدمشقى: ٢٥٠
ابن رشيق القيروانى: ٨، ٦٤، ٦٥
ابن الرومى «الشاعر»: ١١٤، ١١٥
ابن زيدون «الشاعر»: ٥٥، ٥٦،
١٠٠
ابن الساعاتى: ٥٧
ابن سبعين: ٢٦٩
ابن سعيد «على» ١٤١ ١٥٨
ابن سلامى الجمحى: ٧، ٨
ابن سناء الملك: ٥٧
ابن سنان الخفاجى: ٢٨٤
ابن سيد الناس اليعمرى «فتح الدين»:
٣٤، ٢٤٠، ٢٥٢، ٢٦٤، ٢٦٦، ٢٨٦
ابن شاكر الكتبى: ٢٤٩، ٢٦٣
ابن الشجرى: ٤٢
ابن شهيد: ٥٥
ابن الصائغ «محمد بن عبد الرحمن»:
٢٦١
ابن الصلاح: ٢٦٦
ابن الصواف: ٢٥٣
ابن ضامن الضبع: ٣٢
ابن عبد الحكم: ١٣٩، ١٥١
ابن عبد الدايم الحلبى: ٢٦١،
٢٦٧ ٢٧٩
ابن عبد الظاهر «محيى الدين»:
٣١، ٣٢، ٣٥، ١٦٤، ١٧٠، ٢٦٤،
٢٦٥، ٢٨٣، ٣٠٩، ٣٦٥، ٣٩٣،
٣٩٤، ٤٠١، ٤١٦
ابن عبد الظاهر «فتح الدين بن محيى
الدين»: ٣٠٩
ابن عربى: ٢٦٩
ابن عساكر: ٢٦٤
ابن عطاء الله السكندرى: ٢٦٧
ابن العماد الأقفهسى: ٢٥٢
ابن الفرات: ٢٥٤
ابن فضل الله العمرى «شهاب الدين»:
٣٠، ١٧٣، ١٧٤، ٢٦٢، ٢٦٤، ٢٨٥،
٢٩٣، ٣٠٩، ٣٣٤، ٣٥٥، ٣٦٢
ابن فضل الله العمرى «علاء الدين»:
٣٠٩
ابن قاضى شهبة: ٧٤٠
ابن قتيبة: ٧٤

ابن القرداح ، المغنى أحمد بن محمد بن
على » : ٣٢٥ ، ٣٢٦
ابن كثير : ٢٦٤
ابن الليمونى : ٣٢٦
ابن مالك الأندلسى : ٩٨ ، ٢٣٠ ، ٢٤٠
٢٦٠ ، ٢٧٢ ، ٢٧٨ ، ٢٧٩
ابن المتوج ، تاج الدين محمد بن
عبد الوهاب » : ١٥٨ ، ١٧٥ ، ٢٥٤
ابن المعتز : ٥٢ ، ٥٣ ، ١٠١ ، ١٨١ ، ٢٨٤
ابن مغلى : ٢٥٣
ابن مكانس « فخر الدين » : ٣٠ ، ٣٣
٣٥ ، ٢٨٦ ، ٤٠٧ إلى ٤١٤
ابن الملقن : ٢٥٢
ابن منظور الإفريقى « ابن مكرم » :
٢٣٠ ، ٢٥٣ ، ٢٦٢ ، ٢٦٤ ، ٢٨٠
ابن المنير : ٢٥٢
ابن نباتة المصرى « جمال الدين محمد
ابن محمد » : ٢٤ ، ٣٠ ، ٣١ ، ٣٤ ،
٢٤٤ ، ٢٨٦ ، ٣٥٣ ، ٣٥٤ ، ٣٦٠ ،
٣٦١ ، ٣٦٢ ، ٣٨٧ ، ٣٨٨ ، ٤٠٥ ،
٤٠٦ ، ٤١٤ ، ٤١٥ ، ٤١٦ ، ٤٢٠ ،
٤٢١
ابن النقيب « ناصر الدين » ٣٢ ،
٣٦٦ ، ٤٢٣
ابن الوردى « زين الدين » : ٣٠ ،
٣٤ ، ١٥٨ ، ٢٤٣ ، ٢٨٦ ، ٣٥٢
ابن الهائم : ٢٤٠ ، ٢٧٣
ابن هانىء الأندلسى : ٥٥ ، ٩٧
أبو البركات النسفى : ٢٦٠
أبو البقاء بن الجيعان : ٢٦٥
أبو بكر بن عمر بن سلار « ناصر
الدين » ٣٥٢
أبو بكر بن مزهر : ٣٢٧
أبو بكر الصولى : ٩٤
أبو بكر قاضى عجلون « جمال الدين » :
٣٢
أبو تمام « حبيب بن أوس الطائى
الشاعر » : فى حبيب
أبو الحسن الجرجانى : ٨ ، ٢٨٤
أبو الحسين الجزار المصرى : ٢٤ ،
٣١ ، ٢٣٥
أبو دؤاد الإيادى ٤٦٠
أبو دلف العجلى : ٩٢
أبو زهم السماعى : ١٣٣ ، ١٥١
أبو السعود الجارحى ٣٠٢
أبو سفيان بن حرب : ٧٠
أبو شجاع : ٢٤٠
أبو طالب عبد الجبار : ٩٨
أبو الطيب المتنبى : فى المتنبى
أبو العتاهية : ٩٢
أبو العلاء المعرى ٩٠ ، ٩٣ ، ٩٥ ،
٩٧
أبو الفتح بن فلاقس : ٥٧
أبو الفداء إسماعيل : ١٦٨ ، ٢٦٤ ،
٢٦٥ ، ٢٧٩ ، ٤١٥ ، ٤٢١

أبو المحاسن بن تغرى بردى «جمال الدين يوسف» : فى ابن تغرى بردى
أبو المغيث : ٩٢
أبو نواس : ٧٧ ، ١١٤
أثير الدين أبـــو حيان النحوى الأندلسى : ٢٦٣ ، ٢٦٦ ، ٢٧٣ ، ٢٧٤ ، ٢٧٥ ، ٢٧٨ ، ٢٨٩
أحمد بن أويس «صاحب بغداد» : ١٩١ ، ١٩٢ ، ٢٠٠ ، ٢٣٤ ، ٢٣٩
أحمد بن إينال «الملك المؤيد» : ٢٦٩
أحمد بن طولون : ١٤٦ ، ١٥٨ ، ١٧١ ، ١٨١ ، ٢٢٢
أحمد بن عبد ربه : ٩٨
أحمد بدوى : ٢٢٣
أحمد الحوفى : ٩ ، ٤٢ ، ٤٦ ، ١٠٧ ، ١٠٨
أحمد زاده العجمى : ٢٤١
أحمد الشايب : ٩ ، ٧٣ ، ٧٤ ، ٧٦
أحمد شوقى : ٥٩ ، ٦٠ ، ٨٠ ، إلى ٨٤ ، ١٠٠ ، إلى ١٠٤ ، ١١٧ ، ١٢٠ إلى ١٢٣
أحمد عرابى : ٧٩ ، ٨٠
أحمد الكاشف : ٥٩ ، ٨٠
أحمد محرم : ٥٩ ، ٨٠ ، ١٠٣ ، ١٠٤
الإخشيد : ١٥٧
الأخطل : ٤٩ ، ٧٢ ، ٧٣
الأرجانى : ٤٠٧ ، ٤١١
أزبك بن ططخ «الأتابكى» : ١٥٦ ، ١٩٨ ، ٢١٢ ، ٢٩٦ ، ٢٩٧ ، ٣٩١
أزدمر الدوادار : ٢٢٠
أسامة بن زيد التنوخى : ١٤٦
الإسكندر الأكبر : ١٦٠ ، ١٦٦
إسماعيل صبرى : ٥٩ ، ٦٠ ، ١٠٤ ، ١١٨ ، ١١٩ ، ١٢٠
الأشرف إنيال : ٢٠١
الأشرف برسباى : فى برسباى
الأشرف خليل بن قلاوون : فى خليل .
الأشرف شعبان : فى شعبان
الأشرف طومان باى : فى طومان باى .
الأشرف قانصوه الغورى : فى قانصوه
الأشرف قايتباى : فى قايتباى
أصيل القلعية : ٣٢٦
أطلمش : ١٩٣
أعشى قيس : ٤٦ ، ١٠٧
الأفضل «صاحب حماة» : ٤١٥ ، ٤١٦
أقبردى الدوادار : ٢١٠ ، ٣٢٨

أكمل الدين البابرتى: ٢٥٣ ، ٢٦٠ ، ٢٧٩ ، ٢٨٥
امرؤ القيس بن حجر : ١٩ ، ٤٥ ، ٦٧ ، ٦٨ ، ٦٩ ، ٨٨ ، ١٠٦ ، ١٠٧
أمير كاتب الإتقانى : ٢٥٢
الأمين ، الخليفة العباسى ، : ٧٧
أمين الخولى : ٨
أمين الدين المحلى : ٢٥٣ ، ٢٧٣ ، ٢٧٩ ، ٢٨٠
أمين الدين يحيى الأقصرائى : فى يحيى
أمين سامى : ١٤٥ ، ١٤٩ ، ٢٣٤ ، ٢٤٦ ، ٣٠٠
أمية بن أبى الصلت : ١١٠
إنعام الخاصكية : ٣٢٦
أوحد الرومى : ٢٤١
الأوحدى : ٢٥٤
أوس بن حجر : ٤١ ، ٤٣
إياس بن عبد الله الذهبى : ٣٧١
إيدمر التركى : ٣٦٧
إيدمر الحلى ، عز الدين : ٢٩٣
إيدمر الخطيرى ، عز الدين ، : ٢٣٦
إينال ، الملك الأشرف ، : ٢٠١ ، ٢٠٢

ب

بايزيد الأول : ٢٠٢
بحير بن الحارث : ٦٦
البحترى : ٥١ ، ٥٢ ، ٧٧ ، ١٠٠ ، ١١٥
بدر الدين بن جماعة : ١٩٠ ، ٢٥٢
بدر الدين بن الدمامينى : ٢٥٣ ، ٢٥٤ ، ٢٦٣ ، ٢٦٥ ، ٢٦٦ ، ٢٧٤ ، ٢٧٩
بدر الدين بن العينى : ٢٤١ ، ٢٤٩ ، ٢٥٢ ، ٢٦٥
بدر الدين البشتكى : ٣٧٣ ، ٣٨٩ ، ٤٠٣
بدر الدين بيلبك : ٢١٦
بدر الدين الزيتونى : ٣١٨
بدر الدين محمد المنجى البزاز : فى محمد
بدر الدين محمد بن يوسف المهمندار : فى محمد
بدر الدين محمود الكلستانى : ٢٥٣
بدر الدين المرادى : ٢٧٩
بدرية بنت جريعة : ٣٢٦
بدوى طبانة : ١٠٦ ، ١٠٨ ، ١٠٩
برسباى أمير آخور ثان : ٢٠١
برسباى ، الملك الأشرف ، : ١٩٦ ، ٢٩٦
برقوق ، الملك الظاهر ، : ١٤٩ ،

١٧٩، ١٨٠، ١٩١، ١٩٣، ٢٠٠،
٢٠٢، ٢١٠، ٢١١، ٢٣٢، ٢٤٠،
٢٦٤، ٢٩١، ٢٩٥، ٣٠٣، ٣٠٩،
٣١٠، ٣٣٣، ٣٣٥
برهان الدين بن جماعة : ٢٤٠، ٣٧٤
برهان الدين بن ظهيرة : ٢٧٠
برهان الدين البقاعى : ٢٦٤، ٢٧١
برهان الدين الخضر السنجارى :
٢٤٠
برهان الدين الزرعى : ٢٧٠
برهان الدين القيراطى : فى القيراطى
برهان الدين الواسطى : ٢٦٥
بريوه : ٣٢٦
البسوس بنت منقذ : ٦٥
بشار بن برد : ١١٤
بشير الطواشى : ٢٠٢
بكار بن قتيبة : ١٤٨
بكل : ١٤
بهاء الدين بن حنا : ٢٣٤
بهاء الدين بن عقيل : ٢٥٣، ٢٧٤،
٢٧٩
بهاء الدين بن النحاس : ٢٧٣
بهاء الدين زهير : ٥٧، ٥٨
بهاء الدين السبكى : ٣١، ٢٤٠، ٢٧٠،
٢٨٥، ٣٨٥
بهرام بن عبد الله : ٢٥٢، ٢٦٦
البوالقة : ٣٢٦
البوصيرى « شرف الدين » : ٣٤،
١٠٠، ٢٨٦، ٣٣٩
بيبرس الجاشنكير : ٢٣٦
بيبرس الدوادار المنصورى : ٢١١
٢٥٤، ٢٦٤
بيبرس « الملك الظاهر ركن الدين » :
٣١، ٣٢، ١٧٨، ١٨٦، ١٨٨، ١٨٩،
١٩٤، ٢٠٠، ٢٠٤، ٢٠٩، ٢١٦،
٢١٧، ٢١٨، ٢٣١، ٢٣٤، ٢٧٨،
٢٨٩، ٢٩١ إلى ٢٩٥، ٣٠٠، ٣٠٥،
٣٠٩، ٣١٠، ٣٢٩، ٣٣٤، ٣٣٧
بيدرا « الأمير » : ٢٠٩
بيدلى : ٨٦

ت

تأبط شرا : ٤٦
تاج الدين بن بنت الأعز : ٢٤٠، ٢٥٢
تاج الدين بن شرف : ٢٧١
تاج الدين بن مكتوم : ٢٥٢
تاج الدين التبريزى : ٢٥٨
تاج الدين السبكى : ٢٠٤، ٢٣٠، ٢٥٠،
٢٥٢، ٢٦٣، ٢٦٨، ٢٧٠، ٣١٠،
٤٠٥
تاج الدين الفكهانى : ٢٥٢
تاج الدين محمد بن عبد الوهاب بن
المتوج : فى ابن المتوج
ت . ج . دى بور : ٨٦، ٩٦
تغرى بردى الترجمان : ٢٠٢
تغرى برمش : ٢٣٢
تقى الدين الإخنائى : ٢٥٢

تقى الدين بن بنت الأعز : ٢٣١ ، ٢٤٠ ، ٢٥٢
تقى الدين بن تيمية الحرانى : ١٦ ، ٢٠٤ ، ٢٠٥ ، ٢٣١ ، ٢٥٤ ، ٢٥٥ ، ٢٦٣ ، ٢٦٦ ، ٢٦٧ ، ٢٦٨ ، ٢٧٠
تقى الدين بن الثقة الإسنائى : ٣٢٦
تقى الدين بن حجة الحموى : فى ابن حجة
تقى الدين بن دقيق العيد القشيرى : فى ابن دقيق
تقى الدين بن رزين : ٢٤٠ ، ٢٥٢ ، ٢٧٥
تقى الدين بن الصائغ : ٦٧٤
تقى الدين بن مفلح : ١٩٢
تقى الدين السبكى : ٢٥٤ ، ٢٦٥ ، ٢٢٧ ، ٢٧٥ ، ٢٦٨ ، ٢٧٠ ، ٢٨٠ ، ٣١٠ ، ٤٠٥
تقى الدين الشبلى : ٢٧٤
تقى الدين الشمنى : ٢٥٣
تقى الدين المقريزى : فى المقريزى
تمر حاجب الحجاب : ٢١٢
تميم بن المعز : ٥٧
توران شاه : ١٧٨
توفيق البكرى : ٩٩ ، ١٠٠ ، ١٠٤
تيمور لنك التترى ١٨٠ ، ١٩١ ، ١٩٢ ، ١٩٣ ، ٢٠٢ ، ٢٦٤

ث

ثعلب «صاحب فصيح اللغة» : ٢٧٣

ج

الجازاتى : ٢١٢
جان بلاط «الملك» : ٢١٠ ، ٢٩٦
الجاى الدوادار : ٣٥٥
جبرائيل جبور : ١١٠ ، ١١١
جساس بن مرة : ٦٥
جقمق العلائى «الملك الظاهر» : ٢٤٨ ، ٢٦٤ ، ٢٩٧ ، ٣٢٠
جلال الدين البغدادى : ٢٥٣
جلال الدين السيوطى : فى السيوطى
جلال الدين القزوينى : ١٩٠ ، ٢٦٠ ، ٢٧٤ ، ٢٨٤ ، ٢٨٥
جلال الدين المحلى : ٢٥٢ ، ٢٦٦ ، ٢٧٩
جلال السنطيرى : ٣٢٦
جليلة بنت مرة : ٦٥
جمال الدين بن مطروح : ٥٧
جمال الدين بن نباته المصرى : فى ابن نباته
جمال الدين بن هشام المصرى : ٢٥٣ ، ٢٦٣ ، ٢٧٣ ، ٢٧٨ ، ٢٧٩ ، ٢٨٦
جمال الدين أبو بكر قاضى عجلون : فى أبو بكر
جمال الدين الإسنوى : ٢٥٢ ، ٢٧٩
جمال الدين محمود الأستادار : ٣٢٦
جمال عبد الناصر «الرئيس» : ٧٩
جمجمة بن عثمان «الأمير» : ٣٢٧
جميل بثينة : ١١١ ، ١١٢

جورجى زيدان : ٢٣٠، ٢٣١، ٢٤٧، ٢٤٨، ٢٨٠
جوهر الصقلى : ١٦٤، ١٦٥
جينوس بن جاك : ١٩٦

ح

حاتم الطائى : ١٠٨
الحارث بن عباد البكرى : ٤٦، ٦٦
حافظ إبراهيم : ٥٩، ٦١، ٦٢، ٨٠، ٨٥، ١٠٣، ١٠٤، ١١٧، ١١٨، ١٢٠
حافظ الدين النسفى : ٢٤٠
حافى رأسه : ٢٥٣، ٢٧٣
الحاكم بأمر الله الفاطمى : ٢٣٥، ٢٣٦، ٣١١
حبيب بن أوس الطائى «أبو تمام» ٥٠، ٥١، ٧٧، ٩٠، ٩٢، ٩٤، ٩٧، ٣٦٩
حجر الكندى : ٦٧
حسان بن ثابت الأنصارى : ٦٩، ٧٠، ٧١، ٨٦، ١٠٧، ١٠٨، ١٠٩
حسن بن محمد «الملك الناصر بن الناصر» : ١٨٣، ٢٠٩، ٢٣٦، ٢٤٧، ٣١٧
حسين بن محمد الحسينى : ٢٤٧
الحسن بن محمد بن عبد المنعم : ١٤٧
حسين نصار : ١١٢
حصن بن ثعلب : ٢١٠
حفنى ناصف : ٥٩
حمدة بنت تقى الأندلسية : ٤٠٧

خ

خالد الأزهرى : ٢٧٩
خديجه أم خوخة : ٣٢٦
خديجة الرحابية : ٣٢٦
خشقدم «الملك الظاهر» : ١٤٩، ١٥٠، ١٨٢، ٢٤٨، ٢٩٦
خفاف بن ندبة : ٤٦
خليل بن إسحق الجندى : ٢٦٥، ٢٦٦
خلف الغبارى : ٢١١، ٢١٤
خليل بن قلاوون «الملك الأشرف» : ٣٢، ١٧٩، ١٨٢، ١٩٥، ٢٠٩، ٢٦٤، ٢٩٣، ٤١٦
خليل شيبوب : ١٠٤
خليل مطران : ١٠٤
خوند الخاصكية : ٢٩٧
خوند فاطمة : ٢٩٦
خوند مصرباى الجركسية : ٢٩٦

د

دعبل الخزاعى : ٧٦
الدميرى «صاحب حياة الحيوان» : ٢٦٣

ذ

ذو الرمة : ٤٨، ٥٠

ر

الراشدى : ٢٥٣

رؤية بن العجاج : ٩١
الرشيد «الخليفة العباسى» : ٧٧
الرشيد العطار : ٢٥٢
رضى الدين الشاطبى : ٢٥٣ ، ٢٧٣
ركن الدين بيبرس «الملك الظاهر» : فى بيبرس

ز

الزبير بن العوام «أبو عبدالله» : ٧١
الزراتيتى : ٢٥٣
الزرازرى : ٢٥٣
زكى أبو شادى : ١٠٤
زكى المحاسنى : ٩
الزمخشرى : ٢٨٠
زهير بن أبى سلمى : ٤٦ ، ٨٨ ، ٨٩ ، ١٠٩
الزواوى : ٢٥٢ ، ٢٦٥ ، ٢٦٦
زين الدين بن المرحل : ٢٥٢ ، ٢٧٠
زين الدين بن النحاس . ٣٤٠
زين الدين بن الوردى : فى ابن الوردى
زين الدين الحافظى : ١٨٩
زين الدين الزركشى : ٢٥٣
زين الدين زكريا الأنصارى : ٢٥٤ ، ٢٦٧ ، ٢٧١ ، ٢٧٥ ، ٢٧٩ ، ٢٨٥ ، ٣٠٩
زين الدين العراقى : ٢٥٢
زين الدين الفارقى : ١٩٠

س

ساعدة بن جؤية : ٤٦
سحنون : ٢٥٣
سراج الدين بن الوردى : ٢٦٥
سراج الدين البلقينى : ٢٤٠ ، ٢٦٦ ، ٣٠٩
سراج الدين الوراق : فى الوراق
سراج الدين الهندى : ٢٥٢
سرجواس «ملك قبرص» : ٢٠٥
سرل برت : ١١ ، ١٣ ، ١٤ ، ٢٢ ، ٢٣
سعد زغلول : ٨٢ ، ٨٣ ، ١٠٢
السعيد بن بيبرس «الملك» : ٢٨٩
السكاكى : ٢٨٤
سلار المنصورى : ٢٩٣ ، ٣١٦
سلامش بن بيبرس «الملك» : ٢٨٩
سليمان بن عبدالملك : ١٤٦
سليمان حزين : ١٢٨
سليم الأول : ١٩٨ ، ٣٠١
سليم حسن : ٢٣٩
السمعانى : ٢٦٤
سنجر الحلبى : ١٨٨
سنجر الشجاعى : ٢٠٩
سنقر الأعسر : ٣١٦
سيبويه «النحوى» : ٢٧٨
السيد مصطفى غازى : ٧٣
سيد نوفل : ٩ ، ٤٨ ، ٥٣٠ ، ٤١٦
سيف الدولة الحمدانى : ٧٧ ، ٧٨
سيف الدين السيرامى : ٢٥٨
سيف الدين المارديني : ٢٤٨

السيوطى ، جلال الدين » : ٢٥ ، ١٤٥ ، ١٤٧ ، ١٤٨ ، ١٥٧ ، ١٧٢ ، ١٨٧ ، ٢٠٤ ، ٢٠٥ ، ٢٠٦ ، ٢١٨ ، ٢٣٤ ، ٢٤٧ ، ٢٥٠ ، ٢٥٤ ، ٢٥٥ ، ٢٦٢ الى ٢٦٦ ، ٢٧١ ، ٢٧٤ ، ٢٧٨ ، ٢٨٠ ، ٢٨٥ ، ٢٨٦ ، ٣٠١ ، ٣٠٢ ، ٣٠٣ ، ٣٥١ ، ٣٥٢ ، ٣٦٣ ، ٣٧٣ ، ٣٧٤ ، ٣٧٧ ، ٣٧٨ ، ٣٨١ ، ٣٨٤ ، ٣٨٦ ، ٣٨٧ ، ٣٨٨ ، ٣٩٠ ، ٣٩١ ، ٤٠٣ ، ٤٠٧ ، ٤١٤ ، ٤٢١ ، ٤٢٣

ش

الشاب الظريف : ٣٤ ، ٣٥ ، ٢٨٦
الشاطبي : ٩٨
شاهنشاه بن أمير الجيوش : ١٥٧
شجرة الدر : ١٧٨ ، ٢٠٩
شرف الدين البوصيرى : فى البوصيرى
شرف الدين الدمياطى : ٢٤٠
شرف الدين السبكى : ٢٥٢ ، ٣٠٩
شرف الدين الطائى : ٤١٩
شرف الدين المناوى : ٢٥٢
الشنطوفى « على بن يوسف » : ٢٥٣
شعبان « الملك الأشرف » : ١٩٥ ، ٢١٤
شكرى « الشاعر » : ١٠٤
شكرى فيصل : ٨
شمس الدين بن دانيال الموصلى : فى ابن دانيال
شمس الدين بن سعد الديرى : ٢٤١
شمس الدين بن الصائغ « الشاعر » : ٣٩٢
شمس الدين بن الصائغ : ٣٢ ، ٢٧٩
شمس الدين بن عمار : ٢٧٥
شمس الدين بن عوض : ٣٠٧
شمس الدين بن القيم : ٢٥٤ ، ٢٦٦ ، ٢٦٧ ، ٢٦٩ ، ٢٧٠ ، ٢٧٥
شمس الدين بن مفلح : ٢٦٦
شمس الدين بن مكين : ٢٤١ ، ٢٥٢
شمس الدين بن ناهض : ٢٤٨
شمس الدين أبو الخير الدمشقى : ٢٦٧
شمس الدين الأصفهانى « محمد بن محمود » : ٢٥٣ ، ٢٥٨
شمس الدين الأصفهانى « محمود بن عبد الرحمن » : ٢٥٨
شمس الدين البساطى : ٢٥٢
شمس الدين الحنبلى « محمد بن إبراهيم » : ٣٠٩
شمس الدين الذهبى : ٢٤١ ، ٢٥٠ ، ٢٦٣ ، ٢٦٤ ، ٢٨٠
شمس الدين السخاوى : ٢٤٩ ، ٢٥٠ ، ٢٥٤ ، ٢٥٧ ، ٢٦٢ ، ٢٦٤
شمس الدين الشجاعى : ٢٦٤
شمس الدين القادرى : ٣٩١
شمس الدين محمد بن يحيى : ٢٤١
شمس الدين النواجى : فى النواجى
شمس الدين الواسطى : ٢٥٣
شمس الدين الهروى بن عطاء الله : ٢٥٨

شهاب الدين بن حجر العسقلانى : فى ابن حجر
شهاب الدين بن عربشاه : ٢٤٨ ، ٢٦٤
شهاب الدين بن العينى « أحمد » : ٣٢٨
شهاب الدين بن فضل الله العمرى « أحمد » : فى ابن فضل الله
شهاب الدين بن النقيب : ٢٦٠
شهاب الدين الأشرفى : ٢٤٨
شهاب الدين البزاغى : ٣٧٨
شهاب الدين الحجازى : ٣٨٦، ٤١٤
شهاب الدين الحلبى « أبو الثناء محمود » : فى محمود
شهاب الدين الحلبى « السمين » : ٢٥٣ ، ٢٧٩
شهاب الدين القرافى : ٢٦٥
شهاب الدين القسطلانى : ٢٥٢ ، ٢٦٣ ، ٢٦٦ ، ٣٠٩
شهاب الدين المنصورى : ٣٠، ٣٢٦ ، ٣٥٣ ، ٣٧٢ ، ٣٧٣ ، ٣٨٥ ، ٣٩٠، ٣٩١ ، ٤٠٣ ، ٤٠٤، ٤١٩
شهاب الدين النويرى : فى النويرى
شهاب الدين الهوارى : ٢٧٩
الشنقجى العجمى : ٣٠٥
شوقى ضيف : ٩، ٩٠، ٩١ ، ١١٠ ، ١١٩ ، ٣٦٩
شيخ المحمودى « الملك المؤيد » : ١٤٩ ، ١٨٠ ، ٢١٤ ، ٢٣٤ ، ٢٣٦ ، ٢٤٨ ، ٢٦٥ ، ٢٧١ ، ٢٩٥ ، ٣٠٣ ، ٣١٥ ٣٧١
شيخو العمرى : ٢١١

ص

الصالح بن الكامل الأيوبى : ١٥٨
الصالح صلاح الدين حفيد قلاوون : ٣٤٠
الصالح نجم الدين الأيوبى : ١٥٨ ، ١٧٧ ١٧٨
صدر الدين بن الوكيل : ٣٥
صدر الدين سليمان الحنفى : ٣٠٩
صفى الدين الحلى « عبد العزيز بن سرايا » : فى عبد العزيز
صفى الدين الهندى : ٢٥٣ ، ٢٥٨
صقر بن بقر : ٢١١
صلاح الدين بن الأعمى : ٢٤١
صلاح الدين الأيوبى : فى يوسف
صلاح الدين الثعلبى القوصى : ٣٢٦
صلاح الدين الصفدى « خليل بن أيبك » : ٢٤ ، ٣٠ ، ٢٤٤ ، ٢٤٩، ٢٦٢ ، ٢٧٣ ، ٢٨٣، ٢٨٥، ٢٨٦ ، ٣٥١ ، ٣٥٢ ، ٣٦٣ ، ٣٨٥ ، ٣٨٧ ، ٤٠١ ، ٤٢١، ٤٢٢
صلاح الدين القوصى « المغنى » : ٣٠٥
الصمة بن عبد الله : ٤٦
الصير فى « الشاعر » : ١٠٤

ط

طاز « الأمير » : ٢١١
طرفة بن العبد : ٤٤ ، ١٠٩
الطرماح بن حكيم : ٧٢ ، ٧٥
الطغرائى : ٤٢١
طه حسين : ٨ ، ٧٤ ، ٧٦
طومان باى « الملك الأشرف » : ١٥٦ ، ١٨٠ ، ١٩٨ ، ٢٨٩ ، ٣٠٢
طومان باى « الملك العادل » : ٢٩٦

ظ

ظافر الحداد « أبو منصور » : ١٧٥
الظاهر برقوق « الملك » : فى برقوق
الظاهر بيبرس « الملك » : فى بيبرس
الظاهر خشقدم « الملك » : فى خشقدم

ع

عبادة بن على الأنصارى الزرزائى : ٢٥٢
عباس محمود العقاد : ٩ ، ١٨ ، ١٩ ، ١٠٤ ، ١١٨ ، ١١٩
عبد البر بن الشحنة : ٢٧١
عبد بنى الحسحاس : ٤٦
عبد الرحمن بن الصائب : ٢٣٩
عبد الرحيم البيسانى « القاضى الفاضل » : ٥٧ ، ٢٢٣ ، ٢٨٠ ، ٢٨٢ ، ٢٨٣ ، ٢٨٤
عبد العزيز بن سرايا الطائى « صفى الدين الحلى » : ٢٤ ، ٣٤ ، ٣٩٢ ، ٣٩٤ ، ٣٩٥
عبد العزيز بن عبد السلام « عز الدين » : ٢٠٣ ، ٢٠٤ ، ٢١٨ ، ٢٣١ ، ٢٥٤ ، ٢٦٥ ، ٢٦٤ ، ٢٦٨ ، ٣٠٥ ، ٣٠٩
عبد العزيز بن مروان : ١٤٦
عبد العزيز البغدادى « عز الدين » : ٢٤١
عبد القادر القرشى : ٢٥٠
عبد اللطيف حمزة : ٣٤٥
عبد اللطيف « الزمام » : ٢٩٧
عبد الله بن الزبعرى : ٧٠
عبد الله بن عمر : ١٣٩
عبد الملك بن مروان : ٧٢ ، ٧٤ ، ٧٥
عبد الوهاب المصرى « القاضى فخر الدين » : ٤١٨
عبيد بن الأبرص : ٤٢ ، ٦٨ ، ٦٩ ، ٨٨
عبيد الله بن قيس الرقيات ٧٢ ، ٧٤
عثمان بن عفان : ٦٩ ، ٧١ ، ٧٢
العجاج : ٩١

عدى بن زيد العبادى : ٤٦
عز الدين بن أيبك « الملك» : ١٧٨، ٢٠٩
عز الدين بن جماعة : ٢٥٢، ٢٦٤
عز الدين بن القلانسى : ١٩٠
عز الدين المحلى : ٢٧١
عز الدين الموصلى : ٣٤
عزيز أباظة : ١٠٣
عزيزة بنت السطحى : ٣٢٦
علاء الدين بن الأثير : ٢٩٤
علاء الدين بن صغير : ٢٥٣
علاء الدين بن عبد الظاهر : ٣٢
علاء الدين بن مغلى : ٢٥٣ ، ٢٧٠
علاء الدين الباجى : ٢٥٣ ، ٢٧٠
علاء الدين البخارى على بن محمد: ٢٥٨ ، ٢٧١
علاء الدين السيرامى : ٢٣٢ ، ٢٤٠، ٢٩٥
علاء الدين على بن خاص بك : ٢٩٦
علاء الدين على بن الأهناسى : ٣٣٢
علاء الدين القونوى : ٢٧٤
علاء الدين الوداعى : ٣٠ ، ٣٥٢ ، ٣٩٠ ، ٢٩٢
علباء بن الحارث : ٦٨
علقمة بن عبدة : ٦٩
علم الدين البلقينى : ٢٥٢ ، ٢٦٦
علم الدين شمايل : ٣١٥
على بن أبى طالب : ٦٩، ٧٢، ١٤٧
على بن غانم : ٣٢٦
على بن موسى الرضا : ٧٦
على الجارم : ٥٩، ٨٠، ١٠٤
على محمود طه : ٥٩ ، ١٠٤
عماد الدين الإسنوى : ٢٥٢
عماد الدين الأصفهانى : ٢٨٣
عماد الدين الحنبلى : ٢٥٣
عماد الدين زنكى : ٢٨٨
عماد الدين محمد نائب قلعة حلب : ٢٤٩
عماد الدين موسى اليوسفى المصرى: ٢٤٧
عمر بن أبى ربيعة : ١٩، ٤٨ ، ١١٠، ١١١ ، ١١٢
عمر بن الخطاب : ٤٧ ، ٧٢ ، ١٤٣ ، ١٤٧ ، ١٥٥ ، ٢٧٩
عمرو بن العاص : ١٤٣ ، ١٤٦ ، ١٤٧ ، ١٥٥ ، ١٥٨ ، ١٧٠ ، ٢٢٢ ، ٢٣٩ ، ٣١١ ، ٣١٦
عمرو بن عوف : ٧١
عمرو بن الفارض : ٩٦ ، ٢٧١
عمرو بن كلثوم : ١٠٧
عمر الدسوقى : ٩ ، ١٢ ، ٣٦، ٤٠، ٤١، ٤٨ ، ٦٣، ٨١ ، ٨٥ ، ٨٧، ١٠٣ ، ١٠٦ ، ١١٩

عنترة بن شداد العبسى : ١٠٨
عيسى بن بقر : ٢١١
عيسى بن موسى الهاشمى : ١٥٦

غ

غازان التترى : ١٨٩، ١٩٠، ١٩١
الغزولى : ٢٩٤، ٤٠٢، ٤١٤
غياث الدين ملك الهند : ٢٠٢

ف

فارس الدين أقطاى الجمدار : ٢١١
فارس الدين أقطاى المستعرب: ٢١١
فتح الدين بن سيد الناس اليعمرى : فى ابن سيد الناس
فخر الدين بن لقمان : ١٧٨
فخر الدين بن مكانس : فى ابن مكانس
فخر الدين الزيلعى : ٢٥٢، ٢٦٥
فخر الدين الضرير : ٢٤١
فخر الدين عثمان المارديني : ٢٥٢، ٢٦٥، ٢٦٦
فرج بن برقوق « الملك الناصر » : ١٩١، ١٩٢، ١٩٣، ٢٠٢، ٣٠٣، ٣١٣
الفرزدق : ٤٨، ٤٩

ق

قارىء الهداية : ٢٥٣
قاسم بن قطلوبغا : ٢٧٠، ٢٧١
القاضى الفاضل « عبد الرحيم البيسانى : فى عبد الرحيم
قانصوه بن قانصوه « الملك الظاهر » : ٢٩٦، ٢٩٧
قانصوه الخفيف : ٢١٢
قانصوه خمسمائة : ٢١٠، ٢٩٦، ٢٩٧
قانصوه الغورى « الملك الأشرف » : ١٤٩، ١٥٦، ١٦٢، ١٦٦، ١٨٠، ١٩٧، ٢١٠، ٢١٢، ٢١٩، ٢٤٧، ٢٨٩، ٢٩٠، ٢٩١، ٢٩٢، ٢٩٥، ٢٩٦، ٣٠٩، ٣١٨، ٣٢٥، ٣٢٩، ٣٣٢، ٣٣٥
قايتباى « الملك الأشرف » : ١٤٦، ١٦٦، ١٨، ١٨٧، ١٩٦، ١٩٧، ١٩٨، ٢٠١، ٢٠٢، ٢٠٩، ٢١٠، ٢١١، ٢١٢، ٢١٨، ٢٦٥، ٢٧١، ٢٩٦، ٢٩٧، ٣٠٩، ٣١٤، ٣١٧، ٣٢٧، ٣٣٩
قبيصة بن نعيم : ٦٨
قدامة بن جعفر : ٢٨٤
قدامة الحنبلى : ٢٦٦

قراقوش ١٧٢
قرايوسف التركمانى : ١٩١ ، ١٩٢
قرقد بيك بن عثمان : ٢٩١
القضاعى : ١٤٧ ، ١٧١ ، ١٧٥
قطز الملك المظفر » : ١٧٨ ، ١٨٢ ، ١٨٧ ، ١٨٨ ، ١٨٩ ، ٢٠٣ ، ٢٠٤ ، ٢٠٩
قطلوشاه التترى : ١٩٠ ، ١٩٨ ، ٢٠١ ، ٢٠٢
قفجق « الأمير » : ١٩٠
قلاوون « الملك المنصور » : ١٧٩ ، ١٨٢ ، ١٨٣ ، ١٨٩ ، ١٩٤ ، ٢٣٤ ، ٢٣٦ ، ٢٣٨ ، ٢٦٤ ، ٢٨٩ ، ٢٩٤ ، ٣٠٠ ، ٣٠٩ ، ٣١٠ ، ٣١٤
القلقشندى « صاحب صبح الأعشى » : ١٢٨ ، ١٢٩ ، ١٣٠ ، ١٣٢ ، ١٣٤ ، ١٣٦ ، ١٣٩ ، ١٤١ ، ١٤٢ ، ١٤٤ ، ١٦٠ ، ١٦١ ، ١٨٢ ، ٢٤٣ ، ٢٦٢ ، ٢٧٦ ، ٢٨٢ ، ٢٨٤ ، ٢٨٥ ، ٢٨٨ ، ٢٩٤ ، ٣١٠
قنبر بن عبد الله الشروانى : ٢٥٣ ، ٢٥٨
قيت الرجبى : ١١٩ ، ٢٢٠
قيت الساقى : ١٩٦
القيراطى « برهان الدين إبراهيم » : ٢٤ ، ٣٠ ، ٣٥ ، ٢٨٦ ، ٣٥٩ ، ٣٦٠ ، ٣٦٨ ، ٣٦٩ ، ٣٧٠ ، ٣٩١ ، ٤٠٤ ، ٤٠٥ ، ٤٠٦ ، ٤٢٤
قيس ليلى : ٤٨

ك

الكامل محمد بن العادل الأيوبى « الملك » : ١٦٤
كتبغا المنصورى « الملك » : ١٨٢ ، ٢٠٩ ، ٣١٩
كرتباى « الأمير » : ٢٩٦
كعب الأحبار : ١٣٩
كليب التغلبى : ٦٥
كمال الدين بن الزملكانى : ٤٠٥
كمال الدين بن العديم : ٢٣٠ ، ٢٥٢ ، ٢٦٤
كمال الدين بن الهمام : ٢٥٣ ، ٢٦٥ ، ٢٧١
كمال الدين الأدفوى : ٢٥٤ ، ٢٦٣
كمال الدين الضرير : ٢٥٣
كمال الدين القرشى : ٢٤٠
الكميت بن زيد : ٧٢ ، ٧٣ ، ٧٤
الكندى : ١٧٠

ل

لاجين « الملك المنصور » : ١٨٢ ، ١٩٠ ، ٢٣١ ، ٢٣٩ ، ٣٠٨
لويس التاسع « ملك فرنسا » : ١٧٨

م

المأمون « الخليفة العباسى » : ١٤٦ ، ١٧٣

المؤيد شيخ المحمودى « الملك » : فى شيخ

المتنبى « أبو الطيب » : ٧٧ ، ٧٨ ، ٩٠ ، ٩٣ ، ٩٤ ، ٩٩

المتوكل على الله الثالث : ٣٠١

المتوكل « الخليفة العباسى » : ٧٧ ، ١١٥ ، ١٤٦ ، ١٦٧

المتوكل على الله العباسى « أبو العز عبد العزيز » : ٢٤٧

مجير الدين بن تميم : ٣٦٤ ، ٣٨٨ ، ٣٨٩ ، ٣٩٥ ، ٣٩٨ ، ٣٩٩ ، ٤٠٠ ، ٤٠١ ، ٤٠٦

محب الدين بن الشحنة : ٢٤٨ ، ٢٧١

محب الدين بن العديم : ٢٤٠

محب الدين بن هشام : ٢٧٥

محمد بن البارزى « الناصرى » : ٢٣٦ ، ٣٠٩

محمد بن جقمق : ٣٢٦

محمد بن حاجى « الملك المنصور » : ٢٠٩ ، ٣٢٥

محمد بن حلة « المغنى شمس الدين » : ٣٢٦

محمد بن صرصراء : ٢٦٤

محمد بن صعفن : ٢٠٦

محمد بن عوينة : ٢٢٦

محمد بن قايتباى « الملك الناصر » : ١٤٩ ، ٢١٠ ، ٢٩٦ ، ٢٩٧

محمد بن قلاون « الملك الناصر » : ٣٢ ، ١٥٣ ، ١٥٥ ، ١٧٩ ، ١٨٣ ، ١٨٩ ، ١٩٠ ، ١٩١ ، ٢٠٢ ، ٢٠٩ ، ٢١١ ، ٢٣٠ ، ٢٤٧ ، ٢٨٩ ، ٢٩٣ ، ٢٩٤ ، ٣٠٠ ، ٣٠٥ ، ٣٠٨ ، ٣٠٩ ، ٣١٤ ، ٣١٦ ، ٣١٩ ، ٣٢١ ، ٣٢٥ ، ٣٤٠ ، ٣٤١ ، ٣٩٤

محمد بن كثير : ١٤٦

محمد بن لاشين الحسامى الطرابلسى الرماح : ٢٤٨

محمد بن وفا : ٣٨٦

محمد بن يحيى بن ابى مرة التغلبى : ٧٦

محمد بن يوسف المهمندار « بدر الدين » : ٣٢

محمد جميل الشطى : ٢٣١

محمد حسين هيكل : ٨ ، ١٤٤

محمد خلف الله : ١١ ، ١٣

محمد الريس فتات العنبر : ٣٢٦

محمد صائم الدهر : ١٧٦

محمد عبد الله عنان : ٢٣٠

محمد عبدالمطلب : ١٩ ، ٥٩ ، ٦٩ ، ٨٠ ، ١٠٣ ، ١٠٤ ، ١٢٠ ، ١٢١

محمد عبد الهادى أبوريدة : ٨٦ ، ٩٦

محمد الفاتح : ٢٠١ ، ٢٠٢

محمد محمد حسين : ١٠٧

محمد مصطفى هدارة : ٩ ، ٩٠
محمد المنبجى البزاز « بدر الدين » : ٣٢
محمود إسماعيل الجيزى : ٢٤٨
محمود الحلبى « شهاب الدين أبو الثناء » : ٣٢ ، ٣٤ ، ٢٨٢ ، ٢٨٤ ، ٣٨٧ ، ٣٧٩ ، ٤٠٣
محمود سامى البارودى : ٥٩ ، ٦٠ ، ٨٠ ، ٨١ ، ٨٢ ، ١٠١
محمود عابدين : ٢٣٩
محمود مصطفى : ٧٧
محيي الدين بن عبد الظاهر فى ابن : عبد الظاهر
محيي الدين الفرضى : ٢٦٠
محيي الدين الكافيجى : ٢٥٣ ، ٢٧١
محيي الدين النووى ٢١٦ ، ٢١٧ ، ٢١٨ ، ٢٣١ ، ٢٤٠ ، ٢٤٢ ، ٢٥٤ ، ٢٦٠ ، ٢٦١ ، ٢٦٣ ، ٢٦٥
مرشد الخير بن ذى جدن الحميرى : ٦٨
مروان بن أبى حفصة الحميرى : ٧٥ ، ٧٦
المزراب : ٢٥٣
المستعين بالله العباسى « الخليفة » : ٣٠٣
المستنجد بالله العباسى « الخليفة » : ٢٠٢
المسعودى : ١٣٩ ، ١٤٤
مسلم بن الوليد : ١٠١
المسيب بن علس : ٤٦
مصطفى صادق الرافعى : ٨٠
مصطفى كامل : ٨٣ ، ١٠٢
مصطفى لطفى المنفلوطى : ١٠٢
مصعب بن الزبير : ٧٤
المظفر قطز « الملك » : فى قطز
معاوية بن أبى سفيان : ٧٢
المعتصم « الخليفة العباسى » : ٧٧ ، ١٨٧
المعتضد بالله العباسى « الخليفة » : ٣٧٦ ، ٣٧٧
المعز بن أيبك « الملك » : فى عز الدين
المعز لدين الله الفاطمى : ١٦٤ ، ١٦٥
معين الدين النكراوى الإسكندانى : ٢٦٧
مغلطاى « أبو عبد الله » : ٢٦٤
المقرى « أحمد بن على » : ٩٧ ، ٢٨٠
المقريزى « تقى الدين » : ٢٤ ، ١٢٨ ، ١٢٩ ، ١٣٢ ، ١٣٣ ، ١٣٩ إلى

١٧٦ ، ١٨١ ، ١٨٢ ، ١٨٧ ،
١٨٩ ، ١٩٤ ، ١٩٥ ، ٢٠٠ ،
٢٠٨ ، ٢٣٤ ، ٢٣٥ ، ٢٣٧ ،
٢٣٩ ، ٢٥٤ ، ٢٦٢ ، ٢٦٤ ، ٢٦٥ ،
٢٨٩ ، ٢٩٣ ، ٢٩٤ ، ٣٠١ ،
إلى ٣٠٧ ، ٣١٠ ، ٣١٣ ، ٣١٥ ،
٣١٦ ، ٣١٧ ، ٣٢٥ ، ٣٣٣ ، ٤١٩
المقوقس : ١٧٠
المنازى : ٤٠٧
المنذرى المصرى : ٢٥٢
المنصور قلاوون « الملك » : فى قلاوون
المنصور لاجين « الملك » : فى لاجين
منطاش « الأمير » : ٢١٠
منكوتمر التترى : ١٨٩
المهاجر بن خداش : ٦٨
المهدى « الخليفة العباسى » ٧٥
المهذب بن مماتى : ١٣٢
المهلهل التغلبى : ٦٥ ، ٦٦ ، ٦٧
موسى بن العادل الأيوبى : ٢٦٨
موفق الدين المقدسى : ٢٥٣

ن

النابغة الذبيانى : ٤٦ ، ٤٩ ، ٦٩ ،
٨٦ ، ٨٧ ، ١٠٥ ، ١٠٦ ، ١١٠
الناشرى : ٢٥٣
ناصر الدين بن النقيب : فى ابن النقيب
ناصر الدين الكنانى العسقلانى : ٢٥٣
الناصر فرج بن برقوق « الملك » : فى فرج
الناصر محمد بن قايتباى « الملك » : فى محمد
الناصر محمد بن قلاوون « الملك » : فى محمد
ناصر الدين محمد المازونى القاهرى : ٣٢٦
الناصر ملك دمشق : ١٨٧ ، ١٨٩
نجم الدين بن الرفعة : ٢٦٢ ، ٢٦٥ ، ٢٧٠
نجم الدين بن الصرصرى : ١٩
نجم الدين الأدفوى : ٢٥٣
نجم الدين الباهى : ٢٥٣
نجم الدين الحرانى : ٢٥٣
نجم الدين يحيى بن الصرصرى : ١٩٠
نظام الدين السيرامى : ٢٧٠
نعمات أحمد فؤاد : ٩ ، ٣٦٢ ، ٣٦٨
النعمان بن المنذر : ١١٠
النواجى « شمس الدين » : ٣٠
نور الدين الحكرى : ٢٥٣
نور الدين على بن رحاب « المغنى » : ٣٢٥ ، ٣٢٦ ، ٣٢٧
نور الدين على سبط ابن الفارض : ٢٧٩

نور الدين المحلى : ٢٧١
نور الدين محمود زنكى : ٢٨٨
نوروز الحافظى : ١٩٣ ، ٢٠٤ ، ٣٠٣ ، ٣٧١
نولدكه : ٨٦
النويرى « شهاب الدين » : ٢٤ ، ٢٥٤ ، ٢٦٢ ، ٢٦٥ ، ٢٧٦ ، ٢٨٥ ، ٣١٠ ، ٣٩٦ ، ٣٩٨

هـ

الهادى « الخليفة العباسى » : ٧٥
هولاكو التترى : ١٨٧ إلى ١٩٠
هيفة الذيذة : ٣٢٦

و

وجيه الدين بن العماد : ٢٦٤
وجيه الدين البهنسى : ٢٧٥
وجيه الدين القوصى : ٢٥٢
وحيد « المغنية » : ١١٤
الوراق « سراج الدين » : ٢٤ ، ٣١ ، ٢٣٥
لوطواط « جمال الدين بن إبراهيم » : ٢٦٥
الوليد بن دومغ العمليق : ١٣٩
الوليد بن عبد الملك : ١٤٦
ولى الدين أبو زرعة العراقى : ٢٥٢
وليم موير : ١٨١ ، ١٩٤ ، ١٩٧ ، ٢٢٩ ، ٣٢٢ ، ٣٤١

ى

ياقوت الحموى : ١٤١
يحيى بن محمد البجائى المغربى : ٢٤١
يحيى الأقصرائى « الشيخ أمين الدين » : ١٥٠ ، ٢٥٣ ، ٣٠٩ ، ٣١٤
يزيد بن عبد الملك : ١٤٦
يشبك الجمالى : ٢٠١ ، ٣٣٩
يشبك الدوادار : ٢١٢ ، ٢٩٦
يلبغا السالمى : ٣١٣
يلبغا العمرى : ١٨٣ ، ١٩٥ ، ٢٠٩ ، ٣٢٥ ، ٣٧٥
يوسف بن أيوب « صلاح الدين الأيوبى » : ١٦٤ ، ١٧٢ ، ٢٤٥ ، ٢٨٢
يوسف الخشاب « جمال الدين » : ٢٣٥

انتهى

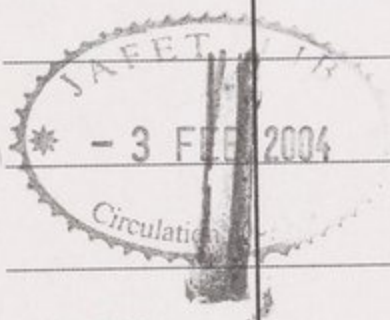
الخطا والصواب

وقعت بعض الأخطاء المطبعية ، وهى لاتغيب عن فطنة القارىء الكريم ومنها :

الصفحة والسطر	الخطأ	الصواب
٢١/١٢	الدسوقى للأستاذ عمر	للأستاذ عمر الدسوقى
٨/١٤	فروى	فردى
٢/٢٢	فضلا عند	فضلا عن
٢/٢٨	توهت	نوهت
١٢/٣٠	انتشرت الجدب	انتشر الجدب
٨/٣٦	الأزراء	الأرزاء
٩/٤٥	الصفراء	الصفواء
١/٤٦	كأنى	كأن
٢٠/٤٦	الطبيقه	الطبيعة
٢١/٤٦	نهاية الأدب	نهاية الأرب
٨/٥٣	يحت	يحث
١١/٥٣	حسن الدجى	جنح الدجى
١٣/٥٣	تتسلو	تتلو
١٤/٥٣	قد حان	قدحان
١٨/٥٤	يتعنون	يتغنون
١/٦٤	لم يلتفوا	لم يلتفتوا
٧/٦٥	اجتمت	اجتمعت
٩/٦٥	جليلة بن	جليلة بنت
٢٠/٧٣	واحدة المنبع	واحدة النبع
٢٠/٧٣	للقشى	للقسى

الصفحة والسطر	الخطأ	الصواب
٢/٧٤	كان عبدالله	كان عبيد الله
١٦/٧٥	والطالبين	والطالبيين
١٨/٨٠	يعبر	تعبر
١١/٨١	كريهته	كريهة
١٠/١٠٥	عاداتهم	عاداتهم
٢/١١٣	أوخذت	وأخذت
٢٢/١١٣	مواضع	متواضع
١٣/١٤٧	ذرعا	ذراعا
١٦/١٥١	ابن الحكيم	ابن الحكم
٢١/١٧٩	السلطة	السلطنة
١١/١٨٩	ملكم	ملكهم
١٠/١٩٣	إلى بلاد الشام	عن بلاد الشام
٢٢/١٩٦	ووقوعه	ووقوفه
٢٢/٢١٤	الرجل	الزجل
٩/٢٢٧	المملكة	الملكة
٣/٢٥٢	استقضاء	استقصاء
١٨/٢٥٢	عبدة	عبادة
٢٢/٢٥٢	مكترم	مكتوم
٦/٢٥٣	الذين	الزين
٩/٢٥٣	الحرائدى	الجرائدى
٢/٢٥٩	بد	بدا
١٦/٢٨٠	الأسلوب عندهم	عندهم الأسلوب القرآنى
٧/٣٧٢	معلول معلول	معلول
١٦/٣٧٩	تسبيحه النوجى	تسبيحة النواجى
٢٠/٣٧٩	الشيخ نور	الشيخ نور الدين
١١/٣٩٢	يستحلى لماه	تستحلى

DATE DUE


JAFFET
- 3 FEB 2004
Circulation


JAFFET LIB
- 1 FEB 2005
Circulation Dept. 1

[redacted]
سليم، محمود رزق،
عصر سلاطين المماليك ونتاجه العلمي
AMERICAN UNIVERSITY OF BEIRUT LIBRARIES
01034436